

أن نعيش معا في سلام مختلفين ومتنوعين

مركز الدراسات الاستراتيجية
CENTER FOR STRATEGIC STUDIES
الجامعة الأردنية

العيش معاً
إبراهيم غرايبة

التقدم الإنساني مزيج من المعرفة والإبداع والسلام

تتكون الحضارة الإنسانية من تطور الموارد والتقنيات والأعمال ثم القيم والسلوك الاجتماعي والثقافة المصاحبة لهذه الموارد والتقنيات، ويظهر التاريخ الحضاري كيف كانت الأمم تحمي مواردها بنظام اجتماعي قائم على السلام والتضامن والتعاون، وفي المقابل كانت الكراهية والحروب دائما تؤدي إلى تدمير الحضارة الإنسانية، فيقتل الناس بعضهم بعضا، وتختفي دول وحضارات، وتدمر المدن والقرى والمكتبات والمدارس، ويضطر الناس إلى ترك بلادهم والهجرة، هكذا كان السلام يحمي التقدم الإنساني، وكانت الكراهية تلحق به الضرر والدمار؛ بما تؤدي إليه من تعصب وانغلاق وصراعات داخلية وخارجية، بل ويمكن الاستدلال عل التقدم والازدهار بمؤشرات التسامح والاعتدال وفي المقابل يستدل على الفشل بالكراهية والتعصب







إبراهيم غرايبة

العيش معاً

إبراهيم غرايبة

العيش معاً

أن نعيش معا في سلام مختلفين ومتنوعين

بيانات المؤلف والناشر

المؤلف: إبراهيم غرايبة
gharaibeh48@gmail.com
00962790630259
facebook.com/ibrahim.gharaibeh.71
twitter.com/gharaibeh48

الناشر: مركز الدراسات الاستراتيجية – الجامعة الأردنية
هاتف: 0096265300100
Email: css@css-jordan.org

بيانات التصميم

تصميم الغلاف:
جهاد غرايبة

تصميم الكتاب وتنسيقه:
أنيسة غرايبة

الرسوم الداخلية والانفوغرافيك:
- **هدى الشاعر**
- **جهاد غرايبة**
- **سيرين غرايبة**

المحتويات

مقدمة

«وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع امه علي امه سيفا، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد...» سفر اشعياء

تتقدم الإنسانية في مسارها العام مدفوعة بالبقاء وتحسين البقاء والبحث والتأمل، وفي ذلك كانت على الدوام تنشئ الموارد والأعمال الجديدة وحولها القيم والمهارات والمعارف التي تحسن بها حياتها وتحافظ على تقدمها وتنشئ موارد وأعمال جديدة، هكذا فالتقدم الإنساني مزيج من الموارد والإبداع والقيم، وكانت على مدى تاريخها تتقدم بمدى ما تنشئ نظامها الاجتماعي والثقافي القائم على السلام والتسامح والتضامن والتعاون، وكانت أيضا تفشل عندما تسود الكراهية، فتعصف بالمجتمعات الحروب والعصبيات والعنصرية، ويقتل الناس بعضهم بعضا، وتختفي دول وحضارات، وتدمر المدن والقرى والمكتبات والمدارس والمصانع والمزارع، وتترك أعداد كبيرة من الناس أوطانها.

إن الازدهار والتقدم يستدل عليهما اليوم وفي كل وقت وأيضا بمؤشرات السلام والأمان والثقة والتعاون والتواصل الاجتماعي والتسامح والاعتدال، فهي القيم المنشئة للإبداع والتنوع والاستقرار، كما تجتذب الكفاءات والأعمال والتجارة والسياحة والاستثمار، وتشجع الأسواق والمصالح ونمو المعرفة والأعمال، وتنخفض الأعباء الأمنية والإدارية. وفي المقابل يستدل على الفشل بالكراهية والتعصب، فذلك يؤدي إلى هجرة الكفاءات وعزوف المستثمرين والسياح، وتزيد الكلفة على الأسواق والمنتجات والسلع، وتقلّ الفرص.

يقسم التاريخ الحضاري إلى ثلاث موجات رئيسية: الزراعة والصناعة والمعلوماتية، وفي هذه الموجات الثلاث كان الإنسان يحاول أن يطوع الفرص والإبداع لتحسين حياته وتحقيق الرفاه والازدهار، فنشأت الاختراعات والإبداعات وتطورت وتراكمت. وكانت تفسد هذه المنجزات الحروب والأوبئة والصراعات الأهلية، والعبودية والرق والسخرة وانتهاك حقوق الإنسان والتعذيب وغياب العدل والتضامن والتنوع وعجز الناس عن العيش معا.

قبل الزراعة كان الإنسان يعتمد في حياته وبقائه على الصيد وجمع الثمار بمعنى القدرة على البقاء حيا، وفي تأمله العميق للحياة ومعناها أنشأ اللغة والتواصل الاجتماعي، وكانت الساحات العامة التي بدأت مكانا لدفن الموتى، ثم صارت ساحات عامة تحظى بالقدسية والاحترام، ويلتقي فيها الناس موسميا للاحتفال والبهجة وتنظيم الأعمال وتخزين الطعام، وأنشأ الكهوف التي كان يلجأ إليها للتأمل والعبادة (وليس الإقامة فيها) وتؤشر الرسوم على جدران الكهوف في جمالها ودقتها على إدراك الإنسان وشعوره بالمعنى العميق للحياة وما يجب أن تكون عليه.

وأسست الوفرة الناشئة عن تربية المواشي والزراعة والصناعات الغذائية (الثورة الزراعية) للقرى المستقرة ثم المدن، وصار العدل هو المعنى الأساسي المنظم للحياة والمجتمعات، وتشكلت المؤسسات السياسية والقضائية، وصارت القيادة مستمدة من

القوة والشجاعة والكرم، وصار معنى الإنسان أو قيمته بخدمة المجتمع وحماية الناس

وفي موجة الصناعة استقل العلم عن الحكام والأرستقراطيين والمؤسسات الدينية، وصار جزءا من الأسواق والأعمال، وصار المعنى مستمدا من العمل، وصار الإنسان يتقدم بما يحصل عليه من مهارات ومعرفة أو ما يضيف إلى حياة الناس ومواردهم، وصارت الدول والمجتمعات تدور حول «العمل» بما هو قيمة مركزية للحياة ومعنى أساسي للإنسان.

وفي البحث والتأمل تشكلت المعارف والأفكار؛ بما هي تصورات الإنسان عن ذاته وعن الحياة والكون والموت والمصير بعد الموت، فنشأت الفلسفة؛ بما هي السؤال لأجل إدراك حقائق الأشياء، وتقدم الدين بما هو إجابات مقترحة لما عجزت الفلسفة عن إجابته، وتشكل الاجتماع الإنساني بما هو استيعاب تطبيقي وحياتي للسؤال والجواب؛ أو ما أنتجته الفلسفة والأديان، وتكرست اللغة كوعاء الأفكار والمعرفة وترميزها وتنظيمها، والعلم بما هو إدراك الأشياء كما تفهمها الحواس، ثم الفنون والآداب بما هي التعبير المحسوس عن الأفكار والمشاعر والبحث عن الجمال، وكان التاريخ بما هو تسجيل التجارب الانسانية على النحو الذي ينظم الأفكار فيما يحب الإنسان أو يريد أو يجب أن يكون عليه، وما يجب أن يفعله ليكون ما يحب.

ومنحت الأفكار والمعارف بما هي محاولة الارتقاء بالذات الإنسان فعاليته الاجتماعية والروحية، ويفترض تبعا لذلك أن يصيبه الخواء عندما يحدث الانفصال بين الواقع وتصوراته عن الواقع، أو هو يرقى بذاته وموارده بقدر ما تقترب تصوراته التي أنشأها من الواقع. وعندما تغيرت العلاقة بين الموارد والأفكار، بفعل الأهواء والمصالح والخوف والشعور بالندرة ونقص المعرفة نشأت أيضا اتجاهات وحالات العنف والتعصب والشعور بالتميز والاستعلاء

وفي عصر المعلوماتية أو ما بعد الصناعة (الحوسبة والتشبيك والتصغير والهندسة الحيوية وانترنت الأشياء والحوسبة السحابية والروبتة والبرمجة الإدراكية و الطابعات ثلاثية الأبعاد، ..) بدت العولمة وكأنها وعد بأخوة إنسانية تتجاوز كل محن الماضي وآلامه، وتشكلت فرص قوية لتحقيق المساواة والثقة والإتقان، لكن أيضا صعدت الكراهية والهويات والحروب الأهلية، وضعفت المجتمعات والمؤسسات الإرشادية.

إن الأمم المتقدمة تدرك اليوم أن الأخوة الإنسانية تمثل هدفا ومقصدا لتكون قادرة على العيش معا في سلام في ظل الاختلاف والتنوع، وفي ذلك فإن النجاح الفردي والمؤسسي اليوم يعتمد على تكريس قيم الأخوة الإنسانية وتحويلها إلى مهارات قابلة للتعلم والتدريب والتطبيق، .. وهذه هي الفكرة الأساسية لهذا الكتاب.

I- التقدم الإنساني مزيج من المعرفة والإبداع والسلام



التقدم الإنساني

I-التقدم الإنساني مزيج من المعرفة والإبداع والسلام

تتكون الحضارة الإنسانية من تطور الموارد والتقنيات والأعمال ثم القيم والسلوك الاجتماعي والثقافة المصاحبة لهذه الموارد والتقنيات، ويظهر التاريخ الحضاري كيف كانت الأمم تحمي مواردها بنظام اجتماعي قائم على السلام والتضامن والتعاون، وفي المقابل كانت الكراهية والحروب دائما تؤدي إلى تدمير الحضارة الإنسانية، فيقتل الناس بعضهم بعضا، وتختفي دول وحضارات، وتدمر المدن والقرى والمكتبات والمدارس، ويضطر الناس إلى ترك بلادهم والهجرة، هكذا كان السلام يحمي التقدم الإنساني، وكانت الكراهية تلحق به الضرر والدمار؛ بما تؤدي إليه من تعصب وانغلاق وصراعات داخلية وخارجية، بل ويمكن الاستدلال عل التقدم والازدهار بمؤشرات التسامح والاعتدال وفي المقابل يستدل على الفشل بالكراهية والتعصب، ذلك أن قيم الاعتدال والتسامح تنشئ الإبداع والتنوع والثقة والاستقرار، وتجتذب الكفاءات والأعمال والتجارة والسياحة والاستثمار، وتشجع الأسواق والمصالح ورأس المال المغامر أو الباحث عن فرص ومجالات، وتقلل من الأعباء الأمنية والإدارية، وفي المقابل فإن الكراهية والصراعات والتمييز تؤدي إلى هجرة الكفاءات وعزوف المستثمرين والسياح، وتزيد الكلفة على الأسواق والمنتجات والسلع، وتغلق الفرص.

يقسم التاريخ الحضاري الإنساني إلى ثلاث موجات رئيسية، هي الزراعة والصناعة والمعلوماتية، وبتتبع مسار التقدم الإنساني عبر العصور والمراحل نلاحظ كيف كان الإنسان على مدى التاريخ يحاول أن يطوع الفرص والإبداع لتحسين حياته وتحقيق الرفاه والازدهار، وفي ذلك كانت الاختراعات والإبداعات تتطور وتتراكم، ثم يحميها الإنسان بمنظومة اجتماعية وثقافية من القيم والأخلاق والسلوك الاجتماعي والأفكار، لأنه من غير الوعي الكافي بأهمية وقيمة التقدم يهدر الإنسان الفرص للتقدم والحياة الأفضل، وبالطبع فقد كانت على الدوام تنشأ قيم مضادة تفسد منجزات الإنسان وحضارته بل وتختفي بسببها أمم ومدن كثيرة، مثل الكراهية والتعصب والتمييز والحروب والصراعات الأهلية، والعبودية والرق والسخرة وانتهاك حقوق الإنسان والتعذيب وغياب العدل التضامن والتنوع وعجز الناس عن العيش معا.

يمكن النظر إلى التقدم على أنه وعي الإنسان وإدراكه لمعنى وجوده، فقد نشأت الحضارة وتطورت في متوالية من السعي الإنساني الدائم لأجل أن يكون للوجود معنى، وفي ملاحظة تاريخ الإنسان الاقتصادي الاجتماعي كانت الحياة تتقدم وتتحسن بقدر ما يحقق الإنسان المعنى الذي يسعى إليه، .. هكذا فإن المعنى يظل



قيمة عليا تشغل الأمم والأفراد والمجتمعات والمؤسسات، وعلى سبيل المثال فإن جميع المؤسسات العامة والخاصة تبرر وجودها في صياغة مختصرة لرؤيتها ورسالتها، الرؤية بما هي ما نحب أن نكون، والرسالة بما هي ما يجب عمله لنكون ما نحب، وعلى نحو عام؛ فإن المعنى الرئيسي الموجه للإنسان كان في مرحلة ما قبل الزراعة حين كان يعتمد في حياته وبقائه على الصيد وجمع الثمار هو القدرة على البقاء حيا، لكنه في تأمله العميق للحياة ومعناها أنشأ الساحات العامة التي كان يدفن فيها الموتى ويلتقي فيها الناس موسميا للاحتفال والبهجة وتنظيم الأعمال وتخزين الطعام، والكهوف التي كان يلجأ إليها للتأمل والعبادة (وليس الإقامة فيها) وفي ذلك فقد أسس للمدينة التي تشكلت حول الساحات العامة، وتؤشر الرسوم على جدران الكهوف في جمالها ودقتها على المعنى العميق للحياة الذي شغل به الإنسان.

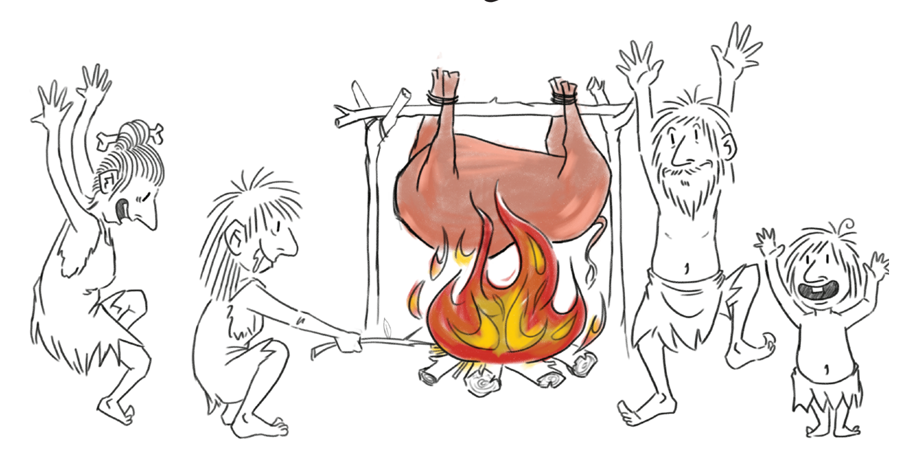
وأسست الوفرة الناشئة عن تربية المواشي والزراعة والصناعات الغذائية (الثورة الزراعية) للقرى المستقرة ثم المدن، وصار العدل هو المعنى الأساسي المنظم للحياة والمجتمعات، وهكذا تشكلت المؤسسات السياسية والقضائية، وصارت القيادة مستمدة من القوة والشجاعة والكرم، صار معنى الإنسان أو قيمته بخدمة المجتمع



وحماية الناس، وتتشكل القيادات والنخب حول هذا المعنى.

وفي الثورة الصناعية حين استقل العلم عن الحكام والأرستقراطيين والمؤسسات الدينية وصار جزءا من الأسواق والأعمال، صار المعنى مستمدا من العمل، إذ يتقدم الإنسان بما يحصل عليه من مهارات ومعرفة أو ما يضيف إلى حياة الناس ومواردهم، والحال أن الدول والمجتمعات الحديثة والمؤسسات المنبثقة عنهما تدور حول «العمل» بما هو قيمة مركزية للحياة ومعنى أساسي للإنسان.

يغلب على التاريخ الإنساني إلى ما قبل خمس عشرة ألف سنة أن الناس كانوا يعتمدون في حياتهم ومواردهم على الصيد وجمع الثمار، ثم الرعي وتربية المواشي، ويعتبر الرعي مرحلة متأخرة جدا سبقت الزراعة بفترة قصيرة نسبيا.



وكانت أهم المنجزات المادية والمعنوية في هذه المرحلة: النار، واللغة، الكهوف والرسوم والإشارات والنقوش على جدران الكهوف، والأدوات الحجرية، والساحات العامة التي اتخذت لدفن الموتى، واللقاء السنوي الذي يكون غالبا في فصل الربيع، وكانت تجري في أثناء ذلك احتفالات مبهجة وطقوس ومبادلات في السلع وتخزينها.

لقد ساعدت النار الإنسان في الطهو والتدفئة والدفاع عن النفس، وكانت تستخدم أيضا في التواصل بين الناس، وكانوا يوقدون النار في الأماكن المرتفعة المطلة ليراها العابرون والمحتاجون للمبيت والطعام

يقول الشاعر العربي حاتم الطائي

أَوقِد فَإِنَّ اللَيلَ لَيلٌ قَرُّ
وَالريحَ يا موقِدُ ريحٌ صِرُّ
عَسى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ
إِن جَلَبَت ضَيفاً فَأَنتَ حُرُّ

وكانت اللغة بالإضافة إلى أنها أداة للتواصل والتفاهم بين الناس وعاء معرفيا لتبادل المعرفة والخبرات والأخبار والذاكرة الشفوية للأمم والأفراد والأسر، واستخدم الإنسان لغة الجسد كالابتسام والرقص والغناء والإيماء والإشارات الكثيرة لأجل السلام والتفاهم والتواصل.

فولتير مفكر التسامح والتنوير

خلّد التاريخ الفيلسوف الفرنسي فولتير؛ فرانسوا ماري فولتير (1694 – 1778) باعتباره رائدا في التنوير والتسامح في مرحلة كان يغلب فيها الصراع الديني الدموي بين الكاثوليك والبروتستنت، وبرغم أن فولتير توفي قبل الثورة الفرنسية بأحد عشرة سنة فإنه يعتبر واحدا من آبائها العظام. وقد كان كتابه «رسالة في التسامح» مرافعة جريئة في وجه التعصب الديني، وذلك عندما وقعت حادثة إعدام جان كالاس البروتستنتي بتهمة قتل ابنه الكاثوليكي، وقد تعرض كالاس لتعذيب شديد، وأعدم تحت ضغط جماهيري متعصب برغم أنه لم يكن ثمة أدنى دليل على ارتكابه جريمة القتل، وقد تصدى فولتير للأغلبية المتعصبة متجاهلا انتماءه الكاثوليكي، ونجحت جهوده في تبرئة كالاس (بعد إعدامه) وإدانة التعصب، لكن الأكثر أهمية فإنها جدالات هيأت للثورة الفرنسية ثم التحولات الأوروبية والعالمية الكبرى في مواجهة التعصب الديني بعدما عصفت بأوروبا حروب دينية طاحنة استمرت حوالي قرنين من الزمان.

وفي كتابه رسالة في التسامح يقول فولتير: إن التسامح لم يتسبب قط في إثارة الفتن والحروب الأهلية، في حين أن عدم التسامح قد نشر المجازر على وجه الأرض. وإن الاتباع المتعصب والأعمى لرجال الدين حول أقوالهم البشرية إلى شرائع مقدسة، لكن ذلك السلوك أدى إلى المجازر، ودعا في مقابل ذلك إلى تعليم الفلسفة بالنظر إليها شقيقة الدين، وهي من نزعت السلاح من أيدي من غرقوا في معتقداتهم الباطلة، فأفاقت العقول البشرية من سباتها.

ويقول فولتير: كن شديد التسامح مع من خالفك الرأي، فإن لم يكن رأيه صائبا فلا تكن انت على خطأ تشبثك برأيك. وفي هذا التقبل يمكن تجنب متوالية الشرور الناتجة عن التعصب والإكراه، فمن يقول لك اعتقد ما أعتقده وإلا لعنة الله عليك، لا يلبث أن يقول اعتقد ما أعتقده وإلا قتلتك. ومن قلة الدين أن نحرم البشر من حرية دينهم، وأن نحول دون اختيارهم لإلههم، فما من إنسان، ما من إله يرغب في عبادة قسرية.

لقد أيدت الشعوب القديمة حرية التفكير، فكان لكل قوم منهم دين، وتعاملوا مع البشر كما تعاملوا مع الآلهة، وآمنوا جميعا بالإله الأعلى على الرغم من أنهم أشركوه بآلهة آخرين أقل منه، لكن لم تكن لهم إلا عبادة واحدة،

1I- الزراعة

بدأت صناعة الأواني الفخارية قبل 12 ألف عام، وبدأ الإنسان أيضا بتدجين الحيوانات ورعيها أو استخدامها في العمل، ثم زراعة النباتات. ويعتبر الشرق الأوسط من الأمكنة الأولى التي بدأ فيها الناس بتنمية الطعام، حيث استفاد الناس من الطقس والأمطار والأنهار في العناية بالقمح والشعير ثم بدأوا بزراعتهما، وطحنهما لأجل الغذاء، ثم تسارعت الابتكارات .. كانت الزراعة ثورة أتاحت للبشر الاستقرار وإنشاء القرى والمدن، وبدأت صناعة النسيج لإعداد الملابس بدلا من الجلود، فنشأت عمليات استخراج الخيوط من القطن والصوف والكتان، ثم نسجها بـ «النّول». وبدأ السومريون في العراق قبل الميلاد بأربعة آلاف عام ببناء السدود، لتخزين المياه واستخدامها في الري، بدل الاعتماد الكلي على المطر، وحفرت القنوات والخنادق لنقل الماء وتصريفه، وبنيت الخزانات، وجففت المستنقعات، وبدأ الإنسان ينتج فائضا من الطعام عن حاجته، وبدأت بذلك الحضارة، فالوفرة هي التي ساعدت الإنسان على تحسين بقائه، والاهتمام بالفنون والتأمل والفلسفة.

وبدأت بالوفرة المجتمعات الكبيرة التي يرتبط أفرادها بدولة من خلال المقايضة والضرائب أو العمل أو إعلان الولاء، كما يبدون احتراما لقادتهم، وبدأت بذلك الكتابة والرياضة والتقويم الزمني والآداب والفلسفات، وبدأ بعض الناس يمارسون أعمالا أخرى غير الرعي والزراعة، مثل القادة السياسيين والعسكريين والدينيين.

وبتطوير تقنيات الري والرصد والمساحة والبكرات والطواحين استطاع المصريون في الألف الثالثة قبل الميلاد التحكم في الفيضانات والاستعداد لها، بل الاستفادة منها وتوظيفها، وأمكن بذلك إنشاء حضارة آمنة ودائمة، استمرت لأكثر من ثلاثة آلاف سنة. وفي وادي المكسيك ظهرت أكثر نظم السيطرة على الماء إثارة للإعجاب، فقد تعامل الناس هناك مع تدفق الأنهار من الجبال إلى المحيطات بإنشاء جزر صناعية من الطمي المحمي بأشجار القصب والصفصاف، وإقامة مزارع تقدم سبعة محاصيل في السنة، وإنتاج غلة من الطعام

> إن الحياة الخاليّة من التأمّل و النظر هي حياة لا تليق بالإنسان
> أرسطو

تتمة عالم واحد - 1

وكانوا يسمحون بطرق العبادة. ذلك أن إن الدين وجد لنكون سعداء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولن نكون سعداء في الآخرة إن لم نكن متسامحين. وهي مقاربة مهمة لملاحظة الخبرة الإنسانية المتراكمة في احترام إيمان الناس ومعتقداتهم، لأن العنف يخلق منافقين، فالإقناع مستحيل حين يسلط سيف التهديد. والذين يجعلونك تعتقد بما يخالف العقل قادرون على جعلك ترتكب الفظائع. وبقدر ما تعتقد ان الدين من عند الله يجب التوقف عن التحكم به. فما دام من عند الله فان الله وحده قادر على حمايته وتثبيته. وقد كان كسر هذا التقليد الإنساني الطويل سببا في أضرار ومصائب وحروب دينية كانت في دمارها وأضرارها أكبر بكثير من أنواع الحروب الأخرى، كما أنها أدامت وعززت الخلافات بين الناس بدلا من نسيانها، وحجبت المصالح المتبادلة بين الأمم، ويمكن ملاحظة كيف تحولت حروب سياسية الى تعاون ومصالح مشتركة عادت على الأمم بالازدهار لكن الخلافات الدينية تكرست على مدى القرون وأنشأت كراهية مدمرة.. إن الخلاف الطويل يعني أن الطرفين على خطأ.

«وإنك لعلى خلق عظيم»
(القلم، 4)

تفوق أي مكان آخر، وكانت مدنهم يصل عدد سكانها إلى مائة ألف نسمة، وهو رقم يزيد على عدد سكان أي مدينة أوروبية في القرن الخامس عشر، وكانت المدن مزودة بالماء عبر ممرات لتأمين الشرب والري، والتخلص من المياه المالحة.

ونقل التعدين الحضارة نقلة جديدة ومهمة (العصر النحاسي والبرونزي والحديدي) وعندما بدأ الإنسان باستخراج المعادن وصهرها وتشكيلها بدأت صناعة السيوف والخناجر والدروع وأسنة الرماح، والمحاريث.

وتمثل الكتابة إحدى أهم التقنيات التي ورثناها من الحضارات الأولى، وابتكر السومريون أول نظام للكتابة، وبدأ استخدام الكتابة للأنظمة الإدارية والمالية والتوثيق، ثم تحولت إلى وعاء للآداب والفنون والنصوص الدينية والقانونية.

كان الحديد مع تدجين الخيل بداية لمرحلة جديدة ومهمة، أسهمت في نشوء الدول والإمبراطوريات الكبرى، مثل الفرس والروم، وتبع ذلك الطرق والعربات وقنوات الماء والسفن، والحرف والهندسة الميكانيكية.

وأنشئ نظام بريد مدهش ومعقد يتيح اختصار المسافة التي تحتاج من القوافل التجارية إلى ثلاثة أشهر إلى أسبوع، وذلك من خلال شبكة من الطرق والحصون والفرسان الذي يطوفون الإمبراطوريات ويتسلمون الرسائل ويسلمونها على نحو متواصل في الليل والنهار.

وكانت الطرق المرصوفة التي اخترقت العالم القديم، مثل طريق الحرير والطريق الملكي، بداية لمرحلة من التواصل وازدهار التجارة وتبادل السلع والمنتجات، وجهزت هذه الطرق بمحطات للبريد ونزل لراحة المسافرين والتزود باحتياجات القوافل والسفر، واحتل مهندسو الطرق وبناتها مكانة مرموقة. وبدأت بحلول الألفية الثالثة قبل الميلاد القوارب الصغيرة تبحر عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي.

وبدأ الفينيقيون يجوبون البحر المتوسط ينقلون القمح والزيت والنبيذ بين الموانئ، وبدأت صناعة السفن الكبيرة والأشرعة والمجاديف لخوض البحار وزيادة سرعة السفن ومضاعفة حمولتها.

وأبدى العرب رغبة قوية في التعلم وتبادل الأفكار مع الشعوب والأمم، وأظهروا اهتماما بنظم الري والصرف، وأدخلوا تحسينات على السواقي، وجلبوا محاصيل من الصين والهند وشرق آسيا ونشروها في بلادهم، الخضار والفواكه وقصب السكر والقطن،



وطوروا صناعة الورق والبوصلة، وعلوم الفلك والرياضيات والكيمياء والطب.

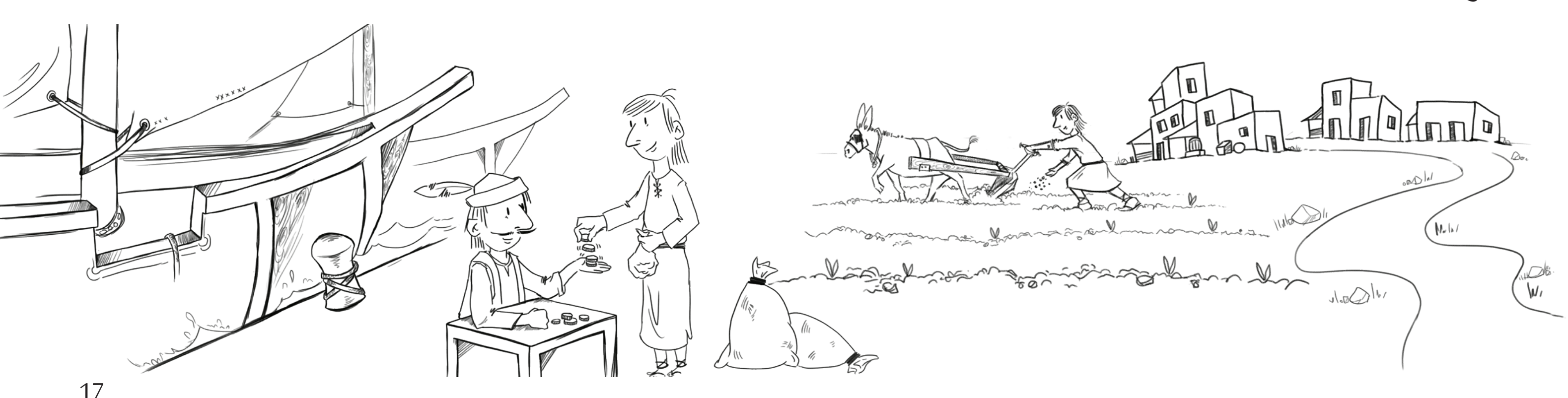


وفي القرن الثالث عشر الميلادي صنع العالم العربي أبو الحسن المراكشي ساعات شمس قسم فيها اليوم ساعات متساوية، لكن الأوروبيين سبقوا بصناعة الساعات الميكانيكية التي تحركها الأثقال. وعرف الصينيون طرقا لرفع الحرارة في الأفران باستعمال مضخات هواء تدار بطاقة الماء، واستعملوها لتحويل حجارة خام المناجم إلى حديد خام، وبأثر من الحاجة إلى الاحتفاظ بالأخشاب صار عمال الصين أول من استخدم الفحم وقودا للأفران.

ودُجّن الجمل في جنوب شبه الجزيرة العربية أولا، في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وبالتدريج انتشرت تربية الجمال، وصارت عماد القوافل التجارية، وأمكن عبور الصحاري الإفريقية وإقامة تواصل بين أجزاء العالم عبر الصحراء وشمال إفريقيا والشرق الأوسط.

و تطورت العمليات التنظيمية للتجارة، فتتضمن قوانين حمورابي الشهيرة قبل الميلاد بألفي سنة فصولا متعلقة بتنظيم التجارة، ما يشير إلى أنها وصلت إلى مرحلة حضارية متقدمة وأنها بدأت تشكل جزءا أساسيا من الحياة والموارد والإدارة والقضاء.

وباستئناس الخيول وتطوير سلالاتها، بخاصة الحصان العربي، انتقلت الحضارة الإنسانية إلى مرحلة جديدة، وصارت الطرق معبرا للجيوش المدربة والمنظمة، إضافة إلى القوافل التجارية، فمع الخيل والحديد أصبحت الحروب أكثر مؤسسية وتعقيدا، وبدأت فنون القتال والفروسية وصناعة السلاح، السيوف والخناجر والرماح والمنجنيق والأقواس، وتغير العالم رأسا على عقب، واندفعت الجيوش والأمم من الشرق إلى الغرب، وتطورت المهن والصناعات والحرف، صناعة العجلات والعربات والسلاح والحدادة والنجارة والسروج، وظهرت دول وإمبراطوريات بسطت هيمنتها على أجزاء واسعة من العالم، الأشوريون والصينيون والفرس والرومان ثم العرب والمسلمون والمغول.



2I - طريق الحرير والعولمة



كان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية في العالم وأكثرها أهمية لتبادل الأفكار والسلع، فمن خلال هذه الطريق انتقلت الكتابة والزراعة والنسيج والفروسية، وكان معبرا لانتشار الإسلام والبوذية والمسيحية والزرادشتية والمانوية واليهودية والمزدكية والكونفوشية والتاوية، وسار عليه على مدى آلاف السنين ملوك وأنبياء ودعاة ورحالة وفنانون ومتصوفون وفرسان وحرفيون، وبالطبع جيوش وقوافل تجارية.

كانت الصين حتى القرن السادس الميلادي تحتفظ بسرّ إنتاج الحرير، وظلت لأكثر من ألفي سنة المصدر الوحيد للحرير، وفي المقابل كانت الصين تستورد من آسيا الوسطى الزجاج والخيول وغيرها من السلع، وهكذا تشكلت طريق الحرير ممتدة لأكثر من خمسة آلاف ميل عبر آسيا الوسطى وإيران والشرق الأوسط وتركيا وأوروبا.

وتسعى الصين اليوم بالتنسيق والتعاون مع 40 دولة لأجل إحياء طريق الحرير الجديد من خلال سكة حديد تعبر الطريق نفسه مؤدية الرسالة التي حملتها الطريق على مر القرون، ولتواصل الأجيال عبورها كما فعل من قبل الإسكندر وملوك الروم والفرس وقادة الجيوش الإسلامية ثم جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك، والدعاة والمبشرون من المسلمين والبوذيين وسائر الأديان، والرحالة العظام أمثال شيان تسونج وابن بطوطة وماركو بولو، فقصة طريق الحرير قصة كل الشعوب التي سكنت صحاري آسيا وسهولها وجبالها، والقوافل التي فتح هذا الطريق العظيم الذي يمر من قلب القارة وأبقت عليه حيا ..

الطريق الملكي

ربما يكون قورش الملك الفارسي في القرن الخامس قبل الميلاد أول ملك اجتاح أجزاء واسعة من العالم، غربا إلى الشام ومصر وشمال إفريقيا وسواحل بحر إيجة، وشرقا إلى الهند وأفغانستان، وأنشأ شبكة واسعة من الطرق، ومن أشهرها الطريق الملكي الذي ربط أجزاء واسعة من العالم ببعضها، وتفرعت منه شبكة طرق أخرى امتدت في الأقاليم والجبال والصحاري والسهول، وأنشأ قورش أيضا خدمات البريد عبر الطرق، وظهر نظام الخدمة السريعة، حيث أمكن بناء نظام نقل بريدي يتيح للفرسان قطع مسافة 300 كيلو متر يوميا.

ومثل الإسكندر المقدوني الموجة الثانية في تشبيك العالم ببعضه، فقد اجتاح هذا الملك اليوناني معظم أنحاء العالم في القرن الرابع قبل الميلاد، وأسس لحضارة عالمية ما زالت آثارها وتداعياتها قائمة حتى اليوم، وكان طريق الحرير المجال الرئيسي لأعمال وفتوحات الإسكندر وخلفائه، فقد تشكلت سلسلة من المدن والأعمال الفنية والثقافية والمعمارية، إضافة إلى الفلسفة التي ما زالت حتى اليوم من مصادر المعرفة ومجالاتها.

وبدأت الطرق تتمتع بخدمات إضافية لتحسين وتطوير النقل، مثل المحطات على الطرق والمزودة بوسائل الراحة والإيواء والحماية والأسواق، وأنظمة الإرشاد والحماية والدبلوماسية على الطرق، وأدخلت أيضا الأنظمة المحاسبية والنقدية لإدارة التجارة.

وبدأت مملكة الصين في أوج قوتها تستكشف العالم المحيط بها في القرن الأول قبل الميلاد، وسعى ملكها في الحصول على تقنيات وموارد الدول المحيطة من الخيول والنسيج، وأنشأ ملوكها في سبيل ذلك الحصون والقلاع والمحطات على الطرق والأنظمة الدبلوماسية والبريدية، في تلك المرحلة من التاريخ كانت الخيول والفروسية ومهارات القتال والأسلحة الحديدية (السيوف والدروع والرماح والخناجر) مصدر القوة والتفوق.

وكانت طريق الحرير في تلك المرحلة مسرحا لسلسلة متعددة ومختلفة من الحروب والتجارة والتعاون والتنافس، وتواصلت الصين مع الإسكندرية والبتراء، وبدأ يجري تبادل معرفي وحرفي بين المجتمعات والدول، وكان الحرير الصيني تلك السلعة الغالية النادرة التي تحتكرها الصين محور التجارة والعلاقات والتبادل.

كان الحرير صدمة للرومان، وفي عام 53 ق. م ارتبك الرومان أمام الرايات الحريرية المصبوغة بالألوان الزاهية في معركتهم مع البارثيين، وتعرضوا لهزيمة شديدة، ثم أقبل الرومان على الحرير، وبهرت نساؤهم بهذا النسيج الشفاف المدهش، وصار هذا القماش يتدفق إلى غرب آسيا، وكان يصبغ بالأرجوان في المدن الفينيقية، ويوشى بخيوط الذهب والفضة فتتضاعف قيمته أضعافا كثيرة، وصارت شرائطه القرمزية والأرجوانية تميز النبلاء وأصحاب المراتب الرفيعة في البلاط الروماني. وصارت طريق الحرير معبرا لتجارة التوابل التي تفوقت بسرعة على الحرير، وصارت المادة الأكثر أهمية وانتشارا للتجارة بين الشرق والغرب.

كان الجنود والتجار هم معظم المسافرين على طريق الحرير، لكن بدأ صنف جديد

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً. وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»

(هود، 118)

من المسافرين بالظهور، وهم الدعاة والمبشرون البوذيون، الذين بدأوا يتحركون من الهند منذ القرن الأول قبل الميلاد، إلى أن طلب الإمبراطور الصيني مقابلتهم في سنة 65 م، وكان ذلك أول اعتراف رسمي صيني بالبوذية، وبدأت البعثات التبشيرية البوذية تنشر الدين الجديد على امتداد طريق الحرير. وأصبحت الأنشطة الرئيسة على الطريق دينية بعد زمن طويل من الأنشطة العسكرية والتجارية والسياسية.

وأدى الصراع الطويل والمرير بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية إلى انهيار تجارة الحرير وانتهاء صناعات النسيج والصباغة في الشرق الأدنى، وازدهرت طرق جنوبية بديلة لمواجهة الاحتكار الروماني، فازدهرت موانئ البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي.

وفي تلك المرحلة بدأ جماعة دينية جدية تظهر في طريق الحرير، وهي المسيحية النسطورية التي لم تكن متفقة مع المسيحية البيزنطية، وساهم هؤلاء في إنشاء ثقافة وعلوم مهمة ومتقدمة في الفلسفة والطب والعلوم، وكانوا فيما بعد العمود الفقري للنهضة العلمية العربية الإسلامية، واستطاع هؤلاء (المسيحيون العرب النسطوريون) اكتشاف سر الحرير ونقلوا صناعته وإنتاجه إلى مدنهم في الموصل وحلب وأنطاكية والرها وماردين ونصيبين وحران.

وبمقدار ما كان الإسلام حدثا عالميا عظيما أثر في مسار العالم والحضارة الإنسانية تغيرت طريق الحرير بالقدر نفسه، فقد ورث المسلمون الحضارة الإنسانية لدى الفرس والسريان النسطوريين والآراميين

كونفوشيوس ولاوتسي والحكمة الصينية

عالم واحد - 2

يعتبر كونفوشيوس ملهم الثقافة والفكر في الصين. ويمكن حتى اليوم ملاحظة العلاقة بين أفكاره وبين الثقافة السياسية والعامة السائدة في المجتمع والمؤسسات في الصين وكوريا واليابان وفيتنام وتايوان. وقد ولد في القرن الخامس قبل الميلاد، وبرغم أنه يعد محافظا يستلهم التجارب والحكم الماضية والقائمة، فقد اكتسب الخلود والتأثير حتى في المرحلة الحديثة للصين والتي تستلهم المستقبل وآفاقه؛ إذ إن الأمم وهي تنظر إلى الأمام، تستعين بتراثها وتجاربها.

ربما تستمد الكونفوشيوسية تأثيرها المتواصل على مدى ألفين وخمسمائة سنة، من السلام الداخلي الذي تمنحه لأتباعها، والرؤية العملية والتطبيقية للأفكار والمثل والسيرة الذاتية لكونفوشيوس؛ إذ كان متواضعا ومخلصا لمبادئه وأمته، مع النظر الدائم إلى القيم التي تحسن الحياة.

بعد خدمة طويلة في الإدارة العامة، تخللتها خلافات مع الحكام، تفرغ كونفوشيوس للتعليم، وحاول أن ينشئ منهاجا عاما للتعليم والمهارات مستمدا من الأخلاق والموسيقى والإصلاح الاجتماعي والسلوك الفردي. ودُوّنت أفكاره ومحاضراته بعد وفاته في كتاب «المنتخبات الأدبية»، وهو سجل محاضراته التي كان يلقيها على أتباعه وتلاميذه؛ وكتاب «لي جي» الذي يعرض القواعد القديمة في السلوك والأخلاق؛ وكتاب «التغيرات» في الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة؛ وكتاب «شي - جنج» في الشعر والأناشيد في الأخلاق؛ وكتابي «تشو - شيو» و«شو - جنج» في تاريخ الصين؛ وكتاب «جونغ يونغ» في الفلسفة؛ وكتاب «منشيس» في الآداب الصينية.

قبل كونفوشيوس، ظهر في الصين الفيلسوف لاوتسي، مؤسس الفلسفة/ الديانة الطاوية، ويُنسب إليه الكتاب الأساسي في الطاوية «تاو تي تشينغ». ولاوتسي هو لقب تبجيل وليس اسما، أما اسمه الأصلي فهو «لي آر». وتعني كلمة «الطاوية» الطريق أو الهداية.

وقد نشأ لاوتسي، كما كونفوشيوس، في مرحلة من التفكك والصراعات بين الممالك الصينية، فقرر أن يهاجر من الصين. لكن حارس الحدود عرفه، وقال له لا ينبغي أن نخسر حكيما مثلك، وإن كان ولا بد فاكتب لنا كتابا تضع فيه حكمتك وتجاربك. فأقام في مركز الحدود ثلاثة أيام، وضع فيها كتابه «داو د جييننغ»، وهو كتاب الطاوية المقدس.

والواقع أن تاريخ الفكر الصيني يتضمن العشرات من التيارات الفكرية، ومئات الفلاسفة والحكماء، وإن كان كونفوشيوس ولاوتسي هما الأكثر شهرة في الثقافة العربية والعالمية. إذ يعرض كتاب تاريخ تطور الفكر الصيني، لمجموعة من المؤلفين الصينيين وترجمه عبدالعزيز

ونقلوا حضاراتهم عبر طريق الحرير وتفاعلوا مع الشرق تفاعلا كبيرا حول طريق الحرير إلى مسرح عظيم للتجارة والمعرفة والدعوة، وحدثت أيضا هجرة إنسانية عظيمة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، وتحولت بغداد إلى مركز للعالم، وكان انتقال المركز الإسلامي من دمشق في الغرب إلى بغداد في الشرق يحمل دلالات كبيرة في التفاعل والتبادل الحضاري والفكري والتجاري.

وصار الحج موسما عظيما للسفر عبر طريق الحرير وفي المقابل ساهم التجار العرب والمسلمون في تطوير مدن وحضارات عربية وإسلامية في الشرق، وطورت الطرق وزودت بالآبار والحماية، وازدهر البريد كما لم يحدث من قبل.

ومثلت الحروب الصليبية والمغولية مرحلة جديدة أخرى في طريق الحرير، ورغم ما تضمنته من موت ودمار فقد حملت أفكارا وخبرات جديدة في أنحاء العالم، أسست للمرحلة الحديثة المعاصرة في الحضارة الإنسانية، ودخلت طريق الحرير في مرحلة ازدهار هائلة عبر تطور التجارة من وإلى شواطئ المتوسط إلى جميع أنحاء العالم.

إيلاف قريش طريق الحرير البديل

«لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف «

يعتبر الإيلاف من أهم النماذج الإنسانية لإدارة وتنظيم الحج والتجارة بين الهند وأفريقيا من جهة وبين الامبراطورية البيزنطية من خلال الجزيرة العربية، فبعد قطع طريق الحرير في الصراع بين الامبراطوريتين العظميين الروم والفرس لجأ الروم إلى العرب بقيادة قريش لتنظيم حركة التجارة والإمداد من خلال الجزيرة العربية بدلا من طريق الحرير البري الممتد من الهند والصين، وهكذا تطور وازدهر طريق حرير بديل أو إضافي.

كان «الإيلاف» هو المشروع القرشي العربي لتنظيم استثمار الخطوط التجارية بين الهند والصين واليمن وأفريقيا والجزيرة العربية والشرق العربي، ثم نشأت حوله بذور وحدة عربية اقتصادية ودينية وسياسية واجتماعية ولغوية، ثم جاء الإسلام ليتوج هذا المسار. وكان ذلك تطورا مهما، فقد تسلم العرب بموجبه إدارة وتنظيم الخطوط التجارية الدولية بين حوضي البحرين العظيمين، وعلى صعيد داخلي فقد كان الأساس للمشروع العربي الواحد، وهما أمران جعلا للإيلاف مكانة عظيمة في الوعي العربي. وفي ذلك لم يكن ظهور الإسلام في فراغ سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي، فقد كان القرن السابق لظهور الإسلام حافلا بأحداث غاية في الخطورة في منطقة الحجاز وأطرافها.

إن الإيلاف كان في أصله مجموعة من العهود السياسية والتجارية، تهدف إلى تفويض قريش بالتجارة عبر جزيرة العرب من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، وكان في مرحلة من التاريخ بديلا للخطوط التجارية المضطربة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب عبر الأحمر والخليج العربي وامتداداتهما الصحراوية البرية، لكنه أيضا أنشأ حول المشروع التجاري علاقات ثقافية ودبلوماسية

عن طريق الحرير تقول الصحافية والمؤرخة فرياستارك (1893 - 1993) التي أمضت فترة طويلة في المنطقة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين: «ليس هناك نهر من ماء يمكن مقارنته بهذا النهر الدائم من القوافل، الذي حمل نصف تاريخ العالم من مرحلة إلى أخرى، ومن قفار إلى قفار، ومن إقليم إلى إقليم بقوة البشر الضئيلة».

ودينية وسياسية ولغوية واجتماعية واسعة ومهدت لظهور الإسلام. وقد غضب قباذ ملك الفرس في أواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس من استقلالية وحياد مكة وقريش، وردّ عليه عبد مناف بن قصي بن كلاب: «صارت الأديان بالملك. وأُذهبت نواميس الأنبياء. لا أتبع دينا بالسيف وأترك دين إسماعيل وإبراهيم»

لقد أكدت مكة بقيادة قريش أهميتها واستطاعت أن تفرض حيادها الديني والسياسي على الدول والامبراطوريات الكبرى المحيطة بها، الفرس والروم والحبشة واليمن، وصارت تدير وتنظم مجموعة من الطرق والخطوط التجارية البحرية والبرية؛ من الشعيبة على البحر الأحمر إلى عدن والحبشة وأيلة. وإلى بصرى الشام ودمشق مرورا بيثرب فخيبر فتيماء فدومة الجندل فوادي سرحان، وإلى العراق وعدن ومدن وسواحل الخليج العربي.

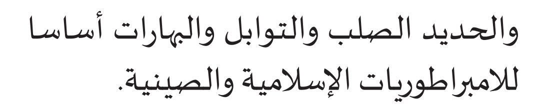
وكانت هذه القوافل تجلب من الصين والهند الحرير، والبخور والزنجبيل والفلفل والقرفة والقرنفل والكافور، والسنبل والصندل والعنبر والمسك، ومن الحبشة واليمن الذهب والفضة والتبر والملابس والجلود وريش النعام والعاج والخشب، والحجارة الكريمة والسلاح والأدوات والبُرد وخضاب الشعر ودم الاخوين والبلسم والقرنفل، ومن الشام الحنطة والزيت والنبيذ والسكر، ومن خيبر التمور والمصوغات والسيوف والادوات.

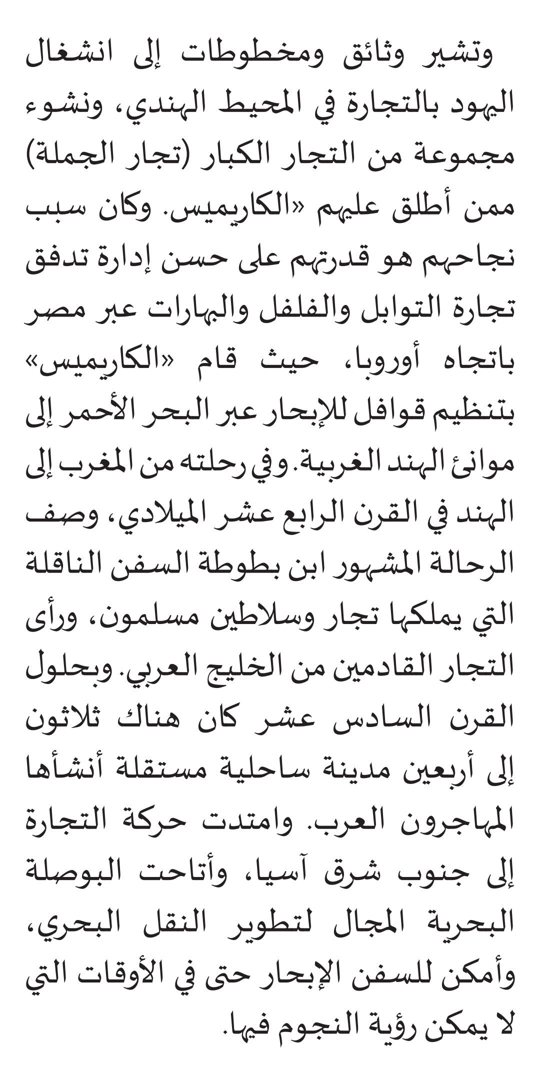
وقد صحبت الإيلاف منظومات للحج والشعر والتجارة والجدل الثقافي والديني (سوق عكاظ) فكان يقام موسمان للحج والتجارة، أحدهما يبدأ في الربيع ويتوج برحلة الصيف، والثاني في الخريف ويتوج برحلة الشتاء، حيث يلتقي الحجاج والتجار والشعراء والرواة، وتجري الطقوس والشعائر والمناظرات والمصالحات والصفقات التجارية. هكذا فقد كان الحج مقصدا آمنا لجميع الناس للعبادة والمنفعة. قال تعالى في سورة الحج «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30)

3I- ثقافة العرب والمسلمين وتجارتهم عبر المحيط الهندي

كان لظهور الإسلام أثر بالغ في ازدهار حركة التجارة والثقافة والمعرفة بين الأمم، وكان العرب والمسلمون يديرون التجارة عبر الصحاري العربية والأفريقية، ويشاركون على نطاق واسع في النقل والتجارة البحرية عبر البحر المتوسط والخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي والسواحل والجزر الأفريقية.

ومن المؤكد أن الانتشار الإسلامي في شرق أفريقيا وجنوب الهند وأقصى شرق آسيا بدأ من خلال حركة تجارية سلمية. وقد انتشر الإسلام من خلال الدعوة والمعايشة عبر زمن طويل وأجيال متلاحقة، وتجارب متبادلة متراكمة. وأسس العرب مجتمعات تجارية في المدن المطلة على الموانئ وعلى امتداد السواحل والجزر الأفريقية والهندية. ونشأت في أثناء ذلك طبقات من العلماء والدعاة والمؤسسات التعليمية التي تقدم المعرفة في جميع مجالاتها. واستقطبت هذه المؤسسات أبناء النخب والتجار من الأهالي والسكان في المدن الأفريقية والهندية والآسيوية بعامة. وفي التواصل بين مسلمي الهند والصين، تشكل دور مهم للمسلمين في الملاحة البحرية في آسيا، وبسبب الطلب الصيني المتزايد على الخدمات البحرية التي يقدمها المسلمون الذين كانوا يصنعون أفضل السفن، وتطور العمل التجاري الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي ليتحول إلى نظام عالمي في القرنين الثالث والرابع عشر. وصارت عمليات إنتاج ونقل وتجارة القطن والأرز والخزف والحرير


والحديد الصلب والتوابل والبهارات أساسا للامبراطوريات الإسلامية والصينية.


وكوّن المسلمون شبكات ملاحة بحرية موحدة، وتطورت عمليات الدعوة الإسلامية من خلال التواصل التجاري والاجتماعي مع التجار المسلمين. وقد ساهم انتشار الإسلام في تطوير حركة التجارة والإنتاج. وهكذا فقد أسهم التجار المسلمون في إنشاء مجتمعات إسلامية واسعة ممتدة من الصومال إلى ماليزيا.

وتشير وثائق ومخطوطات إلى انشغال اليهود بالتجارة في المحيط الهندي، ونشوء مجموعة من التجار الكبار (تجار الجملة) ممن أطلق عليهم «الكاريميس. وكان سبب نجاحهم هو قدرتهم على حسن إدارة تدفق تجارة التوابل والفلفل والبهارات عبر مصر باتجاه أوروبا، حيث قام «الكاريميس» بتنظيم قوافل للإبحار عبر البحر الأحمر إلى موانئ الهند الغربية. وفي رحلته من المغرب إلى الهند في القرن الرابع عشر الميلادي، وصف الرحالة المشهور ابن بطوطة السفن الناقلة التي يملكها تجار وسلاطين مسلمون، ورأى التجار القادمين من الخليج العربي. وبحلول القرن السادس عشر كان هناك ثلاثون إلى أربعين مدينة ساحلية مستقلة أنشأها المهاجرون العرب. وامتدت حركة التجارة إلى جنوب شرق آسيا، وأتاحت البوصلة البحرية المجال لتطوير النقل البحري، وأمكن للسفن الإبحار حتى في الأوقات التي لا يمكن رؤية النجوم فيها.

بدأت منذ القرن السادس عشر تظهر المشاركة والمنافسة الأوروبية، وقد تبنت الشركات الإنجليزية والهولندية في الهند الشرقية طرقا ونظما إدارية فاعلة، مكنتها



البوصلة

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»
(الحجرات، 13)

من جذب قدر كاف من التجارة وتحويلها إلى البحر بدلا من البر. لكن بدأت في القرن السابع عشر تنتشر المجاعات والأوبئة، وتبع ذلك حالات واسعة من السخط والتمرد والاضطرابات السياسية وتعطيل القانون، وظهور عصابات اللصوص والقراصنة وقطاع الطرق.

تعلم الأوروبيون في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ما كان العرب والمسلمون قد تعلموه من قبل، وهو كيفية استخدام أنظمة الرياح في المحيط الهندي. وتعلموا أيضا أنظمة الرياح في المحيطين الأطلسي والهادئ.

وكان نظام عالم اقتصادي جديد ينطلق من أوروبا. بدأ التركيز الأوروبي على آسيا بالبرتغال ثم هولندا ثم بريطانيا؛ التي ورثت التجارة الآسيوية، وهيمنت عبر شركة الهند الشرقية وتواجدها العسكري والسياسي والدبلوماسي في الهند والدول والمدن الممتدة على السواحل الآسيوية. ثم قوضت الثورة الهندية هذه الشركة العملاقة لتحل محلها إدارة استعمارية تحت سلطة العرش البريطاني. وفي الوقت الذي تبنى العالم التجارة الحرة، فقد فرضت بريطانيا سياسات جمركية جائرة على المنتجات الهندية لتتيح المجال للمنتوجات البريطانية لتنتشر في الأسواق الهندية. ثم حلت الثورة الصناعية والآلة البخارية، وأنشأت عالما جديدا، ووضعت نهاية لمرحلة تاريخية طويلة وممتدة.

تتمة عالم واحد - 2

حمدي، تاريخا طويلا من المفكرين والاتجاهات الفلسفية والفكرية. وقد يبدو بينها وبين الفلسفات الأوروبية، في أحيان كثيرة، تشابه وتطابق برغم أنها سابقة للفلسفة الأوروبية بمئات السنين.

ومن أقوال كونفوشيوس المتداولة: لو قال كل إنسان ما يفكر فيه بصدق، فإن الحوار بين البشر يصبح قصيراً جداً، وتجاوز الهدف مثل عدم بلوغه، وليست العظمة في ألا تسقط أبداً بل في أن تسقط ثم تنهض من جديد. وما يبحث عنه الرجل النبيل موجود في نفسه، وما يبحث عنه الرجل الدنيء موجود عند الآخرين.

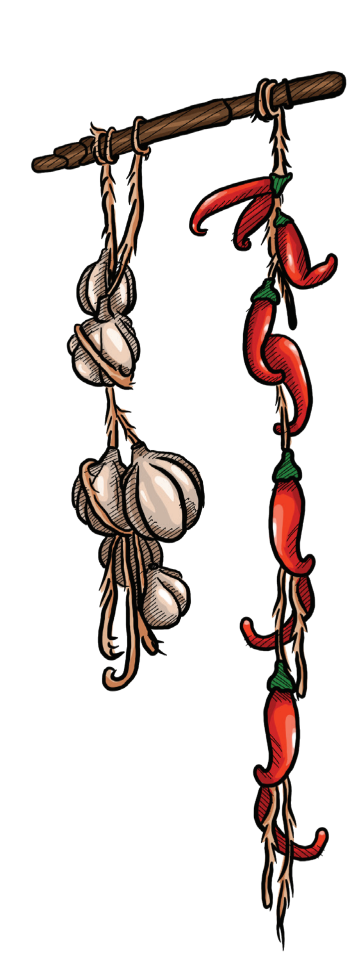
4I- التوابل .. تشبيك العالم حول التجارة والثقافة

تبدو تجارة التوابل مزيجا من السياسة والتجارة والثقافة وأساليب الحياة في العالم وتاريخ الأفكار والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. كان للتوابل تاريخ طويل في آسيا قبل وصول الأوروبيين إلى تلك المناطق بوقت طويل، وألهمت معرفة الأوروبيين بالتوابل وتذوقهم لها أساطير وحكايا، وأوحت بأن تلك النباتات الغريبة كانت جزءا من عبير الفردوس، وفي الاقتصاد والتجارة فقد كانت التوابل مصدرا للثراء وأساسا للتجارة العالمية والصراع أيضا.

ما التوابل؟ يعرف التابل بأنه عادة الجزء العطر من نبتة استوائية، سواء أكان في جذرها أم لحائها أم زهرتها أم بذرتها، وجميع التوابل ذات منشأ آسيوي، باستثناء الفانيلا والفلفل الحار والفلفل الحلو، والتوابل الرئيسة هي: القرفة، القرنفل، الفلفل الأسود، جوزة الطيب، والفلفل الحار، وهناك بالطبع توابل أخرى كثيرة، مثل الهال والزنجبيل والكركم.

عرف اليونانيون القرفة عن طريق الفينيقيين الذين كانوا يعملون في التجارة البحرية، وهي تستخرج من لحاء شجرة دائمة الخضرة من عائلة الغاريّات، وتتناسب القرفة مع عدد كبير من أطباق الحلوى، إضافة إلى الكعك والخبز، كما تتماشى مع التفاح والموز والإجاص وبشكل خاص مع الشوكولاتة، وفي المغرب تستخدم مع أطباق اللحم والدجاج، وانتشرت زراعتها بسبب الطلب العالمي المتزايد في أنحاء واسعة انطلاقا من سيلان (سريلانكا). وأما القرنفل فيعود أصله إلى مجموعة جزر مولو كاس (جزر الملوك) التي تشكل اليوم جزءا من إندونيسيا، ويمكن استخدامه مع المأكولات الحلوة والحارة، ويستخدم أيضا في الطب للشفاء من الآلام والأمراض، ويعود أصل الفلفل الحار إلى الأمريكتين الوسطى والجنوبية وجزر الكاريبي، وكان الإسبان هم أول من جلب الفلفل الحار إلى أوروبا، وتعود جذور جوزة الطيب إلى جزيرة باندا الإندونيسية، وتنمو على شجرة دائمة الخضرة يمكن أن تصل إلى ارتفاع 20 مترا، وتستخدم كحلوى، ومع الخضراوات واللحوم، وتعود أصول الفلفل الأسود إلى ساحل ماليبار جنوب الهند، ويستخدم في كثير من الأطباق الحامضة، ويمكن أن يكون جزءا من الأطعمة الحلوة مثل الخبز والكعك، ويمكن كذلك تقديمه مع الفاكهة.

كانت القرفة والقرنفل أكثر التوابل المرغوبة في العالم القديم، وسيطرت الصين على تجارة القرفة لفترة من الزمن، ثم شارك الفينيقيون والعرب في تجارتها ونقلها إلى أنحاء العالم، وتوسعت تجارة واستخدامات التوابل مع ازدهار الإمبراطورية الرومانية، لكن المصريين كانوا قبل ذلك بقرون يستخدمون التوابل في طعامهم وطقوسهم، وهناك دلائل تشير إلى أن السكان الأصليين في المكسيك بدأوا استخدام الفلفل الحار في الطعام قبل الميلاد بسبعة آلاف سنة. واتسعت تجارة التوابل مع صعود الدولة العربية الإسلامية ثم النهضة الأوروبية التي بدأت بالحروب الصليبية وتبعها نشوء دول ومدن مزدهرة وقائمة على التجارة مع الشرق، وباتساع الدولة الإسلامية شرقا وغربا اتسعت معها تجارة ومراكز التوابل في العالم من إندونيسيا شرقا



إلى الأندلس غربا، وتشير كتب وقصص الرحالة والتراث في تلك العصور مثل ألف ليلة وليلة وسندباد وابن بطوطة وماركو بولو إلى الحجم الواسع الذي تحتله التوابل في التجارة والحياة بعامة. ويعرض ابن خرداذبة في القرن التاسع الميلادي حكاية عن مجموعة من التجار يتكلمون العربية والفارسية واللاتينية والفرنسية والإسبانية والسلافية، وكانوا يسافرون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب عن طريق البحر أحيانا وعن طريق اليابسة أحيانا أخرى.

بدأت هجرة كثير من الأطعمة والبهارات على نحو واسع إلى الغرب وصارت تحلّ في الموائد الأوروبية، واستخدم الأوروبيون التوابل للعلاج وكمواد حافظة، ومع مرور الوقت أصبحت التوابل مرتبطة بالاستهلاك الدوائي والغذائي. كانت التوابل القادمة من الشرق عبر المحيط الهندي تفرغ حمولتها في مضيق هرمز على الخليج العربي أو في عدن، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى القاهرة والإسكندرية وعكا، وكان هناك طريقان من مضيق هرمز، أحدهما يتجه غربا على ظهور الجمال إلى البحر الأسود، والآخر شرقا عن طريق البحر إلى حلب وقبرص وأوروبا، وبرزت في هذه المرحلة مدينتان إيطاليتان هما جنوة والبندقية، وأصبحتا مركزين مهمين للتجارة، ودخلت المدينتان في منافسة وصراع وتعاون في بعض الأحيان، وصارتا مركزين لتبادل البضائع القادمة من الشرق والغرب، وأنشأ تجار جنوا شركات عائلية كانت تكلف وكلاء ثقات من العائلة يقيمون في المدن مثل القاهرة وصور وعكا وحلب لتأمين البضائع وشحنها.

«ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم» (الروم، 22)

وصارت التوابل جزءا أساسيا في نمو الاقتصاد الأوروبي، وكانت قيمتها نسبية، فقد استخدم الفلفل في القرن الحادي عشر كوسيلة لدفع رسوم دخول السفن في سوق السمك في لندن، وكانت حبات الفلفل مقبولة كوسيلة لدفع الإيجار والرسوم في بعض المدن الأوروبية.

ويعتبر الرحالة العربي المسلم ابن بطوطة من أوائل من سجلوا معلومات حول تجارة القرفة في سريلانكا ووصف الأطعمة والتجارة في الهند وآسيا.

وبدأت التوابل في القرن العشرين تتحول إلى اقتصاد ثانوي في أوروبا، وباستقلال الدول الآسيوية فقد بدأت تدير وتهيمن على مواردها وتصدرها إلى العالم، وتسيطر اليوم فيتنام والهند وإندونيسيا وسنغافورة على تجارة التوابل العالمية، لكن استهلاك التوابل تضاعف أضعافا كثيرة في العالم. وتدير اليوم تجارة وإنتاج وتصنيع التوابل شركات متخصصة في الصناعة، والتجارة، وبدأت تظهر سلاسل من المنتجات الغذائية والأطعمة في الولايات المتحدة وسائر أنحاء العالم، مثل ماكدونالدز وكينتاكي ووندي وبرجر كينج وكرافت، وجنرال فودز، وهي شركات تستخدم كميات هائلة من التوابل، هذا إضافة إلى الاستخدامات المنزلية الواسعة، وأنشأ هذا الطلب الجديد سلاسل من الصناعات والمنتجات الجديدة وعمليات البحث والتقنية في مجال إنتاج الأطعمة والبهارات والتوابل. ووصلت التوابل اليوم إلى أعلى مرحلة من مراحل بلوغها، فقد تنوع استخدامها عبر القارات في عدة مجالات تجارية غير الأطعمة، فمثلا تقوم شركة مولنتون براون البريطانية لمستحضرات التجميل والعناية بالبشرة

بإنتاج عطر مجفف ووسائل استحمام بمزيج بهارات مثل الزنجبيل والكمون والكزبرة، ما يعطي للعطر وصفة رجولية دون أن يكون ذا رائحة لاذعة.

التوابل تاريخ وثقافة في الكثير من المناطق ذات المناخ الحار في العالم تكون التوابل المستخدمة حارة أيضا، ففي جنوب الهند والمكسيك وأجزاء من إفريقيا تقدم أطباق كثيرة مطبوخة بالتوابل اللاذعة التي تحرق اللسان، وتجعل الحاجبين يتعرقان، أما نكهات العالم العربي فهي مزيج من التوابل التي توقظ الشهية دون أن تحرم الناس من الرطوبة التي تحتاج إليها هذه الأراضي الصحراوية الجافة.

الزنّ والهايكو

يطلق مفهوم الزنّ على مذهب واتجاه في البوذية انتشر في اليابان والصين والهند يقوم على التأمل العميق واستعادة حياة سدهارتا وأسلوبه في التأمل، ويعرف مذهب الزن بأنه فلسفة أو مذهب اللاشيء، وهو سلوك ذهني وطريقة مختلفة لإدراك الواقع، وهو رؤية الشيء مجردا من دون معرفة ذهنية قبلية وبلا تشويش انفعالي.

يعرض الكتاب الذي صدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت بعنوان «أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو» تأليف: هنري برونل، وترجمة محمد الدنيا مجموعة من القصص والأشعار التي تتداول في الثقافة العالمية بالنظر إليها آداب وفنون ترقى بالنفس وتمتلئ بالصور الجميلة، مثل قول زني كوشو: «اجلس بصمت، لا تفعل شيئا، الربيع آت، والعشب ينمو بمفرده». أو قول وو من كوان: «في الربيع زهور، وفي الخريف القمر، وفي الصيف نسيم منعش، وفي الشتاء الثلج، إذا لم يكن ذهنك مثقلا بخليط تافه تنفتح الحياة أمامك رائعة».

يعود مذهب الزن إلى الراهب الهندي دهيانا أو بوديدارما الذي ظهر في الصين في القرن السادس الميلادي (527 م) ووفد على الإمبراطور الصيني ليانغ وو تي الذي كان رجلا متقشفا ونزيها وبوذيا مخلصا، وكان يخطط لأن يكون راهبا.

سأل الإمبراطور الراهب لقد بنيت المعابد ونسخت النصوص المقدسة وساعدت الرهبان، فبرأيك بماذا أنا ذو فضل؟ أجاب بوديدارما: ليس لك فضل، لأن العمل الذي يستحق التقدير حقا مفعم بالحكمة الصافية.

وغادر الراهب إلى شمال الصين واعتكف في دير شاو لين، واشتهر بأنه لخص وبسط تعاليم البوذية في حكم وقصص وحكايات، ومن أقواله وحكمه المأثورة: الحكماء لا يدخرون أجسادهم ولا ثرواتهم، ولا يملون أبدا من السخاء، ولا تخدعهم المظاهر، ولا ينتفعون بالفضائل التي يمارسونها، ولا ينسبون الفضل إلى أنفسهم، ويحبون كل المخلوقات. وفي القرن الثاني عشر انتقلت حكم الزن «تشان» إلى اليابان على يد راهب اسمه أيساي وانتشرت هناك باسم زن.

لتدرك الحكمة في الطبيعة وتستطيع الهدوء انظر إلى الفيل الذي يروض بالوتد والحبل ثم يفك وثاقه، ويمضي حرا طليقا يساعد الناس، فخذ نفسا عميقا وازفر، إن حياتك هي هذه الأنفاس، وأنت هذا النفس الذاهب الآتي والصاعد النازل، بلا توقف، ودون زمام.

5I- «بيننا عيش وملح»
الملح محرك للتجارة والسلام

كان الملح حتى القرن التاسع عشر هو المادة الأعز التي بذل الإنسان جهودا كبيرة للحصول عليها على مر العصور، وبرز الملح منذ الاستقرار البشري بوصفه مادة أساسية يحتاج إليها للطعام، والتخزين، والصناعات الغذائية، والتحنيط، والأساطير والتراث، وأساسا للثورات الاستقلالية كما في الهند والولايات المتحدة وفرنسا، وقامت عليه مدن وحركة اقتصادية وتجارية عالمية.

يذكر المؤرخون أن أقدم مصنع للملح ظهر في الصين، ويعود أقدم سجل مكتوب عن إنتاج للملح إلى نحو 800 سنة قبل الميلاد، ويشير إلى أن إنتاجه بدأ قبل ذلك التاريخ بألف عام، وعرف الصينيون صناعة المخللات وحفظ الأطعمة بالتمليح. وتطورت مع الزمن صناعة الملح وتجارته، ونشأت حوله سلسلة معقدة من الحروب والثروات والاحتكارات والصراعات، فقد دار جدل طويل في الصين حول احتكار الدولة للملح والضرائب التي تفرض على تجارته وإنتاجه.

وفي مصر استخدم الفراعنة الملح لحفظ الجثث، وظلت متماسكة محتفظة بجلودها ولحمها لنحو خمسة آلاف سنة، وعرف المصريون أيضا الأطعمة المملحة والخضار الممزوجة بالملح والصلصة، واستخدموا الملح لحفظ الأسماك، وكان هذا النظام في الحفظ يساعدهم على مواجهة تقلبات الطقس وظروف ندرة الطعام في بعض أوقات السنة.

وربما يكون الفينيقيون بخبراتهم التجارية قد ساهموا في نقل الملح عبر أنحاء العالم ومقايضته بسلع وخدمات أخرى، وعرفت قوافل نقل الملح باستخدام الجمال والسفن، وذكر ابن بطوطة أنه زار في العام 1352 مدينة تاغارا الأفريقية المبنية من الملح بما في ذلك مسجدها، وتحدث المؤرخ اليوناني بليني عن مناجم لصخور الملح والبيوت المشيدة من تلك المادة، وبعض المدن القائمة اليوم تستمد تسميتها من الملح مثل «سالتزبورغ»، وكانت ليفربول أهم مدينة بريطانية بعد لندن قد أقيمت أساسا عام 1207 على إنتاج وتجارة الملح الذي كان يعرف في جميع أنحاء العالم باسم ملح ليفربول.

وكان الملح جزءا من الإمبراطورية الرومانية، واستولى الرومان على مدن الملح وورش السالتيين والفينيقيين لإنتاج الملح، وطوروا وسائل حفظ الخضار والزيتون بالملح، وامتلأت شواطئ المتوسط بورش الملح، وورثها العرب والمسلمون بعد انسحاب البيزنطيين وتراجعهم.

وتحولت الطرق التي شقها الرومان في أنحاء الإمبراطورية لتأمين نقل الملح إلى مراكز تجارية وثقافية، وكانت السيطرة على مراكز الملح في مرحلة الإقطاع بعد انهيار روما تعني السيطرة على الموارد والنفوذ أيضا.

وفتحت عمليات صيد الحيتان وتجارتها المجال واسعا لصناعة الأسماك المقددة التي حمت أوروبا من المجاعة، وتوسعت تجارة الملح والأسماك في أوروبا وحوض المتوسط وأنحاء الإمبراطورية الرومانية اعتمادا على حملات الصيد الكبرى والتي

أبحرت بعيدا بلا خوف من تلف السمك.

وبدأ الملح يستخدم أيضا في صناعة الجلود وفي الدواء والطب، ومثل الملح رمزا للصحة والديمومة، وزينت الموائد الملكية في فرنسا بممالح على هيئة سفن، وكان وضع الملح على الطاولة من مظاهر الغنى.

وعندما وصل الأوروبيون إلى القارة الأمريكية وجدوا أهلها الأصليين يعرفون الملح وينتجونه على ضفاف الأنهار، وتعيد بعض القبائل قصة معرفة الملح إلى فيكستو سياتل التي نفيت إلى المياه المالحة من قبل إخوتها آلهة المطر، فاكتشفت الملح، ويقام احتفال في الشهر السابع من كل عام بذكراها، ولدى بعض القبائل آلهة للملح، وكانت تسند عمليات إنتاج الملح إلى عائلات دينية باعتبارها مهمة مقدسة، ودارت حروب بين القبائل والشعوب الأمريكية قبل مجيء الأوروبيين وكان الانتصار فيها يتوج بالسيطرة على الملح.

وقامت المراكز الحضارية في القارة الأمريكية تبعا لإنتاج الملح ووفرته، فكانت على سبيل المثال مدينتا كوزكو وبوغوتا، في كولومبيا، وتواصلت أهمية الملح وحروبه بعد وصول الأوروبيين الذين أطلقوا حملات واسعة لاستكشاف مصادره.

كانت مشكلة المستوطنين للقارة الجديدة والذين طوروا تجارة وحياة اقتصادية ومستقلة هي حاجتهم للملح المستورد من بريطانيا أو مستعمراتها، وتبنت طبقة التجار الأمريكيين مقولة توم باين بأن القارة الأمريكية لا يمكن حكمها من الجزر البريطانية، وبدأ البريطانيون في عام 1759 يواجهون الميل الأمريكي للاستقلال بفرض تعريفات وضرائب عقابية على التجارة الأمريكية تطورت إلى حالة تمرد وحرب عام 1775، وفرض حصار بريطاني على المستوطنات الأمريكية المتمردة أدى إلى نقص فوري وخطير في الملح، واستهدفت المعارك والصراعات بين الجانبين مصادر الملح، وحاول كل طرف حرمان خصمه منها.

وبدأت الإدارة الأمريكية المستقلة على الفور في جملة من السياسات والإجراءات لتشجيع صناعة الملح ومواجهة النقص الحد والحصار البريطاني، وشكل

«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» (المائدة، 2)



الكونغرس لجانا للمشورة في طرق ووسائل إمداد الولايات المتحدة بالملح، وأعفي العمال العاملون في مجال الملح من الخدمة العسكرية، وواجه الصيادون والمزارعون أزمة خانقة في الحصول على الملح، وفي اتفاقية باريس من أيلول/ سبتمبر عام 1783 انتهت الثورة الأمريكية بالاستقلال، وولدت أمة جديدة مع ذاكرة مرة عما يعنيه الاعتماد على الآخرين للحصول على الملح.

وارتبطت الثورة الفرنسية أيضا بالملح، إذ كانت الضرائب التي تفرض على الملح سببا في السخط والتذمر ثم الثورة، فقد أعاقت القوانين الضريبية الاتجار بالملح وزادت من كلفة إنتاجه، فانتشر تهريب الملح الذي قابلته الحكومة بقوات مسلحة للتفتيش والملاحقة، وتحول هؤلاء «الغابيلوز» إلى قوة غاشمة ترمز إلى العسف والظلم، وفي أواخر القرن الثامن عشر صدرت أحكام بحق أكثر من ثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل بالسجن أو الموت بسبب التهرب من ضرائب الملح.

وفي عام 1789 ثار الفرنسيون وألغت الثورة فورا ضريبة الملح «الغابيل» دون اهتمام بإيجاد مصدر دخل بديل لتمويل خزينة الدولة، وأطلق سراح جميع المسجونين بسبب ضريبة الملح وأعفي المطلوبون والمطاردون بسببها، وأعدم الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة أنطوانيت.

لقد غيرت الكيمياء إلى الأبد نظرتنا إلى الملح، والحال أن اكتشافات في مجالات أخرى غيرت جذريا دوره في العالم، وسيبقى الملح مستخدما في إعداد الأطعمة، ولكن هذا الدور تراجع بصورة مستمرة.

جاءت الضربة الأولى للملح على يد الطاهي الفرنسي نيقولاس أبير، الذي اخترع طريقة لحفظ الأطعمة بدون تمليح بتسخينها ووضعه في أواني معدنية أو زجاجية مغلقة بإحكام «التعليب»، وكانت هذه الأطعمة المعلبة اكتشافا مذهلا للحملات العسكرية والسفن والأساطيل التجارية والعسكرية.

وجاءت صناعة الثلج لتوجه ضربة قاصمة للتمليح والملح نفسه، ثم انتشر تجميد الأسماك واللحوم والأطعمة لتتلاشى تقريبا الأسماك واللحوم المملحة والمقددة.

وشهدت صناعة الملح نفسها ثورات صناعية وتقنية طورت من عمليات تصنيعه وإنتاجه، ومع اكتشاف النفط والآلات البخارية تحولت صناعة الملح وتكريره إلى التقنيات الجديدة، ودخلت مراجل التبخير الميدان، وانتهت ورش ومدن وعائلات الملح وتحولت إلى جزء من التاريخ.

في أواخر العشرينات قاد غاندي ثورة الملح، بتحويل هذه المادة إلى قضية وطنية يتركز حولها الاستقلال، وبدأ غاندي مع 78 من معاونيه مسيرة على الأقدام لمسافة 520 كيلومترا للوصول إلى البحر لمواجهة القانون البريطاني واستخراج الملح، وعندما وصل إلى البحر بعد مسير 25 يوما كان برفقته الآلاف من كل طبقات الهنود وفئاتهم وطوائفهم، واستأنف شعب أوريسا صناعة الملح التي منع منها برغم ارتباطه بها آلاف السنين، وسمحت الإدارة البريطانية بعد حملة اعتقالات واحتجاجات واسعة لسكان الشواطئ بالتقاط الملح لاستخدامهم الخاص، ولكن حصل الهنود في النهاية على استقلالهم الكامل عام 1947

> «النظام الاقتصادي الذي يميز بين الناس، ليس أقل فتكا بهم من القمع والإرهاب»
> البابا فرانسيس الأول

6I- البريد والتواصل العالمي

كانت منظومة البريد أسرع وأهم وسيلة اتصال ونقل، ويمتد عملها إلى المهمات الدبلوماسية والتنظيميةم والأمنية والاستخبارية، وكان البريد مؤسسات حكومية تحجب خدماتها حتى عن أغنى الأغنياء من غير الرسميين، وكانت الرسائل غير الرسمية تنقل عبر القوافل العابرة أو أنظمة بريدية خاصة ومحدودة.

وبدأ البريد يدخل في مرحلة من الخصخصة بدءا بالقرن السادس عشر، ثم أسهمت تقنيات الاتصال الحديثة (أجهزة البرق والتلغراف) في تحولات كبرى وجذرية في أنظمة البريد وخدماتها، وأصبحت ما نعرفه اليوم (قبل الإنترنت)

ينسب مفهوم البريد إلى الفرس، حيث وضع ملوكها نظام البريد وخصصوا له دوابا مميزة ومعروفة بعلامات محددة. وأنشأ اليونان في القرن السادس قبل الميلاد نظاما بريديا متقدما ومعقدا قائما على أساس الطاقة القصوى للخيل والخيالة أن تتحرك بسرعة، فأقيمت محطات وفقا لذلك يجري فيها استقبال الخيل والفرسان، ليتحرك على الفور فارس جديد يكمل الرحلة، وكانت هذه المواكب من السعاة والرسل لا تتوقف في الليل أو النهار.

ويظهر في التوراة «العهد القديم» اخبار وقصص عن البريد الفارسي والرسل والرسائل التي كانت تنقل ومعها الاخبار والمراسيم. وفي القرآن الكريم عن سبأ «وجعلها بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياما آمنين»

«كل شقاء الناس مصدره أنهم لا يعيشون في العالم ولكن في عالمهم»

فانظر بصبر وهدوء، ولا تحكم ولا تغضب، وتأمل أفكارك بنظرة من الداخل، ودع ثورات الغضب والملل تتبدد مثل دخان، ثم انظر من جديد إلى تنفسك يجيء ويروح.

جاء الحاكم إلى معلم الزن لينصحه، وأرسل من موكبه المهيب حاجبه مع بطاقة مزينة تصف ألقابه وهيئته، فقال المعلم للحاجب: ليس لدي شيء أقوله لهذا الرجل. وعاد الحاجب يرتجف من الخوف، ولكن الحاكم فهم قصد المعلم، فأرسل بطاقة عليها اسمه فقط، فاستقبله المعلم لأنك عندما تتخلص من الشيء الصغير الذي يسمونه «أنا» تصبح العالم الفسيح.

كم مرة غضبت وندمت؟ وكم مرة غضبت ثم تتبين أنك تغضب في الاتجاه الخاطئ، يقابلك زورق متجه نحو زورقك بتهور، فتشتم النوتي الذي يسوقه وتغضب، ثم تكتشف أنه يخلو من الناس ويسير وحده، فعلى من تغضب؟ ولماذا تغضب وبوسع القاربين أن يسيرا معا في النهر؟

يكفي قدر ضئيل من التفكير السليم لتبديد الوهم والتخلص من مدعي العلم والمعرفة المزيفين، مثل ذلك الشاب الذي كان يحاصره شبح بالمعرفة والأخبار حتى سأله يوما بنصيحة من معلم الزن: كم في قبضتي من الحنطة؟

ما الخلود؟ فالمنتهي هو اللامنتهي، واللامنتهي هو المنتهي، والحاضر هو الأزل، هذا ما وجده الرجل الصالح الذي وفد على الراهب ريوكان يطلب منه أن يساعده ليحقق أمنية الخلود، فقال له الراهب تحتاج إلى سنوات من التنسك والزهد قبل أن تقدم أمنيتك فتستجاب، وبعد سنوات من التأمل وعمل الخير في قمة الجبل، وفي الليلة المخصصة لحفل استجابة الأماني عدل الرجل عن طلبه، وقال: لم أعد أفهم لماذا طلبت الخلود.

الصمت، وسيلة لمعرفة الحقيقة، والحكمة سر ما أن يلامسه الفكر حتى يتوارى، فقد كان راهبان يتجادلان طويلا، أيهما الذي يتحرك؟ الراية أم الهواء، فقال لهما المعلم، لا الراية ولا الهواء، ذهنكما هو الذي يتحرك.

«من يملك أن يميز بين الراهب والأمير والصعلوك، والأسد والدودة الصغيرة، الحرية الكاملة لمن لا يرغب في شيء، ولا يملك شيئا» قد تبدو حكمة جميلة، ولكنها ربما تكون مختلفة حين تكون خاتمة لقصة عن الإمبراطور الشيخ الذي لم ينجب ولدا، فلجأ إلى راهب في قمة الجبل، وجلس يتأمل هدوءه وحياته، وأعجب به كثيرا، فخطرت له فكرة، لماذا لا يكون هذا الراهب خليفته في الملك بما أنه ليس له ولد، وربما لن يكون ابنه إن وهبه الله ابنا في صلاح هذا الراهب، فسأل الملك الراهب: أنا شيخ وليس لي ولد، أترغب أن تخلفني في الملك؟

وأقيمت على الطرق محطات خاصة بالبريد، تحوي استراحات، وقدر فيها السير والمراحل والمسافات والوقت، وفي أحيان كثيرة كانت طرق خاصة بسعاة البريد تختصر المسافات والأوقات، وقدر معدل المسافة اليومية التي يقطعها سعاة البريد ب 300 كيلومتر، وقد تزيد عن ذلك أو تنقص حسب الطبيعة الجغرافية والتضاريس المحيطة بالطرق، واعتمدت فعالية النظام البريدي على مستوى الأمان في الطرق، وذلك يرتبط بمستوى العدل والقوة لدى الحاكم، وكان على الطرق حراس ومراقبون، وإدارات للإمداد والمؤونة، ومخصصات للسعاة وخيولهم من الطعام والشراب، وتضمنت الوظائف والأعمال المرتبطة بالبريد كثيرا من العمل الدبلوماسي والجاسوسية والحكمة والأدلة والحماية والأخبار والاستطلاع.

وفي الامبراطورية البيزنطية أدخل نظام النقل النهري والبحري في البريد، وكان هذا النظام البريدي أساسا للبريد الأموي فيما بعد، وتشير مصادر التراث العربي إلى أنظمة رسائل وبريد كانت متبعة في الجزيرة العربية، مثل رسائل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحكام والقادة، ورسالة مسلمة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والرسائل المتبادلة بين الخلفاء والقادة العسكريين في فترة المعارك والفتوح وما بعد ذلك، وتشير النقوش على سد مأرب إلى الاخبار والرسائل التي كان ينقلها السعاة، وهناك إشارات عدة في الشعر العربي القديم إلى البريد، يقول امرؤ القيس:

ونادمت قيصر في ملكه

فأوجهني وركبت البريدا

إذا ما ازدحمنا على سكة

سبقت الفرانق سبقا بعيدا

تطور البريد على يد المسلمين في وظائفه وهيكله، ورافق في تطوره وعمله تطور الحضارة العربية والإسلامية، وقد بدأ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في تخصيص مبالغ طائلة من بيت المال للاستثمار في البريد وتطوير أعماله وطرقه ومحطاته وموظفيه، وأدخل الممارسات المكتبية في إدارة البريد وتنظيمه، وأحدث أنظمة لتطوير وتهيئة دواب أكثر سرعة وكفاءة لاستخدام البريد (الخيول المضمرة والمحسنة السلالة)، وتطور البريد في العصر العباسي الأوسط على يد الخليفة المتوكل، الذي ينسب إليه إنشاء ديوان البريد، وقد ساهم انتشار الورق وصناعته في تطوير الأنظمة البريدية والسجلات والوثائق، وارتبطت بالبريد شبكات الطرق والجسور والآبار والمحطات والنزل ومشكلات الطبيعة والجغرافيا من الطقس والجبال والصحارى، وأعمال الثورة والتمرد وقطع الطرق، وبخاصة أن البريد كان ينقل الأموال والأخبار، وواجه البريد باعتباره جزءا من حركة الطرق والقوافل الاعتداءات المتكررة من الثوار والمخربين، ويلاحظ أيضا أن ازدهار البريد رافق ازدهار جميع الاعمال والأنشطة التي تعتمد على الطرق، مثل التجارة والحج والرحلات العلمية، وقد استفادت الحركة العلمية والتجارية من خدمات البريد في البنى التحتية والخرائط والإرشادات والخبرات الملاحية التي أنشأها النظام البريدي، وصارت أعمال البريد وخدماته والطرق في الإنتاج الفكري جزءا من أعمال الخليفة والولاة ومسؤولياتهم.

وقد لعب التجار أنفسهم بطبيعة عملهم وتجوالهم دورا بريديا، ثم أصبحت أعمالهم التجارية بحاجة إلى شبكة بريدية، وربما

تتمة عالم واحد - 3

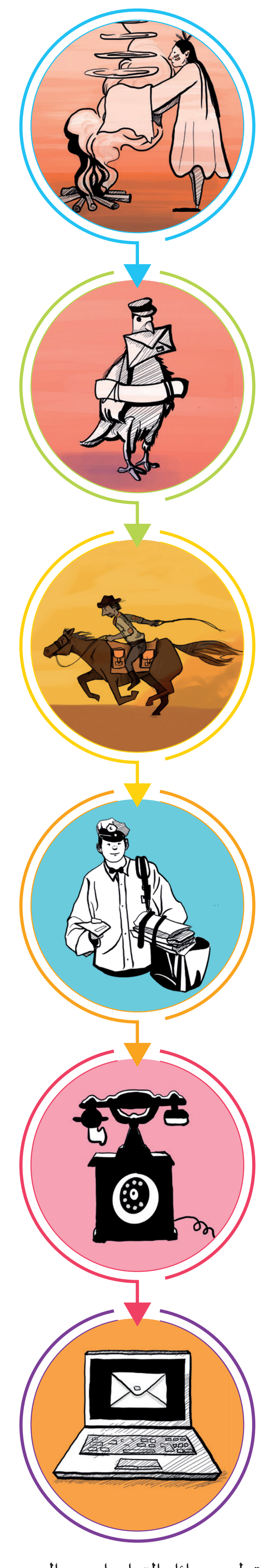
كان الراهب يقطع الأخشاب، فأوقف عمله، وقال للملك: أنا ذاهب إلى النهر لأغسل أذني اللتين لوثتهما كلماتك، وتوجه إلى النهر ووجد فلاحا جاء ليسقي بقرته من النهر، فسأل الراهب متعجبا من فعلته، فأخبره القصة، فأبعد الفلاح بقرته، وقال: لن أدع بقرتي تشرب من ماء ملوث.

تكون شبكة بريد التجار قد أسست للنظام البريدي التجاري.

ويشار إلى نظام البريد المغولي ب اليام، وقد أنشأه جنكيز خان أهم قائد مغولي، والمؤسس للدولة المغولية، وكان يقوم على مجموعة تشكيلات من المبعوثين الذين هم في حالة ارتحال دائم، وهو نظام يتفق مع الطبيعة البدوية الارتحالية للمغول، وكان هؤلاء المبعوثون يتمتعون بصفة دبلوماسية، ولديهم تفويض كامل من جنكيز خان ثم القادة الذين جاءوا من بعده باعتبارهم ممثلين للقائد يتصرفون بالنيابة عنه، ثم تطور نظام البريد إلى تجاري وإداري مشترك، واستخدم في هذا النظام السعاة العداؤون الذين يسلمون الرسائل والأخبار إلى آخرين في شبكة تشبه نظام الشعلة الرياضي، ويعتبر البريد المغولي أضخم نظام بريدي في التاريخ قبل العصر الحديث.

وتميزت أنظمة البريد الإسلامية بتمويلها الحميد البعيد عن السخرة والسلطة على أملاك الناس الخاصة، وتحولها إلى مؤسسة (ديوان) لها أنظمتها المالية والإدارية الخاصة بها، واستفاد النظام البريدي الإسلامي من الأنظمة السابقة في الحضارات الفارسية والبيزنطية والصينية إضافة إلى ما كان يملكه العرب واستخدموه في الجزيرة العربية.

.. وبحلول القرن التاسع عشر فقد تحولت كل هذه الأنظمة البريدية إلى تاريخ وتراث بعيد، فقد أنشأت الثورة الصناعية الأوروبية أنظمة بريد واتصالات مختلفة كليا عن النظام البريدي الراسخ في التاريخ والتجارب الإنسانية لقرون طويلة.



تطور وسائل التواصل عبر الزمن

إن الذي يقول اعتقد ما أعتقده وإلا لعنك الله، لا يلبث أن يقول اعتقد ما اعتقده أو اقتلك.»

فولتير

7I- المدينة محصلة التقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي

تعتبر المدينة تتويجا للجهد الإنساني على مدى آلاف السنين نحو السلام والازدهار، وتعكس نجاح الناس في قدرتهم على العيش معا، وتسمية الحضارة والتمدن بمعنى التقدم مستمد من المدينة والحضر، وتعني كلمة مدينة في جذرها وتاريخها اللغوي العدل والقانون. وبدأت فكرة المدن حول الساحات التي كان يتخذها الإنسان في العصور الحجرية لدفن الموتى والاحتفالات الاجتماعية والدينية، والمقايضة، وتنظيم الصيد وجمع وتخزين الطعام، ويمثل الكهف مكانا آخر في بيئة إنسان العصر الحجري يلجأ إليه الإنسان للزيارة أو الإقامة، ولم تكن الكهوف للسكنى لكنها كانت مراكز للطقوس الدينية. ويلفت الاهتمام المستوى المتقدم للرسومات التي وجدت على جدران تلك الكهوف. وقبل الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلة أو دائمة فقد انشئت ساحات وهياكل للتجمع والالتقاء لأجل الطقوس الدينية والمتعة الاجتماعية والتبادل التجاري. وما زالت مكة والقدس وروما وبنارس وبايينج وكيوتو ولورد تستهوي أفئدة الناس ليحجوا إليها. ومن المعلوم أن الاسم الأصلي لمدينة القدس هو أورسالم، أي مدينة السلام، وهي تسمية تعكس التقليد المتبع في الحضارات الإنساني في التعاقد على مكان وزمان يستطيع فيه الناس جميعا الالتقاء والعمل وممارسة العبادة والتجارة والاحتفال في سلام، كما كان يحدث على سبيل المثال في اورسالم (القدس) ومكة في موسم الحج وسوق عكاظ، وفي البتراء في باحة العرب أو وادي عربة؛ حيث يوجد اليوم آثار قائمة تدل على طقوس وممارسات تشبه لدرجة التطابق شعائر الحج في مكة المكرمة.

يبدأ التضامن والتماسك بمساعدة أهل المدن وأطفالها على العيش معاً.

ومن المحتمل أن يكون الدور الثاني من مرحلة الاستقرار والاستئناس والتغذية المنتظمة قد بدأ منذ خمس عشرة ألف سنة، مصاحبا للزراعة وتقنياتها، واستخدام الحيوانات وتدجينها، وهي المرحلة الممكن تسميتها «الثورة الزراعية» فالاستئناس بجميع صورة ينطوي على تغييرين كبيرين، وهما دوام الإقامة واستمرارها مع ممارسة التحكم والتدبر في أمر عمليات كانت قبلا تحت رحمة الطبيعة، وتسير مع هذا جنبا إلى جنب عادات الإنجاب والإرضاع والتربية. فصار للمرأة حضور مميز ودور أساسي في تربية الأطفال والعناية بهم، والمشاركة في العمليات الزراعية، لقد ترك وجود المرأة أثره في كل جزء من أجزاء القرية: البيت والفرن وحظيرة الماشية وصومعة الحبوب وصهريج الماء ومخزن الغلال، ثم المدينة: السور والساحات والمباني والأروقة،..

هكذا تمثل المدينة سلسلة مطورة ومتراكمة من التقنيات والابتكارات التي نشأت في القرية، الأواني ومخازن الغلال وقنوات المياه. وقد صحب التحول الحضري من القرية إلى المدينة تغير في الوعي الباطن للمجتمع، وأصبحت القرى تحت إشراف وإدارة موظفين عسكريين ومدنيين وجباة ضرائب مسؤولين جميعا أمام الملك. وتشكلت طبقة الحكم والأرستقراطية على أساس القوة والشجاعة والبطولة.

وظهر في حوالي 3000 قبل الميلاد مجموعة من التطورات التكنولوجية التي أسست المدن، مثل زراعة الحبوب، والمحراث،

والعجلة، وصناعة الفخار، والسفينة الشراعية، والنسيج اليدوي، وتعدين النحاس، والرياضيات البحتة، والمشاهدات الفلكية الدقيقة، وتقويم السنة، والكتابة.

لكن المدينة أسست أيضا للحروب والتقسيم الطبقي. وأفضى أيضا نمو الوعي في المدينة إلى ظهور السلوك الأدبي الناجم عن التدبر والروية. .. ومع ازدياد انشغال المجتمع بسبب اتساع آفاق التجارة والصناعة باطراد أصبح الدور الذي كانت المدينة تقوم به بوصفها موئل القانون والعدل والحق والمساواة مكملا للدور الذي تؤديه بوصفها مظهرا دينيا يمثل الكون، ومن ثم أصبح يتحتم على من يريد التظلم من عادة لا يبررها العقل؛ أو من عدوان لا يقره القانون أن يلجأ إلى ساحة القضاء في المدينة. ..

لكن حين اتسع المجتمع الحضري الذي كان ينشأ صغيرا مكتفيا بذاته ليصبح ممالك وامبراطوريات، وزاد عدد سكان المدن تعين اللجوء إلى توسيع نطاق المساحة للازمة لإنتاج القوت الضروري أو توسيع مدى وسائل التموين والاعتماد على مجتمع آخر عن طريق التعاون والمقايضة والتجارة أو عن طريق الجزية قسرا ونزع الملكية والإبادة، فكان على المدينة أن تقرر أن تلجأ إلى السلب أم التكافل إلى الغزو ام التعاون؟

وشمل النمو الحياة الداخلية للمدينة، فازدهرت الآداب والفنون والموسيقى والشعر، وأصبحت مظاهر البهجة التي كانت تقتصر على الأعياد والمواسم جزءا من الحياة اليومية، ولم تعد المدينة مجرد نظام فعال للمصانع والمتاجر والثكنات والمحاكم والسجون، لكنها أيضا تعكس حلم الإنسان وتوقه الى الارتقاء والسلام.

وفي تطور المدينة نشأت الأعمال، كما ظهر أيضا نظام تقسيم العمل؛ ما أنشأ الصنائع والحرف والوظائف المختلفة، لكن هذا التقسيم تحول إلى طبقات، وقد بلغ من تطرف الهند في الأخذ بنظام التخصص في العمل أنه وصل إلى تكريس طوائف مقسمة، ثم تغلغل هذا التقسيم في حياة الناس حتى صار الرق متقبلا لدرجة أن أفلاطون اعتبره حقيقة ماثلة من حقائق الطبيعة!.

وقد نشأ عن تقسيم الناس إلى طبقات وفقا للمهن والطوائف أنه تكون منهم في المدينة القديمة هرم حضري كان يبلغ ذروته في الحاكم المطلق، كانت القمة تتألف من الملك والكاهن والمحارب والكاتب، ومن تحته كانت الطبقات تتسع تدريجيا، وتتألف من التجار وأرباب الحرف والمزارعين والملاحين وخدم المنازل والأرقاء المحررين والأرقاء، وكانت أحط الطبقات تقبع في ظل دائم، وكانت هذه التقسيمات تبدو في الملابس وفي أسلوب الحياة وفي الطعام وفي المسكن.

ثم نشأ تقسيم جديد للناس: أغنياء وفقراء، وهو تقسيم صحب ازدياد عدد السكان وزيادة الثروة ونظام الملكية، إذ لم تكن الملكية قائمة قبل المدينة. وتظهر شرائع حمورابي 1700 ق.م عن الملكية الخاصة ونقلها وإعارتها وتوريثها أن هذا الوضع القانوني الجديد كان قد ظهر إلى الوجود.

لقد أعادت المدينة تكوين الإنسان، وظلت تنشئ أدوارا وحالات جديدة مع تعاقب الأجيال، ما جعل القيم والعمارة واللباس

«المنازل تؤلف بلدة. لكن المواطنين يؤلفون المدينة.»

روسو

والطعام والقوانين والعادات تتطور وتتغير على نحو دائم ومتواصل. واستطاع الإنسان الحضري بالعمل والمشاركة وكذلك بالعزلة والتأمل أن يوفر لجانب أكبر من الحياة فرصة الإفادة من ممارسة الفكر والروح الجماعيين ونشاطهما باستمرار، فما بدا على هيئة صراع خارجي مع قوى الطبيعة العادية انتهى إلى دراما داخلية لم تكن خاتمتها أي انتصار مادي، بل ازدياد فهم الفرد لذاته وتطورا داخليا أوسع نطاقا، وبنشوء مجالس المدن والتحادث والدراما تشكل تنوع مهني وفكري واجتماعي، لم تعد المدينة مجتمعا يسوده التماثل التام. وازدهر المسرح والشعر والجدل والمناظرات.

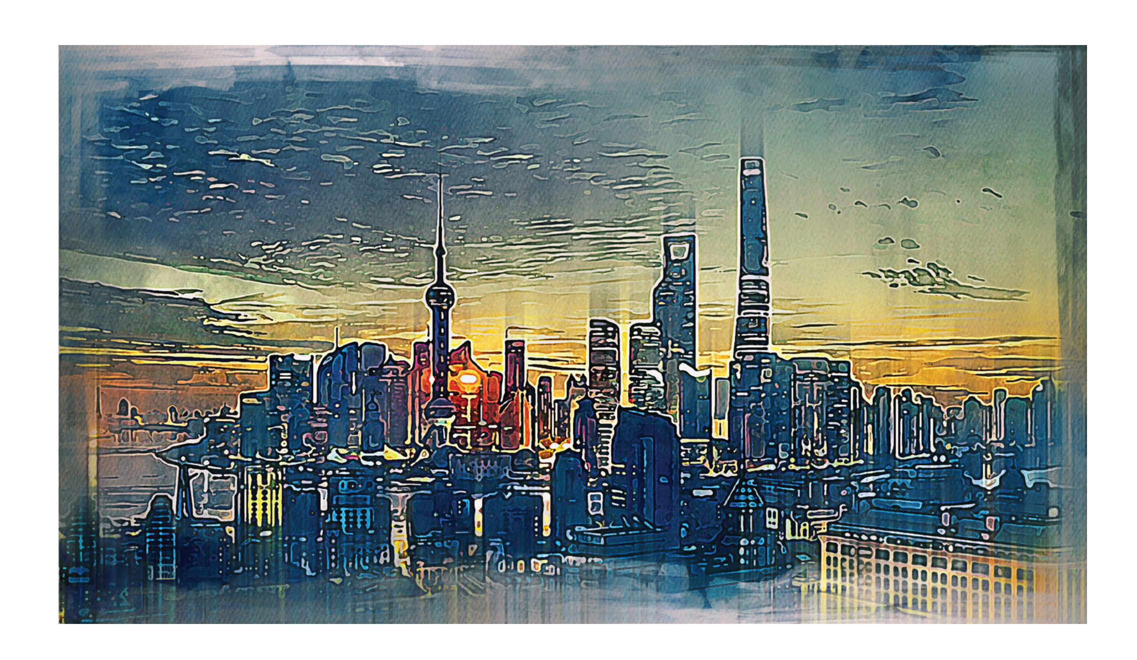
شغل أرسطو بالمدينة، وقد تساءل متى يعتبر الناس الذين يعيشون في مكان بعينه مدينة واحدة؟ اتسعت بعض المدن حتى صارت أمة، ويقال إنه مرت ثلاثة أيام على سقوط بابل قبل أن يشعر بذلك جزء من أهلها. والواقع أن ما يجعل المدينة وحدة واحدة هو الصالح المشترك في العدالة ووحدة الهدف. هدف متابعة الحياة الهانئة. لكن بالنسبة للحجم والاتساع يحب أن تكون المدينة بحيث يستطيع السكان أن يعيشوا في آن واحد عن سعة وفي حدود الاعتدال.

بدأت المدينة الرومانية بالسور على خلاف المدينة اليونانية، وكانت المدينة تتخذ شكلا مستطيلا لأسباب بعضها دينية وبعضها عملية، وكان الرومان يمتازون برصف الشوارع وموارد المياه، وكانت منازل الأغنياء في روما جميلة ومجهزة بالمرافق والتهوية والتدفئة والإضاءة، لكن أغلب سكان المدينة التي كانت تفاخر بأنها فتحت العالم يعيشون في أحياء مكتظة كثيرة الضوضاء عديمة الهواء كريهة الرائحة موبوءة بالأمراض، ويدفعون إيجارات باهظة لمالكين نزعت الرحمة من قلوبهم، ويكابدون من كل صنوف الإساءة والإرهاب ما زادهم خشونة وجعلهم قساة القلوب.

ولم يكن في وسع أحد الإخلال بسلام السوق دون التعرض للعقاب الشديد، فقد اعترف بأن السلام جوهري للتجارة، وذلك منذ أمد بعيد. لكن الدور الذي قام به التاجر في نشأة المدن كان دورا ثانويا، فالمدينة ذاتها كانت مكان التعامل في المنتجات المحلية للزراعة والصناعات اليدوية، وظل التجار حتى أواخر القرن الحادي عشر لا يؤلفون سوى جزء يسير من سكان المدينة.

ومن الملفت في تطور المدن ما فعلته المدن الهولندية، فقد كان رجال أحرار من الصيادين والفلاحين يتجمعون معا عن طواعية واختيار للقيام بعمل كان لا يتم إلى ذلك الحين إلا تحت الإكراه العسكري القاسي والتنظيم الجماعي العنيف، وبدون الاستعانة بآلات سوى المجراف قاموا ببناء جسور عالية ومصاطب عظيمة من التراب كان من الممكن أن تقوم عليه مدينة بأكملها، ولقد كانت هذه الأعمال الباهرة التي تمت بفضل العمل الحر بمثابة تمهيد لانطلاق النشاط الصناعي الذي بلغ ذروته في القرن السابع عشر. وفي عام 1179 جفف الرهبان بحيرة بالقرب من روشفور وحولوها إلى مزارع عظيمة للكروم، وفي سعي الرهبان لتوفير الوقت والجهد ابتكرت آلات ومصادر ميكانيكية للقوة والعمل للري وطحن الحبوب وصناعة الجعة و النسيج ومعالجة الأقمشة والدباغة.

«إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون»
(الحجرات، 10)



صعدت الكنيسة والأديرة في أوروبا كقوة اجتماعية اقتصادية وامنية في تنظيم المدن، فقد كان رجال الكنيسة فضلا على انهم جزء غير قليل من المدن والمجتمعات كانت الكنيسة أيضا تؤدي دورا تعليميا وترعى الجامعات والمدارس والفنون والموسيقى والعلاج والمستشفيات والزراعة والصناعات الغذائية والحرف والصناعات والعناية بالفقراء والمحرومين، .. ولم تنفصل هذه المؤسسات الحضرية عن الكنيسة.

وبعد الكنيسة كانت النقابات هي أوسع ممثلي الحياة الاجتماعية انتشارا وتأثيرا، وهكذا جمعت مدينة العصور الوسطى بين القاعدتين الأساسيتين للزمالة، وهما: العمل المشترك والعقيدة المشتركة. وعندما انفصل الحافز الاقتصادي عن الحوافز الأخرى للنقابة، وأصبح الشغل الشاغل الذي يستنفد كل جهودها تطرق الفساد إلى النظام الاقتصادي والاجتماعي والمدني أيضا، فقد تكونت في داخل النقابات طبقات عليا من أثرياء أقطاب الصناعة لكي تترك امتيازات لأبنائها، وتعمل على إقصاء الصانع الفقير والطبقة المتزايدة من العمال والكادحين، وعندما قضت الخلافات الدينية في القرن السادس عشر على روح الإخاء ذاتها في أوروبا الشمالية قضت أيضا على الطبيعة التعاونية الاقتصادية.

وفي تراكم الثراء وصعود الأثرياء مع نمو حركة التجارة والصناعة ظهرت الفروق بين الطبقات، وتشكلت طبقات تورث المراكز مع الثراء، لكن قوتها لم تمنع اتصافها بالتهذيب وآداب السلوك واللهجة المميزة في النطق، وفي نهايات العصور الوسطى أخذ أفراد من الأثرياء يمنحون المدارس هبات من المال، ويشيدون ملاجئ للفقراء والايتام وكبار السن.

وتشكلت الجامعات في تطور للنقابات فقد كان هدفها الإعداد لمزاولة المهن وتنظيم القواعد التي بموجبها يؤدي اعضاء النقابات أعمالهم، وإن شملت في عملها الفلسفة واللاهوت والدراسات العامة والآداب، والحال أن الدراسات الإنسانية بدأت في الظهور في كليات عصر النهضة بمثابة تطعيم للشجرة الأصلية على يد الطبقات الراقية. وابتداء من بولونيا في

والأكثر شذوذاً في المدن هو «التطرف»، وما ينشأ عنه من عنف وصخب وفضول وتطفل وتشدد.

وهكذا، فإن بين التطرف والتمدن عداوة كبيرة، تجعل التمدن الضمانة الأساسية لمواجهة العنف والتطرف وتحقيق الأمن.

سنة 1100 وباريس 1150 وكامبريدج 1229 وضعت الجامعات نظاما للتعاون في ميدان العلم على أساس التبادل بين الأقاليم المختلفة، وكانت الجامعات تؤدي ثلاث وظائف، استيعاب الثقافة نشرها وتزويدها بالإضافات الخلاقة.

كانت تنتظم الحياة في العصور الوسطى جماعات من العائلات والمهن والأعمال والطبقات، وكانت النقابات تنظم جماعاتها تنظيما اجتماعيا ومهنيا، وكانت البيوت غالبا هي ورشة عمل لصاحب العمل ويشاركه في البيت والطعام والاقامة العمال والخدم.

وكان السور يشكل جزءا أساسيا من المدينة، وكان إغلاق بوابات السور في الغروب ينشئ إحساسا بالوحدة والأمان لدى أهل المدينة، وهو الشعور نفسه الذي يسود اليوم في المدن والمجمعات العسكرية والمغلقة، وكانت بوابة المدينة مكانا للقاء بين عالمين، الريف والحضر، تستقبل الحجاج والتجار والعابرين، وكانت أيضا مركزا جمركيا ومكتبا للجوازات والمراقبة، وعلى مقربة منها كانت تبنى دور التخزين والفنادق والحانات والأسواق.

وكانت الكنيسة مركزا اجتماعيا للحفلات والمسارح ومنتديات للعلم والمناظرة، وساحاتها تستخدم أسواقا ولعرض السلع والبضائع والمناداة عليها، وكانت النقابات تقيم مسارحها وكان يجري ايضا انزال العقوبة بالمجرمين والمرتدين عن الدين، وكانت تقام أيضا المباريات في المبارزة ..

عالم واحد - 4

التفسير الأنثروبولوجي للدين

ربما تساعدنا الدراسة الأنثروبولوجية (علم الإنسان الاجتماعي وعلم الإنسان الثقافي) للدين، على معرفة كيف نفكر وكيف تتشكل القيم والأفكار، وفي ذلك يمكن السيطرة على المعتقدات الزائفة، ومواجهة التنميط في الأفكار والمعتقدات، بل ونعيد فهم التاريخ الإنساني وكيف صارت مصالح أساساً لمعتقدات راسخة تشكل الناس في صراعات مديدة. وكيف تحولت مصالحنا ومخاوفنا إلى فلسفة وعقائد متماسكة نحارب الآخرين لأجلها.

يقدم مارفن هاريس في كتاب «مقدسات ومحرمات وحروب» تفسيراً عقلانياً للسلوك والمعتقدات الدينية، بالنظر إليها محاولات لحماية الموارد وتنظيمها بإيجابية، وتحويل الأعمال والأفكار المفيدة إلى مقدسات دينية، أو في عبارة أخرى مواجهة الإغواء الذي يضر المنظومة الاقتصادية والاجتماعية بالتحريم الإلهي، وتوظيف المحرمات والمقدسات في وظائف اجتماعية واقتصادية، وبالطبع فإنه منهج قديم في الفهم العملي والعقلاني للدين سواء من جانب اللاهوتيين أنفسهم أو علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا.

وعلى سبيل المثال، فإن تحريم ذبح الأبقار في الهندوسية وتحريم لحوم الخنزير في اليهودية والإسلام يعكسان نظاماً اقتصادياً وبيئياً ملائماً، فالحفاظ على حياة الأبقار يتضمن فوائد اقتصادية كثيرة تفوق ذبحها حتى لو كان في ذلك تضحيات وخسائر كما يبدو، ذلك أن البقرة تلد أبقاراً، ويشكل الثور

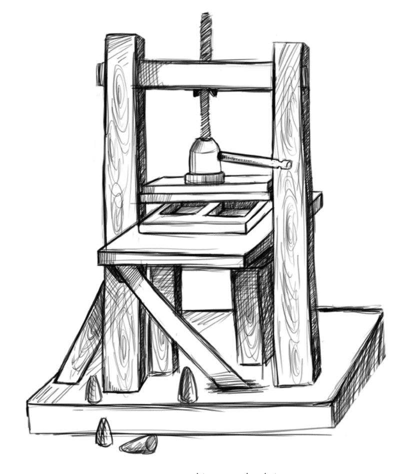
8I- الصناعة

كانت الثورة الصناعية في ثمانينيات القرن الثامن عشر والتي بلغت ذروتها عام 1830 إطلاقا للقوة الإنتاجية للمجتمعات البشرية، وربما كان هذا الحدث هو الأهم في التاريخ العالمي بعد الزراعة ونشوء المدن.

يحدد المفكر الاقتصادي والمستقبلي جاك أتالي تسع موجات للنهضة الاقتصادية الصناعية المعاصرة، ويحدد بدايتها بالقرن الثالث عشر الميلادي، ويرمز إليها بعلامة اقتصادية تكنولوجية ومدينة تشكل مركز القلب لهذه الموجة الاقتصادية التكنولوجية، فكانت الموجة الأولى في مدينة بروج البلجيكية في الفترة من 1200 – 1350م، إذ نشأت في إيطاليا والفلاندر (بلجيكا وهولندا) طبقة اقتصادية جديدة خلاقة، وأنشأت تقنيات جديدة للعمل وتنظيم التجارة والتمويل، مثل آلات النسيج والطواحين المائية، وتطوير السفن لتتمكن من الإبحار ضد تيارات الرياح، وتزويدها بالأسلحة، ما مكن هذه الدول من تطوير الاقتصاد والصناعات الغذائية، والتحكم بالممرات والطرق والتجارة البحرية.

وكانت الموجة الثانية في البندقية فينسيا 1350 – 1500 التي أدارت عمليات تجارية واسعة في البحر المتوسط مع العالم الإسلامي والصين والهند، وتمكنت بذلك من بناء منظومة اقتصادية متطورة قائمة على صناعة السفن والبنوك.

ونشأت الموجة الثالثة 1500 - 1560 حول الطباعة في مدينة أنفرس الهولندية (صارت جزءا من بلجيكا فيما بعد، وتبعد بضع كيلومترات عن الحدود مع هولندا) ونشأت حول المطبعة ثورة علمية وثقافية ودينية غيرت أوروبا والعالم، ثم صعدت موجة رابعة 1560 – 1520 مركزها جنوة الإيطالية حول البنوك والأعمال المحاسبية المالية المتطورة بعدما سمحت الكنيسة بأنظمة التمويل بالفائدة وتوقفت عن اعتبارها ربا محرما، فصعدت أعمال المضاربة والشبكات التجارية والأعمال الاقتصادية المغامرة.



المطبعة القديمة

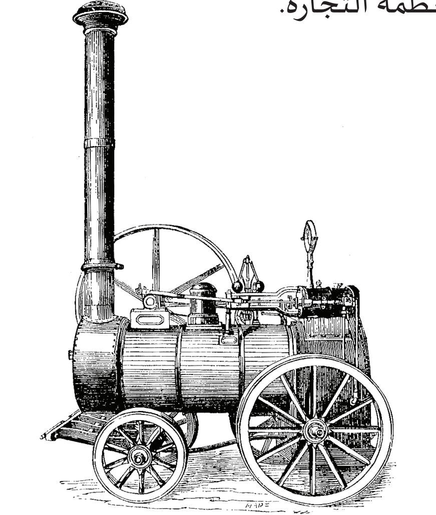
ونهضت موجة خامسة 1620 – 1788 مركزها أمستردام في هولندا قائمة على صناعة النسيج والغزل والصباغة، وتطوير صناعة السفن، إذ تمكن الهولنديون من إنتاج سفن الفلوت التي تعمل بطاقم يقل عن خمس طواقم السفن الأخرى وبسعة وقدرة تتفوق عليها بعدة أضعاف.

وحلت على العالم الموجة السادسة 1788 – 1890 ومركزها لندن، ومزودة بالآلة البخارية التي أسست لثورة صناعية هائلة قلبت العالم والموازين والموارد والأعمال والمجتمعات والقوى رأسا على عقب، لقد غيرت لندن العالم إلى الأبد، ومازال العالم يحمل القيم والثقافات وأنظمة الحياة والعمل والسياسة التي بدأت ونضجت في بريطانيا بدءا بثورتها (المجيدة) في عام

في قواميس اللغة فإن من معاني الحكم؛ القضاء، والحكمة، والإتقان والتصرف أو التحكم، والحكم: التنفيذ....

1689 والتي أسست للديمقراطية والأنظمة السياسية الليبرالية، وصارت القوة العظمى في العالم. وتمكنت من تسيير البواخر والمصانع اعتمادا على الآلة البخارية منشئة بذلك قوة صناعية جبارة وغير مسبوقة تنتج أضعافا مضاعفة بقوة بشرية عاملة قليلة، وتحرك السفن والقطارات في سرعة مضاعفة وقدرة هائلة على النقل، وكذا الأسلحة الجبارة التي أخضعت العالم،.. وانخفضت نسبة الضرائب في الدخل القومي من الثلث إلى العشر مطلقة تقدما سريعا وكبيرا في مستوى المعيشة والوفرة، ما أدى أيضا إلى موجة سياسية ديمقراطية جديدة.

وأخذت بوسطن – الولايات المتحدة زمام المبادرة لتقود الموجة السابعة 1890 – 1929 القائمة على صناعة السيارة والطائرة والمحركات الجديدة التي تعمل بالطاقة المستخرجة من البترول، وأصبحت بوسطن الميناء الأول في العالم، وسيطرت الولايات المتحدة من غير منافس على القارة الأمريكية وأجزاء واسعة من آسيا، وتطورت على نحو مضاعف صناعات الصلب والمناجم وشركات البترول والطرق والبنوك وأنظمة التجارة.



الآلة البخارية

وكانت الموجة الثامنة 1929 - 1980 قائمة على الكهرباء ومركزها نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد غير المحرك الكهربائي بفضل تسلا وأديسون وجهة العالم ، وصارت شبكات الكهرباء شريانه الحيوي والضروري، وصعدت الأجهزة المنزلية الكهربائية مغيرة الحياة والعمل والأسر والعلاقات الاجتماعية والإعلام والتواصل، وحلّ التمدن في العالم وصارت نسبة الريف أقل من المدن لأول مرة في تاريخ الإنسانية.

وكانت الموجة التاسعة في العام 1980 حتى اليوم في لوس انجلوس في الولايات المتحدة أيضا لكن على الضفة الأخرى، وانتقل مركز العالم من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، وهي موجة الحوسبة والتشبيك والاتصالات والتصغير والروبتة والطابعات ثلاثية الأبعاد والطائرات المسيرة،.. وقد يصح تسميتها بالموجة الثالثة، فهي على قدر من الضخامة والتأثير لا يقل عن الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، إنها موجة تستحق مساحة مستقلة!

يعتبر إنتاج القطن أهم الصناعات في القرن الثامن عشر، وتحول القطن من سلعة مترفة مقتصرة على الأغنياء إلى النسيج الاقتصادي المتعدد الاستخدامات، وفي عام 1764 ابتكر جيمس هارجريفر مغزلا ميكانيكيا، وتواصل تطوير آلات النسيج الميكانيكية، وفي عام 1794 اخترع الأمريكي إيلي ويتني آلة نسيج تفصل بذور القطن عن الخيوط, وبفضلها صارت الولايات المتحدة تنتج 80 في المائة من القطن المنتج عالميا، وبين عامي 1801 ـ 1805 ابتكر نساج الحرير الفرنسي جوزيف ماري جاكار نولا يقدر على نسج أنماط معقدة ومتداخلة

باستعمال خيوط حرير مختلفة الألوان، وأدى منتجان آخران هما الفحم الحجري والحديد دورا أساسيا في تحويل بريطانيا إلى أمة صناعية، وقبل الثورة الصناعية قادت بريطانيا العالم في إنتاج وتصدير مدفع الحديد والبنادق وقطع الغيار. وبدأ عام 1712 إنتاج المحرك البخاري باستخدام قوة الضغط الجوي، وفي عام 1769 استطاع جيمس واط ابتكار جهازا ينشئ حركة دائرية بدلا من الصعود والنزول، وكان ذلك أساس الآلات الصناعية، وبدأ استخدام واط في المصانع والطواحين ومحالج القطن، وفي مطلع القرن التاسع عشر أمكن صنع محرك بقوة 100 حصان، أي ضعفي قوة محرك جيمس واط، ويمكن اعتبار المحرك البخاري الرمز الأكثر بروزا للتقدم التقني في مستهل ثورة الصناعة، وفي عام 1807 استخدم المحرك البخاري في دفع السفن، وأحدث ذلك ثورة هائلة في النقل البحري والنهري. وتمثلت الثورة الثانية في النقل في قطارات سكة الحديد التي بدأت تعمل في بريطانيا عام 1825، وانتقلت التجربة فورا إلى الولايات المتحدة، ففي عام 1840 مدت الولايات المتحدة قرابة خمسة آلاف كيلو متر من السكك، وفي عام 1870 امتلكت الولايات المتحدة 85 ألف كيلو متر من السكك. وابتكر أول تلغراف بصري على يد كلود شابب، الذي استخدم على نطاق واسع في إدارة الجيوش وفي نقل الرسائل، وبابتكار البطارية على يد أليساندرو فولتا في عام 1800 نشأت أنظمة اتصال تستخدم نبضات الكهرباء، ولتنشأ شبكات الاتصال السلكية، وصار العالم متصلا ببعضه لاسلكيا بحلول عام 1870. وبدأ تأثير التصنيع في البيئة تأثيرا واضحا، من التلوث والتدمير والنزف. بدأ استعمال الكهرباء عام 1879 للإضاءة، وبدأ أيضا استخدام الهاتف على يد ألكسندر جراهام بل، وتوسع استخدام الكهرباء في النقل والصناعية، وفي عام 1866 صنع الكيماوي السويدي ألفرد نوبل الديناميت، وهي مادة متفجرة أساسها مادة النيتروجليسرين، وفي عام 1909 اكتشف الكيماوي الألماني فريتز هابر طريقة لإنتاج الأمونيا، وهي مادة خام تستعمل في صناعة الأسمدة والمتفجرات، وبعد الحرب العالمية الأولى نجح اختصاصيو الكيمياء في تركيب المطاط والنايلون والبولي إثلين صناعيا، إضافة إلى مواد بلاستيكية أخرى ومنتجات صيدلانية مثل الإسبرين والفيتامينات والهرمونات. وابتدأ الإرسال الإذاعي عام 1920 ثم تكاثرت محطات الراديو في الولايات المتحدة وأوروبا، وتلقى البث الإذاعي معونة مادية من رجال الأعمال مقابل إعلانات عن منتجاتهم وخدماتهم، وبذا أسهموا في صنع ثقافة المستهلك، التي شجعت الناس على الإنفاق لشراء السلع التي تروجها الإعلانات، وفي معظم البلدان سيطرت الحكومات على البث الإذاعي ومولته من الضريبة، وأذيعت برامج ثقافية وأخبار تقبل الحكومة ببثها. وكانت تقنية الاحتراق الداخلي أكثر التقنيات تأثيرا في القرن العشرين على حياة الإنسان، فقد فتحت المجال لصناعة السيارات والطائرات.

وقد تولت بريطانيا دور المبادرة في هذا المجال، ويمكن أن نتخيل التداعيات الهائلة والشاملة للصناعات والنقل والقوة العسكرية بعد تلك الثورة، فقد انطلقت صناعات النسيج والبناء والنقل العملاق عبر البحار وقطارات سكة الحديد، وانقلب رأسا على عقب شكل المدن والطرق والبيوت

> من قلة الدين أن نحرم البشر من حرية دينهم، وأن نحول دون اختيارهم لإلههم، فما من إنسان، ما من إله يرغب في عبادة قسرية.
>
> فولتير

والحياة والتجارة والإنتاج والعمل والمهن والتعليم.

وكانت الثورة الفرنسية عام 1789 تعبيرا عن التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي صاحبت الثورة الصناعية، وابتدأت الأنظمة الجمهورية في الحكم والتي كانت تبدو فكرة متطرفة أقرب إلى الخيال.

وصعدت الطبقة الوسطى إلى واجهة الإصلاح والتأثير بعدما كانت المجتمعات مقسومة بين أغلبية فقيرة من الفلاحين والحرفيين ونخبة متسلطة من النبلاء والإقطاعيين.

وأخذت الحرب أبعادا جديدة، فقد انتشرت في كل مكان وعلى نحو متصل، وغيرت الانتصارات والهزائم خريطة العالم، وأعيد رسم خريطة أوروبا دون إبداء أي اهتمام بتطلعات شعوبها، وامتد الاحتلال (الاستعمار) إلى جميع أنحاء العالم، وأخذت الحرب أبعادا سياسية وتحررية بالإضافة إلى كونها –أساسا- صراعا بين الدول والقوى.

بدأ الإقطاع يتجه إلى الانحسار والأفول لتنشأ طبقة جديدة من العصاميين التجار والمزارعين والمهنيين، أو بتعبير آخر بدأ المجتمع البرجوازي يحل محل المجتمع الإقطاعي، وبدأ مفهوم القوى العاملة يحتل مكانة واسعة في السياسية والاقتصاد.

وبدأ الاقتصاد الصناعي يأخذ مكانة هامة متنامية ليقود الاقتصاد بدلا من الزراعة ويهيمن على الاقتصاد العالمي لفترة لاحقة طويلة، فبدأت المعابر المائية الصناعية والطبيعية وسكة الحديد تشكل شبكة وشريانا من النقل وتبادل السلع والخدمات، وبدأت السفن البخارية تعبر البحار والمحيطات لتنشئ شبكة عالمية من الاقتصاد والهيمنة والتبادل الثقافي والتجاري، ثم بدأت موجة واسعة من الهجرة من الريف إلى المدن والمراكز الحضارية أو بين الأقطار والدول في العالم القديم أو باتجاه العالم الجديد.

أثرت فرنسا في هذه المرحلة بقوة وتفرد برغم أن الثورة الصناعية كانت بريطانية المنشأ، ولكن فرنسا أنشأت نظاما اجتماعيا وثقافيا وتجاريا جديدا يقود العالم، المتاجر الواسعة الضخمة التي تعرض شتى المنتوجات والبضائع، والدعاية التجارية، والتصوير، والتغليف، والخبرات الرأسمالية والمصرفية، والتمويل، والغاز والطاقة، وسكة الحديد.

وبدأت المهن تأخذ مكانة مهمة في الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية لتنشئ طبقات جديدة تحل مكان الأرستقراطية، وظهر مصطلح الطبقة الوسطى، كانت طبقة جديدة من العصاميين والمناضلين والمهنيين والمثقفين الذين واجهوا الحكم الارستقراطي والكنيسة والبروليتاريا أيضا. وكانوا يزدادون ثراء وثقة بالنفس عاما بعد عام، أو كما يقول المؤرخ الاقتصادي اريك هوبز باوم اجتمعت العناية الإلهية والعلم والتاريخ لتجعل الأرض لقمة سائغة لهم.

كان الإنجاز الأكبر للثورتين الصناعية والفرنسية أنهما مهدتا السبيل أمام المواهب، أو على الأقل أمام ذوي الطاقة والدهاء والمجدين. وتوقفت حالة أنه ليس أمام الأبناء سوى العمل في صنعة آبائهم، بل كان أمامهم فرص جديدة ليعملوا في التجارة والتعليم (الذي سيؤدي بدوره



اكتشاف البارود - هانز سيبالد بيهام

إلى أعمال جديدة في الحكومة والمهن والسياسة) والفنون والحرب، وارتفعت المكانة الاجتماعية للمسرح، ونشأت ظاهرة النجوم من المغنين والموسيقيين والممثلين

وتحول الفقراء والكادحون الذين لم يستفيدوا من التحولات إلى ثوار ومتمردين، وبعضهم تعرض لكوارث اجتماعية واقتصادية بسبب عجزهم عن مواكبة واستيعاب التقدم الصناعي والتقني الذي زاد من بطالتهم وقلل من أهميتهم في الاقتصاد والعمل. فانتشر إدمان الكحول الجماعي ليصبح ملازما لعمليات التصنيع والتحضر المتهورة، وأصبح الإغراق في الخمر وباء اكتسح أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وانتشرت الدعارة والانتحار والجريمة والتشرد، وعادت بسبب الإهمال والزحام أوبئة الكوليرا والتيفوس.

ولكن ذلك لم يكن المشهد كله، فقد امتدت التحولات إلى الأفكار والمعتقدات والآداب والفنون لتصعد العلمانية التي تقلل من دور الدين في الحياة والسياسة، فكانت الرؤى والنظريات الماركسية والليبرالية، وظهر مفكرون مازالوا يقودون التفكير والنظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مثل إميل دوركهايم، وماكس فيبر وأوغست كونت، وآدم سميث.

وازدهرت حركة الفنون والآداب، ومازالت الأسماء التي ظهرت في هذه المرحلة تقود الأدب والفن والفلسفة، مثل نيتشة، وديكنز، ودستويفسكي، وموتزارت، وبوشكين، وبلزاك، وغوته وشيللر وجان بول، وروايات لأمثال والتر سكوت، وفيكتور هوغو، وأليساندرو مانزوني، وقصائد لشعراء مثل ليوباردي وألفريد دوفيني.و

تتمة عالم واحد - 4

عمدة الحياة الزراعية في الهند للجر والحراثة، ومن دونه فإن المزارع يفلس، وتقدم البقرة الحليب للطعام، كما أن روثها مصدر للسماد والطاقة الضرورية للطهو والبناء، وعندما تموت فإن فئات اجتماعية تأكل جثتها وتستفيد من جلودها. والبقرة تتغذى أساساً على مواد لا يحتاج إليها الإنسان، مثل القش والأعشاب، وعلى أي حال فإنه لا يتوقع أن يستطيع أكثر من عشرة في المائة من الهنود أن يجعلوا من لحم البقر جزءاً من نظامهم الغذائي سواء كانوا يؤمنون بذبحها أم لا.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي، ردّ الرابي والفيلسوف والطبيب، موسى بن ميمون تحريم الخنزير إلى أن لحمه يضر بالصحة، وفي ذلك فإن ابن ميمون فتح المجال مبكراً للبحث عن تفسير طبيعي واقعي للتحريم، وإن قدم في ذلك رؤية طبية خاطئة.

ظهرت أعمال فنية مسرحيات وروايات وقصائد خالدة مازالت تتداول على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم حتى اليوم.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر أصبح العالم عالما آخر مختلفا اختلافا كبيرا عن ما كان عليه من قبل. فقد تقدم العلم واتسعت آفاق المعرفة، واطلع الناس على ما يجري من تطورات، وظهرت اختراعات مذهلة حولت حياة الناس، المصانع والمختبرات، واستخدام الغاز والطاقة والكهرباء، وسكة الحديد والآلة البخارية والمحركات. وصحب ذلك تحول الأنظمة السياسية وظهور الجمهوريات وأنظمة الحكم الديمقراطية، وصعود الطبقات

الوسطى، وظهور الاتحادات والنقابات المهنية.

ولكن في الشوارع الخلفية من هذه الحضارة الجديدة المبهرة كانت حالات جديدة من البؤس والجريمة والفقر والتشرد، وكان عدد العبيد في أفريقيا نحو مليونين ونصف المليون شخص، وإن كان نظام السخرة والرق قد بدأ بعد ذلك بقليل يدخل مرحلة النهاية والأفول.

وبدأ للمرة الأولى سكان المدن والحضر يتجاوزون سكان الريف لتنشأ المدن العملاقة، وتنمو مداخيل الطبقة الوسطى من سكان المدن ومؤسسيها وقادتها الجدد، وفي نهاية هذه المرحلة كانت القوة الأوروبية هي المهيمنة على العالم، فقد تهاوت أو بدأت بالتهاوي الإمبراطوريات الهندية والصينية والتركية العثمانية.

وقد اندلعت في عام 1848 ثورة اجتماعية كانت مقدمة للثورة الشيوعية بعد ذلك بأكثر من ستين سنة، فقد كانت هذه الثورة انتفاضة للكادحين والعمال. وحشدت الطبقات الاجتماعية في العواصم في وسط وغرب أوروبا، وعندما هدأت العاصفة وقف العمال ليطالبوا بالإضافة إلى الخبز والعمل بإقامة مجتمعات ودول جديدة، ولم تكن هذه أحداثا عابرة، بل كانت مقدمة لحدث كبير ينتظره جميع الناس ويدركونه ويتناقلون أنباءه عبر التلغراف الكهربائي.

تتمة عالم واحد - 4

يجد هاريس تفسير التحريم في فهم العمليات الأساسية التي يتمكن البشر والحيوانات بواسطتها من التعايش في جماعات طبيعية وثقافية قابلة للحياة، يقول: أعتقد أن التوراة والقرآن حرما الخنزير لأن تربيته تشكل خطراً على سلامة المنظومات البيئية الأساسية للشرق الأوسط، فالخنازير في بيئة الشرق الأوسط تهدد البيئة أكثر مما هي استثمار، ففي هذه البيئة الجافة قليلة المطر تشكل المواشي المجترة مجالاً أفضل للتقاسم الغذائي والتكيف البيئي، ويعد الخنزير كائن أحراج وضفاف أنهار مظللة في المقام الأول، ومعظم غذائه يأتي من الغذاء منخفض السيليلوز كالحبوب والثمار والدرنيات؛ ما يجعله المنافس المباشر للإنسان، فهو لا يستطيع أن يعيش على العشب وحده، كما أنه ليس مصدراً للحليب، ولا يمكنه الانتظام في قطيع. والخنزير سيئ التكيف مع البيئات الحارة والجافة، فقدرة الخنزير على التعرق تساوي 3 في المائة من قدرة الإنسان ما يجعله يتعرض للموت إذا ارتفعت حرارة الجو أكثر من 30 درجة مئوية. ولتلافي ذلك يحاول ترطيب جلده بمرطب خارجي كالتمرغ في الوحل الرطب. وتزيد قذارة الخنازير بسبب ارتفاع الحرارة لكنه يسلك سلوكاً نظيفاً إذا انخفضت الحرارة عن 28 درجة.

9I- المال يتطوريحول العالم إلى التداخل والاعتماد المتبادل

يلاحظ المفكر والمؤرخ الاقتصادي نيال فيرغسون أن التقدم والأحداث الكبرى المشهورة في التاريخ يفسرها النشاط الاقتصادي والمالي، فقد كان المال ضروريا للتقدم والرخاء وإن أدى إلى حالات من الفقر والمقامرة والاعتداء على حقوق الفقراء لكن المال مثل التكنولوجيا ساهم في تطور الحضارة منذ بابل القديمة حتى هونغ كونغ الحاضرة.

لقد كان المال هو السر وراء كل ظاهرة تاريخية عظيمة؛ فقد أوجد عصر النهضة ازدهارًا كبيرًا في سوق الفن والهندسة المعمارية لأن المصرفيين الإيطاليين جمعوا ثروات من خلال تطبيق الرياضيات الشرقية على المعاملات المالية، وتفوق الهولنديون بامتلاك أول بورصة عالمية، كانت أفضل من مناجم الفضة.

كان اكتشاف الذهب والفضة في القارة الجديدة في أوائل القرن السادس عشر تحولاً كبيرًا في الثروة والقوة، وقد استولت إسبانيا على 45 ألف طن من الفضة الخالصة بين عامي 1556–1783، وبذلك فقد وجّهت ضربة قاصمة للهيمنة العربية والإسلامية على سوق المال والتجارة، ولكن هولندا تفوقت على إسبانيا؛ عندما لم يستطع الإسبان فهم أن قيمة المعادن الثمينة ليست مطلقة؛ إذ تساوي القيمة التي يستعد الآخرون أن يدفعوها مقابلها.

البنوك والنقود

«النقود مسألة اعتقاد، إيمان بالشخص الذي يدفع لنا، ومن يصدرها لنستخدمها، والمؤسسة التي تقبل الشيكات والتحويلات الصادرة عنها،... المال ليس معدنًا، ولكنه الثقة منقوشة، سواء كان هذا النقش على الذهب والفضة أو الورق أو الصلصال (بابل) أو الكريستال السائل أو الصدف (المالديف) أو الأقراص الحجرية المستخدمة في جزر المحيط الهندي، وفي العصر الشبكي يمكن أن تكون ومضة الكترونية نقودًا، وليس مصادفة أن أصل كلمة credit «ائتمان» هو كلمة credo وتعني في اللاتينية «أنا أصدّق».

في القرن الثالث عشر طور دي فيبوناتش أنظمة المحاسبة بإدخال الأرقام العربية التي تعرّف عليها في أثناء عمله وإقامته في بجاية في الجزائر، وتطور نظام الإقراض على يد التجار اليهود في إيطاليا حين كانت المسيحية تحرم الربا، واليهودية تبيح لليهود إقراض غير اليهود بالربا، واستحضرت مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» تلك الظروف، وتؤشر المسرحية على إمكانية الإقراض بفوائد كبيرة وضمانات القروض المستخدمة ووجود محاكم لحل الخلافات.

كان يُنظر إلى المعادن الثمينة على أنها هي النقود، ويعبَّر عنها أحيانًا بسندات ورقية مالية، وبدون ذلك فهي «مزيفة». وفي عام 1971 أغلق الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون نافذة الذهب التي كان يمكن فيها مبادلة الدولارات في ظروف محددة بعينها بالذهب، واعتبارًا من ذلك التاريخ كُسرت الحلقة التي استمرت لقرون تربط بين المال والمعادن الثمينة، وأدى ذلك إلى توسع

«أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا ، وَبَائِعًا، وَقَاضِيًا، وَمُقْتَضِيًا»

حديث نبوي

نقدي غير مسبوق، رافقته زيادة كبيرة في الإقراض لم يشهد لها العالم مثيلاً.

السندات والبورصة

بعد إنشاء البنوك للائتمان كان ميلاد السندات، وكان ذلك ثورة كبرى ثانية في صعود المال؛ فالحكومات والشركات الكبيرة تصدر السندات كوسيلة لاقتراض المال من مجموعة من الناس والمؤسسات اكثر اتساعًا من البنوك. ثم نمت البورصة من بدايات متواضعة في شمال إيطاليا قبل نحو 800 عام إلى حجم هائل؛ فالقيمة الإجمالية للسندات التي يتم التعامل فيها دوليًا في الوقت الراهن هي 18 تريليون دولار، وتبلغ قيمة السندات على المستوى المحلي 50 تريليون دولار.

الشركات

الشركة أكثر الاختراعات أهمية في العصر الحديث؛ ذلك أنها تسمح لآلاف الأفراد بأن يجمعوا مواردهم للقيام بمشروعات طويلة الأجل تتسم بالمخاطرة وتتطلب استثمارات بمبالغ ضخمة من رأس المال قبل أن تحقق أرباحًا. وبقدر ما كانت الشركات اختراعًا عظيمًا فقد رافق مسيرتها دائمًا سلسلة من الاحتيال والأسواق غير العقلانية، ولمواجهة المشكلة نشأ سوق التأمين.

التأمين

بدأ نوع من سوق التأمين يتكون في لندن اعتبارًا من أواخر القرن السابع عشر، وأُنشئت أول شركة للتأمين ضد الحريق عام 1680، وبدأت في الوقت نفسه سوق متخصصة بالتأمين البحري، ولم يكن التجار المؤسسين الحقيقيين للتأمين بل علماء الرياضيات، ولكن رجال الدين هم الذين حولوا النظرية إلى التطبيق، عندما أنشأوا في أسكتلندا في القرن السابع عشر صندوقًا لإعانة أرامل وأيتام رجال الدين الذين يتوفون. وتطور نظام التأمين إلى نظام اقتصادي اجتماعي حكومي (دولة الرفاه)

العقارات

كان امتلاك المنازل أساس الأرستقراطية البريطانية ثم صار أساس الديمقراطية. .. «آمن كالمنازل» عبارة متداولة تعكس توق الناس إلى امتلاك البيوت، وتعني أيضًا أنه ليس أكثر أمانًا من إقراض المال لأناس لديهم أملاك عقارية، ولذلك فإن أهم مصدر أموال للأعمال التجارية في الولايات المتحدة هو الرهن العقاري.

ولكن برغم الثقة بالعقار وتطور العمل المالي ومؤسساته ما زالت عمليات التمويل معرضة لخطر الأزمات كما كانت في أي وقت مضى، لقد وقعت الأزمة المالية العظمى بسبب الاستثمارات والرهون العقارية وتسمى أحيانًا الفقاعة العقارية.

العولمة والأسواق

إلى أي مدى ساهمت العولمة والمعلوماتية في تشكيل الأسواق وأزماتها؟ وهي بالطبع أسئلة تكاد تكون مستجدة تمامًا في ظل الفرص والتحديات والعوالم الناشئة عن تقنيات الحاسوب والاتصالات والعولمة والتداخل والاعتماد المتبادل الذي ينشئ عالمًا اقتصاديًا واجتماعيًا جديدًا ربما يكون منقطع الصلة بالماضي، وهناك اقتصاد جديد عملاق ومتنام يقوم على المعرفة والإبداع يغيّر جذريًا في الموارد وقوى الأسواق وعلاقاتها.

«التشابه يؤدي حتما الى التطرف، والاختلاف يؤدي إلى الاعتدال»

هناك اليوم أيضًا ظواهر اقتصادية جديدة وتبدو مفاجئة في الاقتصاد العالمي وتحدث للمرة الأولى (ربما) في التاريخ الحديث، مثل ما أشار إليه تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية من صعود قوى اقتصادية جديدة تؤثر في الاقتصاد العالمي، مثل: الهند والصين والبرازيل واندونيسيا؛ فالجنوب اليوم يقود الاقتصاد بدلاً من الشمال الذي هيمن على قيادة الاقتصاد العالمي لأكثر من خمسمائة سنة!

لقد دخل العالم في مرحلة من التطور والتعقيد، وصارت السياسة تؤثر في الأسواق والاقتصاد والعكس صحيح أيضا، وغيرت التكنولوجيا في طبيعة الأعمال والمدن والمجتمعات، وتعقدت العلاقة بين الاقتصاد والمجتمعات، هكذا ظهرت على سبيل المثال الشيوعية والاشتراكية في مواجهة الرأسمالية، وتحول الخلاف الاقتصادي إلى انقسام سياسي عميق وخطير شمل العالم، ووقعت حربان عالميتان مدمرتان، الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) والحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) وقتل في هذه الحروب عشرات الملايين، واختفت دول، وظهرت دول جديدة.

وطورت الآلات الأسواق إلى درجة التأثير في وجهة الدول والمجتمعات، وصعوبة تنظيم الأعمال والمصالح في داخل الدولة الواحدة أو بين الدول، وصار العمل جزءا كبيرا من الأعمال والأسواق، كما امتدت الأسواق إلى الأرض والمال والنقود، وصارت الأرض للمرة الأولى سلعة، وتطورت الشركات وأنظمة التمويل والبورصات والأسهم منشئة نظاما ماليا واقتصاديا معقدا ومستقلا عن الإنتاج. وصارت حاجة كبرى لتنظيم العمل وقوانين العمل والأجور وتنظيم حقوق وواجبات العاملين والمؤسسات، وصار العمل أساسا للدول والمجتمعات، واحدا من أهم واجبات الدولة. وظل الفقر والتهميش تحديا مزعجا للأمم. واتسعت المدن وصارت تستوعب معظم السكان لأول مرة في تاريخ الإنسانية، وبدأت تتدفق أعداد هائلة من الناس من الريف إلى المدن، وتضيق بهم الأماكن، وهم لا يجدون مأوى ولا عملا، لكن ربما كانت فضلات الشوارع أرحم من الريف البائس الذي عجز عن إطعامهم، فعندما حلت الثورة الصناعية قلبت كل شيء رأسا على عقب، فقد ارتفعت أسعار الحبوب والمواد الغذائية أضعافا مضاعفة، وانخفضت أجور العمال، واختفت طبقة صغار المزارعين، وبدأت الآلة تحل محل اليد العاملة على نطاق واسع، وضاقت المساكن في المدن بأصحابها، وانتشر التشرد والإدمان والجريمة على نطاق واسع. لماذا غابت الإشارات التي تنبئ بالتحولات الوشيكة والحتمية المصاحبة للصناعة؟ يتساءل المفكر الاقتصادي بولاني، بل ويؤكد أن المراقبين المعاصرين أيضا كثير منهم أغفل التحولات المصاحبة للصناعة في فهم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الذي تشكل وغير العالم، وذلك على رغم الإجماع والبداهة اليوم على الأثر الذي أحدثته الصناعة في حياة العالم وموارده وتشكلاته الاجتماعية والثقافية.

كانت الآلة تغيرا جوهريا في المهن، فتزيد البطالة، ويجري استيعاب بطيء للأيدي العاملة في ظل الآلة واحتياجاتها وتعقيداتها، على رغم التسهيلات الكبرى التي منحتها، اختفت مهن كثيرة، وكانت المهن الجديدة في حاجة إلى تأهيل وخبرات مختلفة لم يكن


المقايضة


ذهب وفضة


نقود



بطاقة بنكية

تطور المال عبر الزمن

معظمها متاحا للراغبين في العمل، وتطورت المدن والتجارة الخارجية تبعا لتطور الصناعة، لكن لم يتشكل تفكير وتخطيط اجتماعي يستوعب هذه التحولات، فهذا الانسلاخ الكبير والفجائي عن المواطن الأصلية في الأرياف والقرى والدخول في عالم جديد بأنظمته وعلاقاته وأسلوب حياته بدل كثيرا في المنظومة الاجتماعية والثقافية التي كانت، وعلى نحو غير منظور وربما غير مكتشف، تمنح الأفراد والمجتمعات قدرا كبيرا من الاحتياجات والأمان والتنظيم، وكانت الخسائر الاجتماعية أكبر من المكاسب الاقتصادية.

تشكلت تجمعات صناعية جديدة تمنح أجورا أعلى وشعورا أفضل بتقدير الذات، وصحب ذلك موجة سخط كبير على الواقع المتردي في الريف، وكراهية شديدة للزراعة والأعمال الزراعية، وكانت المناطق الصناعية تشبه بلادا جديدة تجتذب المهاجرين بالجملة، وكانت العودة إلى الأوطان الأصلية لبعض الوقت والنقل المتبادل بين الريف والمدن الصناعية الجديدة يشحن الناس بالإشاعات والآمال والأوهام، وهكذا بدأ الريف يخلو من ساكنيه، والمدن تنمو وتتضاعف في نموها، وصارت المدن العملاقة!! وفي الوقت نفسه، فإن المجمعات الصناعية كانت تخلو من التنظيم والقوانين والوضوح، فالعمال الذين يشتغلون اليوم بكامل طاقتهم قد يكونون غدا في الشارع يتسولون خبزهم، وعندما تفقد مدينة صناعتها التي اشتهرت بها، فإنها تتحول إلى مجاميع هائلة ومشلولة في الوقت نفسه، يتحول السكان فورا إلى عالة، وإذا عاد العامل إلى قريته فإن المأساة تزيد أيضا، فقد تعلم الناس أعمالا ومهنا لا مجال لها في الريف، ولم يعودوا قادرين على العمل في الزراعة.

المسيحية، الدين الأكثر تأثيرًا و انتشارًا في العالم

تعتبر المسيحية اليوم أكثر الأديان انتشارًا، إذ يتبعها حوالي ألفين وأربعمائة مليون، يشكلون الأغلبية السكانية في 126 بلدًا في العالم، وترتبط التسمية بالمسيح عيسى ابن مريم، ويسمى المسيحيون في القرآن «النصارى» ولعلها من النصرة، وربما تكون تسمية يعود جذرها إلى «نذر» الآرامية والعربية، في حين يعتقد باحثون أنّ «النصارى» هي طائفة مسيحية انقرضت.

وبحسب الأستاذ نقولا زيادة في كتابه «المسيحية والعرب» فقد اعتبر المسيحيون أنفسهم ديانة جامعة عامة مختلفة عن اليهودية، وقد تخلّت هذه الجماعة عن الطقوس اليهودية، ويعتبر بولس الرسول أهم مُنظّر لها، وكان المسيحيون في القدس يعتبرون فرقة يهودية جديدة، وقد كان اليهود ينتظرون المسيح المنتظر، ولكنهم اعتبروا المسيح والمسيحيين خوارج على الدين اليهودي. وأمّا في أنطاكية البعيدة عن اليهود، فقد كانوا يعتبرون ديناً جديداً، وهناك أطلقت عليهم تسمية المسيحية.

يردّ بعض الباحثين تقدم المسيحية وانتشارها إلى حالة الضياع الروحي التي كانت سائدة وقت ظهورها، وفقدان الثقة بالأديان القديمة، وما أصاب الإمبراطورية البيزنطية من أزمة اقتصادية اجتماعية، .. في ظلّ ذلك جاءت المسيحية برأي جديد رفيع وإيمان عميق سماوي وأمل ورجاء في الحياة حاضرها وقادمها.

يؤمن المسيحيون بالكتاب المقدس، وهو يقسم إلى قسمين: العهد القديم، والعهد الجديد، ويتألف العهد الجديد الذي هو كتاب المسيحية من أربعة أناجيل، هي التي كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وقد دُوّنت الثلاثة الأولى بين سنتي 65 - 90م، ودُوّن الرابع بين سنتي 110 - 125م، ويضم العهد الجديد أيضًا أعمال الرسل

اعتبر اهم مفكر اقتصادي في عصر الصناعة؛ آدم سميت ثراء الأمم إحدى وظائف الحياة الاجتماعية والطبيعة الأخلاقية، وقال إن القوانين التي تتحكم في الجانب الاقتصادي من الكون تنسجم مع مقدرات الإنسان كتلك التي تتحكم في الجوانب الأخرى، فليس هناك يد خفية تحاول أن تفرض علينا الطقوس الوحشية باسم المصلحة الذاتية، فكرامة الإنسان هي في كونه كائنا أخلاقيا، الذي هو باعتباره عضوا في نظام مدني يضم العائلة والدولة «مجتمع الإنسان العظيم».

وبملاحظة الفرق بين الدولة والمجتمع قدم مؤسس الحركة التعاونية روبرت اوين (1771 – 1858) أفكارا ومبادرات لتنظيم العلاقة بين المجتمعات والأسواق والدولة على النحو الذي يحمي المجتمعات ويحمي الأسواق وايضا المصالح العامة، فالطبقات الاجتماعية والعاملة لديها التصور الواضح للتأثير في بيئة العمل باتجاه توازن عادل ومعقول في الحقوق والأرباح، وبناء وحماية القيم العامة مثل الشجاعة والكرم، لكن المصالح العامة مثل حماية البيئة واستعمالات الأراضي، ونوعية الحياة والتعليم والصحة والتكافل الاجتماعي، والتخطيط لمصالح وحقوق الأجيال القادمة تحتاج إلى سلطة سياسية.

هكذا يمكن النظر إلى المعادلة على النحو التالي: تزدهر التجارة والأسواق، فتزيد فرص العمل للمجتمعات، وفي نمو الاقتصاد الوطني تكون العملة الوطنية في أمان، لكن طبقة التجار ورجال الأعمال لا تأخذ بالاعتبار الأخطار الناجمة عن استغلال القوة البدنية للعامل، والتفكك الأسري، وتقهقر البيئة المحيطة، وتحول الغابات إلى أراض جرداء، وتلوث المياه، وتردي مستوى الحرف، وانحلال طرائق الشعور والتفكير الشعبي.

عالم واحد - 5

وأخبار الأوائل ورسائل وُجّهت إلى المؤمنين في القرن الأول. لم يتمّ القبول بالعهد الجديد قانوناً للعمل والرأي المسيحي إلا في القرن الرابع الميلادي، وقد كتبت جميع الأناجيل باليونانية.

يعتقد اليهود والمسيحيون أنّ الكتاب المقدس بقسميه كتب بوحي وإلهام، وأنّه كتاب معصوم، وثابت إلى الأبد، وغير قابل للنقض، ويتكون العهد القدم من 46 سفرًا، يطلق عليها اليهود اسم «التناخ» ويتكون العهد الجديد من 27 كتابًا منها الأناجيل الأربعة، وتعتبر التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى، وبعض الطوائف مثل السامريين لا يؤمنون إلا بها كتابًا مقدسًا.

وتؤمن المسيحية بإله واحد، وفي الوصية العظمى على لسان يسوع المسيح كما في إنجيل مرقس «اسمع يا إسرائيل، الرّب إلهنا ربّ واحد، فأحبّ الرب إلهك، بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل فكرك، وبكل قوتك».

تنقسم المسيحية اليوم إلى ثلاث طوائف رئيسية: الأرثوذكسية، والكاثوليكية والبروتستنتية. ويبدو التاريخ الأوروبي سلسلة من الحروب والصراعات والفوضى الناجمة عن الحروب والخلافات الدينية، عندما انشقت الكنيسة بين الكاثوليك والأرثوذكس، ثم بين الكاثوليك والبروتستانت، بالإضافة إلى الصراعات والتضحيات التي ارتبطت بسعي الإنسان الدائب للحرية والتقدم والفردانية. وبقدر ما كانت التجربة قاسية ومليئة بالنماذج الموحشة والمظلمة فقد كانت أيضًا مفعمة بالتقدم الإنساني، فالحريات والعلوم والحضارة القائمة اليوم هي من محصلات أو نتائج هذا الكفاح والجدل مع الدين والكنيسة ودروهما وموقعهما في الحياة والسياسة.

10I- المعلوماتية أو ما بعد الصناعة



مازالت المرحلة الاقتصادية الاجتماعية المصاحبة لتكنولوجيا الحوسبة وما بعدها تتعدد تسمياتها ومفاهيمها، المعلوماتية، المعرفة، الشبكية، الرقمنة والديجيتال، الثورة الصناعية الرابعة، ما بعد الصناعة، وكلها بالطبع مستمدة من الرقمنة التي بدأت منذ منتصف القرن العشرين، وصارت تحول في الموارد والأعمال والفلسفة والقيم والأفكار والثقافة والعلاقات والتنظيم الاجتماعي والأخلاقي، ...

لقد انتقل الجزء الأكبر من الأنشطة الإنسانية إلى العوالم الرقمية، وقد تطورت الحواسيب الشخصية والانترنت والهواتف الناقلة على نحو يغير جذريا علاقتنا بالعلم والحياة.

في عام 1945 ألقيت قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما، وقتل على الفور نحو 80 ألف شخص، وكان هؤلاء أحسن حظا من الذين نجوا ليموتوا فيما بعد بأثر الحروق والإشعاعات السامة، لكن الحرب العالمية الثانية أسست لعمليات بحوث وتجارب كثيرة جدا أطلقت سلسلة من المنجزات التقنية المدهشة، مثل الرادار لتقصي الطائرات، والطائرات النفاثة، والكمبيوتر، والصواريخ، والمضادات الحيوية، والمركبات الفضائية، والترانزستور، والتقنيات الزراعية والحيوية.

لكن يثور جدال حول قيمة الكثير من تلك التقنيات، إما لأنها شديدة التدمير، مثل القنابل النووية والصواريخ العابرة للقارات، وإما لأنه يتبين أنها تتضمن الكثير من المخاطر والتكاليف غير المتوقعة، مثل الطاقة النووية، فقد استفادت الإنسانية أو ثلثها الغني على الأقل من الرادار والكمبيوتر والمضادات الحيوية، وبرهنت التقنية في زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثل الترانزستور والإنترنت والتلفزيون والكمبيوتر الشخصي والمحاصيل المعدلة جينيا أنها عميقة الفائدة. وفي المقابل وعلى غرار التقنيات الأخرى التي أدخلت منذ الثورة الصناعية، تستهلك تلك التقنيات الكثير من الطاقة المواد الخام والأرض، وتلوث البيئة وتدمرها

وتستنزفها، وتلحق الضرر بالعالم الطبيعي، ولم تعد التكنولوجيا وسيلة للبقاء في وجه طبيعة مادية، بل صارت رحلة سعيدة على حساب الطبيعة، إلى متى تستطيع هذه الرحلة السعيدة أن تدوم؟

وكما غيرت الزراعة في المجتمعات والدول والحضارات بانتقال البشرية من الصيد والرعي، وكما غيرت الصناعة في موازين القوى والعلاقات الدولية الإستراتيجية والاقتصادية فإن المعرفة تغير معظم إن لم يكن جميع المنظومات الاقتصادية والتنموية والسياسية والإستراتيجية.

فدور الدول والحكومات يتعرض لتغيير كبير، وكذلك الأنظمة الاقتصادية والتشريعات، وقواعد تنظيم الحياة العامة والعلاقات الاقتصادية بين الدول، ويقترب العالم من مرحلة من التداخل والاعتماد المتبادل، والمشاركة في كثير من أدوات المعرفة والاتصال التي جعلت كثيرا من أدوات المعرفة والسيادة والإدارة معرضا للزوال أو التغير.

جعلت تقنية المعلومات والاتصالات الحياة شبكية وقوضت الهرم الذي ظل رمزاً وفلسفة ومنهاجاً، فقد كانت الحكومات والنخب والإدارات العليا في الشركات والمؤسسات تملك هذه المعلومات وتتحكم تماماً في طريقة بثها وتدفقها، وتحدد من تصل إليه المعلومة. وكانت جهة واحدة هي التي تتلقى جميع المعلومات ثم تقرر مصيرها.

ولكن المعلومات تصل اليوم عبر الإنترنت والأقمار الصناعية إلى أي شخص مهما كان موقعه الهرمي في المجتمع والدولة، وتقبع أجهزة استقبال المحطات الفضائية ومواقع الإنترنت في مكاتب رؤساء الحكومات وقادتها كما هي تماماً عند الصحفي في بيته أو ربة المنزل. ولم تعد الرقابة على المطبوعات والمواد الإعلامية مؤثرة أو فعالة.

والشبكية نفسها تتحول إلى فلسفة في الحياة والإدارة والتعليم والسياسة والثقافة بديلة للهرمية القائمة أو التي كانت قائمة، فالناس في تعاملهم الشامل مع الشبكات للتعليم والتواصل والاتصال والعمل والتشاور والحصول على المعلومات والمعارف وتبادل الآراء والخبرات والمعارف وتحويل وتلقي المال والخدمات والسلع، يستبدلون بنظامهم الهرمي التاريخي في الحياة نظاما شبكيا قائما على المساواة والمشاركة المتحققة فنيا.

ومن الواضح أن دور الحكومات والدول يتغير، فالحكومات تنسحب من كثير من المواقع التي سيطرت عليها، وتتخلى عن أدوار كثيرة كانت تقوم بها كالتعليم والصحة وتنظيم الاقتصاد وتوجيه والأسعار والثقافة، وقد تنحصر مهمة الحكومات في الدفاع والأمن والتنسيق والمراقبة، ولكن بديل الحكومات ليس واضحاً بعد ولا محدداً، لقد كان يظن أنه الشركات والقطاع الخاص، وذلك يصلح في المجالات التي يمكن أن تكون استثماراً ومصدراً للربح، فإذا لم تكن كذلك فلن تقدم عليها الشركات والاستثمارات، فهل يعني ذلك تبخر كثير من الأعمال والبرامج والمشروعات غير الربحية كالثقافة مثلاً أو الرياضة في بعض المناطق؟ وهل يعني أيضاً حرمان الناس الذين لا يستطيعون أن يتعاملوا مع الخدمات كاستثمار، كالتعليم والصحة والاتصالات..

الواقع ليس أبدا ما نعتقده، لكنه دوما ما يجب أن نفكر فيه.»

غاستون بلاشر

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» الحج 40

ولكن هذا السيناريو ليس هو الوحيد، فالمجتمعات والدول تعيد تنظيم نفسها على نحو (شبكي) قد لا يكون للشركات والاستثمارات فيه دور حاسم أو رئيس، فتنمو اليوم مؤسسات جديدة قد تتبلور في المستقبل على نحو أكثر فاعلية، هذه المؤسسات من النقابات والاتحادات والتعاونيات والجمعيات التي تنتظم معظم الناس يمكن أن تطور من أدائها لتحقق للناس معظم احتياجاتهم بمعزل عن الحكومات والشركات الاستثمارية، إنها صيغة شبكية تتفق مع المرحلة والتغييرات الجارية، وفرصة نجاحها مستمدة من كونها شبكية، بمعنى مشاركة جميع الناس في تمويلها والتخطيط لها.

يرتبط نمط المعيشة اليومي إلى درجة كبيرة بالكهرباء، فالأجهزة المنزلية كالراديو والتلفزيون والثلاجة والغسالة والمكنسة والهاتف هي محصلة مباشرة لاستخدام الكهرباء، فما هو نمط المعيشة المتوقع حدوثه حين يرتبط بشبكة الإنترنت؟

ستتغير طبيعة البيوت وتصاميمها لأنها يمكن أن تكون مقر العمل أيضاً، فالعمل في المنازل يتزايد، وقد يتحول إلى أصل، وتتقلص كثيراً مساحات المكاتب والمباني التجارية، وتتغير عادات واتجاهات النقل والسير وتصاميم الشوارع والطرق وأماكن السكنى والإقامة.. ستتلاشى المدن العملاقة وتزدهر الضواحي والقرى، وتقل الحاجة لوسائط النقل والطرق الواسعة، وتعود البيوت المنكفئة الواسعة، وتصبح العائلات كلها تعمل معاً وتنتج معاً «المشروعات العائلية والمنزلية».

وبطبيعة الحال فإن العلاقات الاجتماعية والعائلية ستأخذ طابعاً جديداً أقرب إلى الصورة التقليدية المتماسكة التي قضت عليها الحضارة الصناعية. وكأننا نعود إلى المجتمع الزراعي الممتد في الريف مع تقنية بالغة التقدم!

وثمة تحول كبير من الطباعة الورقية إلى الطباعة الإلكترونية يحمل أبعاداً جديدة تفوق بكثير التحول الذي حصل من الكتابة المخطوطة إلى الكتابة المطبوعة، فالأمر لا يقف فقط عند تخفيض التكاليف، ووقف النزف البيئي الناتج عن صناعة الورق من الأشجار، ولكن الإعلام الإلكتروني يقدم آفاقاً جديدة تعيد النظر في المفاهيم والأسس التي استقر عليها العمل الإعلامي طوال أكثر من 400 سنة.

فصحافة الإنترنت ليست مجرد استبدال للصحافة الورقية إلى صحافة إلكترونية وليست فقط تخطياً للزمن والجغرافيا واللغة، ولكن الصحيفة الإلكترونية يمكن أن تقدم النص والصوت والصورة الثابتة والمتحركة والربط والاستدعاء بين المعلومات والبيانات ووسائل الإعلام، لتكون وسيلة إعلام جديدة تمزج بين الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وهي في الوقت نفسه شيء مختلف عنها.

هذا الإعلام الجديد ليس بثاً أحادياً وتلقياً إجبارياً ولكنه تفاعل يختار فيه الناس احتياجاتهم ويشاركون هم في الوقت ذاته في الرأي والبث، وتستطيع بموجبه وسائل الإعلام أن تقدم لكل شخص ما يريد وتستمع لكل شخص أيضاً، ويمكن إتاحة مساحات لأي شخص أيضاً لينشر، إنه إعلام أشبه بمجلس أو ندوة يشارك فيها أشخاص على قدم المساواة، وهنا تزيد

أهمية الفردية والخصوصية.

فالإعلام مجبر على أن يرضي كل شخص بمفرده، وتتراجع النمطية في الإعلام والخطاب، وتزداد أيضاً أهمية ثقافة المجموعات القليلة وفكرها، وتجد الفرصة للتعبير عن نفسها وإمكانية التفاعل مع الثقافات الأخرى، أي أن الإعلام سيكون تعددياً بلا حدود حتى يستطيع البقاء والاستمرار.

ويؤدي هذا الإعلام المتعدد الوسائط دوراً جديداً غير القراءة والخدمة والتثقيف والتسلية، ولكنه أيضاً وسيلة تعليم وتدريب قد يكون بديلاً أو منافساً قوياً للمدارس والجامعات ومراكز التدريب التي يجب أن تعيد النظر في دورها ووجودها، حيث يمكن الحصول على معظم ما تقدمه بتكاليف لا تقارن في انخفاضها بتكاليف هذه المؤسسات.

وباختصار فإن الإعلام القادم هو مؤسسات جديدة تختلف كثيراً عما عهدناه في وسائل الإعلام التقليدية، إنه ليس إعلام صحفيين وكتاب وقراء، ولكنه مجتمع متفاعل يتبادل فيه الأعضاء خدماتهم ويحصلون على احتياجاتهم الأساسية ويمارسون أعمالهم اليومية!.

وبدأت الثروة تأخذ مفهوماً رمزياً جديداً مختلفاً عما استقرت عليه طوال القرون الماضية، فقد كانت في السابق عنصراً بسيطاً هو الأرض بموادها الظاهرة «الزراعة» ثم تحولت مع الثورة الصناعية إلى أوراق «نقود أو سندات أسهم» تعبر عن ممتلكات الإنسان. وبتنامي قطاع المعلومات لم تعد الثروة تعبر عن موجودات صلبة ملموسة (أراض أو مصانع) فلا أحد يشتري سهم «مايكروسوفت» أو «آي بي إم» بسبب الأصول المادية للشركة ولكن ثروة هذه الشركات مستمدة من إمكانات معرفية، فالمساهم لا يشتري أصولاً واضحة، ولكنه يشتري القدرة التنظيمية والتسويقية والفكرية لهذه الشركات.

وحتى الأوراق التي كانت تعبر عن الممتلكات والأصول لم تعد تستخدم، وحل محلها «نقود إلكترونية» فبطاقات الائتمان المحوسبة يجري بموجبها تدفقات مالية هائلة عبر الإنترنت وشبكات المعلومات والاتصال. هذه البطاقات خفضت كثيراً من سلطات الدول ومزايا البنوك التي لم تعد قادرة على التمتع بالأموال المتأتية من خلال تحصيل الشبكات ومقاصاتها، وبدأت البنوك بدلاً من ذلك تستثمر أموالها في البطاقات وصارت تنافس الشركات المصدرة لهذه البطاقات.

البنوك المركزية أيضاً تضعف سيطرتها بسبب هذه النقود البلاستيكية التي تصدرها شركات مستقلة عنها، دون التزام بالضوابط والأنظمة التي تضعها عادة البنوك المركزية، وقد تؤدي إلى رفع معدل التضخم وتغير السياسات النقدية دون إرادة حكومية مركزية.

وباختصار فإن رأس المال بمعنى الثروة التي يتم تشغيلها بهدف زيادة الإنتاج يتبدل بشكل مواز للنقود ويتخذ كلاهما أشكالاً جديدة.

والنقود تتحول إلى نبضات إلكترونية متغايرة تنتقل وتتحول لحظياً ويتم متابعة تدفقاتها على شاشة تلفزيونية.. إنها ليست

سوى معلومات وكذلك رأس المال، وهكذا تحول رأس المال تدريجياً من شكل واقعي ملموس إلى شكل رمزي، وحالياً إلى شكل بعد الرمزي.

وبالطبع فقد صاحب هذا التحول تغير آخر في القياس والمفاهيم، فبعد أن منحت الثقة للذهب والفضة ثم الورق، توصل العالم اليوم إلى الاقتناع بأن الإشارات الإلكترونية المتناهية الصغر والزائلة يمكن مقايضتها مقابل سلع أو خدمات. إن ثروتنا بعد الرمزية هذه تعتمد عليها السلطة والموارد والعلاقات وقد تتحول هي الأخرى إلى ما بعد الرمزية.

وانتشرت تطبيقات صناعة المعلومات في كل اتجاه ومجال للحياة في المصانع والحقول والمنازل ومكاتب الإدارة وسفن الفضاء وفصول الدراسة وغرف العمليات، وبمستويات من التطبيق تراوح بين المهارات الدنيا وتصل إلى أدقها وأعلاها، كالترجمة ومعالجة المعلومات وتشخيص الأمراض وقراءة الخرائط والتدريب، والتعليم الذاتي، وقيادة وتوجيه السيارات والقطارات والطائرات والمصانع، والتسلية...

إن هذه التطبيقات الجديدة في التقنية ستنتقل بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والعلمية إلى آفاق جديدة، وستطرأ عليها تغيرات جوهرية فينقرض جزء منها وتزداد أهمية أجزاء أخرى، وتتغير صيغ الإدارة والعلاقات والقيم والهياكل والبنى التنظيمية والاجتماعية والتشريعات والأنظمة.

فالعمل تغيرت طبيعته وأهميته، فكان يغلب عليه حتى أوائل القرن العشرين الطابع الزراعي، ثم تقدمت الصناعة وصارت هي الغالبة، واليوم تتفوق الأعمال في مجال المعلومات والمعرفة على ما سواها من قطاعات. ويقصد بالعمالة في مجال المعلومات أعمال الكمبيوتر والاتصالات والنشر والإعلام والتخطيط ونظم المعلومات، والتأليف...

وتتدفق المعلومات اليوم على نحو يشبه الانفجار، وهو تدفق يغير العلوم والمعارف والمعلومات بسرعة تجعل نصف ما تعلمه المهندس عفى عليه الزمن خلال خمس سنوات، وتجعل التعليم المستمر وإعادة التأهيل جزءاً مستمراً وضرورياً من برامج المؤسسات والأفراد.

لقد أصبحت المعلومات والمعرفة مصدر القوة الأساسية، وستكون معياراً اجتماعياً ووسيلة ارتقاء ومورداً اقتصادياً، وتتأكد قيمة احترام الملكية الفكرية، والحرص على البيانات والأمانة العلمية.

وتغير أيضا الترتيب أهمية العلوم، فكان تطوير الصناعة يعتمد على الفيزياء والرياضيات وتطبيقاتها الهندسية ولكن تقنية المعلومات زادت أهمية الإحصاء والاحتمالات وعلم الحياة وعلم النفس واللغة والاجتماع لإعادة وتطوير فهم الإنسان والعقل فبرامج الذكاء الاصطناعي تعتمد على مقدرة الإنسان على ضبط هذه العلوم وتحويلها إلى قواعد ومناهج قابلة للحوسبة.

وبما أن الإنسان يتعلم كل لحظة ويزداد علمه ويعيد النظر باستمرار فيما تعلم فسيتجه العلم باتجاه التعلم الذاتي والنسبية دون التفات إلى الحقائق المطلقة

وتتحول خصائص الحياة والعمل والعمران من الديمومة والثبات إلى التغير والزوال والجدة.

يقول المدير الأسبق لمختبر معهد العلوم في جامعة ماساتشوستس؛ مايكل دورتوزوس: تحيط بنا الحواسيب في منازلنا وأعمالنا وأينما ذهبنا، وتضاعفت سرعتها عشرات آلاف المرات وتتضاعف أيضا سرعة الاتصال بين الحواسيب عبر الشبكات لتتدخل في مجالات واسعة من حياتنا وأعمالنا، ولتندمج في معظم إن لم تكن جميع أدوات العمل والحياة، من الأجهزة المنزلية إلى السيارات إلى الاتصالات والأعمال والمكاتب والحياة اليومية، وهذا ليس جديدا. ولكن الجديد هو تبسيط برامج العمل ولغاته لتكون أكثر عملية وسهولة، ولنكون أقدر على التحكم بها وإدارتها، وقدرة هذه الأجهزة على التواصل فيما بينها في البيوت والمكاتب والطرق والمدن وعبر قارات العالم، وستتطور البرامج لتكون غير مقيدة بأجهزة معينة، ليكون الجهاز الواحد قادرا على أداء عدة أعمال كان يلزم عدة أجهزة متخصصة لأدائها مثل البث والاتصال والاطلاع على الإنترنت، وأن تكون هذه الأجهزة قادرة على التنقل (محمولة)

يتواصل المليارات من الناس اليوم عبر أجهزتهم والشبكة، يشترون ويبيعون، ويتبادلون المعلومات وخدمات المعلومات، وكل ما يمكن للمرء أن يتخيله من صحف وكتب وأفلام وموسيقى ومسرحيات، والمراجعات والاستشارات الطبية والقانونية والمهنية، وأعمال التسويق والصيانة والعقود والرهن والتأمين والتعلم والتعليم، إنه سوق من عدة تريليونات دولار سنويا، ولا يقل عن ربع الاقتصاد العالمي.

عالم واحد - 6

ديكاميرون أو الأيام العشرة مائة قصة من التراث الإيطالي

يعد كتاب يوفاني بوكاشيو (1313 - 1375) «ديكاميرون» الذي يضم مائة قصة من أهم مصادر التراث الإيطالي، ويشير إلى بدايات النهضة الأوروبية عندما بدأت أوروبا تعنى بالفكر والفن والتراث وتؤسس لنهضتها الحالية، ومن المعلوم أن القرن الرابع عشر شهد بداية ظهور البورجوازية الأوروبية التي قادت التقدم الأوروبي من سكان المدن والموظفين والمهنيين والتجار، وأنشأت ثقافة جديدة قائمة على القصة والرواية ومخاطبة الجمهور الواسع بدلا من الفنون الراقية وأعمال النحت التي كان يقتصر تذوقها واقتناؤها على النبلاء، ومن أهم الأدباء الذين ظهروا في هذا القرن: دانتي إليجيري مؤلف الكوميديا الإلهية، وفرانشيسكو بترازكا.

ويلاحظ لدى قراءة قصص الديكاميرون أن أحداثها تدور حول المجتمع بكل طبقاته من النبلاء والتجار والرهبان والحرفيين والمهنيين والفقراء والأغنياء، كما أنها تتجه إلى التسلية والإمتاع، ولم تعد متعلقة بالسمو والخلاص الروحي كما في آداب وفنون النبلاء السابقة لعصر النهضة، كما شهدت الأعمال القصصية بداية النقد والتمرد على الكنيسة والنبلاء.

تعني ديكاميرون «الأيام العشرة» وهي عبارة عن سرد لمائة قصة تحكى على مدى عشرة أيام في كل يوم عشر قصص، حيث يلتقي في أزمة الطاعون الذي حل بأوروبا في منتصف القرن الرابع عشر وفتك بربع سكانها عشرة شباب (سبع فتيات وثلاثة شبان) ويقررون الخروج من مدينة فلورنسا الإيطالية للإقامة في الريف، وعلى مدى الأيام العشرة التي يقضونها في قصر ريفي جميل يجتمعون كل يوم في المساء، ويسرد كل واحد قصة، فتجمعت مائة قصة تعبر عن التراث الإيطالي والإنساني، الكرنفال المترف بالحب والمتعة والجمال والبهجة والغواية والإمتاع والعشق والمجون والمكر والخديعة والإغراء والسخرية والمؤانسة والتهكم والشعوذة والحرية والاعتراف والتصابي والتنكر.

يبدأ الكتاب بوصف تفصيلي ودقيق لوباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا في عام 1348، فقد تحولت أوروبا إلى مسرح يجتاحه وباء رهيب قضى على ربع سكانها، ويصف بوكاشيو أعراض الداء والحالة العامة من التعاسة والشقاء التي عاشها الناس، ثم ينتقل إلى تأمل روحاني «كم من الرجال الشجعان البارزين تناولوا الفطور في الصباح مع أسرهم وأصدقائهم ليتعشوا في الليلة التالية مع أجدادهم وأسلافهم في العالم الآخر»

ثم يعرض ما حدث للشباب والصبايا الذين هربوا من التعاسة والشقاء، وقرروا أن يُنصبوا في كل ليلة أحدهم ملكا، ويستمعون إلى القصص والحكايات، فينتقل بوكاشيو من عالم الرعب والموت والأهوال إلى عالم النمائم البورجوازية، وهذا هو

السر الحقيقي برأي مترجم الأعمال صالح علماني في فن بوكاشيو القصصي «التصوير الواقعي للحياة اليومية» فقد تبدل كل شيء مع توالي القصص، وابتعدنا أكثر فأكثر عن الوباء، ونسينا مع الرواة اللحظة المأساوية التي جعلهم المؤلف يعيشونها قبل خروجهم إلى القصر الريفي البديع، الهروب من الألم والاستمتاع قبل مجيء الموت، فبوكاشيو يروي من أجل تجاهل الموت، من أجل التسلية والإضحاك دون أية هموم أخلاقية دون خبث، ويعتبرها علماني الانطلاقة الحقيقية للقصة الفنية الواقعية.

وتشكل كل مجموعة قصص وحدة موضوعية جعلها بوكاشيو قرارا يتخذه الملك باختيار موضوع للقصص، وكأنه بذلك يقدم زوايا مختلفة للرؤية عبر عشر قصص موضوعها واحد، فيبدو العمل بمجمله متكاملا.

كانت موضوعات القصص في اليوم الأول حرة دون موضوع محدد، وينسج الرواة قصصا قاسية حول الكهنة تبين كيف كانت حياة البورجوازيين وعاداتهم في القرن الرابع عشر ومفهومهم للدين والتدين، وفي اليوم الثاني تختار الملكة موضوعا للقصص عن أحداث وصروف قاسية ثم تنتهي بنهاية سعيدة، وفي اليوم الثالث تكون الحكايات في أغلبها عن المجون والإغراء يشارك فيها رهبان وراهبات وعمال وحرفيون، وفي اليوم الرابع

«الواقع المتعين يعبر عن فكرة داخلية تشكله أو تمنحه هويته»
هيغل

ثمة مشكلات تحتاج إلى حل، فالإنترنت لم تصل بعد لجميع الناس، وهذا يزيد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويحرم أغلبية الناس من القدرة على الإفادة من السوق المعرفية والمعلوماتية العملاقة، وهذا يقتضي تصميم حواسيب بسيطة وقليلة التكلفة يمكن استعمالها من قبل أي فرد مهما كانت مهاراته محدودة، ويمكن أيضا للفقراء أن يمتلكوها. والقضية الأخرى الملحة هي تبسيط برامج الحاسوب وتطوير عمله في الوقت نفسه ليكون أكثر ذكاء وأقل تعقيدا.

لقد كانت الحوسبة مشغولة ببنية المعلومات بدلا من انشغالها بالمعنى، ولكن الصعود إلى المعنى هو العمود الفقري للخطة الرئيسة للحوسبة المتمحورة حول الإنسان، وهو تحد يواجه مصممي النظم الحاسوبية ومستخدميها.

ولكن ألن تؤدي الإنترنت والأتمتة والتقانات الحاسوبية إلى زوال وظائفنا؟ بالطبع فإن تحولا كبيرا سيحدث في الوظائف كما حدث من قبل في الثورة الصناعية، وسيكرر التاريخ نفسه، فتختفي وظائف وتظهر أخرى جديدة، وستكون الوظائف المفقودة هي التي تستطيع الآلة القيام بها.

وعلى سبيل المثال فقد بدأ الحاسوب يقوم بمجموعة كبيرة من الأعمال التي كانت تؤدى بشريا، مثل تسجيل أسعار الأسهم، وسمسرة الأوراق المالية، وحسابات البنوك الشخصية، وطلبات القروض، ومطالبات التأمين، والاستمارات المكتبية، وحجوزات الفنادق والسفر، ومعرفة حالة الطقس وحركة المرور، وتبادل المعلومات الأساسية مع الهيئات الحكومية.

تتمة عالم واحد - 6

تكون القصص عن غراميات انتهت نهاية مأساوية، وهي هنا أكثر بساطة وأشد تقشفا، وفي اليوم الخامس يقصون مغامرات عن الحب والعشق تنتهي نهايات سعيدة، وفي اليوم السادس تعرض قصص خفيفة عن سرعة البديهة والذكاء والحيل، وفي اليوم السابع تعرض قصص عن حيل النساء ومكرهن ويغلب عليها الخيانة الزوجية وتغطيتها بالحيل، وفي اليوم الثامن تكون القصص عن المغفلين الذين يتعرضون للخديعة وتنطلي عليهم، وفي اليوم التاسع تروى قصص عن الحيل للحصول على المتع والوصول إلى الغايات، وتعود القصص في اليوم العاشر إلى التهذيب والعاطفة القوية الجميلة والفروسية.

وكان صلاح الدين الأيوبي موضوعا لقصتين من القصص التي عرضت، وهو في هذه القصص فارس نبيل أقرب إلى القديسين وأصحاب الكرامات، مما يؤيد مقولة بعض المؤرخين الأوروبيين عن اعتقاد الناس في العصور الوسطى بأن صلاح الدين الأيوبي كان قديسا.

وفي إحدى هذه القصص يطوف صلاح الدين متنكرا بزي تاجر في المدن الإيطالية والأوروبية، وكان يتحدث اللاتينية بطلاقة، فيلتقي بالفارس النبيل توريللو الذي يبالغ في إكرامه وضيافته، ويشعر أن الضيف ليس تاجرا، ولكنه نبيل كريم فيحبه كثيرا

وهناك قوتان بشريتان تحددان ما سيحدث للإنسان، هما: النزوع للبحث، والبقاء. وكما لاحظنا قدرة الإنسان الصياد على الارتقاء بنفسه من خلال هاتين النزعتين فإن إنسان الحاسوب أيضا سيواصل حماية نفسه والارتقاء بها، إذ ستدفعنا نزعتنا للبحث تجاه أتمتة أكبر، ونواصل ابتكار مقاربات جديدة تخفف أعباءنا، إلا أننا إذا بالغنا في هذا الطلب وتنازلنا عن سلطتنا للآلات بدرجة أكثر مما ينبغي فإن غريزتنا الأخرى القديمة كل القدم وهي غريزة السيطرة سوف تكون على أهبة الاستعداد لمحو أي شيء يهدد بقاءنا، بما في ذلك الأتمتة.

وسوف ينبثق من هاتين القوتين المتعارضتين توازن جديد يقوم بين المهام التي نحتفظ بها لأنفسنا وتلك التي نفوضها لآلاتنا، وهذا التوزيع الجديد للعمل بين البشر والآلات سوف يتحدد بواسطة عصر المعلومات، كما أنه سوف يحدد هذا العصر.

الناس لديهم حاجة متأصلة إلى الروحانية التي توازن بين شعورنا بالعجز إزاء كثير من الأسرار المحيطة بنا، فهل سيبقى التعليم مقيدا بالقراءة والحساب والعقل؟ ماذا عن الصداقة والحب والزواج والطلاق والصراع والموت والهدف؟ كيف سنتغلب على مشكلة الأطفال الذين يلجأون إلى العنف لدرجة القتل؟ ماذا سنفعل عندما تتمكن الهندسة الوراثية من تغيير شخصية الجنين؟ كيف سنتعامل مع الجرائم العابرة للحدود على الإنترنت؟

لا تستطيع التقانة الخالصة أن تحل هذه المشاكل، كما لا تستطيع ذلك النزعة الإنسانية الخالصة ولا الإيمان الخالص،

نحن بحاجة إلى أن نعيد ضمها كلها معا إذا كنا نريد أن نجد طريقنا خلال تلك المتاهة من العالم الذي يتزايد تعقيدا.

سينتج عن التقانات المتمحورة حول الإنسان أن تصبح الحواسيب أكثر قربا منا وتعطينا القدرة على أن نؤدي ما هو أكثر بفعل ما هو أقل، ولكن المعنى الأسمى للتمحور حول الإنسان وفائدته القصوى لنا سيتحددان بما يفعله لإنجاز ما نضعه من أهداف إنسانية، وسيكون حالنا أفضل إذا التمسنا هذه الأهداف باستخدام كل أبعادنا الإنسانية في تناغم.

تتمة عالم واحد - 6

ويقدره، ويقدم له هدايا ثمينة، ويدعو على شرفه كبار النبلاء في مدينته، وتقدم زوجته هدايا ثمينة له، ثم يشارك توريللو في الحروب الصليبية ويقع في الأسر، ويقدم للسلطان صلاح الدين باعتباره بارعا في تدريب صقور الصيد فيتعرف عليه السلطان ويعرفه بنفسه ويكرمه تكريما عظيما ويقدم له هدايا ثمينة وأسطورية، ثم يكلف أحد أتباعه بأن ينقله وهو نائم على سرير ومحمل بالهدايا إلى بلده في إيطاليا في لحظة من الزمن، ولعل القصة تشير إلى قصة النبي سليمان الذي كان في حاشيته رجل (الذي عنده علم من الكتاب) استطاع أن ينقل عرش الملكة من سبأ إلى أورسالم في لحظة خاطفة (قبل أن يرتد إليك طرفك) وعندما يصل توريللو إلى مدينته بعد غياب طويل يجد أن زوجته ستزف إلى رجل آخر بعد أن يئس أقاربه وأهله من رجوعه وظنوه ميتا، ولكنها تعود إلى زوجها توريللو في اللحظة المناسبة.

يقترح مؤلف كتاب المستقبل الأقصى؛ جيمس كانتون أهم عشرة اتجاهات للمستقبل بأنها وقود المستقبل، واقتصاد الابتكار والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا المعلومات، وتكنولوجيا النانو، التكنولوجيا العصبية، وتحولات العمل والقوى العاملة، وطب إطالة العمر، وملاحظة التغيير الجاري والمتوقع في حياتنا الثقافية والاقتصادية، والمخاطر والتأمينات الجديدة والإرهاب والسيطرة على العقل، ومستقبل العولمة والخوف من تصادم الثقافات، والتغير المناخي، ومستقبل الفرد، ومستقبل أمريكا والصين. ويقترح عوامل خمسة تحدد المستقبل ، وهي السرعة، والتعقيد، والخطر، والتغيير، والمفاجأة.

تمثل الطاقة اهم محددات المستقبل، ومن أهم اتجاهاتها:

1- نقص الوقود بالنسبة الى الطلب عليه
2- الطاقة هي المحرك الرئيسي للخدمات الحيوية، الصحة والغذاء والنقل والتجارة،..
3- صعود الطاقة المتجددة؛ الشمسية والرياح والهيدروجين،..
4- ضرورة زيادة الاستثمار في الطاقة الجديدة..
5- الصراع على الطاقة..
6- نشوء تجارة وصناعات قائمة على الطاقة الجديدة.

إن الطاقة هي قضية أمن قومي، وقد انتهى عصر البترول الرخيص، وفي الوقت نفسه فإن الطاقة البديلة ليست مستعدة بعد برغم أنها واعدة، ويتزايد الطلب العالمي على الطاقة ويزيد استهلاك دول ناهضة مثل الصين والهند.

وينمو بسرعة اقتصاد الابتكار القائم على المعرفة، وهو مزيج من الموارد والحرية والعدالة والتكنولوجيا والتجارة، وأدواته هي تكنولوجيا المعلومات والشبكات والتكنولوجيا الحيوية والنانو، ويقتضي ذلك بالضرورة إعادة تخطيط التعليم لأجل إعداد الأمم والمنظمات والأفراد، وسوف يؤدي إلى خفض الفقر في العالم، والإصلاح ومزيد من العولمة والانفتاح العالمي.

وربما يكون في مقدور العالم في العقدين القادمين القضاء على الفقر، وإتاحة التعليم مجانا عبر الشبكات الالكترونية، وزيادة التفاهم العالمي وتخيض التوتر والنزاع وزيادة معدلات العمر والثروة، وتكون الاتصالات والانترنت متاحة لجميع الشعوب.

وسوف يعتمد ثلثا الناتج المحلي للولايات المتحدة الأمريكية على صناعات الابتكار، وتقود تكنولوجيا المعلومات اكثر من ثلثي انتاجية العمل، ويرتبط 3 مليارات بالانترنت، وتولد صناعة النانو اقتصاد بقيمة تريليون دولار وتشغل مليون عامل، وتزدهر المجتمعات التي تتمتع بالعدل والتسامح والتنوع.

في كتاب جورجياس لأفلاطون: «إنك تطنب في مدح الرجال الذين احتفلوا بالمواطن وأشبعوا رغباتهم ويقول الناس إنهم جعلوا المدينة عظيمة. لكنهم لم يروا أن حالة المدينة وما بها من أورام وقروح يجب أن يعزى إلى هؤلاء السياسيين والشيوخ. وذلك لأنهم ملأوا جنبات المدينة بالثغور والأحواض والأسوار وموارد الدخل وما إلى ذلك. ولم يتركوا مكاناً للعدالة والاعتدال».

عصر الصيد وجمع الثمار

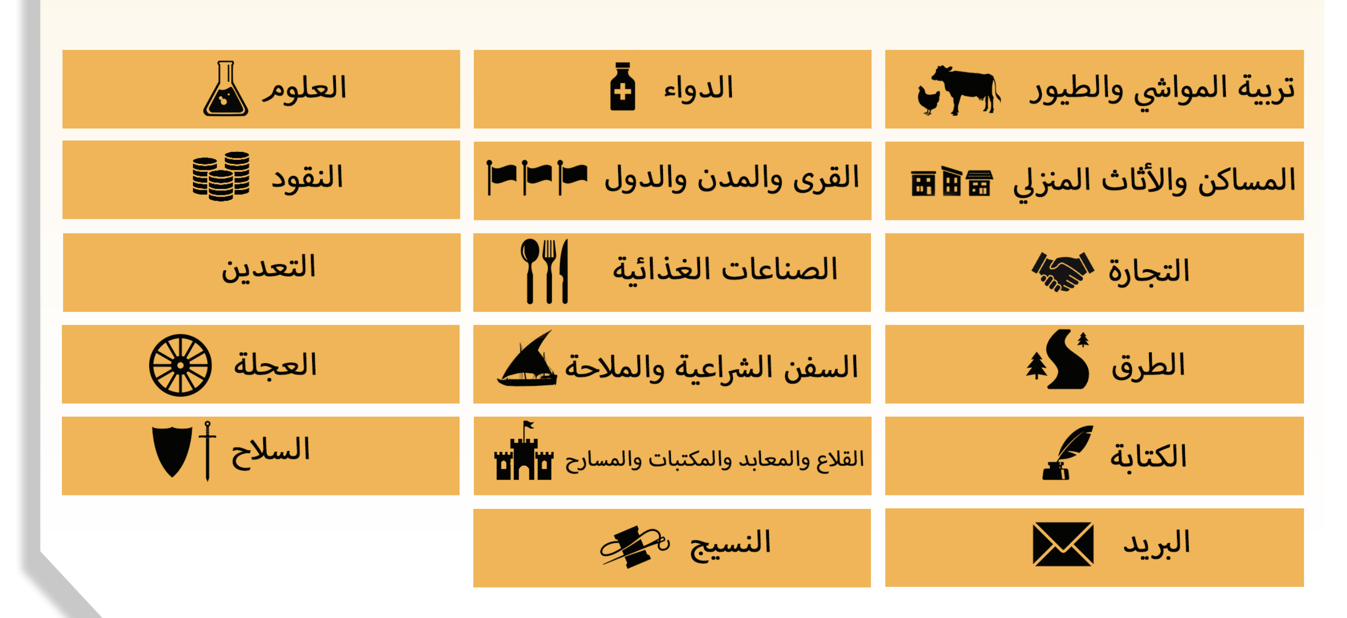






عصر الزراعة

التقدم المادي



قيم التقدم

- العدل
- القوة والشجاعة والكرم
- التنظيم الاجتماعي والقانوني
- السلام
- الضيافة
- الصدق
- الملكية الخاصة والعامة
- الخدمة العامة للمحتاجين المصالح العامة
- المهن والأعمال والوظائف
- المدارس
- الكتب والآداب والفنون والترجمة

القيم المضادة

- التعصب القبلي والصراعات
- الحروب والصراعات المنظمة والمدمرة
- الرق والعبودية والسبي
- الطبقية الاجتماعية
- التمييز الطبقي
- التعصب الديني

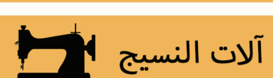
عصر الصناعة

التقدم المادي


- الملاحة البحرية والكشوف الجغرافية
- الأجهزة والآلات الكهربائية


- البنوك والشركات


- البارود


- آلات النسيج


- المحرك البخاري


- المطبعة


- القطارات والسيارات والطائرات

قيم التقدم

- تحسن حياة الناس وصحتهم وارتفاع مستوى النظافة والتغذية الجيدة ومعدلات العمر.
- انتشار التعليم وتضاعف المعرفة العلمية تطور الفنون والآداب وظهور السينما والتلفزيون والإذاعة
- المواطنة كأساس للعلاقة بين الدول
- الحكم المدني القائم على ولاية الناس على مواردهم ومصائرهم ونهاية الحقوق الدينية والطبقية في حكم الناس

القيم المضادة

- صارت الحروب أكثر خطورة وفتكا
- انتشار واتساع حالات التسول والتشرد والاكتئاب والادمان والانتحار
- اتساع حالات الطلاق والتفكك الأسرى
- استمر الرق وزاد في القارة الأمريكية حتى القرن التاسع عشر
- اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية

عصر المعلوماتية



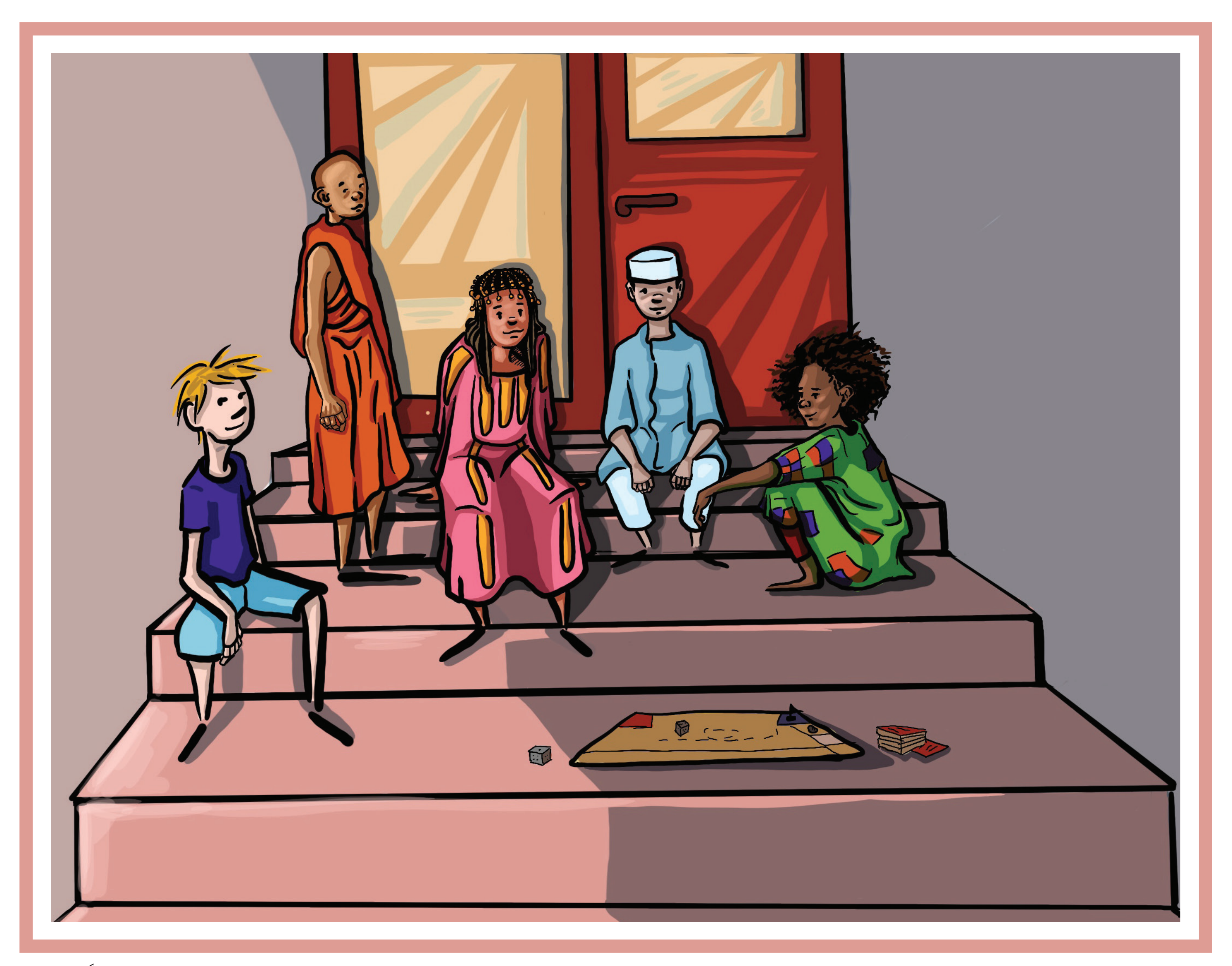
قيم التقدم

- المساواة
- الثقة
- الإتقان
- الفردانية
- العولمة (المشاركة)

القيم المضادة

- الفردية الأنانية
- ضعف تأثير المجتمعات والمؤسسات الإرشادية والتعليمية
- العولمة (الهيمنة)

II- قيم العيش معاً لأجل التقدم ومواجهة الكراهية



العيش معاً

II- قيم العيش معاً لأجل التقدم ومواجهة الكراهية

يظهر مسار التقدم الإنساني أن الأمم والجماعات البشرية كانت تتقدم على الدوام باتجاه تحسين حياتها، وفق محركين أساسيين، أولهما البقاء وتحسين البقاء، والثاني هو البحث و لتأمل، وفي ذلك كان التقدم الإنساني يكتشف على الدوام موارد وعلوما ومعارف ومهارات جديدة، وينشئ ويطور في الوقت ذاته مجموعة من القيم الإنسانية والثقافية والأخلاقية تعكس بحث الإنسان المتواصل عن المعنى والخير، وترتقي بحياة الإنسان ووعيه لذات وتنظم الموارد والأعمال والعلاقات على النحو الذي يجددها ويعظمها، مثل السلام والمحبة والصدق والثقة والتعاون والتضامن والمروءة والشجاعة والكرم والتسامح والاعتدال، وكانت تنشأ أيضا وتتطور على الدوام قيم واتجاهات ثقافية مضادة لقيم الخير، مثل الكراهية والأنانية والتعصب والتطرف والعنف.

إن الإنسان في أصله ينزع إلى الخير، ويتطلع على الدوام إلى الارتقاء بذاته وحياته والمعرفة والعلم، لكنه أيضا في نزعته إلى البقاء وخوفه على حياته وموارده وعدم يقينه بالنسبة للمستقبل وللناس الآخرين يطور حيلا دفاعية تقوم على الصراع والشك والخوف، هكذا فإنه في نزعته الأساسية استطاع أن يهذب نفسه وحياته، وينشئ السلام والحضارة المتقدمة، وفي خوفه وشعوره بالتهديد انزلق إلى الكراهية والعنف والأنانية، وفي الحالتين فإنه سخر المعرفة والعلوم والمهارات التي طورها في خدمة قيمه ومثله وأفكاره ومعتقداته، وصار التقدم العلمي والمادي يعمل في الاتجاهين؛ في خدمة السلام والخير وفي خدمة الصراع والكراهية،.. فكان التقدم والخير يزداد، وفي الوقت نفسه يزيد الشر والدمار!

لقد كان الجزء الأساس في التقدم الإنساني ماديا ومؤسسيا، هكذا نشأت الأسر والقرى والمدن والدول والقوانين والتشريعات والمؤسسات التنظيمية والقضائية والتعليمية والأمنية والدفاعية لحماية الأمم والأفراد، وتنظيم الحقوق والواجبات والأعمال، لكنها منظومة مادية وقانونية ومعرفية لا تعمل بكفاءة إلا في ظل منظومة اخلاقية واجتماعية وثقافية، تعزز القيم والأهداف الأساسية للأمم، وتجعلها تعمل بسلام وبأقل كلفة وجهد ممكنين، هكذا فإن العمل المؤسسي والأخلاقي يعملان معا ويكملان بعضهما بعضا، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، ففي غياب الأخلاق والفضائل الاجتماعية تضعف المؤسسات نفسها، وتحتاج إلى جهد وإنفاق هائلين حتى تعمل، وحتى في هذه الحالة فإنها لا تعمل بالكفاءة والمستوى المطلوب منها، وفي الوقت نفسه فإن الأخلاق والفضائل الاجتماعية تعززها وتحميها اتجاهات اجتماعية وحكومية وتنظيمات ومؤسسات وتشريعات قانونية وأمنية ودفاعية، وهما معا (المؤسسات والفضائل) يواجهان الخروج على القانون والأخلاق والمجتمعات، ويساعدان الأفراد والمجتمعات على الانتماء والمشاركة، والعمل المتسق والمتكامل نحو الازدهار والسلام.

برغم أن هذا الفصل يركز على الفضائل والقيم الأخلاقية والاجتماعية كمقصد للإيمان بالله، وأساس للمعنى وللسلام والازدهار والارتقاء بالذات، فإن ذلك لا يعني بالطبع التقليل من أهمية العمل المؤسسي والقانوني والتنظيمي لأجل التقدم

وحماية الحقوق والمصالح، لكن لمقتضيات البحث والدراسة وللابتعاد عن الإطالة يركز الكتاب على الفضائل الأخلاقية والاجتماعية ودورها في السلام والتقدم ومواجهة الكراهية والفشل.

إله الأشياء الصغيرة للروائية الهندية سوزانا اروانداتي روي: الوجود والاغتراب

صدرت رواية إله الأشياء الصغيرة عام 1996 للمؤلفة الهندية سوزانا اروانداتي روي، وحصلت على جائزة البوكر عام 1997 وما زالت تقرأ وتستعاد على نحو مؤثر وعميق في رؤيتنا للواقع المحيط بنا، ففي رصدها الذكي والصادق للواقع والذكريات والتحولات تساعدنا روي على نقد الأحداث الكثيرة في حياتنا والتي تعكس الشعور الغامض غير الواعي بالمخاوف العميقة والمتصلة بمصيرنا ووجودنا ومعنى هذا الوجود. لم تعد الرواية تقرأ كقصة عائلة مسيحية سريانية في الهند – كيرالا تبدأ بالأسقف المسيحي في القرن التاسع عشر وتنتهي بالجيل الرابع في تسعينات القرن العشرين، لكنها التحولات العميقة التي تعصف بحياتنا ووجودنا وتحولنا/ تعيدنا إلى ذرات من الغبار التائهة تسبح في الكون كما كانت قبل مئات آلاف/ ملايين السنين، نتساءل في الخوف والظلام: من نحن؟

جاء الرسول توما أحد حواريي المسيح إلى الهند عام 52م وبشر فيها بالمسيحية، وفي القرن الرابع الميلادي جاء إلى الهند أربعمائة مسيحي سوري، ويتبع الكنيسة السريانية اليوم في الهند خمسة ملايين، ودخل في المسيحية مئات البراهمة، ومن هؤلاء ينحدر اليوم خمسة ملايين مسيحي سرياني، وظل السريان يحملون شعورا بهويتهم الخاصة، وللعلم فقد أحرق البرتغال في القرن السادس عشر معظم إن لم يكن جميع التراث السرياني في الهند وأرادوا أن يفرضوا على المسيحيين الهنود تعاليم وطقوس الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية، لكن السريان قاوموا الكاثوليكية بعناد، وظلوا محتفظين بطابعهم وانتمائهم الشرقي، ثم وفي مرحلة الاحتلال البريطاني للهند وصعود الحضارة الغربية بقيادة الانجليز وجد السريان الهنود تميزهم في اللغة الانجليزية وفي التعليم، لكن وكما حدث في جميع العالم عصفت الصناعة ثم الحوسبة والعولمة بكل ما لدينا، وتحول تشاكو؛ الشاب المتعلم في اكسفورد إلى متسول في كندا يسأل العابرين أن يمنحوه «سيجار» وتحول مصنع المخللات والمربيات إلى مكان مهجور، والصبية آمو شقيقة تشاكو من الجيل الثالث التي أحبت هندوسيا وانجبت منه توأمين ابنا وبنت؛ إستا وراحيل تركته لأنه مدمن كحولي وأراد أن يستغلها في تقدمه الوظيفي وعلاقته بمديره، وعادت إلى بيت العائلة في كيرالا لتعشق فيلوثا شابا شيوعيا مثقفا ومبدعا من «المنبوذين» وكانت تلك كارثة حلت بالعائلة، ومات فيلوثا تحت التعذيب في مركز الشرطة بتهمة اغتصاب آمو، ولم يغير من إفادة الشرطة شيئا أن آمو قالت إنها تحبه وكانا يقيمان علاقة برضاهما، وتنتقل آمو لتعمل في فندق ثم تموت مبكرا بمرض السرطان، وبعد

II1- العيش معا:
الوحدة والقوة في التنوع

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» سورة الحجرات. 13



تمثل قيم العيش معاً هدفا ومقصدا للأمم أفرادا وجماعات ودول لتكون قادرة على العيش معا في سلام في ظل الاختلاف والتنوع، وفي ذلك فإن هذا المعنى يعزز منظومة من القيم والأخلاق والمبادئ والأفكار التي تتمثلها الأمم بكل مكوناتها ومؤسساتها.

تعتبر إندونيسيا نموذجا مهما للقدرة على العيش معا والتقدم الاقتصادي أيضا في ظل تنوع معقد ومدهش، فهذا البلد الذي يبلغ عدد سكانه حوالي 240 مليون نسمة، يتكون من أكثر من 17 ألف جزيرة يعيش فيها أكثر من 300 إثنية، يتحدثون أكثر من 700 لغة، والإندونيسيون وإن كانت أغلبيتهم مسلمة (88 في المائة) فهناك نسبة منهم تنتمي إلى أديان مختلفة كالمسيحية والهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية.

وتتخذ إندونيسيا «الوحدة في التنوع» شعارا للأمة، واستطاعت أن تحقق قدرا عاليا من السلام والانسجام .. والتقدم الاقتصادي أيضا، فإندونيسيا من أسرع الدول نموا اقتصاديا.

واستطاعت رواندا أن تعيد بناء الاقتصاد والمجتمعات بعد صراع عرقي عنيف ومدمر، كيف يستطيع الناس أن يبنوا السلام بعد نزاع عرقي عنيف؟ هذا السؤال بدا أكثر إلحاحا وأهمية بعدما اجتاح العالم سلسلة عنيفة من العمليات الإرهابية والحروب والصراعات الأهلية التي دمرت دولا ومجتمعات، وأرهقت العالم بالإنفاق العسكري والأمني وعمليات المواجهة مع التطرف والإرهاب والصراعات المختلفة القائمة على الكراهية.

برغم أن كل حالة من العنف والكراهية تعتبر فريدة بطبيعتها، ومن ثم تفسيرها ومواجهتها، لكن ثمة مسألة متكررة تبدو مشتركة في جميع النزاعات الداخلية، وهي إعادة السلام لمجتمع يخوض حربا مع نفسه، وقد تبدو المصالحة أو الاندماج الكامل هدفا بعيدا أو مثاليا، كما تبدو حالة الكراهية والصراع أزمة يجب الخروج منها، وما بين الحالتين ثمة رحلة طويلة شاقة من العمل والجهود المعقدة لأجل بناء الثقة وقيم التعاون، إذ تحتاج الأطراف والمكونات المختلفة للمجتمع أن تعيش معا برغم الاختلاف والصراع، وقد تجعل بعض جهود المساعدة والإصلاح كما يلاحظ مؤلفو كتاب «تخيل التعايش معا» الأمور أكثر سوءا، فالمحاولات الخرقاء وغير الناضجة قد تسبب الأذى أكثر مما تسبب الخير. فهناك عوائق وتوجهات وعوامل مساعدة يجب إدراكها بعناية في بناء عمليات السلام

والتعايش، مثل الفساد والمصالح، وأهمية الفنون والتعليم والتنمية الاقتصادية والمجتمعات المدنية والحكم المحلي ونزع السلاح، وللدين والثقافة والمعتقدات أيضا دورها في الصراع والمصالحة. لقد أظهر مسح الصراعات والمشروعات التي أقيمت للتعامل معها صعوبات كامنة ليس من السهل إدراكها وتحليلها في عمليات تخفيف التشدد والأحقاد وتحسين العلاقات بين جماعات تورطت حديثا في الصراعات.

ومثل هذه المشاريع قد تذهب سدى إذا أهملت الأسباب الكامنة وراء الصراعات والكراهية والتطرف، ويجب أن تستهدف الجهود الواعدة والواقعية جذور المشكلات، مثل الأخطاء السياسية والتوزيع غير المنصف للموارد، وبالطبع فإن الوقت عنصر أساسي في تطبيق التغيرات المطلوبة، فهو كفيل بشفاء الجروح الناتجة عن هذه المظالم، وتستطيع الجهود الموجهة من القمة إلى القاعدة تعزيز التعايش. فما بين الحد الأقصى للنزاع المفتوح والحد الآخر من الاندماج والتكامل طريق طويل ملتو يحتاج إلى استكشاف وتحليل، وقد يؤدي تجاوز بعض المراحل أو تجاهلها إلى تقليص فرص النجاح.

هناك النزاع والتعايش وبداية التعاون والتعاون والاعتماد المتبادل والاندماج، ففي مرحلة النزاع يكون الشعار هو مقولة «العداء هو الخيار الوحيد»، و تسود مشاعر الازدراء والحقد والغضب والزهو والريبة. وفي مرحلة التعايش يكون ثمة استعداد للعمل العدائي عند الحاجة لذلك، ويسود الحقد والغضب والريبة، وفي بداية التعاون تستمر العداوة والريبة ولكن ثمة استعدادا لتحييدها، ويكون العمل فيه كثير من الاضطراب والازدواجية. وفي مرحلة

تتمة عالم واحد -7

سنوات طوال من الغياب عندما يعود إستا وراحيل إلى امينيم مكان إقامة العائلة منذ مئات السنين يجدان المكان مهجورا موحشا.. مقر الحزب الشيوعي حوله الرفيق بيلاي إلى مطبعة، صار بيلاي عجوزا وأخبر راحيل أن ابنه ليني الرفيق الشيوعي يعمل مترجما في سفارة هولندا! غير اسمه إلى ليفين! لكن سيارة «البلايموت» التي اشتراها جدّهما مازالت باقية مركونة وشاهدة على عصر انتهى، كما تشهد الأعمدة والمسارح على حضارات اختفت ولا يعرف عنها أحد سوى أدلة سياحيين هم في الواقع من أقل الناس معرفة بها! .. وكانت أيضا نافومي شقيقة جدهما باقية في البيت شبه المهجور، أبوابه ونوافذه مغلقة وتخلو شرفته من الأثاث!

عادت آمو من آسام إلى امينيم في كيرالا إلى بيت عائلتها ومعها طفلاها التوأمان، وكان والدها قد تقاعد من عمل طويل كعالم حشرات، وأسست أمها مصنعا للمخللات والمربيات، وتوقف أخوها تشاكو عن التدريس في كلية جامعية، وعاد إلى امينيم لتطوير المصنع الصغير، واجتمعت العائلة من جديد حول المصنع، .. كانت عائلة محبة للإنجليز في اللغة وأسلوب الحياة، وكانوا في ذلك يتجهون في الاتجاه الخاطئ، أو أنهم وقعوا في شرك خارج تاريخهم الخاص، وكانوا غير قادرين على استعادة خطاهم لأن آثارها قد مسحت!

تصف روي ما حدث للعائلة وفئات واسعة من الهنود الذين أنشأوا حالة في الهند تفاعلت فيها تأثيرات العولمة والهيمنة البريطانية والغربية والهويات الفرعية التي لم تندمج تماما وظلت تشعر بهويتها الخاصة «خضنا حربا جعلتنا نحب الغزاة ونكره أنفسنا. نحن سجناء الحرب، لا ننتمي إلى مكان، أحلامنا تعرضت للتلاعب، نبحر دون رسو في بحار متلاطمة، لا يسمح لنا بالاتجاه إلى شاطئ، أشجاننا ليست حزينة بما يكفي، وأفراحنا ليست سعيدة ما يكفي، أحلامنا ليست كبيرة ما يكفي، حياتنا ليست مهمة ما يكفي»

تتمة عالم واحد - 7

لماذا يحقق الحزب الشيوعي نجاحا كبيرا في كيرلا أكبر من أي ولاية أخرى في الهند؟ تتساءل روي، وتقدم إجابات عدة محتملة: النسبة الوازنة للمسيحيين السريان في الولاية إذ يشكلون حوالي 20 في المائة من سكان الولاية، لكن المسيحيين في كيرلا أغنياء وملاكون وإقطاعيون تمثل الشيوعية بالنسبة إليهم قدرا أسوأ من الموت، ولذلك كانوا يصوتون دائما لصالح حزب المؤتمر، وربما يكون السبب في النسبة المرتفعة للتعليم في كيرلا أكثر من غيرها من الأقاليم الهندية، لكنها (روي) ترجح أن السبب يعود إلى أن الشيوعيين زحفوا بطريقة ماكرة، لم تشكك الشيوعية جهارا بالقيم التقليدية لمجتمع تمييزي طبقي إلى حد متطرف، عمل الماركسيون من خلال التقسيمات المشاعية الجماعية من غير أن يتحدوها، لقد طرحوا ثورة كوكتيل، خليطا مسكرا من ماركسية شرقية وأرثوذكسية هندوسية، معززة بحقنة ديمقراطية.

كانت عودة الجيل الرابع (استا وراحيل) إلى امينيم حالة يمكن وصفها بالقول البورجوازية المسيحية تدمر ذاتها، على نحو ما تربط روي هذه العودة بأغنية كانت في التلفزيون لحظة وصولها إلى البيت، يقدمها مغنّي متحول عند محطة المترو، غنى من صميم قلبه، كأنه يصدق كلمات الأغنية!

ماتت آمو وحيدة في غرفة قذرة في نزل، كانت قد ذهبت لإجراء مقابلة عمل كسكرتيرة لأحدهم، بعدما أوقف الفندق عملها كموظفة استقبال، كانت في الواحدة والثلاثين، ليس سنا متقدمة، ليست صغيرة، سن ممكنة للحياة، سن ممكنة للموت.

تلك الليلة جلست آمو في السرير الغريب في الغرفة الغريبة في الفندق الغريب في المدينة الغريبة، لم تتعرف على أي شيء حولها، وجدها عامل النظافة في الصباح، وأطفأ المروحة، .. رفضت الكنيسة أن تدفنها، حملها تشاكو في شاحنة مستأجرة إلى المحرقة الكهربائية، كانت المحرقة متعبة مهجورة إلا من المتسولين والذين يموتون وحدهم، .. قعقع باب الفرن وهو ينغلق. لم يكن هناك دموع، ذهبت مسؤولة المحرقة لتشرب فنجان شاي، وكان على تشاكو وراحيل أن ينتظرا عشرين دقيقة لاستلام الإيصال وبقايا آمو المحترقة، رمادها، جريش عظامها، أسنانها، ابتسامتها، كلها محشورة في وعاء فخاري صغير.

التعاون يتكون الوعي والإدراك لمخاطر العداوة وأضرارها، وتتشكل مشاعر حذرة للتراحم، وفي مرحلة الاعتماد المتبادل يسود الاعتقاد بحاجة الأطراف جميعها إلى بعضها البعض، ويتقبل الماضي بثقة حذرة، وفي مرحلة الاندماج يتكون شعور في المجتمع بأنه يتكون من شعب واحد، وتسود مفاهيم التضامن والثقة والمودة.

وفي تجربة بناء التعايش بعد الصراع بين الهوتو والتوتسي في أفريقيا الوسطى ظهر دعم لوجهة النظر القائلة بأن بذل الجهود النظامية لمساعدة أناس أكثر، خاصة الفقراء فقرا مدقعا وحل بعض مشكلاتهم بطريقة سلمية يمكن أن يساهم في إيجاد مناخ تخف فيه التوترات الاجتماعية، وتتعزز فيه الأنفس، ويتوقف العنف.

وقد كان معظم المستفيدين من البرامج في رواندا من الأميين الذين لم يدخل أحدهم غرفة صف مدرسي من قبل، لذلك كان من أكثر المظاهر غير العادلة في برامج المجموعة هو تصميم وتعديل منهج أو توجه قادر على الوصول إلى الأميين والمهمشين.

وسيكون لبرامج تقديم المهارات والأفكار للفئة المهمشة في المجتمع تأثير على الحركة الاجتماعية داخل المجتمع الرواندي وتوضيح للمسافة بين الأقوياء والضعفاء والحدود التي يجب على جهود التعايش العمل ضمنها.

كان المشاركون يتلقون التدريبات أملا في استثمار مهاراتهم الجديدة في الفرص الاقتصادية التي يمكن الحصول عليها بعيدا عن هيمنة السلطات والأثرياء والمتنفذين في المجتمعات المحلية، وكان عليهم لأجل

ذلك تعلم كيفية حل النزاعات على ملكية الأراضي.

ربما كان ممكنا تقديم التدريب والمهارات والفرص الاقتصادية ولكن هدم الفجوة بين الأغنياء والفقراء بدا هدفا بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا، في ظل شح الموارد والتقاليد السلطوية والعنف الوحشي وتزايد أعداد السكان. فقد كانت الحياة قبل وقوع العنف أشبه بسجن لا مهرب منه تجتمع فيه أحوال الفقر والوضاعة لتخلق إحساس بالفشل، ولكن السؤال كم هي المسافة التي قطعها الرواندين منذ ذلك الوقت، وفي أي اتجاه؟

وفي جنوب شرق أوروبا (قبرص والبوسنة والهرسك وكوسوفا) استثمرت موارد مالية وسياسية وإنسانية هائلة من أجل إعادة تجميع المجتمعات المنقسمة هناك وتنظيمها من خلال التنمية الاقتصادية والمشاريع المشتركة المتعلقة بالتعليم والتوظيف والفنون والرياضة، وتوظيف مهارات حل النزاعات في التدريب والحوار والمداخلات النفسية من أجل إتاحة المجال للجيران كي يعودوا إلى العمل مرة أخرى ويتكيفوا مع الصدمة التي وقعت والأذى الذي حصل.

ولكن الخبرة أظهرت أن العيش بسلام واحترام مع الأعداء السابقين يتطلب تغييرات جوهرية في العلاقات بين المشاركين على مستويات عدة في المجتمع منها الشعبية والوسطى والنخبوية في المواقف العاطفية والنفسية والفكرية للأفراد الذين عاشوا معاناة لا يمكن تصورها، وهم لايزالون يعيشون في رعب من العدو الذي سبب لهم كل هذا الأذى وحقدوا عليه.ويصعب الفصل بين السياسة والتعايش، إذ أن مشاريع التعايش تهدف إلى نقل رؤية مختلفة للمجتمع.

تتنوع مصادر الكراهية، من الهيمنة السياسية والقمع والتباين الاقتصادي بين المجموعات العرقية، والمبادئ الدينية والسياسية وانسيابها بين القمة والقاعدة أو عبر الروايات المتناقلة بين الأجيال، والعزلة الاجتماعية، وحتى عندما تبدأ سياسة التعايش بإزالة أول مجموعة من الحوافز التي تشجع على استمرار العنف يبقى هناك احتمال وارد باستمرار الكراهية والعداء. ويمكن أن تتم السيطرة على الحقد والخوف إلى حد ما عندما يعمل أفراد ينتمون إلى عرقيات مختلفة ويتفاعلون مع بعضهم البعض داخل أماكن عملهم.

وفي المدن أو البلدات الأقل اختلاطا بين العرقيات يمكن للطموحات أن تصبح أقل تواضعا بسبب قلة حدة التفاعل، وفي مثل هذه الأماكن يمكن تحقيق نجاح مبكر عبر إعادة إحياء التدفق التجاري بين القرى والبلدات من خلال إنشاء سوق أسبوعي عام.

وعبر قنوات نفسية مشابهة تربط الوظيفة أو العمل بمشاعر الكرامة والإحساس بقيمة النفس، يمكن للتباين الاقتصادي المنهجي أن يطيل أمد الكراهية والعنف، كما أن المساعدات الاقتصادية نفسها يمكن أن تفاقم أو تقوض التباينات التي وجدت سابقا، وبخاصة إذا اتخذت هذه المساعدات شكل مشاريع توظيف، واستطاعت تعديل مستويات المداخيل والمنزلة الاجتماعية بشكل ملموس.

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»
عمر بن الخطاب

لقد ثبت أن إجراء المصالحة بين فئات ضمن الأمة الواحدة دخلت في تجارب من الانقسام والصراع والكراهية هو عمل مضن وطويل، وعندما بدأ المجتمع الدولي يتدخل في شؤون الصراعات الداخلية في التسعينات كان يحمل آمالا غير واقعية بتدخل سريع وانسحاب عاجل. وكانت توقعاته أن تخرج المجتمعات التي يتعامل معها من الدمار الذي حل بها خلال سنوات قليلة، ولكن هذه الحروب الصغيرة أثبتت أنها أكثر صعوبة وتعقيدا.

فعادة ما يتدخل عدد كبير من اللاعبين في كل نزاع، ويقوم هؤلاء بتنفيذ مهمات واسعة ومتنوعة وتحمل مختلف المنظورات وجداول العمل، وغالبا ما يمارسون نشاطات متداخلة ومكررة ومتناقضة، وتنتشر البيروقراطية والحسد بين العديد من المتدخلين. ولعل أكثر المعوقات التي لا يستطيع أي تغيير بنيوي أو مؤسسي أن يحلها هي غياب التوجيه السياسي الواضح لدى الدول القوية والمشاركة، فالزعماء السياسيون والمحللون ينادون من أجل

جدل الأديان في ظل الحضارة الإسلامية

يؤشر استمرار الحضور اليهودي والمسيحي والصابئي في الشرق الإسلامي إلى حيوية هذه الأديان وقدرتها على الاستمرار والتواصل بين أتباعها، ويؤشر أيضا على حالة التعايش والحوار والتفاعل التي ظلت قائمة على مدى القرون في ظل الحكم الإسلامي. ومازالت المعابد التي بنيت في العهود الإسلامية قائمة حتى اليوم، وبعضها لا يؤشر فقط على التعايش والتواصل، ولكن على تفاعل وجدل إسلامي بين الأديان.

ويظهر التراث العربي والإسلامي قائمة طويلة من الكتب التي ألفت في جدل الأديان والدفاع عن نفسها، والرد على بعضها على نحو يؤشر على حرية دينية واسعة، ومازالت المئات من هذه الكتب ومخطوطاتها محفوظة في المكتبات الأوروبية بخاصة، وقد جمع المستشرق الألماني موريتس شتنشيندر (المتوفى عام 1907) معلومات عن هذه المخطوطات، أماكن وجودها في المكتبات، وتعريفا بمحتوياتها ومؤلفيها، وجميعها ألفت باللغة العربية في العصور الإسلامية المبكرة، وفي مرحلة النهضة الفكرية والتدوين، ومن أمثلتها (أصول الدين وشفاء المؤمنين) لدانيال بن الحطاب السرياني في القرن الرابع عشر الميلادي، ويرد فيه على الانتقادات الإسلامية للمسيحية، ومنها أيضا كتاب (البرهان على صحيح الإيمان) لمؤلفه مطران نصيبين النسطوري في عام 1222م، و(ترياق العقول في علم الأصول) للأسقف رشيد أبو الخير بن الطيب عام 1549م، ويبحث الكتاب في العقائد المسيحية والإسلامية وتفنيد الاعتراضات الإسلامية ضد المسيحية، ورسالة المطران إيليا عام 1225، ويعرض أدلة من القرآن الكريم والمصادر الإسلامية على صحة العقيدة المسيحية، إضافة إلى الأدلة العقلية، وكتاب (المصباح المرشد إلى الفلاح والنجاح الهادي من التيه إلى سبيل النجاة) لمؤلفه «أبو نصر التكريتي»، وكتباً عدة تعرض حوارات وأسئلة وإجابات، منها محاورة الخليفة الأموي عبد الملك بن

مروان مع النسطوري إبراهيم الطبراني.

وقد ترجمت معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية لأول مرة عام 1143م، وربما يشير هذا التاريخ إلى بداية تشكل العلاقات والحوارات الثقافية بين المسلمين والمسيحيين في الغرب، كما ترجمت بعد ذلك بفترة قصيرة مجموعة من الكتب والمصادر في السيرة النبوية والتاريخ العربي والإسلامي، ثم بدأت موجة من الكتب والدراسات الغربية التي تنتقد الإسلام، وتحرض على المسلمين.

وتظهر الدراسات والمخطوطات المحفوظة حتى اليوم في المكتبات الأوروبية نماذج من خطابات متبادلة بين الباباوات والسلاطين المسلمين، مثل رسائل إنوسنت الثالث (1198-1213)، ورسالة بابا الإسكندرية في سنة 1159، وكتب غريغور التاسع إلى دمشق والمغرب وبغداد وتونس، يقنع فيها حكام البلاد بالمسيحية.

ولكنا نلاحظ اليوم ومنذ القرن التاسع عشر، مبادرات مسيحية عدة من الاهتمام بالإسلام والتراث الإسلامي والحوار الإسلامي المسيحي، وبدأت وجهة الحوار تأخذ الأبعاد المشتركة وآفاق العمل الممكنة وبخاصة في الفكر والأخلاق والإصلاح الاجتماعي، والحياة المشتركة، وتشجيع التدين بعامة؛ فالدين يمكن أن يكون مورداً للتنمية والسلام، وتستطيع المؤسسات الدينية والسياسية وبخاصة البلاد العربية وحوض البحر المتوسط أن تجعل من الدين عاملاً أساسياً في التعاون ومواجهة للأزمات والمشكلات بدلاً من الاستدراج إلى العداوة والتطرف.

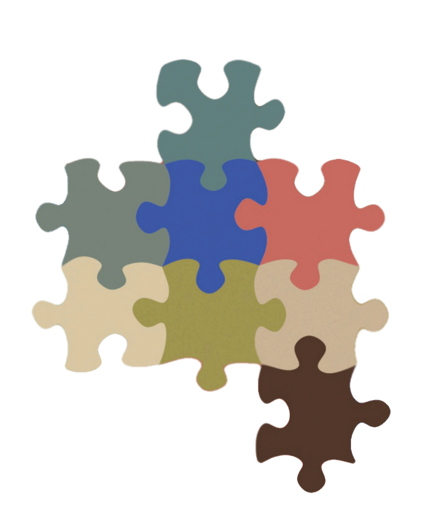
وكان اليهود على مدى التاريخ الإسلامي جزءا من الأمة الإسلامية، ويلاحظ

إعطاء تكليفات متواصلة وإرسال بعثات محددة الهدف من أجل تنظيم التدخلات وتوجيهها.

ولكن الدول التي تتصرف وفق رغباتها وضمن المؤسسات الدولية التي هي عضو فيها تتابع جداول أعمال مختلفة وفقا لمصالحها المختلفة، وتكافح السياسات المتضاربة على فرض هيمنتها ضمن المنظمة الدولية الواحدة وحتى ضمن الحكومة الواحدة. ولا تملك الآلية التي يتخذ فيها المجتمع الدولي قراراته أية قدرة على إنتاج أكثر من حل وسط يكتنفه الغموض وعدم الوضوح بالنسبة لأفق التدخل وأهدافه.

وتتمثل هذه الاختلافات السياسية الجوهرية من خلال تفحص أي مجموعة من قرارات مجلس الأمن ذات صلة بصراع معين، في أنها تشكل في معظمها حلولا وسطا تغلف على الأغلب خلافات سياسية عميقة.

كما أن الكثير من القرارات كتب من أجل الناخبين المحليين ولا يتلاءم داخليا مع الوضع، وهذا الغموض متضمن في صلب الأوضاع السياسية التي ترزح قرارات المنظمات الدولية وحتى الدول نفسها تحت وطأتها، ولا يمكن علاج هذه الأمور بتقديم النصائح.



تماسك المجتمع وتعايشه

تتمة عالم واحد - 8

برنارد لويس أن اليهود وقفوا إلى جانب المسلمين في الحروب الصليبية، وفي الحروب مع المغول والتتار، وتعرض اليهود والعرب والمسلمون للاضطهاد والتنصير الإجباري على يد الكاثوليك الإسبان بعد سقوط دولة العرب فيها عام 1492، وأظهر اليهود ولاء للدولة العثمانية في حروبها مع الروس والبلقان.

وكانت كتابات المؤرخين اليهود في القرن التاسع عشر . كما يذكر برنارد لويس في كتاب الإسلام في التاريخ ومارتمن كرايمر في كتاب الاستشراق اليهودي . تظهر علاقة قربى ثقافية وحضارية بين المسلمين واليهود.

وقد جعل التناقض بين وضع اليهود في أوروبا ووضعهم في العالم الإسلامي المثقفين اليهود يرون الإسلام نموذجا مثاليا يمكنهم من التعايش والاندماج، وكان صعود الحركة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر وراء صورة الصحراء النقية والمثالية الإسلامية، وكان هذا موضع افتخار وانتماء اليهودي المضطهد والمهمش في الغرب.

ومن مؤرخي وفلاسفة القرن التاسع عشر اليهود الذين كتبوا إيجابيا عن الإسلام إبراهام غايغر، وغوستاف فايل، ويوسف دهرنبورغ، وغولدزيهر، ووولف، وليوبولد فايس، وبالغريف. وكان غايغر يعتبر أن الإسلام أوجد مناخات مواتية لازدهار العلوم والفلسفة، وكان فايل أول من ترجم ألف ليلة وليلة من العربية إلى الألمانية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وألف كتابا عام 1837 عن أدب العرب الشعري، وكتابا عن النبي محمد عام 1843، ولكن أهم كتاب لفايل كان تاريخ الخلفاء الذي جاء في خمسة أجزاء، والذي كتب بين 1846 و1862، وتضمن عرضا لتاريخ الشعوب الإسلامية منذ النبوة حتى زمن السلطان سليم، وقد اعتمد على مصادر أولية من المؤرخين المسلمين، واستفاد من رحلاته في البلاد العربية.

وقد أقام غولدزيهر سنوات في مصر والشام، وتعلم في الأزهر، وأقام علاقات

صحيح أن القيادة الحكيمة والجريئة على الأرض يمكن أن تحد أحيانا من تأثير أي قرار غير عملي صادر عن مجلس الأمن، ولكن يبقى من الصعب أن تعمل في أجواء فوضى سياسية وسط أزمة متسارعة الوتيرة.

ويرغب المجتمع الدولي في إجراء إصلاحات قليلة الكلفة، كما أنه يفتقر إلى الصبر والمثابرة في ضمان عدم تكرار النزاع مرة أخرى. ويعتبر غياب التمويل مشكلة رئيسة، وخاصة حين تظهر أزمات جديدة تستنزف الأموال من حروب قديمة، إضافة إلى وجود شح في القوى العاملة المدربة.

قد يشكل التعايش أداة قيمة وفعالة للاستخدام من قبل المجتمع الدولي في عملية المساعدة على رأب الصدع وإعادة إعمار المجتمعات التي مزقتها الحروب الداخلية. ومبدأ التعايش ليس مبهما ولا صعب الاستيعاب، وتتم اليوم مقاربته عبر التعامل على أساس قضية وراء قضية، ومشروع وراء مشروع، ومن الراجح أن تستمر هذه الطريقة، ولكنها إذا استمرت

فإنها ستحد من قوته وقدرة استخدامه، إذ يتطلب الإصرار على ممارسة العمليات التي تزود المجتمع الدولي بشيء أكبر من القدرة على تطبيق سياسة التعايش.

فالتحرك نحو ثقافة التخطيط المشترك سيؤدي إلى تعزيز المؤسسات الدولية من أجل وضع خيارات أفضل لأنه سيؤهل هذه المؤسسات لتحقيق تفهم أفضل للقضايا وللتأثير الذي يتركه عملهم.

كذلك إذا بدأت هذه المؤسسات في الابتعاد عن البنى والأطر الشديدة المركزية التي تقود إدارة الجزئيات، فإنها ستكون في وضع أفضل يؤهلها لتطبيق سياساتها بحساسية، ولكنها ستحتاج في هذه الحال إلى قيادة قوية ودائمة وإلى تدريب مناسب يساعدها على أن تحل محل ثقافة التخندق واستبدالها بثقافة أكثر مرونة وتجاوبا وبراعة.

تتمة عالم واحد - 8

قوية مع جمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي، وكان معاديا للصهيونية، ويعتبر اليهودية دينا وليس قومية، وأنه يجب على اليهود أن يندمجوا في بلادهم وأوطانهم، وكان معجبا إلى درجة الإيمان بالإسلام ومنهجه التوحيدي والعقلي.

قدر ما تعتقد ان الدين من عند الله يجب التوقف عن التحكم به. فما دام من عند الله فان الله وحده قادر على حمايته وتثبيته.
فولتير

II2- الاعتدال والتسامح والتعاون

«وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.» فصّلت، الآية 34.

ما الاعتدال؟

الاعتدال في اللغة من العدل، وهو الصواب والاستقامة والحسن الجميل، وفي معجم لسان العرب: «كلُّ ما تَناسَبَ فقد اعْتَدَل؛ وكلُّ ما أَقَمْته فقد عَدَلْته.» وفي قاموس أكسفورد يأتي الاعتدال بمعنى تجنب الفائض أو التطرف، لا سيما في سلوك المرء أو آرائه السياسية، وتقليل التطرف أو العنف، وفي ذلك فإن الاعتدال هو الأفكار والمواقف المستمدة من اجتهادات إنسانية نزيهة وحرة، ولأنها كذلك فهي ليست يقينية، وتؤمن بتعدد الصواب واحتمالاته، ومظنة خطأ الذات وصواب الآخر.

يذكّر أستاذ علم الاجتماع الأمريكي، ومؤلّف كتاب «في مواجهة التعصب.. التعاون من أجل البقاء»، ريتشارد سينيت، بأنّ التعاون موجود في جيناتنا، لكنّه يلزمه تطويرٌ وتعميقٌ. وهذا أمرٌ يكتسب أهميةً خاصةً عندما نتعامل مع بشرٍ لا يشبهوننا؛ حيث يكون التعاون جهداً مطلوباً، والتفكير في التعاون على أنه مسألةٌ أخلاقيةٌ، يعيق فهمنا، لكن يجب النظر إلى التعاون، ودراسته كحرفةٍ تتطلب من البشر مهارة في الفهم، واستجابة للآخر، كي ننجح في العمل معاً. لكن يبقى التعاون حرفةً شائكةً مليئةً بالصعوبات، ويكتنفها الغموض، وتقود في أحيان كثيرة إلى عواقب هدّامة.

لقد تحركت الأمم، على مدى التاريخ، في بناء حضاراتها، ومواجهة أزماتها، مستلهمةً فكرة قديمة للإنسان كصانع لنفسه، صانع الحياة، هكذا نلاحظ الرابط بين الكيفية التي يصوغ بها الإنسان جهده الشخصي، والكيفية التي يقيم بها علاقاته الاجتماعية، وبين البيئة المادية المحيطة. وربّما لأجل ذلك تصعد، بقوةٍ مؤثرةٍ، الروابط القرابية القبائلية والعشائرية؛ لأنّها استجابات مدعومة بذاكرة وتجارب طويلة ومتراكمة في التاريخ، والذاكرة كما أنّها مصحوبة بمشاعر قوية من القرابة والانتماء والروابط، فهي تضامن مع آخرين مشابهين لنا، وبحث عن عدائيةٍ ضدّ من هو مختلف، كما أنّها، وهذا الأكثر حضوراً وأهميةً في التشكيل الغرائزي للكائنات الحية عمليات دفاع طبيعي؛ لأنّ معظم الحيوانات الاجتماعية، هي قبائل تصطاد معاً على شكل قطعان، وتعلِّم حدود أراضيها لتدافع عنها، لذلك فإنّ الحالة الجماعية (سواء كانت قرابية أو دينية أو طائفية أو اثنية) ضرورية للبقاء.

يمكن للتعاون أن يترافق مع التنافس، ويمكن ملاحظة ذلك في الألعاب، وفي الأسواق، والانتخابات، والمفاوضات الدبلوماسية، وليس شرطاً لأجل أن نتعاون، وأن نكون متضامنين في كلّ شيء، أو تربطنا مشاعر قوية من الانتماء والمودة، فالمهارة هي أهم ما يحتاجه التعاون، والمهارة هي تقنية إحداث أمرٍ ما، أو إجادة صنعه، وكان ابن خلدون يرى أنّ المهارة ميزة الحرفي.

يقول أمارتيا سن: إنّ «مقدراتنا العاطفية والإدراكية، لا تحظى سوى بإدراك عشوائي في المجتمع الحديث، فالأشخاص قادرون على القيام بأكثر ممّا تسمح لهم المدارس وورشات العمل، والمنظمات المدنية،

كرامة الإنسان هي في كونه كائنا أخلاقيا.
آدم سميث

والأنظمة السياسية، القيام به. وأظنّ أنّه في مقدور العرب اليوم اكتشاف أنفسهم من جديد، وملاحظة الطاقات الكامنة لإعادة بناء عقدٍ اجتماعي ديمقراطي، يتسع لهم جميعاً بلا استثناء».

ربّما ينقصنا في عالم الصراعات والأزمات العربية القائمة اليوم، سواء كانت حروباً أهليةً طاحنةً، أو نزاعاتٍ وأزماتٍ داخلية، الحوار والإصغاء الحسن والعميق لبعضنا، والقدرة على المتابعة الحثيثة، وتأويل ما نقوله لبعضنا، والبحث عن معنى الإيماءات والصمت، والكلمات أيضاً. فالجدل والحوار، بسبب ذلك، لا ينتجان أفكاراً جديدةً، ولا يعززان التعاون؛ لأنّنا، كما يقول ثيودور زيلدن، «لا نكتشف المشترك مع الآخر»، أو كما يقول الناقد الأدبي الروسي ميخائيل باختين: «كيف يمكن للناس أن يصبحوا أكثر وعياً بوجهات نظرهم، نتيجة عملية التبادل بينهم، وأن يزيدوا من فهم أحدهم للآخر، على رغم عدم تمكنهم من الوصول إلى اتفاقات مشتركة؟».

ويبدو واضحاً اليوم، في خضمّ ما نشهده من عنف مجتمعي، وشجارات، وسلوك اجتماعي متوتر، واحتقان، أنّ من أهم أولوياتنا وضروراتنا القصوى، بناء ثقافة العفو والتسامح والمصالحة؛ فالمدن تقوم على القانون والتسامح، وفي غيابهما، تصبح الحياة مستحيلة، وربما يكون مهماً أيضاً أن يكون التسامح والتعاون مجالاً مشتركاً، بين مؤسسات البحث، ومنظّمات المجتمع المدني، والجامعات، والمدارس، وأن يشاركوا في التعلّم والتدرّب، كما التعليم والتدريب أيضاً، معلمون وأكاديميون ونشطاء من المجتمع المدني، ذلك أنّ الإنجاز والتقدم يقعان دائماً، أو في أغلب الأحيان، في التخوم المشتركة بين المؤسسات والتخصصات. وكما يكون التسامح والتعصب والتعاون عمليات تشغل العملية التعليمية، وبيئتها، وكمساعدة المعلم في نشر وتطبيق مفاهيم وآليات للمصالحة وحلّ النزاعات؛ فإنّها عملية تقع في سياق شبكة من المجتمع والمؤسسات التعليمية.

لا نحتاج، لأجل التدريب على التعاون والتسامح ومواجهة التعصب، إلى صراعاتٍ وأزماتٍ اجتماعيةٍ عنيفةٍ؛ إذ تكفي استطلاعات الرأي، والدراسات المسحية، والملاحظات، لإدراك حجم العنف والتعصب، والسلوك غير الاجتماعي، في العمل والحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية والشخصية، إنّها مبادرة مليئة بالتحديات بالطّبع، لكن لا مناص من مواجهتها؛ بل تأخرنا كثيراً في التصدي لها؛ ففي الوقت الذي نجحت الدول الغربية، وكثير غيرها، في وقف الحروب والنزاعات لعقود متواصلة، بعد قرون من العداء والدماء، ما نزال في كثير من مجتمعاتنا العربية المتجانسة لغوياً وثقافياً، غير



كان العرب يوقدون النار في الليل ليراها عابرو السبيل والمحتاجون

قادرين على التسامح والحوار والاستماع. المسألة ليست ترفاً، كما يظنّ البعض، لكنّها ضروريةٌ أساسيةٌ لأجل إتمام كلّ مشروعات الإصلاح والتنمية، حتى تلك التي يبدو أنّ لا علاقة لها بالموضوع؛ فالاقتصاد والموارد، والمصالح، تقوم اليوم على الثقة والتسامح. وهكذا، فإنّ التسامح رأسمال كبيرٍ، يطور السياحة والأسواق والعلاقات التجارية والاقتصادية، إضافةً إلى المكاسب الاجتماعية والعامة بالطبع. وبغير التسامح، فإنّ الأعمال والمشروعات والمؤسسات تتعرض لنزفٍ وخسائر كبيرةٍ، عدا أنّه من الواضح أنّ الأزمة، في أبعادها الاجتماعية والأمنية، وصلت إلى مستويات تنذر بالخطر، وتهدّد مكاسب وإنجازات قائمة، تحققت بالفعل، وأنفق عليها الكثير من الموارد والضرائب، كما تعطّلت آفاق ومسارات الإصلاح القادمة.

لكنّ التعاون والتسامح ليسا فقط مجموعة من القيم والأخلاق؛ بل هما أيضا جزء من مهارات وتقاليد العيش المشترك، وفي ذلك فإن العمل للمستقبل والخروج من الأزمات والصراعات في فضائه الاجتماعي العام، غير الرسمي، يعتمد على عمليات إصغاء، واسعةٍ وعميقةٍ، بين الأطراف، والفئات، والطبقات، وجميع المكونات الاجتماعية، فالتفكير في التعاون كمسألةٍ أخلاقيةٍ فقط يعيق فهمنا.

عندما تتلقى إشارة في جهازك العصبي والعقلي أن إيذاء الناس خطأ .. وتتلقى في الوقت نفسه إشارة بأنك تريد إيذاء هؤلاء الناس، فإنك تنشئ اعتقادا أن هؤلاء الذين تؤذيهم ليسوا «ناس» أو هم يستحقون الإيذاء.

عالم واحد - 9

المرجئة، العقلانيون المسلمون في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي

سمي المرجئة بهذا الاسم لأنهم يدعون إلى إرجاء الحكم على إيمان الناس إلى الله، يمكن اعتبارهم التيار المؤسس في التاريخ العربي والإسلامي للعقلانية الدينية والاجتماعية والأخلاقية. هكذا يمكن القول إن «الإرجاء» والذي التزمه معظم الصحابة والتابعين من العلماء والقادة الاجتماعيين يمكن أن يكون الجذر الديني للعلمانية الإسلامية، وكانت مفارقة محيرة أنه تيار ضحى كثيرا وتحمل الاضطهاد بل والقتل والتعذيب لأجل تجنب إقحام الدين في الحكم، لكنه تيار انحسر ولم يشفع له كبار الصحابة والتابعين الذين التزموه، مثل سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وسلمان الفارسي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وأبو سعيد الخدري، وأبو موسى الأشعري، والحسن بن علي بين أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعمران بن الحصين ...

تعد قصيدة شاعر المرجئة ثابت بن قطنة المتوفى عام 73 هـ 692م دليلا توضيحيا لهذا المذهب

يا هند، فاستمعي لي إنّ سيرتنا...
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبّهة...
و نصدق القول في من حار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلّهم...
و المشركون استووا في دينهم قددا
و لا أرى أن ذنبا بالغا أحدا...
مِ الناس شركا إذا ما وحّد الصمدا
لا نسفك الدّم، إلاّ أن يراد بنا...
سفك الدماء طريقا واحدا جددا

3II- التواصل الاجتماعي قيمة أخلاقية وضرورة اقتصادية

يشكل التواصل الاجتماعي أساس الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية للأمم، فالأسواق والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية والسياسية والانتخابات والعمليات الثقافية والتجارية والشركات والبيع والشراء والتمويل وكل مفردات ومكونات الحياة صغيرها وكبيرها تعمل وتنجح أو تفشل حسب فاعلية التواصل الاجتماعي بين الأفراد بعضهم بعضا، ومع وبين المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية، الأسر، والجمعيات والنوادي والنقابات والوزارات والإعلام والنواب، كما الأسواق والشركات،.. وباختصار يجب أن يكون في مقدور المواطنين بناء تواصل اجتماعي فاعل بهدف تحسين حياتهم وأعمالهم وعلاقاتهم والتقدم نحو أهدافهم، ويقاس مستوى وفاعلية التواصل الاجتماعي بالثقة، ثقة الأفراد بعضهم ببعض، والثقة بين المؤسسات والأفراد، فارتفاع مستوى الثقة يساعد على تسهيل وتطوير بناء الشركات والجمعيات والمنظمات، ويقلل كثيرا من الأعباء القانونية والمالية على الأفراد والمؤسسات.

يقول فرنسيس فوكوياما في كتابه «الثقة: الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي» هناك ثلاثة سبل عامة تؤدي إلى التواصل الاجتماعي، العائلة والقرابة، والجمعيات الطوعية خارج صلات القرابة مثل المدارس والأندية والنقابات، والدولة. وهناك أيضا ثلاثة أشكال من التنظيمات الاقتصادية متصلة بتلك السبل: المؤسسات التجارية العائلية، والشركات المحترفة، ومشروعات الدولة.



وقد تبين أن الثقة العائلية تساعد على إقامة شركات عائلية لكنها تظل محدودة ومهددة، ولا تقوم الشركات الكبرى إلا في مجتمعات تتمتع بثقة عالية تتجاوز القرابة، كما يلاحظ اليوم في الولايات المتحدة واليابان وألمانيا، إذ تتمتع هذه الدول بمستوى عالي من الثقة العامة مكنتها من إقامة شركات كبرى وعملاقة ومتعددة الجنسية، في حين أن المجتمعات التي تقتصر الثقة فيها على القرابة، لم تتمكن من بناء شركات كبرى.

وتتميز المجتمعات الانجلو سكسونية (بريطانيا والولايات المتحدة وكندا واستراليا وايرلندا) بقدرة مجتمعية وذاتية عالية على العمل والشراكة السياسية والاقتصادية دون تدخل أو مساعدة من الدولة، وقد تكون الفردية العالية برأي المفكر الاقتصادي الفرنسي جاك أتالي من أهم أسباب الريادة الأمريكية في صناعة السيارات والأجهزة الكهربائية ثم الكمبيوتر والحوسبة. في حين تميزت الفرنسيون بالاعتماد على الدولة.

إن الشركات العائلية تواجه مع الزمن مصيرا يكاد يكون حتميا، إذ تتفكك وتتعرض للإعياء والجمود، ولا مناص غالبا من تحويلها إلى شركة مساهمة عامة، ولكن هذا النوع من الشركات يحتاج إلى بيئة ثقافية واجتماعية وقانونية تلخصها كلمة واحدة؛ هي الثقة. ولم تظهر الشركات المساهمة إلا في منتصف القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة أولا ثم في ألمانيا بعد ذلك بقليل، ولم يكن ممكنا تطوير الاقتصاد إلا بتجاوز النظام العائلي في الأعمال والشركات.

صواب أو خطأ فكرة أو اعتقاد لا يغير شيئا في هوية الناس ولا في الموقف منهم والنظر إليهم؛ فالإنسان مستقل بكيانه واعتباره عن أفكاره ومعتقداته، هو إنسان أولا ومواطن ثانيا.

تتمة عالم واحد - 9

من يتّق الله في الدّنيا فإنّ له...
أجر التقيّ إذا وفّي الحساب غدا
و ما قضى الله من أمر فليس له...
ردّ، وما يقض من شيء يكن رشدا
كلّ الخوارج مُخطٍ في مقالته...
و لو تعبّد في ما قال و اجتهدا
أما عليّ و عثمان فإنّهما...
عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
و كان بينهما شغب، و قد شهدا ...
شقّ العصا، و بعين الله ما شهدا
يجزى عليّ و عثمان بسعيهما...
و لست أدري بحقّ أيّة وردا
الله يعلم ما ذا يحضران به...
و كلّ عبد سيلقى الله منفردا

هكذا فإن التيارات الدينية السياسية السائدة تعود في جذورها إلى تيارات واتجاهات سياسية تشكلت حول مسألة الحكم والخلاف عليها، وليس غريبا بالطبع أن يمتد هذا الصراع ويتكرس على مدى القرون لأن الدين يمنح الأفكار والاتجاهات صلابة وتماسكا واستمرارية، وهذا اخطر ما في الدمج بين الدين والسياسة!

المرجئة اول تيار تشكل من كبار الصحابة والتابعين والعلماء ويعتقدون أن الحكم مسألة ليست دينية ولا يردون الخلاف إلى فهم ديني ويرون جميع الفرقاء مسلمين مرجون إلى الله وتلخص موقفهم «قل آمنت بالله ثم استقم» ويشمل ذلك جميع المؤمنين بالله من المسيحيين واليهود والصابئة والربوبيين وكل مؤمن بالله.

ورغم أن الخوارج رفضوا «الحاكمية» أو الاحتكام إلى القرآن فإنهم يتجرأون في التكفير والخروج المسلح على المخالفين، ويعتقدون بمقاتلة الكافرين ويكادون يرون من ليس منهم كافرا، ويشبههم في ذلك بالطبع الجماعات القتالية مثل القاعدة وداعش والتكفيريين والقطبيين وفئات من السلفيين والاخوان. لكن وللأمانة التاريخية فإن هناك فرق جوهري كبير وعميق بين الخوارج التاريخيين وبين الجماعات الإسلامية السياسية المعاصرة، وما يجمع بينهم ليس سوى التعصب والحماس المتهور للفكرة والقتال لأجلها بلا داع لذلك.

ويعتبر المعتزلة أو اهل الراي والعقلانية امتدادا للمرجئة، لكنهم أدخلوا الدين في السياسة والحكم، وهذا أضرّ بهم كثيرا، لأنهم تورطوا في الاستبداد والظلم عندما أرادوا فرض العقلانية فرضا وحاربوا أهل الحديث.

4II- الاستماع والحوار



يتكون التفاهم الإنساني بالقدرة على استماع الناس لبعضهم بعضا، وفي ذلك ينشأ الحوار والتضامن والتعاون والفهم المتبادل، فلا يقدر الناس على العيش معا إذا لم يفهموا بعضهم بعضا، كما أن الأفكار الصحيحة عن الآخر تتشكل بالاستماع العميق إليه، وفي المقابل ينشأ سوء الفهم والخوف المتبادل في حالة عدم معرفة الناس لبعضهم بعضا، وبطبيعة الحال عدم استماعهم لبعضهم بعضا، وفي ظل الفردية الصاعدة تزيد عزلة الناس عن بعضهم وشعورهم بالوحدة، لكن في مقدروهم باستخدام قيم ومهارات الاستماع أن ينشئوا مع فردانيتهم حالة من التواصل الاجتماعي، كما يواصلون التعلم الذاتي والتعليم المستمر. وفي ظل التحولات الكبرى الجارية اليوم في المعرفة وما يتبعها أيضا من تحولات اقتصادية واجتماعية يمكن أن يفقد الإنسان كثيرا من مهاراته ومعارفة إذا لم يكن قادرا على الإصغاء العميق لكل ما يجري حوله.

بالطبع فإن مفاهيم ومهارات وقيم من قبيل الاصغاء والاستماع وفهم الذات وفهم الآخر ليست جديدة، لكنها اليوم تأخذ طابعا ثقافيا وعاما لأجل التأهيل الجماعي الواسع للمشاركة في مرحلة المعرفة الجديدة وتداعياتها الاقتصادية والاجتماعية، ويمكن النظر على سبيل المثال إلى جملة من الظواهر الجديدة التي تشكل المجتمعات وتوجهاتها اليوم، فالرواية لم تعد حكاية سردية مسلية ولكنها بحث معرفي ومصدر للفهم العميق المسكون بالفلسفة، والفلسفة نفسها لم تعد اليوم تخصصا صعبا ومعقدا يشغل به نخبة قليلة من الناس ولكنها تتحول إلى ثقافة عامة.

وإضافة إلى الشعور بالوحدة والعزلة وفقدان المعرفة والمهارات فإن الإنسان أيضا مهدد في هذه المرحلة بتحولاتها العميقة بفقدان المعنى والجدوى، حيث تتغير الأعمال والوظائف والتخصصات، وتنشأ احتياجات معرفية ومهنية كثيرة جدا نحتاج الى التقاطها ومواكبتها حتى نظل قادرين على المشاركة في العالم؛ نأخذ منه ونعطيه، ونتقبله ويتقبلنا.

نحتاج إلى إعادة تشكيل وتعليم متواصل ودؤوب، وعملية استماع وإصغاء طويلة وعميقة تعلمنا من جديد كل شيء وتجدد أو تلغي أو تغير ما تراكم لدينا من خبرات وعلوم وثقافة وقصص ومواقف وأفكار وممارسات وعادات، نحتاج إلى إصغاء يلتقط المعارف والأفكار الجديدة والملائمة، لأننا مقدمون على حياة ستكون بكل مفرداتها منقطعة عن الماضي، لا المدارس والجامعات ستكون هي نفسها، وسيكون الفرق بينها وبين القائمة اليوم مثل الفرق

تتمة عالم واحد - 9

يعبر عن المرجئة المعاصرين الشيخ علي عبد الرازق في كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» ويتفق معه أيضا السودانيان عبد الله النعيم ومحمد محمود طه. ويعبر عن المعتزلة المعاصرين كثير من المفكرين مثل نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون والجابري وحسن حنفي وسائر المفكرين الذين يرون أن العقل والعدل أساس الخطاب الديني.

ان الأصل في الدين والدعوة هو الفردية بما هي ايمان فردي ومسؤولية فردية وعلاقة فردية بالخالق، .. وهذا هو الإرجاء ايضا.

«إذا لم تثق بما فيه الكفاية، فلا أحد سيثق بك.»
لاوتسه

بين هذه وبين الكتاتيب، ولا المهن والأعمال، فسيكون الفرق بين الأطباء غدا وأطباء اليوم مثل الفرق بين هؤلاء وبين الكهنة والحجامين والعطارين الذين كانوا يعالجون الناس ويداوونهم.

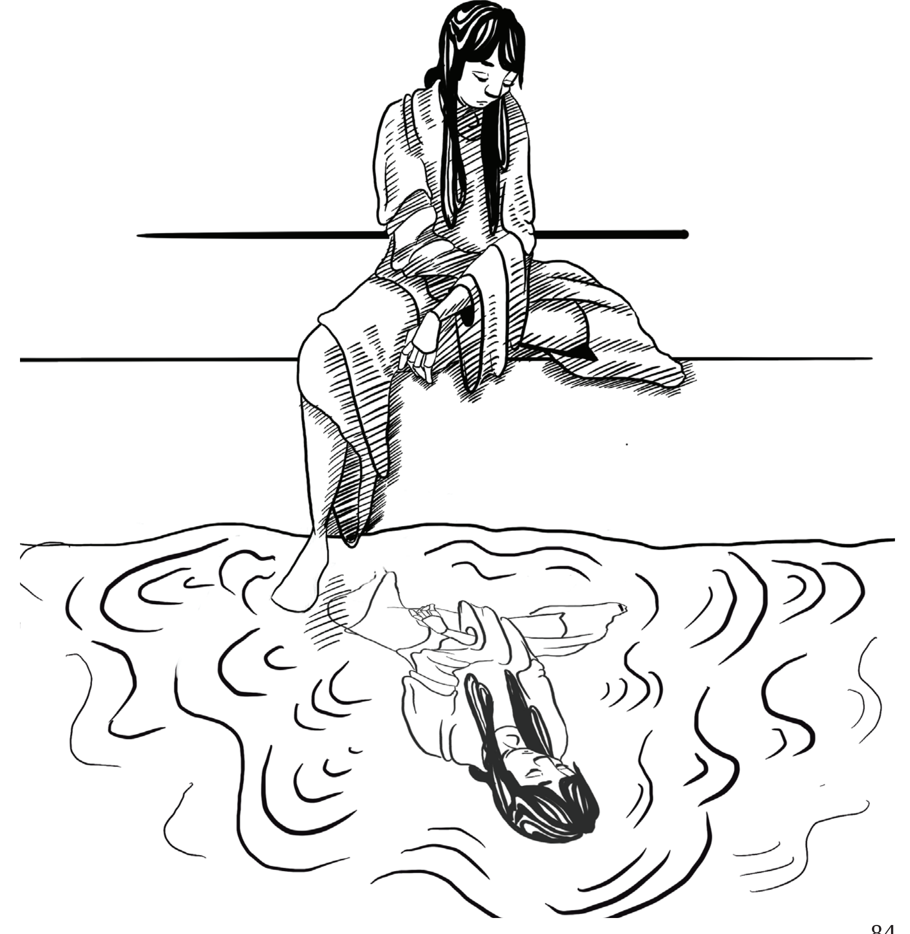
يقول الفيلسوف الألماني بولنوف إن الشرط الأول للحوار هو القدرة على الإصغاء إلى الآخر، والإصغاء يعني أكثر من التقاط الإشارات الصوتية، كذلك أكثر من فهم ما يقوله الآخر، إنه يعنى أن أدرك أن الآخر يود أن يقول لي شيئا مهما بالنسبة إلي، شيئا على أن أفكر فيه وقد يرغمني، إذا دعت الضرورة، على تغيير رأيي.» وأما الشرط المسبق الآخر فهو الثقة بالآخر، وتعني أن يكون المرء مستعداً للتصريح برأيه ولا يخشى الأذى، يقول الفيلسوف الصيني «لاوتسه»: «إذا لم تثق بما فيه الكفاية، فلا أحد سيثق بك.» ولا شيء كالحوار يخلق أساساً للثقة يترسّخ على نحو متقدم.

يساعد الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي الألماني (1900 – 1980) إريك فروم في كتابيه «فن الإصغاء» و» فن الوجود» قارئه في فهم نفسه وتحليلها، ثم شفائها من العلل والمشكلات والأزمات التي لا يكاد يخلو منها أحد من الناس في مستويات ودرجات متفاوتة؛ فنحن جميعا نواجه ضغوطا، ومررنا بتجارب تؤثر فينا وتشكلنا، وفي كثير من الأحيان فإننا نسلك ونفكر ونتذكر وننسى على نحو مشحون بالأزمة والضغوط بدون أن نعي أننا نضر بأنفسنا أو نستغرق فيها على نحو يضر بها، ونغفل عن العالم من حولنا وما فيه من فرص وجمال يمكن أن تشفينا وتساعدنا.

يقدم فروم عشر خطوات للمعرفة والشفاء: التحليل أو معرفة الذات أو الوعي، وتغيير السلوك، وتنمية الاهتمام بالعالم، والقراءة، وتعلم التفكير النقدي، وأن يدرك المرء لاشعوره، ويدرك أيضا جسمه، ويدرك نرجسيته، ويحلل نفسه، والتركيز والتأمل.

يقول فروم: «إذا لم أفكر نقدياً فأنا عرضة لكل التأثيرات، ولكل المقترحات، ولكل الأخطاء، ولكل الأكاذيب المنتشرة التي أتلقّنها من اليوم الأول فصاعداً. ولا يمكن للمرء أن يكون حراً، ولا أن يكون ذاتَه، ولا أن يكون له مركز في ذاته، ما لم يكن قادراً على التفكير نقدياً».

ربما تحتاج النرجسية (الاستغراق بالذات) إلى توقف طويل، لأنها برأي فروم أساس العلل. فالاستغراق بالذات، والعجز



عن فهم العالم المحيط والاستماع إليه والتفاعل معه؛ يؤدي إلى سلسلة من الأزمات والتطرفات، كما التعصب والكراهية.

والواقع أننا جميعا نرجسيون بدرجة من الدرجات، لأن النرجسية في أصلها غريزة ضرورية لحماية الذات، لكن نحتاج أن نهذبها لتكون بالقدر المطلوب والضروري، كما أن الطفل يولد نرجسيا، ويحتاج على نحو تدريجي في التنشئة أن يتعلم الاستماع والتعاون والمشاركة، وإذا لم يتخلص من نرجسيته فإنه يكبر، ويمضي في حياته وعمله مثقلا بالأزمات التي تقلل من كفاءته وقدرته على التكيف والرضا.

قال تعالى «ونفس وما سواها، فالهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» (الشمس، 7-11) فالمشاعر والأفكار والذكريات التي نحملها أو نفقدها هي طاقة منشئة لنا وموقفنا في الحياة وعلاقتنا بالآخرين، نحن نشكل أنفسنا بهذه الطاقة التي نحلها فينا أو نمنعها ان تحل فينا. فإن تركنا الحقد والحسد وحب الذات والغرور والرغبة في تدمير الآخرين وإيذائهم تملأنا، ثم أغلقنا أنفسنا أمام عواطف الحب والتسامح ونسيان الإساءات والرغبة في الخير للآخرين والتواضع فإننا نشكل أنفسنا على نحو خطير على أنفسنا وعلى المجتمع.. نتحول إلى كائنات خطيرة ومؤذية، ويمكن أن تنفجر في أية لحظة.. كيف نشكل أنفسنا؟

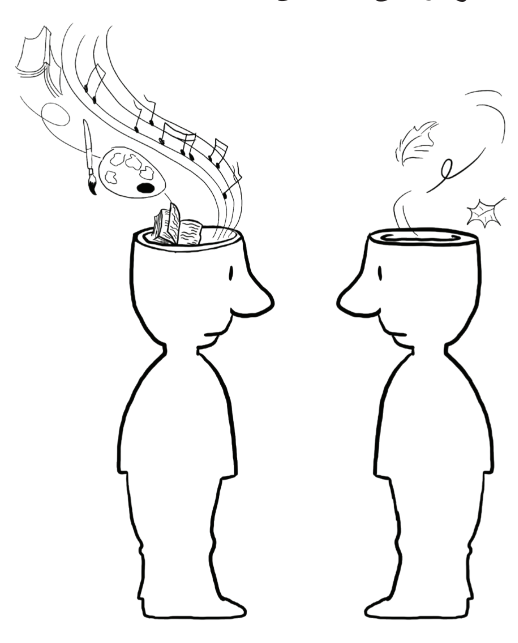
وقال تعالى «ولا أقسم بالنفس اللوامة» (القيامة، 2) وقال أيضا «إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» (يوسف، 53) النفس الأولى جميلة ومطلوبة، ففي قلقها الدائم «اللوم» تسعى دائما إلى الأفضل، ولذلك فقد مدحها الله بقسمه بها، والأخرى بالطبع هي التي يجب أن نسعى في مقاومتها وتهذيبها.. وأجمل منهما بالطبع «النفس المطمئنة» وأظنها حالة مثالية نسعى للوصول إليها، ولا نكاد نظفر بها إلا لحظات قليلة، ثم نعود إلى حالة اللوامة أو ننتكس إلى الأمارة بالسوء، لكن يساعدنا «اللوم» بما هو الاستماع والمراجعة والتعلم المتواصل في محاولة الارتقاء بالذات ومقاومة العيوب والاخطاء والأهواء.

وتواجهنا في الحياة تحديات وأزمات نفسية واجتماعية كثيرة، مثل الاكتئاب والقلق والشعور بالفراغ ونحتاج إلى التخلص منها، وأن نسلك بأنفسنا وعلاقاتنا على النحو الذي يساعدنا على تجاوز الأزمات، إن الإصغاء العميق لأنفسنا وما حولنا يساعدنا على أن نجعل لحياتنا معنى وهدفا نعتز به ونسعى لتحقيقه؟ كما يساعدنا على التخلص من الاكتئاب والقلق.

بالطبع فإن الاستماع كما سائر المهارات والقيم الروحية والعقلية لن تلغي أو توقف تجربة سيئة ولا تجاوزات واعتداءات صادمة منشئة للأزمات والعيوب والعلل، ولن تمنح المال إن كان سبب الأزمة نقص المال، .. هذا ما يجب إدراكه منذ البداية لدى كل الباحثين عن الشفاء، ولكن هذا الإصغاء والتأمل يساعدك على أن تكون أقوى من الأزمة وقادرا على مواجهتها، ويساعدك على حمايتك من نفسك، ويرشدك لتوقف انت ما تستطيع وقفه ويمنحك «المناعة النفسية» والعزيمة لتصحح أخطاءك، ويحميك من الانزلاق إلى عيوب أكثر وأشد خطورة مثل الكراهية والاكتئاب والإدمان، إنه يضعك في مواجهة السؤال «ماذا يجب أن أفعل؟»

عشر خطوات للمعرفة والشفاء: التحليل أو معرفة الذات أو الوعي، وتغيير السلوك، وتنمية الاهتمام بالعالم، والقراءة، وتعلم التفكير النقدي، وأن يدرك المرء لاشعوره، ويدرك أيضا جسمه، ويدرك نرجسيته، ويحلل نفسه، والتركيز والتأمل.
فروم

والنفس مثل خزان تحلّ أو توضع فيه الأشياء أو يكون مغلقا مهجورا، فنحن ما نُحِلّ في أنفسنا من أفكار وقيم وعزائم وذكريات ونسيان، .. لننظر فيما يحلّ فينا، ما يجب أن نستحضر أو نستبعد من أفكار ومواقف، وما نتذكر أو ننسى، فنحن ما نتذكر، ونحن ما ننسى.



لن يهبط الشفاء من خارجنا على غير موعد، لكن الشفاء هو القدرة على التحكم بالغرائز وترشيدها، أو كما يقول فروم «تقوية الأنا في مواجهة الغريزة» والعكس صحيح أيضا فإن الأمراض النفسية ناشئة عن تغلب الغريزة على الأنا، وهكذا فإن الشفاء في القوة والعوامل التكوينية للذات والغرائز، السلبية والإيجابية،.. فالشفاء يعتمد على اكتشاف العواطف المكبوتة، وتحويلها إلى شعور، يشبه ذلك خروج القيح من بقعة ملتهبة.

وبقترح فروم للشفاء من الكراهية والحسد والحقد كما الاكتئاب والقلق استخدام مهارة محاربة نمط من العواطف بنمط آخر، هناك أهواء خبيثة مثل الحسد

التطرف واحد وذو طبيعة واحدة، سواء كان تطرفا دينيا أو قوميا أو أيديولوجيا، وتتشابه الحركات الجماهيرية أيضا في إخلاصها وإيمانها وسعيها إلى السلطة، وفي وحدتها واستعدادها للتضحية.

والإيذاء والنرجسية يمكن مواجهتها بالحب والتسامح والاهتمام بالعالم (الناس والطبيعة) والفنون والتفكير، .. لذة التفكير، فالذات أو الأنا هي القوة المنقّذة للأهواء الخبيثة وغير الخبيثة. ولكن المهم في الإنسان، وما يحدد عمله، وما يصنع شخصيته، إنما هو أي نوع من الأهواء يحركه. وفي مقدور الإنسان بقدر من الاستماع والتدريب ان يفهم ذاته ويساعد نفسه. قال تعالى «»بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» (القيامة، 14)

ومن أهم مهارات وقيم الاستماع القراءة، فالإنسان يعلم نفسه بالقراءة معارف كثيرة، ويدربها على الاستماع الطويل والتركيز، ويقترح فروم لأجل ذلك قراءة التاريخ والدين والفلسفة والاساطير والرموز والروايات والأعمال الأدبية الجميلة والخالدة، فهذا يمنح الإنسان فرصة لفهم نفسه والحصول على الانسجام مع الذات والكون أيضا، وهذا الارتقاء بالنفس يجعلها أقوى من القلق الخوف وسائر الأمراض والعيوب. لنجرب في ساعات النهار الطويلة عزلة مليئة بالقراءة والتأمل في النفس وعيوبها وأحلامها وآمالها.

يقول فروم: «على المرء أن يبدأ بالقراءة، وبقراءة الكتب المهمة، وبقراءتها بجدية. ولديّ الانطباع بأن المنهج الحديث في القراءة هو منهج توجّهه الفكرة القائلة بأن على المرء ألا يبذل الكثير من الجهد، فيجب أن تكون سهلة، ويجب أن تكون مختصرة، ويجب أن تكون ممتعة على الفور، وحتماً هذه أوهام كلها. فما من شيء مفيد يمكن أن يعمله المرء أو يتعلمه من دون أي جهد، ومن دون بعض التضحية، ومن دون تدريب.»

وبما أننا محكوم علينا بالفردانية، فإننا نحتاج أن نجعل الفترات الطويلة التي نمضيها مع أنفسنا مصدرا للسعادة والمشاركة، والحوار الذاتي، .. وأن نفهم أنفسنا، ولنواجه أنفسنا بالسؤال عن آلامنا وما يسعدنا وأخطائنا وعيوبنا وحسناتنا، وما يغضبنا وما يفرحنا، وأحقادنا وتسامحنا وعفونا وظلمنا، وتقصيرنا وإنجازنا، وما أديناه من حقوق وواجبات وما لم نؤده، وإن كنا محقين في ذلك أم مخطئين.

ويقترح إريك فروم في كتابه «فن الوجود»، لأجل أن يجعل الإنسان لوجوده معنى، أن يعلّم نفسه التركيز والتأمل، ويحاول إجابة نفسه عن مجموعة من الأسئلة، مثل: على من أعتمد؟ ما هي مخاوفي الكبرى؟ ماذا كان مقدرا لي عندما خُلقت؟ ماذا كانت أهدافي وكيف تغيرت؟ ماذا كانت العقبات في طريقي عندما اتخذت طريقا خاطئة؟ ما هي الجهود التي بذلتها لأصحح الخطأ وأعود إلى الطريق السليمة؟ من أنا الآن؟ من سأكون إذا اتخذت دائما القرارات الصائبة وتجنب الأخطاء المصيرية؟ من هو الشخص الذي كنت أريد أن أكونه في الماضي والحاضر والمستقبل؟ ما هي الصورة التي رسمتها لنفسي؟ ما هي الصورة التي أرغب أن يراها الآخرون عني؟ أين هي التناقضات بين الصورتين؟ ما هي التناقضات بين الصورتين وبين ما أشعر أنه الحقيقة؟ من هو الشخص الذي سأكونه اذا استمررت في العيش كما أفعل الآن؟ ما هي الظروف المسؤولة عن التطور الذي تعرضت له؟ ما هي البدائل أمامي لتطور اهتمامي؟ ماذا يجب أن أفعل؟

معنى الحياة وهدفها مرتبطان بالحاجات الإنسانية التي نسعى لتحقيقها. ولكن الأكثر صعوبة هو كيف نميز بين الأصيل وبين الزائف في هذه الاحتياجات والمعاني. ويمكن، على سبيل المثال، ملاحظة القدر الهائل من المنتجات غالية الثمن، وهي في الحقيقة عديمة القيمة، والعكس صحيح أيضا؛ يمكن ملاحظة مجموعة كبيرة من المتطلبات والاحتياجات الفكرية والمادية، ولكنها مهملة ولا يُلتفت إليها.. تكاد مسألة الوجود تكون هي التمييز بين الأصيل وبين المزيف!

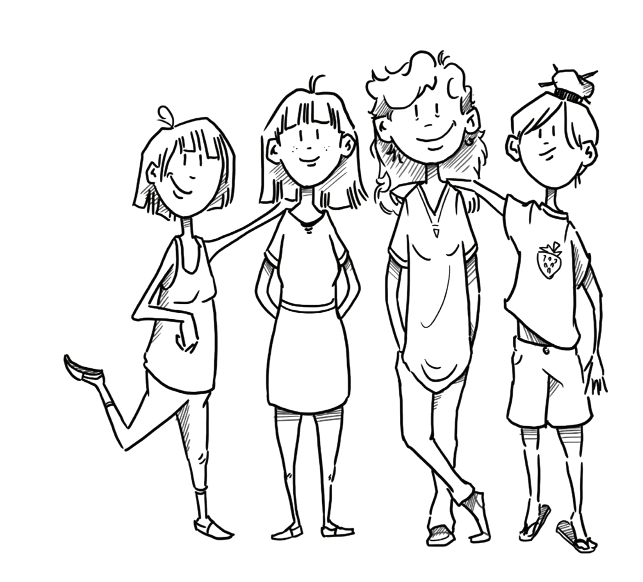
يعتقد فروم أن إحدى عقبات الوجود هي التفاهة، وأسوأ التفاهات هي الحديث التافه، لأنها برأيه تشكل الإنسان على نحو ضحل وضعيف، يتعلق بظاهر الأمور فحسب، وليس بأسبابها أو بما يتضمنه جوهرها. وهو يستشهد بمقولة بوذا: «لن أشارك في حديث عن الأشياء السخيفة؛ الأكل والشرب والملبس والسكن والعطور والأقارب والأجداد والقرى والمدن والنساء والرجال...». في المقابل، فإن الكلام في المعرفة والتواضع والفضيلة والحكمة، يساعد على الحياد وتصفية الذهن.. وتحمل الحياة القاسية.

يقابل التفاهةَ المعنى واليقظةُ. وتعني أيضا الوعي والقدرة على رؤية العالم بالمعنى الفيزيائي؛ بألوانه وكثافته وأبعاده وامتداداته، كما رؤية الأفكار والمفاهيم أيضا.

{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}
الزمر (39)

5II- الصداقة

تمثل الصداقة مؤشرا اجتماعيا وأخلاقيا جمعيا وفرديا يستدل به على حالة التقدم الاجتماعي والمشاركة والانتماء والتعاون، إذ لا يمكن التقدم في هذه المجالات من غير قيم الصداقة، وفي المقابل فإن تراجع قيم الصداقة يؤشر إلى الهشاشة والقابلية للكراهية، .. ويبدو واضحا أن الصداقة ومعناها تتناقض مع الكراهية، فهي مستمدة من قيم قبول الآخرين والسعي لاكتساب ثقتهم وتعاونهم، وهي بطبيعة الحال تعني محبة الناس ومساعدتهم وتمني الخير لهم والتخلص من الكراهية والعداء.



وفي اللغة، فإن الصداقة من الصدق والمودة، ويرتبط بها القرب والمناجاة والوفاء، وفي لسان العرب هو صديق لأنه صادق في النصح والمودة. وفي القرآن الكريم جاء الصديق في منزلة الأقارب المقربين «لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا . فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً. كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ

أفريقيا مهد الإنسان والحضارات

تعتبر المصادر العربية كما يذكر جوزيف كي زيربو في كتابه تاريخ أفريقيا السوداء أهم وأول ما قدم معلومات عن أفريقيا وتاريخها، ومن العلماء والرحالة العرب الذين كتبوا عن أفريقيا: ابن فضل الله العمري، وابن حوقل، والمسعودي، وأبو عبيد البكري، وابن خلدون، والحسن (ليون) الأفريقي، والإدريسي، وبعضهم بالطبع ليس عربيا ولكنه كتب بالعربية ضمن الثقافة العربية، وتمتد الكتابات العربية بين القرنين العاشر والسادس عشر الميلاديين، ويوجد مئات المصادر الأفريقية يعود أقدمها إلى ستمائة عام مضت.

ويقدم زيربو عرضا تاريخيا شاملا لقارة أفريقيا منذ فجر التاريخ الى العصر الحاضر، وكما هو في جميع القارات؛ فقد بدأت التجمعات السكانية فيها بالصيد والرعي ثم الزراعة لتبدأ الحضارة، وكانت مصر القديمة في الألف الرابع قبل الميلاد أهم حضارة أفريقية وإنسانية عرفت في العصور القديمة، وكان ذلك في العصر الزراعي الذي أفرز حضارات ودولا عريقة ومهمة كالأشوريين والبابليين.

وقد نشأت الحضارة المصرية في حوض نهر النيل وعلى امتداده من قلب أفريقيا وحتى سواحل البحر المتوسط، وكان أهم مركز لها في النوبة شمال السودان وجنوب مصر، وثمة إشارات وروايات عن دول وحضارات نشأت في شمال أفريقيا ورحلات بحرية حول أفريقيا قام بها الفينيقيون قبل الميلاد بخمسمائة سنة وكانت لهم دول ومراكز في أفريقيا أهمها قرطاجة (تونس)

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»(النور، 61) وينكر على أولئك الكارهين الذين يفرحون بالمصيبة وينسون الصداقة «كأن لم تكن بينكم وبينه مودة» (النساء، 73)

والواقع أن الهدي الإسلامي والتراث العربي والإسلامي يضع للصداقة اعتباراً كبيراً وأهمية تجعل الصداقة في مرتبة القرابة والنسب، وفي كتب التراث مساحات واسعة عن الصداقة، مثل أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين وبداية الهداية، وابن المقفع في «الأدب الكبير» وابن مسكويه في «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» والسهروردي في «آداب المريدين» وأبي حيان التوحيدي في «الصداقة والصديق» والماوردي في «أدب الدنيا والدين».

يقول المتنبي:

شر البلاد مكان لا صديق به

وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

والصداقة من ضرورات الحياة وبخاصة في المدينة، سواء في بعدها الفضيل المستقل عن المصالح، أو في فضاء الزمالة والعمل والمهن والجيرة، أو في فضاء الحب بين الرجال النساء أو في الأخوة والأمومة والأبوة والقرابة، ثم هي مصدر الإنسان للقدرة على العيش في المجتمع واكتساب الدعم والانتماء والمشاركة.

تحتاج الصداقة إلى مهارات وشروط فردية وجماعية، وهي وإن كانت ليست صعبة، فإنها تحتاج إلى تدريب واستحضار؛ إذ يخلط الناس بين الصداقة والزمالة، وتحمّل الصداقة بقيم ومصالح ليست جزءا منها؛ فالمصالح المتبادلة بين الناس، وإن كانت ضرورية أو مفيدة فلا علاقة لها بالصداقة سواء وجودها أو نفيها، وتربط أيضا باحتياجات يومية أو عابرة مثل الرفقة، ويحسبها البعض صداقة، فهي أيضا وإن كانت جيدة لكنها ليست جزءا من الصداقة، وإن كانت الزمالة والجيرة

«وقولا هو المرء الذي ليس جاره مضاعا ولا خان الصديق ولا غدر»

لبيد بن ربيعة

وأنشأ الأمازيغ (البربر) تجمعات تجارية تسيطر على الطرق والاتصالات بين السواحل وما وراءها وبين داخل القارة الأفريقية، وكان هؤلاء على معرفة وصلة بالصحراء الأفريقية والبحيرات الكبرى وبلاد النيجر والسنغال، ويحتكرون الأسرار والمعلومات حول الطرق والموارد والمناجم في تلك البلاد.

ونشأت في إثيوبيا امبراطورية قديمة تضرب أصولها في أعماق التاريخ وكانت لها علاقات تجارية ودبلوماسية واسعة مع مصر الفرعونية، وتقول الأساطير الإثيوبية إن إحدى ملكات إثيوبيا وتدعى ماجيدا تعرفت على النبي الملك سليمان بعد علاقات تجارية بين المملكتين لنقل الذهب الأحمر الذي استخدم لبناء الهيكل، ثم تزوجت الملكة من سليمان وأنجبت مالينك، وهي قصة تنطبق على بلقيس ملكة سبأ، وربما كانت الحبشة جزءا من مملكتها، وربما تعود جذور اليهودية في إثيوبيا إلى تلك الفترة، وإلى هؤلاء اليهود ينتسب الفلاشا يهود الحبشة، وأما تسمية الحبشة فقد أطلقها العرب على بلاد إثيوبيا نسبة إلى قبائل الحبشة العربية التي هاجرت إلى هناك، ومن المعلوم أن الممالك العربية اليمنية كانت على صلة بإثيوبيا والقرن والساحل الأفريقي منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد.

دخلت المسيحية إلى إثيوبيا على يد راهب سوري يدعى فرومونتيوس، وانتشر المذهبان المسيحيان الأريوسي والنسطوري في إثيوبيا ثم هيمنت المسيحية القبطية، وكان كالب ملك إثيوبيا عام 530 يهوديا وقد أرسل جيشا بقيادة إبراهام لنجدة ملك حمير اليهودي، ولكن إبراهام كان مسيحيا وتمرد على ملكه وأقام مملكة مسيحية في نجران وبنى كنيسة هناك وأراد أن يهدم

والرفقة والمصالح يمكن أن تتطور إلى صداقة.

والحال أن الناس وبخاصة في المدن في حاجة إلى منظومة علاقات يجب تمييزها عن الصداقة؛ الزمالة في العمل والمهن والمصالح والجماعات والنقابات والأحزاب، والقرابة، والجيرة، والعلاقات اليومية المنتظمة أو العابرة في السوق والمصالح والهوايات، مثل العلاقة بين الزبون والبائع، أو رفقة السفر أو الحياة اليومية، وهي بالطبع علاقات ضرورية أو مفيدة، ولكنها ليست «صداقة».

الصداقة مستمدة من تطلعات الإنسان للارتقاء بنفسه روحيا، أو البحث عن المعنى والجدوى في الحياة، أو تلبية الاحتياجات الجمالية في الحياة والتمدن، ولذلك فإن الأصدقاء يجمع بينهم اتجاهات وأفكار وأعمال مرتبطة بسعيهم المشترك للارتقاء بأنفسهم أو أعمال تطوعية لا مصلحة مباشرة فيها سوى خدمة الأفراد والمجتمعات بلا مقابل، أو برامج وأفكار ومشاركات ثقافية وفنية وجمالية، سواء كانت عفوية ويومية مثل تبادل المعرفة في الشأن العام والثقافي والحياتي، أو المشاركة المنظمة في الثقافة والفنون والموسيقى والكتابة والإبداع، أو رفاق مجالس المدن التي تعقد في البيوت أو المقاهي للتلاقي والحوار وتبادل المعرفة والأحاديث المفيدة، أو التسلية والرياضة.

والصداقة وإن كانت تدور أو تنشأ حول قيم تبدو مثالية أو غير مادية، فإنها ليست بالضرورة مثالية، ستكون الصداقة أجمل وأوثق بالطبع كلما اقتربت من الكمال ولكن ذلك ليس شرطا إلا بالقدر الذي يخلّ

الكعبة ليحج الناس إلى كنيسة نجران.

وأما وسط أفريقيا وجنوبها فقد كانت الغابات الكثيفة حاجزا مغلقا تمنع من اكتشافه واستيطانه، ولكن الآثار المكتشفة تدل على قيام دول وتجمعات حضارية وزراعية ومستوطنات للرعي والصيد، وأن الناس هناك كانوا يستخرجون الحديد والنحاس ويصهرونهما ويصنعون منهما أدوات وآلات مختلفة، وكانت قبائل السوتو تملك وتدير مناجم للذهب والنحاس في مكان المناجم الحالية التي مازالت قائمة في وسط وجنوب أفريقيا، ونشأت في أحوض الأنهار مثل نهر الكونغو ونهر النيجر دول ومستوطنات زراعية وتجارية.

وبدأت منذ القرن العاشر الميلادي تقوم تجمعات سياسية وقبلية بهدف السيطرة على مناجم الذهب والطرق التجارية، ومن أهم هذه التجمعات صنهاجة في السنغال وموريتانيا، ومملكة تكرور على ضفاف نهر السنغال.

وتعتبر غانا أولى الامبراطوريات السوداء التي عرفتها الدراسات التاريخية، وقد كتب عنها ابن حوقل والبكري، وقد سافر ابن حوقل إلى غانا عام 970م وقال عن ملك غانا إنه أغنى الناس قاطبة بما يملكه من الذهب، وكان مؤسسو هذه الامبراطورية من قبائل السونيكي.

ونشأ في واحة أوداغوست في غانا -بموريتانيا الحالية- مركز تجاري وزراعي إسلامي مزدهر للبيع والشراء وتنظيم وتزويد القوافل التجارية، وكانت أسواقها نشطة على الدوام، وكانت فيها مبان جميلة وبيوت فخمة.

تتمة عالم واحد - 10

وتعتبر الفترة بين نهاية القرن الثاني عشر ونهاية القرن السادس عشر فترة ازدهار سياسي واقتصادي وثقافي في أفريقيا ويمكن تسميتها الحقبة الكبرى لأفريقيا السوداء، ونشأت في هذه الفترة في جميع أنحاء أفريقيا دول وامبراطوريات قوية وغنية.. ومن الدول المهمة في هذ الفترة امبراطورية مالي أو بلاد الماندينغ، ومن أهم حكامها مانسا أولي (1255 - 1270م) وهي دولة إسلامية مازالت آثارها قائمة حتى اليوم وقد بقيت تحكم مناطق واسعة من أفريقيا حتى عام 1480 عندما ورثتها دولة البيول بقيادة تينغلا.

وبرغم أنها كانت دولة إسلامية فإنها كانت أيضا زنجية الثقافة والعادات، ومما يذكره عنها ابن فضل الله العمري الذي زارها والتقى علماءها أنه لقي قادة وفقهاء مسلمين يجمعون بين أكثر من أربع نساء، وكان الناس فيها يتداولون السحر.

وكان لهذه الدولة الواسعة نظام سياسي مرن يعتمد الحكم اللامركزي ويحترم التنوع القومي والقبلي فكانت تضم الطوارق والجلط والمالينك والبامبارا والسونكي البونو والتوكولور والديالينكي، وتمتعت كما روى عنها ابن بطوطة بالعدل والأمن والاستقرار.

و«الهاوسا» من أهم دول السودان وقامت بين النيجر وتشاد على ملتقى طرق التجارة التي تربط أفريقيا بمصر وليبيا، وقد حكم في هذه الدولة تسع ملكات، وكان إسناد الملك إلى النساء شائعا ومتبعا في أفريقيا، ومن أشهرهن الملكة داوراما، وأنشأت هذه الدولة مدنا

بجوهرها، الشرط الأساسي للصداقة أنها تدور حول قيم واحتياجات معنوية غير مادية، وهي قيم وإن كانت ضرورية للمدن والتمدن، فإنها ليست مرتبطة بالضرورة بالاحتياجات الأساسية واليومية.

ويمكن الإشارة إلى مجموعة من الشروط التي تجعل الصداقة حقيقية وفاعلة، مثل الوفاء والديمومة، والعفوية بلا تكلف، والكرم العملي، والتسامح، والصدق، والاستماع والتفاعل، والإمتاع والمؤانسة، والمشاركة مع الاحتفاظ بالفردية والخصوصية.

وتمثل الصداقة أحد مؤشرات التمدن وقدرة أهلها على الارتقاء بحياتهم، وحماية أنفسهم من الخواء والعزلة، ولكن الصداقة تمثل جزءا قليلا من حياة الناس وأوقاتهم، والجزء الأكبر منها تستهلكه العلاقات الاجتماعية والمهنية في العمل والجيرة والمناسبات واللقاءات، وتتطور هذه العلاقات في أحيان كثيرة إلى صداقات شخصية وعائلية تتجاوز الزمالة والرفقة، ولكنها في حدها العام المتوسط تحقق للناس قدرة على العمل المشترك وبناء علاقات اجتماعية ومهنية ضرورية للحياة والعمل، وفي ذلك فإنه لا يمكن اختيارها أو تجنبها، فهي تتشكل في فضاءات لا يختارها الشخص بنفسه، ويظل في حاجتها اجتماعيا وعمليا، ويؤدي التفريط بها إلى خسائر وتضحيات شخصية ومهنية.

وهنا يكون ثمة ضرورة وحاجة لملاحظة التمدن العام في العلاقات الاجتماعية والسلوك، وأن تساهم المدن والمدارس ووسائل الإعلام والتواصل في بناء قيم التمدن التي تساعد أهل المدينة على العمل

شروط الصداقة:

الوفاء والديمومة،
والعفوية بلا تكلف،
والكرم العملي،
والتسامح، والصدق،
والاستماع والتفاعل،
والإمتاع والمؤانسة،
والمشاركة مع الاحتفاظ
بالفردية والخصوصية.

والعيش معا، ويمكن في اللقاءات اليومية وفي اجتماعات العمل ملاحظة أنماط عدة من السلوك التي تلحق ضررا بالعمل والعلاقات، وتغمر الناس بمشاعر وطاقات سلبية تجعله يشعر بالضيق والرغبة في عدم المشاركة العامة والاجتماعية، .. وهي أيضا مؤشرات على الأزمة النفسية والاجتماعية المستدل بها على احتمالات وفرص الكراهية.

وهي صفات مقابلة لشروط الصداقة، فعلاقات العمل والحياة اليومية في المدن ومجالسها والمجتمعات الحديث لا يصلح فيها البخيل أو الشره أو الثرثار الذي يقاطع ولا يصغي أو النرجسي أو المنفصل عن الواقع أو الكاذب أو الكاره أو المتعصب أو الدعيّ أو المهووس، فهؤلاء يحولون المدن ومؤسساتها ومجالسها للعمل ضد نفسها، وتخلو بسببهم من التماسك والتضامن.

وأهل المدن بخاصة ينشئون بالصداقة علاقات ترقى بحياتهم وتمنح المدن الدفء والجمال، وتخفف من قسوة الحياة والعمل، وتعوض غياب علاقات القرابة أو ضعفها، وفي ذلك يكرسون أخلاقا وقيما تعزز رسالة المدينة والإصلاح، مثل الوفاء والكرم العملي والعطاء والتطوع والتسامح والصدق والاستماع والتفاعل والحوار والمشاركة والثقة والفردية .. والإمتاع والمؤانسة.

أهل المدن خاصة ينشئون بالصداقة علاقات ترقى بحياتهم وتمنح المدن الدفء والجمال، وتخفف من قسوة الحياة والعمل، وتعوض غياب علاقات القرابة أو ضعفها.

يربط التراث العربي والإنساني بين العلاقات والعيش المشترك والقيم الناشئة عنها ومنها الصداقة والوفاء والالتزام وحفظ الأسرار، ويرمز لها عادة بالزاد او الخبز والملح، ويوصف من يخون الصداقة والعشرة والحقوق بالواجبات بأنه «يخون الزاد» ويصفون الصداقة والعلاقات الطيبة بأن بيننا «عيش وملح» وفي مجالس العرب يقسمون بالقهوة، باعتبارها رمزا للسلام والمشاركة بين الناس.

وفي التقاليد الإنسانية أن يتناول الشخص من الطعام لقمة واحدة إن كان لا يريد الأكل تعبيرا عن المشاركة والسلام، لأن الامتناع عن تناول الطعام إذا قدم للناس يعني السوء والشر والقتال، وفي القرآن الكريم عندما قدم النبي إبراهيم الطعام للضيوف وامتنعوا عن تناوله «فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة» (هود، 70)، فقد كان الناس عندما ينوون قتال شخص أو قوم يرفضون تناول طعامهم حتى لا يقعوا في الخيانة، أو يضطروا للامتناع عن القتال.

يمثل كتاب أسامة أبو سريع «الصداقة من منظور علم النفس» محاولة عربية مهمة لإدخال الصداقة في مجال البحث العلمي المنظم، ويتناول أبو سريع موضوع الصداقة من منظور علم النفس الاجتماعي الذي يحاول اكتشاف قوانين التفاعل بين الشخص وبين الآخر، ومنظور ارتقائي يحاول اكتشاف قوانين السلوك الإنساني عبر مراحل العمر.

إن الشواهد تبين أثر العلاقات الاجتماعية الناجحة في دعم الصحة الجسمية والنفسية للأفراد، مما يجعل قضايا الصداقة مدخلاً مهماً في التنشئة والعمل الاجتماعي، ولذلك فإن أسئلة مثل كيف تبدأ الصداقة الناجحة بين الأفراد؟ وكيف تستمر؟ وما المهارات الاجتماعية اللازمة لاكتساب الأصدقاء؟ وما مظاهر الخلافات التي تقع بين الأصدقاء؟ وما

الأساليب الملائمة لفض هذه الخلافات، والحفاظ على الصداقة؟ تبدو قضايا تهم الأسر والمدارس والمربين والمؤسسات وحتى الشركات التجارية، فالإنسان يجد سعادته وتتزايد إنتاجيته في جو الصداقة والألفة والقدرة على التفاهم مع الآخرين.

وتسهم الصداقة في خفض مشاعر الوحدة ودعم المشاعر والانفعالات الإيجابية، مثل المقارنة الاجتماعية، والإفصاح عن الذات، والمساندة الاجتماعية، والمشاركة في الميول والاهتمامات، وتسهم أيضاً في عمليات التنشئة الاجتماعية، مثل العمل الجماعي بروح الفريق الواحد، والاقتداء والتعلم.

والصداقة سلوك يرتقي مع الإنسان ويتطور، فهي في مرحلة الطفولة لعب جماعي، وتعلم وشعور بالأمن، وفي مرحلة المراهقة سلوك اجتماعي ومحاولة للبحث عن دور في الحياة والمجتمع، وفي مرحلة الشباب الباكر ربما تتكون أهم صداقة العمر التي تمتد عادة طوال حياة الإنسان، وتكون أساساً للعمل المشترك والمصاهرة والنشاط الاجتماعي والتطوعي.

لا تأتي الصداقة بطرق غامضة، أو بالمصادفة ولكنها مهارات وتجارب يستطيع الإنسان صقلها وتنميتها، ليختار أفضل الأصدقاء ويحافظ على صداقته.. وربما تكون الصداقة أهم مورد يمتلكه الإنسان في حياته، وللشاعر الأمريكي شارلز هانسون تون قصيدة جميلة ومؤثرة عن الصداقة؛ يقول فيها: «لدي صديق أعيش وإياه قريبين في منطقة في هذه المدينة الهائلة بلا حدود، وتمر الأيام والأسابيع قبل أن ألاحظ أن سنة انقضت دون أن أرى وجه صديقي القديم. بسبب هذه الحياة السريعة والمنطلقة بفظاعة. ويعلم صديقي أني أحبه وأعلم أنه يحبني. عندما كان يزورني وأزوره حين كنا فتية، ولكنا اليوم مشغولون، مرهقون. ترهقنا دوامة لعبة سخيفة، ترهقنا لعبة «صناعة الاسم».

لا تأتي الصداقة بطرق غامضة، أو بالمصادفة ولكنها مهارات وتجارب يستطيع الإنسان صقلها وتنميتها، ليختار أفضل الأصدقاء ويحافظ على صداقته..

تتمة عالم واحد - 10

عامرة مثل كانو وداوورا وجبير وكانسينا وزاريا وبيرام ورانو وكوروفا وكيبي.

كان اقتصاد هذه الدول قائما على تنظيم القوافل والطرق التجارية، وذكر ابن خلدون أن القافلة الواحدة كانت تضم اثني عشر ألف جمل تعبر الصحراء في أربعين يوما بين مصر وأفريقيا، وتتفرع من هذه الطرق طرق كثيرة متشابكة تربط الموانئ والمراكز التجارية ببعضها، وتقوم عليها مراكز ومحطات للاستراحة والتزود والتبادل والحراسة.

وكانت المجتمعات الأفريقية متنوعة تتدرج من العشائر البدوية أو مجموعات الصيد والرعي المنعزلة، وبعضها ذات نسب أبوي وبعضها ذات نسب أمومي، وتتجمع العشائر في قبائل وشعوب وكيانات يحكمها شيوخ ومجالس شورى من الكبار والأعيان، وتدير الأراضي وتستغلها وتوزعها على الناس وتعمل على نحو جماعي وتعاوني. ونشأت أيضا مجتمعات زراعية وتجارية وحرفية، وتتمتع المرأة الأفريقية بنفوذ وحرية واسعة تشمل العلاقات الجنسية ، وكان مألوفا أن تكون ملكة أو زعيمة، وتحظى باحترام الأبناء وتقديسهم.

ولعب الدين والفن والسحر دورا عميقا في صياغة حياة الأفريقي، وعرف الأفارقة الموسيقى والآلات الموسيقية المختلفة، وانتشرت بينهم بالإضافة إلى الوثنية والأرواحية الأديان السماوية الثلاث وهي اليهودية والمسيحية والإسلام.

وكان أسوأ ما تعرضت له أفريقيا هو عمليات اختطاف وشراء الناس لاستعبادهم في القارة الأمريكية، وقد بيع بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ملايين الأفارقة، مات عدد كبير منهم في أثناء النقل أو بسبب المرض والمقاومة والتمرد. وقد أدت عمليات

تتمة عالم واحد - 10

خطف الأفارقة وأسرهم لأجل استرقاقهم إلى هجرات جماعية بحثا عن ملاذ آمن بعيد عن الحملات الغربية، وأدى هذا إلى تدمير الأنظمة الاقتصادية القائمة على الزراعة والتجارة والتي تحتاج إلى مجتمعات مستقرة ومنظمة، وكان اختيار العبيد من الشباب من الجنسين سبب نزف وخلل كبير في الموارد البشرية والتركيبة السكانية، وكان عدد العبيد يفوق البيض في المستعمرات الجديدة في أمريكا أحيانا بأحد عشر ضعفا، وظلت القوة الزنجية العاملة مصدر الرخاء والنمو في القارة الأمريكية حتى القرن التاسع عشر.

قلت لنفسي: غداً سأتصل بجيم. وأؤكد له أني لم أنسه، ولكن غداً جاء ومضى، والمسافات بيننا تزيد وتزيد.

واليوم جاءتني برقية أن جيم قد مات. وهذا ما جنيناه وما نستحقه في النهاية، صديق غائب إلى الأبد»

تنشأ الصداقة في بيئة عامة من قيمة أساسية كبرى وهي «حب الحياة» وبغير هذه القيمة تكون عرضة للتناقض والاضطراب، ففي سعي الإنسان لأجل حياة جميلة جديرة أن تعاش يسعى إلى تطوير الصداقة والمدن والأعمال، ونبدأ بتنظيم وتحسين مواردنا وعلاقاتنا ومؤسساتنا واعمالنا والتشريعات الناظمة لها وثقافتنا وقيمنا على أساس فن الحياة، كيف نعيش حياتنا، كيف تكون أفضل؟ كيف نحسنها باستمرار؟ فننشئ المنظومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمؤسسية في الدولة والمجتمع وفرديا على أساس ما يجعل حياتنا أفضل!

ونحن نتجنب المخاطر والأذى، ونؤدي الاعمال والواجبات الخاصة والعامة والتطوعية ونعيش حياتنا ونمارس هواياتنا وعلاقاتنا من عمل ومصالح وزمالة وصداقة ونلتزم نحو أسرنا وذوينا والمصالح العامة والسلوك الاجتماعي القويم وأسلوب الحياة الجميل ونشارك في الحياة العامة واليومية ونبذل وندخر، بدافع الحب، حب الحياة والذات والناس والأبناء والجمال والخير، الحب المنشئ للمسؤولية والالتزام والاحترام والمعرفة.

حب الحياة قيمة أساسية عليا وحاكمة على الأفكار والسلوك والمنظومة العامة للأفراد والدولة والمجتمع وفي غياب هذه القيمة لا يعود للحياة قيمة، ومن ثم لا يكون إبداع وتقدم، بل وتنشأ العيوب والجرائم والمشكلات والأزمات.

الصداقة في مواجهة الشعور بالوحدة

صعدت قضية الوحدة والشعور بالوحدة في عدة اتجاهات؛ باعتبارها أزمة اجتماعية يجب التصدي لها ومعالجتها، وفي أحيان باعتبارها فضيلة ايجابية، أو ضريبة لعصر الصناعة والعمل المتواصل المكثف الذي يعزل الإنسان المعاصر عن بيئته الاجتماعية، ويفصله عن أقاربه وأصدقائه. كما صعدت أيضا بالنظر إليها أحد مؤشرات فهم وتتبع التطرف والكراهية. وتفضل كثير من الدراسات عدم قسر الإنسان على المشاركة الاجتماعية إذا كان لديه ميل فطري إلى الوحدة، لكن يمكن أن يجمع الإنسان بين ميله إلى الوحدة ومشاركته مع المجتمع والأصدقاء والتعاون والتضامن في الأعمال والمشاعر والأفكار.

تلاحظ أوليفيا لاينغ في كتابها «المدينة الوجيدة» أن الوحدة أكبر بكثير من أزمة لفنانين ومثقفين أو فقراء ومهمشين،

إنها قضية متصلة بوجودنا وشعورنا بهذا الوجود وتقييمنا له أيضا، ..

وقد منحت الشبكية معنى جديدا للوحدة، إنها قدرتك على أن تكون كما يجب و أو تحب أن تكون بلا مساعدة أو وصاية من أحد أو مؤسسة، .. إنك الإنسان الذي يعمل بنفسه ولنفسه ويداوي نفسه بنفسه ويعلم نفسه بنفسه، وأنت في الأصل وحيد .. تولد وحيدا، وتفكر وحيدا، وتؤمن أو لا تؤمن وحيدا، وتنسى و أو تتذكر وحيدا. وتتألم و أو تستمتع وحيدا، وتجوع وتشبع وحيدا، وتموت وحيدا، .. وتلاقي الله وحيدا!

وقد تكون وحيدا وانت بين الجموع، مثلما أنك وحيد وأنت تعيش وحدك. ويبدو القناع في الحفلات التنكرية استعادة لهذه الوحدة، حرية شخصية بلا حدود في السلوك والتصرف .. ولذلك منحت الحضارة فرصا ومناسبات محدودة ومحددة في أعياد الهالوين وبعض الحفلات التنكرية لأن تكون وحيدا وتتصرف تسلك كما لو أنك وحيد.

كيف لا تكون وحيدا عندما تكون مع الناس؟ .. تقول لاينغ أعتقد أن علاج الوحدة يتعلق بتعلم الطريقة التي يمكنك بها أن تكون صديقا لنفسك. بإمكانك أن تكون وحيدا في أي مكان، ولكن هناك نكهة خاصة للوحدة التي تعيشها في مدينة، وأنت محاط بالملايين من البشر، قد يعتقد البعض أن هذه الحالة مناقضة لأسلوب الحياة في المدينة للحضور البشري الهائل من حولك، لكن القرب المادي وحده لا يكفي لتبديد الشعور الداخلي بالعزلة، وبذلك فإن الشعور بالوحدة لا يقتضي الانعزال الجسدي، بل يقتضي غياب أو ندرة العلاقة، القرب، العطف، إن الشعور بالوحدة يأتي من عم القدرة على العثور على الألفة، ومن الطبيعي أن تصل هذه التعاسة إلى أقصاها حين تكون محاطا بالجموع دون أن يرافقك أحد. من الصعب الاعتراف بالشعور بالوحدة، ومن الصعب تصنيفه أيضا، كالاكتئاب مثلا، لأنه صفة بإمكانها أن تكون غائرة في طبيعة إنسان ما .

تعرض أوليفيا لاينغ قصة صادمة ومشهورة جدا في الوسط الثقافي والفني؛



حارس المستشفى والفنان الغريب هنري دارجر كان يعيش وحيدا في مأوى في شيكاغو، في انعدام شبه كامل لأي رفقة أو جمهور، كان وحده في كون خيالي بالكائنات المخيفة والرائعة، وعندما تخلى عن غرفته دون رغبة منه في سن الثمانينات ليموت، اكتشفت مئات اللوحات الفنية المخبأة في غرفته والتي لم يسبق له أن عرضها على أي إنسان من قبل. كما وجدت لديه مخطوطة لرواية هائلة وجميلة، وقد نشرت الرواية بعد وفاته وحولت إلى فيلم، كما نقلت لوحاته إلى المعارض الفنية، لكن الصدمة أن أحدا لم يكن يعرف عن دارجر اهتماما فضلا عن الانشغال بالفن والثقافة، لم يكن لكل من يعرفه سوى عامل بسيط في أحد المستشفيات، ظل في عمله هذا أكثر من ستين سنة، وقد خمن بعض المحللين الذين درسوا لوحاته وروايته أنه قد يكون مهووسا ومستعدا للقتل أو الاغتصاب، لكن يرجح أن دارجر لم يرتكب شيئا من ذلك.

عرف المحلل النفسي هاري ستاك سوليفان الوحدة «التجربة البغيضة والمتزايدة والمرتبطة بالحاجة غير المشبعة للألفة الإنسانية». وفي المقابل فإن الفردية بما فيها من وحدة وعزلة تمثل استجابة طبيعية ومتوقعة لانحسار المجتمعات، والحلّ كما يرى المفكر الاجتماعي الفرنسي آلن تورين في كتابه «براديغما جديدة لفهم عالم اليوم» يكون بـ «الذات الفاعلة، وفي ذلك تورين مقاربة مهمة وربما تكون فريدة، فهو يرى أن المجتمعات والحركات الاجتماعية تتغير تغيرا جوهريا، لتفسح المجال للذات الفاعلة والحركات الثقافية لتستوعب عالم اليوم المتشكل حول

اليهودية، الديانة التوحيدية الأقدم

عالم واحد - 11

تعتبر اليهودية الأقدم في الديانات التوحيدية الإبراهيمية القائمة اليوم، نسبة إلى إبراهيم (1800 ق.م.)، لكن اليهودية تنسب إلى موسى (1250 ق.م.). وممن نعرف في القرآن قبل موسى وبعد إبراهيم، إسماعيل وشعيب، إلا أنّنا لا نعرف لهما اليوم كتبًا وأتباعًا. وقد يكون حفيد النبي شعيب (يثرون)، والذي يحمل الاسم نفسه هو والد زوجة موسى، كما في القصة الواردة في القرآن والتوراة عن هروب موسى وزواجه!

وتولى مع موسى قيادة بني إسرائيل أخوه هارون، ثم يوشع بن نون المشار إليه بفتى موسى في قصة موسى والخضر في سورة الكهف. وبعد وفاته قاد الشعب اليهودي طبقة من القضاة، كان آخرهم شاؤول (طالوت). ثم أسس داود الذي كان فتى في جيش طالوت وقتل جالوت، مملكة إسرائيل في القدس، وخلفه ابنه النبي سليمان. وبعد وفاة سليمان العام 975 ق.م.، انقسمت الدولة اليهودية إلى مملكتين: الأولى، هي الجنوبية «يهودا»، بقيادة رحبعام بن سليمان، وعاصمتها القدس. وقد انتهت هذه الدولة العام 586 ق.م. على يد نبوخذ نصر البابلي. والثانية، هي مملكة شومرون الشمالية وعاصمتها نابلس. وقد انتهت بعد مائتين وخمسين سنة (722 ق.م) من قيامها على يد الآشوريين، بقيادة سرغون الثاني.

تستمد اليهودية شرائعها وعقائدها الأساسية من التوراة؛ وهي أول خمسة أسفار من الكتاب المقدس. وأهمّ تعاليم الديانة اليهودية وعقيدتها، الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد. وقد خلق جميع الناس على صورة الله الذي يستحق المعاملة بكرامة واحترام. ويعبد اليهود الله بالدراسة والصلاة ومراعاة الوصايا التي أوردتها التوراة. ويمكن أن يفهم هذا الإيمان بالعهد التوراتي على أنّه «عهد» الشعب اليهودي «وشهادته» «ورسالته».

اليهودية ليست ديانة تبشيرية نشطة. ويعتبر الشخص يهوديًّا إذا كانت أمه يهودية، ويجري القبول في اليهودية بقرار السلطات الدينية اليهودية صاحبة الشأن.

يعرض عمر أمين مصالحة في كتابه «اليهودية ديانة توحيدية أم شعب مختار»، التيارات اليهودية ذات التأثير في المجتمعات اليهودية، ومنها الأرثوذكسية اليهودية التي ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، وجاءت ردة فعل على التيارات التحررية الإصلاحية بين اليهود. وبالرغم من أنّ الأرثوذكسية كانت مناهضة للصهيونية، فإنّها هذه الأيام تقاربت معها. وهناك «الحريديم» التي يمتاز أتباعها بمظهرهم الخارجي الخاص بهم، ولهم معاهدهم التعليمية الخاصة؛ و«الحسيدية» التي بدأت في جنوب بولندا وفي أوكرانيا في القرن الثامن عشر. و«القابالاه»؛ التي تدور في إطار توحيدي، يصدر عن الإيمان



الشبكية والعولمة، إننا نعيش كما يقول تورين نهاية التصور الاجتماعي، وندخل في قطيعة تشبه تلك التي تشكلت قبل قرون خلت عندما نهضت المجتمعات بديلا تنظيميا للمؤسسات الدينية والإقطاعية، وأنشأت ديمقراطيات وأنظمة سياسية كانت تبدو في ذلك الحين خيالا متطرفا!

لكننا في هذه المرحلة الانتقالية نبدو في مواجهة مع مؤسسات تبدو في نظر نفسها وكثير من الناس راسخة مهيمنة، وتبدو من وجهة نظر «الشبكيين» آيلة للسقوط، المدارس التي أنشئت لتلبية احتياجات المجتمع أكثر منها لتلبية حاجات التلاميذ، والجامعات التي أنشأتها المؤسسات الدينية والنقابات المهنية، تبدو موضع إعادة نظر جذرية لأن المجتمعات والمؤسسات الدينية والنقابات والحركات الاجتماعية تتلاشى.

والقوميات التي صعدت مصاحبة للحداثة والديمقراطية والمجتمعات تحولت إلى أداة هدم داخلي، كما لو أن الحداثة أنتجت نقيضها، وصارت عبئا على نفسها كما هي بطبيعة الحال عبء على الاعتماد المتبادل الذي تقتضيه العولمة اليوم. وتتشكل مجتمعات وقيم جديدة حول الشبكية، تبدو فيها الفردانية سائدة ومستقلة عن كل بيئة اجتماعية، لكنها «زوالية» مصحوبة بآلام وصراعات مخيفة، وتبدو حتى من وجهة نظر المتفائلين بها لا تأتي بديلا إيجابيا، وليست بطبيعة الحال المخلص المنتظر برغم كل وعودها القادمة.

وحين ننظر إلى اللاجئين الذين هجرتهم الحروب ومخيماتهم حيث يتغلغل العنف والخوف والموت في كل مكان، إن الأعمال التي تتكون في ظل أوضاع كهذه تنتمي هي ايضا إلى عالم الفراغ الاجتماعي، حيث يكاد يكون العمل مستحيلا، والموت الذي يتم إنزاله بالعدو كما بالنفس هو الجواب الأكثر ملاءمة لظروف التفكك والتهميش الاجتماعيين.

كيف ستحدد المجتمعات دورها وتنشئ القيم والاتجاهات والأفكار السياسية والاقتصادية في ظل صعود الفردية الذي تبشر به الشبكية؟ الحال أن المجتمعات لم تعد تملك السيادة التي بشر بها فولتير

«دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».
[صحيح البخاري: 3071]

وتوماس هوبز كلا من وجهة نظره، ذلك أنهما برغم اختلافهما الكبير اتفقا على أن المجتمعات تحدد الأهداف السياسية واستخدام الموارد الاقتصادية وتنشئة الفاعلين الاجتماعيين ومعاقبة المنحرفين والخارجين على القانون.

لكن كيف تتشكل الأخلاق والقيم في ظل هذا التغير الذي لم تعد فيه المجتمعات منشئة أو ضامنة للأخلاق والقيم والتنشئة الاجتماعية والضبط والتنظيم الاحتماعي؟

تشكلت المنظومة الأخلاقية السائدة (كانت سائدة) بناء على مصالح المجتمعات والدول، ففي الشجاعة والكرم تحمي مواردها وسياساتها وأهدافها، لم تكن هذه القلاع والهياكل وكذا الأسواق والدفاع والأمن والقيادات الاجتماعية لتعمل لولا منظومات الشجاعة والكرم، هكذا يؤشر أيضا بصعود قيم الثقة والإتقان كرأسمال اجتماعي يحمي المنظومة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة بصعود الفردية كمحرك للأسواق والقيم والسياسة، ففي الأعمال والعلاقات المتشكلة عبر الشبكة أو المستمدة من اتجاهات وتأثير الفرد؛ لا يحمي الأسواق والمصالح الناشئة سوى الثقة والإتقان، فالفرد الذي ينشئ عبر الشبكة أو بذاته مصالحه ويقدم نفسه إلى الآخرين ويعمل ويبيع ويشتري لا يجد ما يديم هذه المنظومة الهشة أو غير المرئية سوى الثقة والإتقان، والأسواق والمؤسسات التي تقدم نفسها اليوم عبر الشبكة تجد نفسها متجهة إلى الفرد، كل فرد على حده لتنال ثقته.

وبالطبع لم تكن منظومة الثقة والإتقان غائبة عن الأسواق والأعمال كما أن الشجاعة والكرم لن تغيب أيضا في حضارة الفرد ومجتمعاته، لكن يتغير توزيعها وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية بل وتتغير معانيها وتطبيقاتها أيضا، فالكرم يتجلى اليوم أكثر ما يكون في العمل التطوعي والخدمة العامة وتبادل المعرفة والمهارات والتعاون المهني والاجتماعي.

عندما صعدت المجتمعات في مرحلة الصناعة بديلا للمؤسسات الدينية والإقطاعية كان متوقعا أن تتفكك المنظومة الدينية والأخلاقية الحامية للقيم والمجتمعات والأعمال، لكنها (المجتمعات) كانت بديلا كفؤا وفاعلا، ولم ينحسر الدين كما لم تتلاشى الأخلاق، وفي صعود الفردية بديلا للمجتمعات والدولة فإن الضمير هو الضامن والبديل المتماسك والمتوقع ليعيد تنظيم وتطبيق القيم والأخلاق على النحو الذي تواصل به الإنسانية خط سيرها الطبيعي في الارتقاء والتطور، ولا يخلو المسار بالطبع من المشكلات والأزمات والخسائر، لكن يمكن الاستدلال والملاحظة كيف صعدت على نحو غير مسبوق قيم حقوق الإنسان والحريات والبيئة والعالمية والمشاعية المعرفية، وكيف تتزايد فرص النساء والفئات الخاصة التي كانت مهمشة ومستغلة في الأعمال والمواقع والمساواة والتأثير والتعبير عن ذاتها.

غياب التسامح يؤدي إلى اختلال في موازين السلام الاجتماعي والعالمي، ويفضي في أقصى حالاته إلى الحروب الدينية الأهلية والقومية التي كانت من أقسى الحروب في التاريخ، لأنّ عدم التسامح مقترن عادةً بالنزعة الإلغائية.

فرانسيس بيكون. فيلسوف إنجليزي

بالله الذي يتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ، والثنائيات الدينية.

ومن الفئات الاجتماعية عند اليهود «الكهنة، ويتمتع الكاهن بمزايا خاصة، مثل تلاوة التوراة في الكنيس اليهودي. و«الكهنة» طبقة مغلقة، لا يستطيع أحد من خارجها الانتماء إليها. فيما لا يحق للكهنة امتلاك أرض، أو أن يرثوا مالًا، لكنهم معفون من الضرائب.

كذلك، يوجد في المجتمع اليهودي «القراؤون» الذين يعتبرون أنفسهم اليهود الحقيقيين، ويعتبر عنان ابن داود المؤسس لهذه الطريقة. ويعتقد أنّها حركة تأثرت بالإسلام، مثل إبطال نجاسة الميت، وتحريم شرب الخمر، وأحكام المحارم والميراث، وعادات الوضوء والاغتسال قبل دخول المعبد. وهناك «الفلاشا»، يهود إثيوبيا، وربما يكون أصل التسمية «فلسطين»، وهم يهود إثيوبيا. ويعود أصلهم إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، وربما جاؤوا من صعيد مصر، ويؤمنون بالعناصر اللاهوتية المشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبيا. و«الجعزية» هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك. وبالرغم من اعتراف الحاخامية بالفلاشا، إلا أنّ الاعتراف لم يكن كاملاً، فيما ترفض جماعات «الفلاشا» أن تبعث أولادها إلى المدارس الدينية. لأصولية اليهودية

ينقسم اليهود من حيث علاقتهم بالدين إلى ثلاثة أقسام: العلمانيون ويشكلون

ورغم ما في ذلك من مساوئ وسلبيات تغري المتشائمين، فإنها بيئة اجتماعية واقتصادية تؤسس لمرحلة مليئة بالوعود والإيجابيات، فالمواطن الذي يواجه اليوم فردا متطلبات الحرية والحياة الكريمة يجد مفرا من أن يؤدي هو بذاته ما كانت تؤديه الأحزاب والمنظمات والنقابات والحكومات، ويبحث بطبيعة الحال عن الفرص الجديدة الممكنة.

والأفراد الذين يعلمون أنفسهم معتمدين على الشبكة أو يحلون مشكلات كثيرة كانت تحتاج إلى تكاليف ومهارات معقدة مثل الصيانة والتصميم والبحث عن المعرفة والمهارات والسلع والخدمات والتسويق والعمل، وبطبيعة الحال، وكما يؤكد التاريخ، فإن نهاية مرحلة وابتداء مرحلة جديدة تصحبها انهيارات وكوارث، فالقوى الإيجابية الفاعلة ليست جاهزة لتحل مكان المنظومات السابقة التي هيمنت على الحياة والأعمال والأفكار والقيم، هكذا ففي انسحاب الدولة والمجتمع تصعد العشائر والطوائف والجماعات الدينية والقومية والاثنية، ويمكن في هذا السياق ملاحظة كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية الجديدة حولنا، مثل الفوضى والاكتئاب والانتحار والاتجار بالبشر والسلوك غير الاجتماعي، لكن يمكن أيضا في هذا الركام ملاحظة كثير من الظواهر الإيجابية الجديدة، مثل الأعمال والخدمات الجديدة في النقل والعمل والتعليم والتأثير، والجدالات والتفاعلات الشبكية حول القضايا والأفكار الدينية والوطنية والثقافية والتواصل الاجتماعي وتبادل المهارات والمعارف بيسر وفاعلية.

الفرد؛ كل فرد تقريبا، يمتلك اليوم من الكتب والأفلام والموسيقى والدراسات والأوراق العلمية والوثائق والمخطوطات والمحاضرات وورش العمل والتدريب والقدرة على الوصول والتواصل مع وسائل الإعلام والجامعات ومراكز الدراسات ما يساوي إمكانيات الدول والمؤسسات الكبرى، ومؤكد أن هذه الموارد الهائلة المتاحة للفرد تجعل منه قوة جديدة مؤثرة تتجاوز السلطات والمجتمعات والشركات.

وبدأت بالفعل تصعد بقوة الاتجاهات الفكرية والفلسفية التي تمجد «الوحدة» ويتحول الاتجاه إلى العزلة أو الوحدة إلى تيار اجتماعي قوي، يعتبر أن الوحدة أو الاجتماعية (الانتماء إلى المجموعة) أو «الانقباض والانبساط» مسألة متعلقة بطبيعة الإنسان كل إنسان على حدة، نصف أو ثلث الناس على الأقل يولدون وهم يفضلون على نحو فطري أو جينيّ أن يكونوا وحيدين في العمل وأسلوب الحياة، كما في التفكير والاختيارات، بل وتضايقهم كثيرا المحادثة مع الناس من غير سبب أو ضرورة أو لأغراض التسلية والترفيه. فالناس تتسلى بالمحادثة، والعالم لا يكف عن الحديث كما تقول سوزان كين مؤلفة كتاب «الهدوء: قوة الانطوائيين»

لقد تعودنا على الاستماع والتعلم على في ذم الانطوائية والهدوء والعزلة والفردية باعتبارها نقيصة يجب التخلص منها، والتأكيد الدائم على الجماعية والعمل الجماعي والانتماء إلى المجموعة وربط المشاركة والإنتاج بالقدرة على الاندماج والمشاركة الاجتماعية، وبالطبع فإنها قيم ضرورية ومهمة، لكن في عصر المعلوماتية أو تكنولوجيا المعنى يعاد النظر في فهم الانتماء والعمل الجماعي والمشاركة، إذ ليس شرطا لتحقيق هذه القيم والأفكار أن يتحلى المرء بمهارات اجتماعية جماعية.

اليوم يتحول العالم إلى شبكة يقف فيها على قدم المساواة جميع المشاركين في الشبكة، سواء كانوا أفرادا او مؤسسات اغنياء او فقراء، ومن أي بلد كانوا وبأي لغة يتحدثون؛ يصعد الفرد قوة عظمى مؤثرة، وتصعد أيضا أفكار وفلسفات تخاطب الأفراد بما هم أفراد؛ تقول سوزان كين

كن كما أنت، ولا تنشغل بتغيير نفسك، ولا تحتاج أن تكون كما يراد لك أو يتوقع منك، فإذا كنت تجد نفسك أفضل وأنت وحيد، وإذا كنت تعمل وتنجز أفضل وأنت وحيد فكن وحيدا، واستمتع بعزلتك، وكن وفيا لطبيعتك الخاصة. ولا تقلق بشأن التواصل مع الآخرين وبناء علاقات اجتماعية وصداقات أنت لا تحبها او لا تسعدك. واعمل ما تحب وما يسعدك، ولا تشغل نفسك بالآخرين إذا لم تكن تسيء إليهم أو تخالف القوانين والقيم.

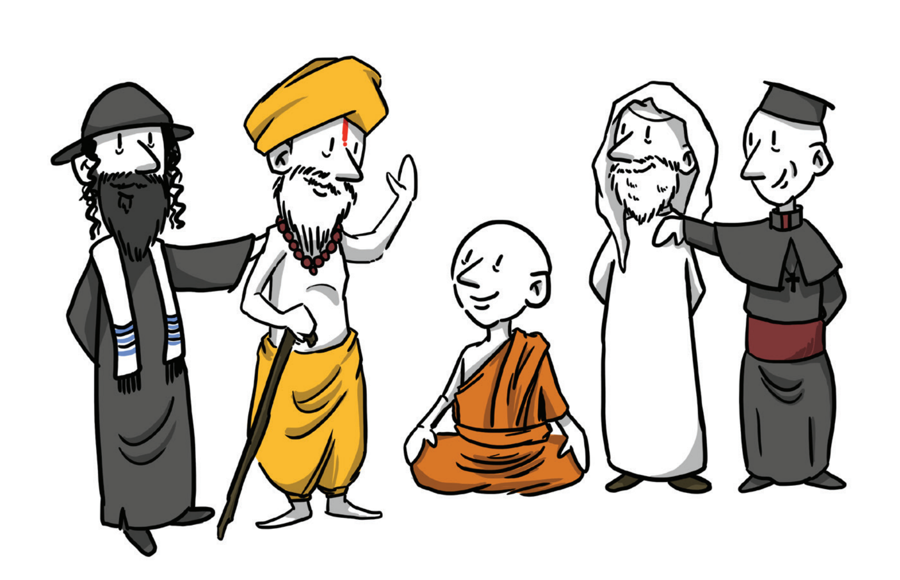
ليس الانطواء هو الخجل، فهما أمران مختلفان، فالانطواء هو تفضيل بيئات عمل وحياة معينة، لكن الخجل هو الخوف من الرفض الاجتماعي والنبذ، الانطواء ممتع ومفيد لكن الخجل مؤلم، وفي الصداقة أيضا فإن اتجاهات الناس مرتبطة بطبيعتهم، وقد لا يحتاج المرء أكثر من صديق وقد يكون صديق نفسه.

وفي العمل أيضا يستطيع الانطوائي أن ينجز عمله بكفاءة ولا يحتاج كما هو شائع أن يكون «انبساطيا» ويقدر أيضا على أن يكون إيجابيا وأن يبث الإيجابية في عمله، إذ لا يحتاج تقسيم العمل وتكامله سوى قيم التعاون والتنظيم المختلفة تماما عن النشاط الاجتماعي. هذا الخلط بين التعاون والمشاركة الاجتماعية؛ الإيجابية والتسلية؛ يضر بالعمل والقيم أيضا. فالانطوائي قادر على التحدث وعرض وجهة نظره والمشاركة في الأفكار والحوار والجدل وتبادل المعرفة والمهارات، .. وعلى المزاح وإطلاق النكات، والحال أن أحدا لا يكون سيئا لأنه انطوائي أو انبساطي، فالأمر ليس أخلاقيا، لكنه يشبه أن يكون أحد طويلا أو قصيرا أو ما تكون عليه لون بشرته.

6II- المحبة

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ» انجيل متى

إن الشعور بالصواب والاعتقاد بالدفاع عنه يدفع صاحبه إلى القسوة وتكوين المبررات الفكرية والأخلاقية لمواجهة الآخر «المخطئ»، وتضيع الرواية الأساسية المنشئة للصراع والمواجهة والمستمدة من مواجهة التطرف والكراهية، إذ لأجل التسامح والمحبة تحدث أعمال تحريض



عندما نتحدث عن مواجهة الكراهية بما هي أساس معظم الشرور مثل التطرف والتعصب والإرهاب والعنف والانقسام الاجتماعي؛ فإننا يجب نتحدث عن المحبة، بما هي القيمة الأساسية في مواجهة الكراهية. وقد تقع الأمم في مواجهتها مع التطرف في كراهية الأعداء والمتطرفين، فتصير هي أيضا تمجد الكراهية والعنف، إنها مشاعر حتى وإن كانت موجهة نحو المتطرفين تمضي بأصحابهابوعي أو بدون وعي إلى تقسيم المجتمعات والناس والبلاد؛ فتتحول المواجهة إلى صراع وانقسام سياسي واجتماعي، ويتحول الصراع من كونه صراعا بين الاعتدال والتطرف إلى صراع لا يخلو على جانبيه من التطرف والكراهية.

وكراهية وإقصاء وفساد وتضليل، ثم تضيع الغاية النبيلة أو تُنسى، وتنشأ تطرفات متصارعة، أو في عبارة الاعتدال المتطرف في مواجهة التطرف المتطرف!.

ويبدو بديهيا القول إن الصراع يجب أن يرد إلى روايته الأصلية وأن يحافظ المعتدلون عليه في ساحته وغايته المنشئة، وهي قيم الحق والخير والجمال، بما هي عمليا التمييز بين الحق والصواب والضرر والمنفعة والحسن والقبيح، وبما هي الاعتدال في مواجهة التطرف، والمحبة في مواجهة الكراهية، والتسامح في مواجهة التعصب، والعيش معا في مواجهة الإقصاء ورفض الآخر وتهميشه، والمساواة في مواجهة التمييز والاستعلاء، والتعددية في مواجهة التنميط، والتنوع والاختلاف في مواجهة

> ترافق صعود الحالة الدينية مع صعود العولمة وتقنيات الحاسوب والاتصالات والإنترنت وغيرت في الموارد والعلاقات السائدة من قبل.

الإكراه، والفردانية في مواجهة التشابه القسري المفروض على أرواح الناس وإلغاء الخصوصية والإبداع والمبادرة، والقبول بالآخر سواء كان أفكارا أو انتماءات أو أسلوب حياة أو عقائد وأديان أو ثقافات في مواجهة هيمنة الأقوى أو الأغلبية، والمواطنة في مواجهة الروابط والانتماءات الثانوية والفرعية؛ قبلية أو شعوبية او إثنية أو دينية، والكرامة في مواجهة العجرفة وبطر الحق وغمط الناس، والثقة في مواجهة الحق الإلهي أو الطبيعي أو الطبقي المزعوم، والعقلانية في مواجهة الوصاية.

إن المحافظة على الصراع والمواجهة في إطار القيم المتصارعة يجعل المجال مفتوحا للجدل والحوار والقدرة على التأثير والتغيير في الأفراد والمجتمعات مهما كانت انتماءاتهم، ويحدد الاجراءات بالقانون والمصالح التي يتأثر بها الفاعلون المباشرون أو الدول والمؤسسات والجماعات، لكن ذلك لا يمتد إلى المجتمعات والنساء والأطفال والكبار والمرضى الذين يأتي قدرهم في ساحات الصراع. قال تعالى «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا »وقال أيضا « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

لكنه صراع لا يخلو من الضعف والثغرات التي تجعل الحفاظ عليه في هذا الإطار صعبا ومكلفا، هكذا في مواجهة التطرف والكراهية، تجب ملاحظة أن هناك فروقا جوهرية بين الاعتدال والتطرف في بنيتهما وتشكلهما، ما يجعل الصراع بينهما مختلفا عن الصراع بين الحق والباطل أو الخير والشر، والحال أن المواجهة مع التطرف ليست كذلك أبدا. وحين يلجأ أهل الاعتدال والصواب (الاعتدال في اللغة هو الصواب) أو من يعتقدون أنهم كذلك، إلى العنف والتحريض والحشد الإعلامي والديني، فإنهم يقعون في أخطاء جسيمة؛ إذ يتحولون إلى متطرفين، ويصبح الصراع صراعا بين التطرفات، وتكون الخيارات بين تطرف وآخر، ويستدرجون أنفسهم إلى معركة خاسرة مع جماعات متماسكة فكريا ومعبأة بالعقائد والمشاعر والعناد، في حين أن الأنظمة السياسية ومؤسساتها لا تملك الفاعلية نفسها في الأدوات والدوافع وقوة الحجة... والأسوأ من ذلك أنه لا فرق في المصادر الفكرية والفقهية بين الطرفين، ولا يعدو الخلاف الفكري والديني بين الطرفين أن يكون سوى خلاف على الفهم والتأويل والتطبيق، وقد لا يكون خلافا!

مبتدأ الخلاف والصراع في سؤال واحد وإجابتين أو أكثر. وبذلك، فإن الحكمة مستمدة من عدم اليقين؛ ما يجعلها في بنيتها وجوهرها هشة وقابلة للتغير والمراجعة، وتقابلها لدى جماعات الاستبداد والتطرف إجابة حاضرة قوية متماسكة، ومدعومة بقوة الحجة والتنظيرات الفكرية والفلسفية والتحليلات السياسية. والسؤال ببساطة هو: ما الحق والصواب والجمال؟ في طريق الحكمة، يحور السؤال إلى: كيف نقترب من الصواب والجمال؟ بمعنى أنه غير موجود أو لا يكاد يكون موجوداً، وإنما ننشئه أكثر مما نكتشفه، أو هو صواب يظل نسبياً وغير يقيني. وفي السياسة والأيديولوجيا، فإن الصواب موجود ولا

تتمة عالم واحد - 11

ما بين 25 - 30% من اليهود، والتقليديون ويشكلون 55 - 50% من المجتمع، والمتدينون ويشكلون حوالي 20% من السكان، وينقسم المتدينون إلى قسمين: المتطرفون الحريديم (والحريديم هي جمع حريدي وتعني التقي) ويمتاز هؤلاء بارتداء القبعات السوداء غير المشغولة والملابس السوداء، أما القسم الثاني من المتطرفين اليهود فهم المتدينون القوميون، وهم ذوو الطواقي المشغولة.

ويتوزع تأييد الحريديم السياسي على حزبين رئيسيين هما يهدوت هاتوراه (يهودية التوراة وهو حزب الحريديم الأشكناز القادمين من أوروبا الشرقية، أما الحزب الثاني فهو حزب السفارديم (حراس التوراة) الشهير باسم شاس، وهو حزب الحريديم الشرقيين أو السفارديم الذين قدموا إلى فلسطين من الدول العربية. أما المتدينون القوميون فينتظمهم بشكل أساسي الحزب الديني القومي (المفدال)، وهو الحزب الأنشط في مجال الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية.

نحتاج سوى اكتشافه ومعرفته؛ ليس من مشكلة سوى نقص المعرفة! وفي ذلك أيضاً كثير من القدرة الحجاجية والديناميكية في البحث عن الأدلة والشواهد التي كثيراً ما تكون صحيحة أو متماسكة، ويشغل بها عقل مغامر من فلاسفة وعلماء وباحثين ومحللين وخبراء وإعلاميين يملكون فائضاً من المعلومات والأخبار والمعرفة.

ولشديد الأسف، فإن الحكمة بما هي البحث النزية عن الحقيقة بعيدا عن المحاججة تؤول إلى عدم اليقين، وتبدو ضعيفة مترددة؛ فالنزاهة تقوم على عدم اليقين، والسلوك الثاني يقيني أشد تماسكاً وصلابة وقوة، وأكثر جلداً وعناداً وثقة. لذلك، فإن الذين يجيبون أكثر تأثيراً وحضوراً من الذين يتساءلون.

لكن الصواب لا يُعرف ولا يتشكل بقوة الحجج، إذ يستطيع كل شخص ملتزم مسبقاً بموقف أو فكرة أن يجد أدلة صحيحة ومقنعة لدعم موقفه أو فكرته ومعتقداته. لكن تقدير الخطأ أو الصواب والقبيح أو الحسن، مستقل عن الاعتقاد المسبق، والحكمة والتقدم نحو الصواب مرتبطان بحتمية نقص المعرفة. وبذلك، فإن الأفكار والمعتقدات يجب أن تظل مستقلة عن الهوية الفردية أو الجمعية؛ ليست جزءاً منّا أو تشكل انتماءنا مثل الحياة والأمكنة والمدن والمصالح. والجدل في حقيقته وجوهره ليس مجرداً أو مستقلاً حول الأفكار والمعتقدات؛ صوابها أو خطئها، الدفاع عنها أو مهاجمتها، الإيمان بها أو التخلي عنها، ولكنه في تحسين حياة الناس بما هي، أساساً، تقوم على الحرية والعدل والاحتياجات والأولويات الأساسية، ثم الارتقاء بها على نحو متواصل يجعلها متجددة ومتعاظمة.

وبما أننا لا نعرف أو لسنا متأكدين بالنسبة إلى ما هو الأفضل أو الأكثر صواباً، فلا نملك سوى تهذيب مشاعرنا ومواقفنا

من الكراهية والاشمئزاز، أو الشعور بالتميز والأفضلية. وليس لدينا سوى ذلك طريقاً لتسوية الصراع أو إدارته أو محاولة تحسين الحياة أو الاقتراب من الصواب ومراجعة ما لدينا. ولأجل ذلك، فقد غلب على الصراعات والحروب فرص التسوية والمصالحات، اعتقاداً بأن أحداً أو جماعة لا يستغني عن الآخر أو قد يحتاج إليه، وقد يؤمن بمقولاته وأفكاره.

يؤكد اريك فروم أن الحب «فن» يقتضي معرفة وبذل جهد، وليس إحساسا باعثا على اللذة، وأن ممارسة هذا الإحساس مسألة ترجع إلى المصادفة، وأنه شيء «يقع» الإنسان فيه إن كان محظوظا. وإذا أردنا أن نتعلم كيف نحب، فعلينا أن ننطلق بالطريقة نفسها التي ننطلق بها إذا أردنا أن نتعلم أي فن آخر؛ كالموسيقى والرسم، أو النجارة، أو الطب، أو الهندسة.

إن تعلم أي فن يحتاج إلى المعرفة النظرية، وإتقان المهارات العملية المتعلقة به. وعلى هذا الأساس، يشغل فروم كثيرا بفهم وتقديم «نظرية الحب». فالإنسان موهبته العقل، الحياة التي تعي ذاتها: أن لديه وعيا بنفسه وبرفاقه وبماضيه وبإمكانات مستقبله. هذا الوعي بالنفس باعتبارها ذاتية مستقلة؛ الوعي باتساع حياته القصية؛ الوعي بأنه قد ولد بدون مشيئته، وسوف يموت ضد مشيئته؛ الوعي بأنه سيموت أمام أولئك الذين يحبونه، أو أن أولئك الذين يحبونه سيموتون أمامه؛ الوعي بوحدته وانفصاله؛ والوعي بعجزه أمام قوى الطبيعة والمجتمع. كل هذا يجعل من وجوده المنفصل المفكك سجنا لا يطاق، وقد يصاب بالجنون إذا لم يستطع تحرير نفسه من هذا السجن وينطلق، ويوحد نفسه بشكل أو بآخر مع الناس؛ مع العالم الخارجي.

تعدّ الوحدة مع الجماعة الطريقة السائدة لقهر الانفصال. إنها وحدة تختفي فيها النفس الفردية إلى حد كبير، ويكون الهدف فيها أن تنتمي هذه النفس إلى المجتمع. فإذا كنت أشبه كل شخص آخر، إذا كنت بلا مشاعر أو افكار تجعلني مختلفا، إذا كنت ممتثلا للعادات والزي والأفكار، لأنموذج الجماعة، فإنني أكون قد أُنقذت؛ أُنقذت من التجربة المرعبة للوحدة. وفي سعيه إلى الاندماج بالمجتمع، يمارس الفرد الإبداع والحب، والخضوع والهيمنة والإنتاج. وفي مقابل الوحدة التكافلية، نجد أن الحب الناضج هو الوحدة، بشرط الحفاظ على تكامل الإنسان وفرادته.

الحب هو قوة فعالة في الإنسان، تقتحم الجدران التي تفصله عن رفاقه، وتوحده مع الآخرين. إن الحب يجعل الإنسان يتغلب على الشعور بالعزلة والانفصال، ومع هذا يسمح له أن يكون نفسه، أن يحتفظ بتكامله. وفي الحب يحدث الافتراق: اثنان يصبحان واحدا، ومع هذا يظلان اثنين.

وإذا أردت أن تستمتع بالفن، يجب أن تكون شخصا مدربا فنيا، وأن تكون شخصا لديه حقا تأثير دافع ونافذ على الآخرين. إن كل علاقة من علاقاتك بالإنسان والطبيعة يجب أن تكون تعبيرا محددا عن حياتك الفردية الحقيقية، متطابقة مع موضوع إرادتك. فإذا أحببت بدون أن تبتعث الحب، أي إذا كان حبك على هذا النحو لا ينتج الحب، إذا لم تستطع أن تجعل من نفسك شخصا محبوبا، إذن فإن حبك عقيم تعس.

من دون التسامح لن يكون هناك مستقبل، فالتسامح يعني أن نمنح لأوطاننا وأنفسنا الفرصة لكي نبدأ بدايةً جديدةً.

ديزموند توتو.
كبير اساقفة كيب تاون، جنوب أفريقيا، ورئيس للكنيسة الأنغليكانية، وحاصل على جائزة نوبل للسلام

وإلى جانب عنصر العطاء، فإن الطابع الإيجابي للحب يصبح جليا في أنه يتضمن دائما عناصر رئيسة معينة شائعة في جميع أشكال الحب، هذه العناصر هي: الرعاية، والمسؤولية، والاحترام، والمعرفة.

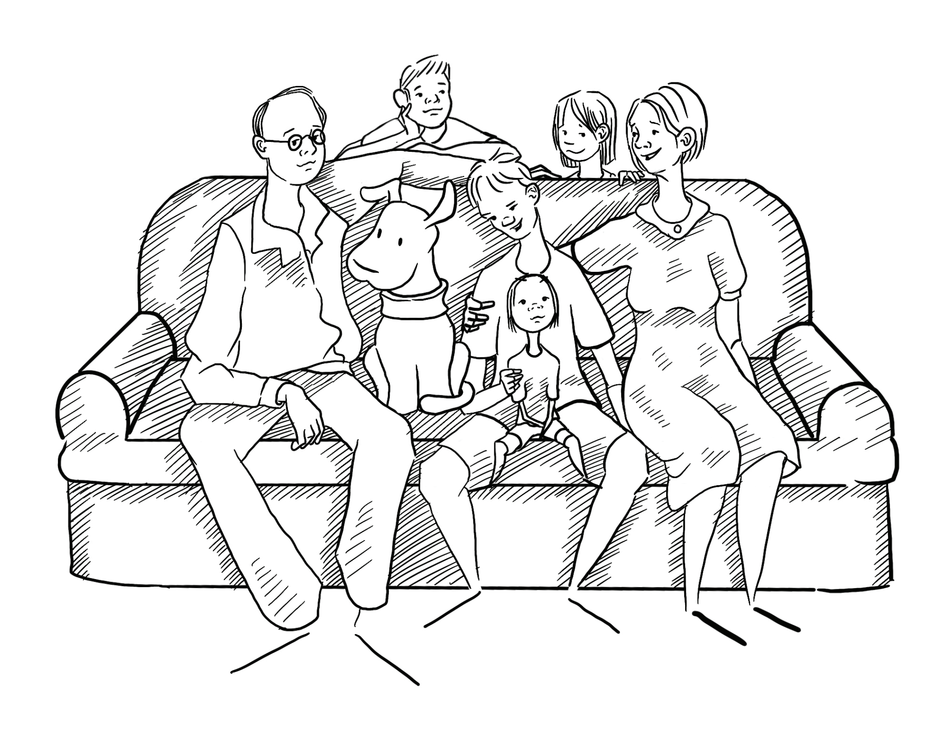
إن الرعاية والعناية تتضمنان جانبا آخر للحب، هو جانب المسؤولية. والمسؤولية اليوم تعني في الغالب الإشارة إلى الواجب؛ إلى شيء مفروض على الإنسان من خارجه. ولكن المسؤولية في معناها الحقيقي هي فعل إرادي تماما: إنها استجابتي لاحتياجات إنسان آخر؛ سواء عبر عنها أم لم يعبر.

فالحياة في مجرد جوانبها البيولوجية، معجزة وسر، والإنسان في جوانبه الإنسانية سر لا يسبر غوره بالنسبة لنفسه وبالنسبة لرفاقه. إننا نعرف أنفسنا، ومع هذا، ومع كل الجهود التي نبذلها، لا نعرف أنفسنا؛ نعرف رفيقنا، ومع هذا لا نعرفه! وكلما وصلنا إلى عمق وجودنا أو إلى عمق وجود إنسان آخر، تفلت منا هدف المعرفة. ومع هذا، لا نملك إلا أن نرغب في النفاذ إلى سر نفس الإنسان؛ النفاذ إلى النواة الدفينة التي هي «هو». والحب هو طريق لمعرفة السر؛ هو نفاذ فعلا إلى الشخص الآخر الذي تخمد الوحدة رغبتنا في معرفته. فالإنسان يعرف بالاندماج؛ يعرف نفسه ويعرف كل إنسان.

ومشكلة معرفة الإنسان مماثلة للمشكلة الدينية الخاصة بمعرفة الله؛ إذ تبذل المحاولة لمعرفة الله بالفكر.

ليس الحب أساسا علاقة بشخص معين، بل موقف أو اتجاه يحدد علاقة شخص بالعالم. فإذا أحب الشخص شخصا آخر وحده، غير مكترث ببقية رفاقه، لا يكون حبه هذا حبا، بل هو تعلق تكافلي، أو أنانية متسعة. ويمكن هنا الحديث عن أنواع وصيغ كثيرة للحب: حب الذات، والحب الأخوي الإنساني، وحب الله، والحب الأمومي، والحب بين رجل وامرأة.

الحب الطفولي يسير على مبدأ إنني أحب لأنني محبوب. أما الحب الأكثر نضجا، فإنه يسير على مبدأ «إنني أحبك لأني أحتاج



إليك»، أو «إنني أحتاج إليك لأنني أحبك». والحب الأخوي هو الحب الأساسي؛ الشعور بالمسؤولية والرعاية والاحترام والمعرفة إزاء إنسان آخر، والرغبة في تطوير حياته. وتعبر عن ذلك دعوة الدين إلى أن تحب للآخرين ما تحب لنفسك. ويقوم الحب الأخوي على تجربة أننا جميعا واحد، ويجري إهمال الفروق في الذكاء والمعرفة بالمقارنة مع هوية الجوهر الإنساني المشترك لدى الناس جميعا.

والحب الأمومي هو تأكيد مطلق لحياة الطفل واحتياجاته. وهذا التأكيد له جانبان: الرعاية والمسؤولية عن حياة الطفل ونموه، والموقف الذي يغرس في الطفل حبا للحياة. وفي هذا الحب يجب على الأم أن تتسامح، وأن ترغب وتؤيد انفصال الطفل. وفي هذه المرحلة، يصبح الحب الأمومي مهمة صعبة تتطلب عدم الأنانية والقدرة على إعطاء كل شيء وعدم الرغبة في شيء، سوى سعادة محبوبها. وفي هذه المرحلة تفشل كثير من الأمهات؛ فالمرأة النرجسية المهيمنة المتملكة تستطيع أن تنجح في أن تكون أما محبة طالما أن الطفل صغير، أما المرأة المحبة حقا، فهي التي تشعر بالسعادة في العطاء، وهذا الحب ربما يكون أصعب أنواع الحب، وأكثرها خداعا أيضا، فالمرأة تستطيع أن تحب طفلها الصغير، ولكن لا يمكن أن تكون محبة إلا اذا استطاعت أن تحب الآخرين؛ زوجها والأطفال والغرباء وكل البشر.

والحب بين رجل وامرأة هو سعي إلى الاندماج الكامل؛ الاتحاد مع شخص آخر. وهو بطبيعته يقتصر على شخص وليس مطلقا. وربما كان هذا الحب هو أشد أنواع الحب خداعا، لأنه يلتبس بالجنس، الملتبس أيضا بالرغبة والهيمنة والإيذاء.

ومن المنطقي أن أحب نفسي نظرا إلى أنني إنسان أيضا. فالفكرة الواردة في الكتاب المقدس: حب جارك حبك لنفسك؛ تتضمن أن احترام تكامل الإنسان وتفرده أي حب الإنسان وفهمه، لا يمكن أن ينفصلا عن احترام الإنسان وحبه وفهمه لفرد آخر.

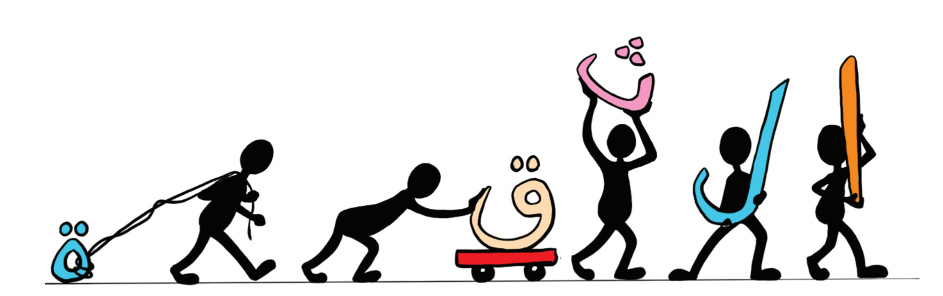
وحب الله غير مختلف إذا ما تحدثنا من الناحية السيكولوجية؛ فهو حب ينشأ من الحاجة إلى قهر الانفصال وتحقيق الوحدة. وفي الحقيقة، فإن حب الله له صفات مختلفة عما لحب الإنسان، وإلى حد كبير نجد الاختلافات نفسها في كل الأديان «المؤلهة»؛ سواء كانت تؤله عدة آلهة أم إلها واحدا، إذ يعد الله هو أعلى قيمة، يعد الخير الأقصى المرغوب. ومن ثم، يتوقف المعنى الخاص لله على الخير الأقصى المرغوب بالنسبة للشخص، لهذا يجب أن يبدأ إدراك مفهوم الله، بتحليل لطابع بناء الشخص الذي يعبد الله.

7II- الثقة تقود قيم العيش معاً في ظل الثورة الصناعية الرابعة

يعكس مفهوم الثورة الصناعية الرابعة التشكلات الاقتصادية والاجتماعية المصاحبة للتكنولوجيا الجديدة المرتبطة بصناعات واستخدام الحاسوب والاتصالات، والموبايل، والبرمجة المتقدمة والإدراكية، والروبوت، والتكنولوجيا الحيوية، وإنترنت الأشياء، والتفاعل المتقدم بين الإنسان والآلة، والطباعة ثلاثية الأبعاد، وتحليل البيانات الضخمة والخوارزميات المتقدمة، والاستشعار الذكي، وتحديد المواقع، والحوسبة السحابية.

ويرتبط بمفهوم الثورة الصناعية الرابعة مجموعة من المفاهيم والمصطلحات، مثل الحوسبة، والمعلوماتية، واقتصاد المعرفة و«الشبكية» وما بعد الصناعة، وجميعها مصطلحات تؤشر إلى التحولات الاقتصادية والاجتماعية المصاحبة لتقنيات الحوسبة والاتصالات، وقد يكون مفهوم «الشبكية» تعبيراً عن تفاعل الحوسبة مع الاتصالات الأفضل وصفاً لهذه المنظومة التقنية الاقتصادية الاجتماعية.

تؤشر الحوسبة إلى استخدام الحاسوب والبرمجة في الأعمال المختلفة لتشارك الإنسان وتحل محله، وتؤشر «الشبكية» إلى المزاوجة بين الحاسوب وشبكات الاتصال لتتحول الشبكات إلى مجال واسع للإعلام والعمل والتأثير. وفي ذلك نشأت أعمال ومهارات جديدة، واختفت أعمال ومهن وأسواق كثيرة كانت سائدة ومهمة، وتغيرت طبيعة أعمال كثيرة، كما نشأت طبقات وانحسرت أخرى.



تمتد الثورة الصناعية الرابعة بتأثيرها العميق إلى الثقافة والمجتمعات والقيم، بل وتعيد تشكيلها في اتجاهات جديدة مختلفة اختلافاً كبيراً عن المراحل السابقة. وإذا كانت التقنية تحلّ على نحو تلقائي في الأعمال والأسواق والموارد والسلع فإنها تمضي في عالم الأفكار والاجتماع والسياسة في اتجاهات أكثر تعقيداً وأصعب توقعاً، وإذا لم تنشئ الدول والمجتمعات استجابات واعية للتحولات التكنولوجية الكبرى فإنها تدفع بنفسها نحو تحديات وصعوبات إضافية قد تلحق بها ضرراً كبيراً إن لم تعصف بها نهائياً، وكما اختفت حضارات ودول ومدن في التحولات الكبرى على المحيطة مدى التاريخ فليس مستبعداً أن تختفي دول ومجتمعات وحضارات قائمة في عالم اليوم.

وكما أن الجديد لا يولد من جديد، فإن الأفكار والتوقعات الجديدة أيضاً ليست مستقلة عن السياق السابق، ولكن القديم لا يساعد إلا قليلاً في إدراك وتوقع الاستجابات والتحولات الناشئة بفعل الثورة الجديدة، ذلك أنها تبدو في جدتها وضخامتها وكأنها مفاجأة هبطت على العالم أو أنها مستقلة عن المرحلة السابقة استقلالاً كبيراً يجعل الربط بينهما في التحليل والاستنتاج لا يفيد، هكذا تبدو

الشرور الرئيسة (الموبقات) التي يجب تجنبها:

القتل والإيذاء والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور، ويتجنب المرء ارتكاب الشر بمعاندة الرغبات والشهوات والجهل والغضب والخوف..

بوذا

عن حضارة وأساطير الهنود الأمريكيون

عالم واحد - 12

كان للهنود الأمريكيين ثقافة مزدهرة مفعمة بالمعاني الإنسانية الراسخة، وعندما وصل المستوطنون الإسبان إلى القارة الجديدة كان لأهلها حضارة متقدمة، وكانت بعض مدنهم يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة، وهو رقم يفوق عدد سكان أكبر مدينة أوروبية في ذلك الوقت. وتذكر مصادر تاريخية أن الملاح خشخاش بن سعيد القرطبي وصل إلى جزر البحر الكاريبي عام 889 م ثم وصل بعده الملاح بن فروخ الأندلسي إلى جزيرة جامايكا عام 999 م أما أول من وصل إلى القارة الأمريكية فهو الملاح الفينيقي ماتو عشتروت عام 508 ق.م ثم الملاح القرطاجي روتان عام 504 ق.م.

ويلاحظ على قصص الهنود وحكاياتهم أنها قريبة من قصص الشرق وبعضها قد يكون يقترب كثيرا من قصص وردت في الكتب السماوية مثل الحياة في السماء والنزول إلى الأرض، وهي أيضا منسجمة كثيرا مع تراث الشرق المفعم بالدعوة إلى الخير والرفق بالناس والحيوان

يعرض فلاديمير هلباتش في كتابه الصادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والكويت بعنوان «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم. من أدب هنود أمريكا الشمالية» مجموعة من حكايا وأساطير هنود أمريكا، وتبدأ بحكاية الحكايات، عندما كان السلام يسود، ودعا الروح العظيم زعماء القبائل، وأمر بإشعال النار وإعداد المخيم، فانتشرت الحيوانات كلها، الدببة والغزلان والأرانب والذئاب والطيور تجمع الأحطاب وتقطعها. واختار الروح من أنحاء البلاد بعضا من حجارتها وطينها وأعشابها ونفخ فيها فتحولت إلى غبار ناعم، ثم غسل يديه في البحيرات والأنهار وصنع «قلموت» بوقا سحريا وقدمه إلى «داكوتا» وقال له: هذا البوق يتذكر كل كلمة تقال ويعيدها لكم عندما تطلبون منه ذلك ثم مضى الروح العظيم وتلاشى كدخان بددته نسائم المساء. وتجمع الزعماء كلهم حول النار ورووا حكاياتهم ليحفظها القلموت.

كانت أمنا الأرض تغط في نوم عميق يحيط بها الظلام والغيوم السوداء، ثم جاءت غيمة بيضاء وتقاتلت مع الغيوم السوداء فسقط المطر وهبت الحياة، وخرجت الحيوانات من أوكارها وسباتها. ونادت الغيمة البيضاء رفيقتها الغيمة الزرقاء والغيمة الصفراء وطلبت منهما أن تساعداها في إضاءة الأرض لأهلها وجاء إلى الأرض ضوء قليل، ولكن الحياة تحتاج إلى نور حقيقي.

وذهب النسر والقيوط (نوع من الذئاب) ليعيدا الشمس والقمر، كانت الأرواح الشريرة تحبسهما في صندوقين وتمنعهما من الوصول إلى الأرض فاختطفهما النسر بمعونة القيوط، وعندما فتحا الصندوق ليطلا على الشمس انطلقت إلى السماء، فأطلق القيوط القمر

خبراتنا ومفاهيمنا ومهاراتنا المستمدة من مرحلة ما قبل «الشبكية» عرضةً للزوال وعدم الجدوى. وقد تساعدنا إجابات جون كينز وكارل ماركس وآدم سميث واميل دوركايم وماكس فيبر، .. لكنها ليست كافية، ولسوء أو حسن الحظ، فإن الناس جميعهم اليوم يواجهون التحدّي، وواجب البحث.. ولربما يكون لدى أحدهم، من غير توقع مسبق، إجابة مميزة تساعد العالم.

في المجال السياسي والاقتصادي يتجه العالم نحو الرأسمالية الديمقراطية، وبحلول نهاية الثمانينات تغيرت الدول الشيوعية والاشتراكية جميعها (عدا كوريا الشمالية) وصارت تحذو حذو المنظومة الغربية في اقتصاد السوق وفي الديمقراطية، وانتهت أيضا الحرب الباردة التي أظلت العالم حوالي نصف قرن من الزمان، ودفعت به إلى حافة الهاوية والإنفاق الهائل على التسليح والحروب والصراعات والأزمات السياسية والأمنية.

لكن العالم دخل في مواجهة أزمات جديدة لا تقل خطورة عن الحرب الباردة، فقد صعدت الجماعات والحركات المتطرفة والأصولية واليمينية، والحروب والصراعات الأهلية، وصعدت الهويات الفرعية، الإثنية والدينية واللغوية والقومية، وصارت تهدد وحدة الدول والمجتمعات وتماسكها، وتلحق ضررا بالغا بحياة الافراد والأمم ومصالحها وعلاقاتهم الدولية والاجتماعية، كما تواجه الأمم معظمها إن لم يكن جميعها أزمات اجتماعية ومؤسسية في مواجهة مرحلة ما بعد الصناعة والتكيف معها والاستجابة لمقتضياتها وتأثيراتها وتداعياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وتتسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء في الدولة

الواحدة أو بين الدول المختلفة، كما تزيد معدلات الهجرة والبطالة، وتعم الفوضى في القيم والمؤسسات.

غلب على النظرية الاقتصادية التقليدية في عصر الصناعة أن تفسر التقدم والفشل الاقتصادي والسياسي بالعناصر والمكونات المادية والمؤسية، مثل الموارد والعمل والإنتاج والتنظيم القانوني والحكومي، ولكن في مرحلة ما بعد الصناعة صعد دور الثقافة وتأثيرها في النظام العالمي لدرجة أن المفكر السياسي الأمريكي صمويل هنتنغتون أصدر كتابه الشهير «صدام الحضارات» الذي يؤكد فيه أن الثقافات تدفع العالم إلى صراعات جديدة، ولذلك فإن تجنب الصراعات المدمرة يعتمد على الاهتمام بالثقافة.

وتزيدُ اليوم حول «الشبكة» أهمية قيم وفضائل اجتماعية، وتصعد في عالم الاقتصاد والاجتماع على نحو مؤثر في السياسات والعلاقات الدولية والوطنية. ومن خلال قدرة الناس على التواصل عبر الشبكة العالمية، ثم المشاركة في المعارف والتواصل والأعمال والتسويق والبيع والشراء، صارت هذه الأسواق والعلاقات الجديدة والاعتمادات والتداخلات المتبادلة تحميها قيم الثقة والإتقان والتسامح والفردية. وفي هذا العالم «الشبكي»، الذي يتحول إلى ساحات عامة وأسواق عملاقة ومدارس وجامعات ومنتديات، بات من الصعب إدارته وتنظيمه وحمايته بغير منظومة الثقة والتسامح. وبقدرة الفرد على العمل والتواصل، فإنه يُنشئ - كفرد مستقل - منظومةً واسعة من الأعمال والعلاقات، ويواجه مسؤوليات جديدة كانت تتحملها وتنظمها السلطات السياسية والمجتمعات.

لقد كانت الفردية ضريبة عصر الصناعة، وتبدو شرّا لا بد منه، لكنها تتحول اليوم في عصر «الشبكة» إلى فضيلة أساسية، ففي هذه المنظومة المستقلة بنسبة كبيرة عن السلطات والمجتمعات لا يمكن الحفاظ على القيم والمصالح الاجتماعية والقوانين والمهارات والمعارف إلا من خلال أفراد فاعلين وقادرين على أن يتحملوا الأعباء والأدوار التي كانت تقوم بها المؤسسات العامة والمجتمعية، وتمتد أيضاً مسؤوليات الأفراد إلى تهيئة الفاعلين الاجتماعيين لأدوارهم المستقبلية ودمجهم في المنظومة الاجتماعية والاقتصادية بالمشاركة الحقيقية مع المجتمعات والمدارس والجامعات والمؤسسات الاجتماعية وربما بدلاً منها.

كيف يستطيع الأفراد أن يحلّوا مكان السلطة والمجتمعات في المسؤولية عن التنظيم الاجتماعي والأخلاقي، وتهيئة الفاعلين الاجتماعيين للقيام بأدوارهم ومسؤولياتهم وامتلاك المهارات والقيم والمعارف التي يحتاجونها لإدارة شؤونهم ومصالحهم وعلاقاتهم؟ كيف ستتعامل الأمم مع الثورة الصناعية الرابعة على النحو الذي تواصل عملها في حماية مواردها وقيمها الضرورية للأمم والأفراد والأسواق والتي كانت سائدة في مرحلة مركزية الدولة والمجتمع؟

تحاول كثير من الأمم استيعاب المرحلة بتكريس قيم ومهارات التسامح والإبداع على نحو مؤسسي وشامل، وتحولها إلى موارد أساسية تمكنها من اكتساب المناعة والمؤهلات التي تساعدها في التكيف والاستجابة. وبالطبع فإنها تحديات على قدر من الضخامة والتعقيد تحتاج إلى كثير

إن الترياق المناهض للتطرف، والعلاج الكامل لهذا الوباء الذي يضرب الأرض طولًا وعرضًا بمسميات كثيرة ومتنوعة، هو التسامح، لا بدّ من اعتماد فلسفة التسامح كي نشفى.
محمد عابد الجابري
مفكر وفيلسوف من المغرب

من البحث والانشغال الشامل، وليست مجرد فكرة عابرة.

وفي البحث عن الحلول والبدائل تتجه الأنظار إلى المجتمعات والأفراد من الشركات والجمعيات التطوعية والأسر والمؤسسات الدينية والثقافية والإعلام والتعليم والتنشئة لتكون شريكة أساسية وفاعلة في بناء القيم والمهارات الضرورية للعيش والحياة الأفضل والتقدم الاجتماعي والاقتصادي، مثل العدل والتنوع والتسامح؛ ومواجهة التحديات والأخطار التي قد تلحق ضررا بالمجتمعات والأفراد ومنظومة القيم التي تحميها؛ مثل الكراهية والتعصب والعنف والعزلة وضعف الانتماء والمشاركة وفقدان الهوية والمعنى.

إن هذه القيم برغم أهميتها وضرورتها للتقدم وحماية الأمم والمصالح لا يمكن للدول أن تطبقها بتشريعات ومؤسسات رسمية وتنظيمية بالطريقة التي تنشئ بها الجيوش والأجهزة الأمنية والبنوك، لكنها تتحقق وتنجح من خلال ثقافة سائدة وشراكة مجتمعية وفردية مع الدولة والشركات، وببناء منظومة من المؤسسات الاجتماعية الوسيطة بين المجتمع والدولة وبين المجتمع والأسواق.

ربما يكون المفكر الاجتماعي الألماني ماكس فيبر (1864 – 1920) أول من بحث العلاقة بين الأخلاق والتقدم الاقتصادي، فهو يفسر نشوء الرأسمالية والتقدم الاقتصادي الأمريكي بالاتجاهات الدينية والاخلاقية للبروتستنتية المسيحية، ويعتقد أن حركة الإصلاح الديني كانت شرطا للثورة الصناعية. وقد لاحظ في كتابه الذي صدر عام 1905 بعنوان «الأخلاق البروتستنتية والروح الرأسمالية» أن المجتمعات الدينية مثل المعمدانيين والمنهجيين (الميثوديين) أوجدت جماعات صغيرة شديدة التماسك ارتبط أفرادها أحدهم بالآخر عبر التزامهم الجماعي بعدة قيم مشتركة مثل الأمانة والمساعدة. وكان هذا التماسك عونا كبيرا لهم في عالم التجارة والأعمال، لأن عقد الصفقات التجارية يعتمد إلى حد بعيد على الثقة. ولاحظ فيبر في أثناء تجوال عبر الولايات المتحدة أن العديد من رجال الأعمال يقدمون أنفسهم كمسيحيين مؤمنين من أجل إثبات أمانتهم واستقامتهم وجدارتهم بالثقة.

ويرى فيبر أن البروتستنتيين الأوائل عملوا على تمجيد الرب وحده منكرين على البشر تكديس الممتلكات المادية بوصفها غاية في حد ذاتها، كما طوروا بعض الفضائل مثل الأمانة والاستقامة والسعي لتحقيق الازدهار الاقتصادي، وهي قيم ساعدت إلى حد بعيد على تراكم رأس المال بعد ذلك.

وبعد فيبر بتسعين سنة (1995) أصدر المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما كتابه «الثقة: الفضائل الاجتماعية ودورها في الرخاء الاقتصادي، ويؤكد فيه على أهمية الفضائل الاجتماعية والأخلاقية وبخاصة في مرحلة يشكل رأس المال البشري المورد الأساسي للأعمال والتقدم. هكذا فإن رأس المال الاجتماعي بما هو الأخلاق الحميدة يصعد اليوم كأساس للتقدم وحلا للأزمات والمشكلات المعاصرة. ويقول فكوياما إن الثقافة تؤثر بقوة وفاعلية في الاقتصاد وفي حياة الناس ومواردهم وأعمالهم، ولا يمكن عزل الاقتصاد عن القيم والأخلاق وتأثيرها على الأسواق والأعمال والسلع كما أسلوب الحياة، وعلى سبيل المثال لا يمكن لنشاط

اقتصادي أن يستغني عن قيم التعاون والتكافل الاجتماعي، سواء كان هذا النشاط مؤسسة صغيرة أو مصنعا ضخما، ونحتاج جميعا إلى الشعور بالرضا في أعمالنا وتواصلنا وعلاقاتنا في العمل والحياة، وهذا الرضا مستمد أساسا من الرغبة الإنسانية العميقة بالاعتراف وتحقيق الذات.

والإنسان في حاجته للعمل والمال لا يحتاجهما فقط لتحقيق حاجاته الأساسية من الغذاء والمأوى والكساء لكن أيضا لأجل هويته وكرامته ومكانته في المجتمع، هكذا فإن الاقتصاد يشكل حزءا أساسيا من الحياة الاحتماعية، ويتأثر تأثرا مباشرا بالقيم والمعايير والالتزامات الاخلاقية والعادات والتقاليد والأعراف التي تحدد وجهة المجتمع وهويته، ومن ثم فلا يمكن تحقيق الازدهار والتقدم الاقتصادي من غير تقدم اجتماعي ثقافي.

إن تردي مستويات الثقة وتدهور قيم التواصل الاجتماعي يظهران بوضوح حالات ومؤشرات الجرائم والعنف، والتفكك الأسري، وضعف المؤسسات الاجتماعية الوسيطة مثل النقابات والنوادي والجمعيات الخيرية وعلاقات الجوار في الأحياء السكنية، والشعور العام بغياب القيم المشتركة والصلات الاجتماعية وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى نفقات إضافية زائدة على الأمن والعمل المؤسسي.

وبالطبع فإن القانون والعقد التجاري والعقلانية الاقتصادية توفر كلها أسسا ضرورية لكن غير كافية لاستقرار المجتمعات ما بعد الصناعية وازدهارها، فلا بد أن تمتزج بقيم التكافل الاجتماعي والالتزام الاخلاقي والثقة المتبادلة، والإحساس بالواجب تجاه المجتمع، وهي خصال تنبع من العادات والتقاليد الاجتماعية وليست مفارقات تاريخية لا مكان لها في المجتمع الحديث، بل هي شروط لازمة وضرورية لنجاحه. فلم تتحقق أعلى درجات الكفاءة الاقتصادية بالضرورة بواسطة أفراد عقلانيين وأنانيين، بل عبر حماعات من الأفراد استطاعوا العمل معا بكفاءة وفعالية، نتيجة وجود مجتمع اخلاقي مسبق يحضهم على التواصل

تتمة عالم واحد - 12

ليعيدها ولكنه تبعها وصارا يتعاقبان، ليل ونهار، نور وظلام.. وهكذا ولد اليوم الأول.

احتاجت الحياة إلى النار لأجل الدفء والطعام ولكن أحدا لا يقدر على جلبها حتى أحضرتها العنكبوت بحيلة ذكية ووضعتها في كيس وأحضرتها وكانت لحسن الحظ لا تأكل إلا الخشب اليابس. وكانت شجرة الجميز الباسلة تقدم الخشب والحطب لتنعم الأحياء بالدفء في أثناء الصقيع.

وجاء طوفان عظيم غطى كل شيء تقريبا، وعجزت الأحياء عن الصيد والرعي والنباتات لم تجد أرضا تنبت فيها فغاصت البط في الأعماق تبحث عن التراب حتى وجدته ثم تبعتها الحيوانات حتى أخرجت الأرض من تحت الماء وعادت إلى مساكنها .

كان «الناس» يعيشون في السماء فوق الغيوم ويملكون كل ما يحتاجون إليه، ولكن بعضهم لم يرض بهذه العيشة الهادئة، فتبعوا الشمس ونصبوا لها شركا بين الغيوم فغضبت الشمس وكادت أن تحرقهم فهربوا إلى الأرض، ثم رقت الشمس لهم وكافأتهم على شجاعتهم ببلاد تحمل اسمهم .

وجاءت على الناس أيام حر وقحط حتى كادوا يهلكون فتطوعت الحية بالذهاب إلى السماء لتحضر المطر والثلج، وقذفها الكاهن في السماء فتقوست ممتدة في السماء وصار لون جلدها يتغير من أحمر إلى أصفر إلى أخضر فكان قوس قزح وجاء المطر والثلج.

والاجتماع.

يتميز رأس المال الاجتماعي أنه يوجد ويتحرك عبر آليات ثقافية متعددة مثل الدين والتقاليد والعادات التاريخية والأعراف. وبنما تعدّ العقود الرسمية والمصلحة الذاتية من الأسس المهمة للتجمع البشري، إلا أن أكثر المؤسسات فاعلية وكفاءة تعتمد على مجتمعات تتبنى معايير أخلاقية مشتركة، ولا تحتاج هذه المجتمعات إلى عقود رسمية شاملة، ولا ترتيبات قانونية تنظم العلاقات بين أفرادها، لأن هؤلاء أجمعوا منذ البداية على الالتزام بقواعد أخلاقية ومعنوية تشكل أساسا لبناء الثقة المتبادلة في ما بينهم.

لا يمكن اكتساب رأس المال الاجتماعي الضروري لإيجاد هذا النوع من المجتمع الاخلاقي عبر قرار استثماري عقلاني. أي أن الفرد يستطيع ببساطة اتخاذ قرار بالاستثمار في احد الأشكال التقليدية من رأس المال البشري، مثل الدراسة في كلية من الكليات، أو التدريب في أحد المعاهد المتخصصة ليكون على سبيل المثال ميكانيكيا أو مبرمجا، وذلك بمجرد الذهاب لى المكان المناسب لتنفيذ قراره، خلافا لذلك يتطلب اكتساب رأس المال الاجتماعي ترويضا وتعودا على الالتزام بالمعايير الأخلاقية للمجتمع، كما يتطلب اكتساب مجموعة من الفضائل مثل الإخلاص والأمانة، فضلا عن ذلك يجب على الجماعة تبني مجموعة من المعايير المشتركة قبل أن يصبح بالإمكان تعميم الثقة بين أعضائها. بكلمات أخرى لا يمكن الحصول على رأس المال الاجتماعي بمجرد إعطاء الأفراد حرية التصرف كما يحلو لهم، فهو مؤسس على انتشار فضائل اجتماعية لا فردية،

تتمة عالم واحد - 12

وكان أطفال سبعة أيتام يعيشون في خيمة جائعين عرايا لا يدري بهم أحد ،فالناس مشغولون بالحرب، فدعاهم الروح العظيم، فتحولوا إلى نجوم تسكن في السماء وظلوا قريبين من بعضهم فكانت «الثريا»

وأحبت بعض النجوم حياة الهنود وهي تراقبهم في الليل وكانت تتمنى أن تقترب من أكواخهم ولكن القمر لم يكن يسمح لها، وفي مرة سمح للنجوم بزيارة قرية للهنود على أن تعود في الليل قبل طلوع الفجر وإلا أهلكتها الشمس، ورأى طفل إحدى النجمات الصغيرة تتسكع فأمسكها فتحولت إلى فتاة جميلة، وهربت أخواتها النجمات، وخافت الفتاة النجمة من الشمس فخبأها الطفل في الخيمة، وفي المساء تحولت إلى زهرة بيضاء بجوار القرية، ثم رحلت إلى البحيرة ونثرت أزهارها هناك وكان النيلوفر الأبيض.

وغضبت الحيوانات من الصيادين الجشعين الذين يقتلون الحيوانات البرية لبيع لحومها وفرائها وليس للطعام فقط فأطلقت على الناس الذباب ودب فيهم المرض، ولكن الأرواح دلتهم على الأعشاب فصاروا يلتقطون الزعتر والسرخس ويعدون منها الدواء.. وهكذا كان الداء والدواء.

وكان الناس يستخدمون أحجار الصوان في العيد والفؤوس فقدمت لهم الأرواح النحاس ليضعوا منه في مقدمة رماحهم وجعلته قويا وليس قاسيا كالذهب حتى لا تقسو قلوبهم.

ولم يكن الناس يموتون فدعا الذئب

واكتساب الميول نحو التواصل الاجتماعي يفوق في صعوبته اكتساب النزوع نحو الأنواع الأخرى من رأس المال البشري، إلا أن حقيقة اعتمادها على العادات والتقاليد الأخلاقية تضاعف من صعوبة تعديلها أو تدميرها.

إن لرأس المال الاجتماعي تبعات تؤثر إيجابا في طبيعة الاقتصاد الصناعي الذي سيتمكن المجتمع من إقامته، ولو انتشرت الثقة بين جميع القائمين بأي مشروع تجاري نتيجة اشتعالهم وفق مجموعة مشتركة من المعايير الأخلاقية فسوف تنخفض تكاليف الأنشطة الاقتصادية، وسوف تتحسن قدرة المجتمع على ابتكار أشكال تنظيمية جديدة، لأن المستوى المرتفع من الثقة سيسمح بظهور مجموعة واسعة ومتنوعة من العلاقات الاجتماعية. وفي المقابل فإن الجهاز القانوني الذي يعمل بديلا للثقة يزيد التكاليف، حيث يفرض فقدان الثقة في المجتمع نوعا من الضريبة على جميع أشكال النشاطات الاقتصادية، وهي ضريبة تعفى من دفعها مجتمعات الثقة العالية.

وخلافا للمجتمعات الأسروية (الثقة بالأقارب والتضامن معهم والعكس مع الغرباء) تتميز مجتمعات الثقة العالية مثل ألمانيا واليابان بوجود درجة عالية من الثقة الاجتماعية المعممة، ومن ثم بنزعة قوية عفوية نحو التواصل الاجتماعي. ولذلك فقد تأسست في مجتمعات الثقة العالية مثل الولايات المتحدة وألمانيا واليابان شركات عملاقة، لكن في مجتمعات الثقة الأسروية فقد ظلت الشركات ذات طابع عائلي وأقل حجما.

يعكس تعريف الثقافة بأنها وعي الذات وما يتصل بذلك من أفكار وقيم وعادات وتقاليد واتجاهات وآداب وفنون قدرة الثقافة ودروها على التقييم والتأثير في الحياة والموارد، لكن بما هي وكما يعرفها المفكر الانثروبولوي كليفود غيرتز (1926 – 2006) بأنها نمط من المعاني ينتقل تاريخيا ويتجسد في الرموز، وهي نظام دلالي من المفاهيم المتوارثة مصوغة في أشكال رمزية يستخدمها الناس أدوات اتصالية، يؤبدون بها ويطورون معارفهم عن الحياة ومواقفهم تجاهها؛ تكون نظاما اجتماعيا اقتصاديا يحافظ على حماية حياة الأمم ومصالحها، وفي ذلك فإن أهم العادات التي تدخل في تكوين الثقافات لا تتصل إلا بعلاقة واهية بطريقة الأكل وتسريحة الشعر، لكنها مرتبطة بمجموعة القواعد والمبادئ الأخلاقية التي تنظم بها المجتمعات سلوك أفرادها، وهو ما عبر عنه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه بـ «لغة الخير والشر» التي يستخدمها الناس، وبالرغم من تباين الثقافات وتنوعها إلا أنها تعمل جميعا على تقييد الدوافع الأنانية في شخصية الإنسان بطريقة ما عبر تأسيس مجموعة من القواعد والأحكام الأخلاقية غير المكتوبة، ومع إمكانية التأكيد على أن القواعد والمبادئ الأخلاقية لست سوى نتيجة خيار عقلاني مدروس بعناية، يقارن فيه المرء مبادئه الأخلاقية مع البدائل المتاحة، إلا أن أكثرية البشر لا يفعلون ذلك، فقد تربوا على وتعلموا اتباع القواعد والأحكام الأخلاقية لمجتمعهم بالتعود عليها في العائلة والمدرسة ومن الأصدقاء والجيران.

تتصح العلاقة الوثيقة بين الفضائل الأخلاقية وبين جملة العادات والطباع السائدة في مفهوم الشخصية، إذ يستطيع

> إنّ أقصر طريق للإنسان إلى الله، هو في تسامحه مع الإنسان الآخر.
> يوحنّا بولس الثاني.
> بابا الفاتيكان الأسبق

المرء بسهولة أن يستفتي أو يحكم عقله لمعرفة ما هو صواب فيفعله، لكن الشخص الخلوق بطبعه هو وحدة القادرة على فعل ما هو صواب تحت الظروف والتحديات الصعبة كلها، يقول أرسطو تتشكل طباعنا الاخلاقية نتيجة الأفعال والنشاطات التي قمنا بها واعتدنا عليها، ولهذا يعد ما تعلمناه منذ الصغر أمرا بالغ الأهمية. ويرى فيبر أن الثقة التي تشكل عاملا حاسما في الحياة الاقتصادية قد انبثقت تاريخيا من العادات والتقاليد والأعراف الدينية، ولم تكن محصلة للحسابات العقلانية.

لا يمكن ان نعيش حياتنا اليومية دون التصرف وفقا لجملة من العادات الثقافية التي لا علاقة لها بالعقلانية والمنطق، إذ لا يملك المرء الوقت ولا النية لاختيار بدائل عقلانية في جميع القرارات التي يتخذها في حياته. ولأن الثقافة تتعلق بالطبيعة الأخلاقية تتغير ببطء؛ أبطأ من تغير الأفكار، وعلى سبيل المثال فقد تغيرت الدول من الشيوعية الى الديمقراطية واقتصاد السوق، لكن ظلت ثقافات وعادات سائدة مخالفة لما ينادي به الناس ويصوتون لأجله.

وشهدت نهايات النصف الثاني من القرن العشرين تحولا كبيرا في الثقافة الكاثوليكية، فقد تصالحت مع الديمقراطية، وقامت اكثرية الديمقراطيات في الفترة 1974 – 1989 في مجتمعات كاثوليكية، لعبت الكنيسة فيها دورا رئيسيا في النضال ضد الاستبداد. وشهدت عدة دول كاثوليكية مثل اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وتشيلي والأرجنتين نموا اقتصاديا أسرع من مثيلاتها البروتسنتية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وذلك في فترات مختلفة في الستينات والسبعينات والثمانينات، وعندما تصالحت الثقافات الكاثوليكية مع الديمقراطية والرأسمالية ظهرت توجهات للتقارب بين الثقافة الكاثوليكية والبروتسنتية.

لا شك ان البشر أنانيون في الجوهر يسعون بأسلوب عقلاني وراء مصالحهم الذاتية، كما يقول الاقتصاديون، لكنهم يمتلكون أيضا جانبا معنويا وأخلاقيا يشعرهم بالتزاماتهم تجاه الآخرين، وهو جانب تتقاطع أهدافه في كثير من الأحيان مع غرائزهم الأنانية، وكما يوحي مدلول مصطلح «الثقافة» ذاته تنشأ اكثر القواعد الأخلاقية تطورا التي يعيش الناس حياتهم تبعا لها عبر التقاليد والتكرار والعبر والأمثلة، وقد تعبر هذه القواعد عن عقلانية عميقة قادرة على التكيف، حيث تساعد على الوصول إلى الغايات الاقتصادية العقلانية، أو تكون نتاجا لقبول عقلاني عند قلة من الأفراد. لكنها تنتقل من جيل إلى جيل في هيئة عادات اجتماعية غير عقلانية، تضمن هذه العادات بدورها ألا يتصرف البشر دائما باعتبارهم أفرادا عقلانيين يسعون جهدهم وراء منفعتهم الأنانية فقط كما يفترض الاقتصاديون.

تمثل اليابان نموذجا رائدا لأمة حققت أعلى درجات التقدم الاقتصادي والعلمي وفي الوقت نفسه فإن اليابانيين يغلب عليهم الالتزام الديني والاجتماعي والتمسك بالثقافة والتقاليد الراسخة والقديمة في المجتمع الياباني. ومن المدهش في الحالة اليابانية القدرة على الجمع بين الفردية والجماعية، والدور الواسع للقطاع الخاص والاحترام الكبير للدولة والنظام الحكومي، فالدولة في اليابان تؤدي دورا قليلا في الاقتصاد، وبرغم ذلك تتمتع اليابان كما

النعم هي معايشة العقلاء، واكتساب الثقافة والعلوم والفنون، والعناية بالأسرة والوالدين، والتصرف بكرامة ولطف وتجنب الشرّ والأذى، والتقشف في الحياة، والصبر بعامة وعلى المصائب.
بوذا

تتمة عالم واحد - 12

الأرواح أن تأخذ بعضهم إلى السماء ليقل الزحام ويرتاحوا من المرضى والعجزة وأخبرت الأرواح الكاهن بنداء الذئب فجمع الناس والحيوانات ليستشيرهم فوافقوا على أن يظل في السماء حبل يصنعونه من السهام ليعود من يرغب، ثم إن الذئب قطع الحبل في الليل ولم يعد الموتى يقدرون على العودة من السماء، فغضب الكاهن من الذئب وطلب منه أن يعيش وحده بعيدا، فرحل إلى بقعة معزولة وندم كثيرا وصار يعوي في الليل متوسلا وباكيا.

يصفها فرنسيس فوكوياما بمستوى متقدم من التفاعل المتميز بالبراعة والمهارة بين الحكومة والشركات الكبرى في اليابان، والتعبير المألوف «الاندماج الياباني بين الحكومة والشركات» أبلغ ما يصف هذه العلاقة، إذ تبلغ درجة التعاون بين الوكالات الحكومية والشركات الخاصة حدا متقدما على دول العالم بحيث يصعب التفريق بين القطاع العام والقطاع الخاص، لقد أكد المراقبون مرارا على أن في الحياة الاقتصادية اليابانية عنصرا قوميا تفتقده الدول الغربية، فحين يذهب المدير التنفيذي الياباني إلى العمل فإنه يبذل أقصى جهده في سبيل مجد ورفعة الأمة اليابانية كما يبذل جهده لأجل نفسه وعائلته وشركته.

ويدعم المجتمع الياباني شبكة واسعة من المؤسسات التطوعية التي تنشط في المجالات الدينية والفنية والحرف التقليدية، ومن الملفت أنها جماعات تشبه العائلات في تراتبيتها وروابطها القوية بين المعلمين (المرشدين) والمريدين، لكنها لا تعتمد على صلات القرابة، بل على العضوية التطوعية

ويعد اليابانيون من الشعوب المتدينة، فهم يتبعون ديانة الشنتو والبوذية، وبعضهم اعتنق المسيحية، ويدعمون شبكة واسعة من المؤسسات الدينية، ويمثل الرهبان ومريدوهم قوة اجتماعية تاريخية ومؤثرة في اليابان، كما تملك اليابان نظاما متماسكا من الجامعات الخاصة التي أسسها أغنياء ومنظمات دينية.

ومن الظواهر السياسية والاجتماعية المصاحبة للعولمة الشبكية صعود الحركات اليمنية القومية والأصولية الدينية في أنحاء واسعة في العالم، والتي صارت تؤثر في الانتخابات العامة إن لم تهيمن عليها على نحو يبدو العالم يتجه فيه نحو اليمين السياسي والديني، وبعدما انحسر اليسار أو اختفى تقريبا؛ فإن تيارات واتجاهات الوسط السياسي والاجتماعي (الليبرالية والمحافظة والديمقراطية الاجتماعية بشقيها الليبرالي أو اليساري) والتي هيمنت على الحياة السياسية والعامة عدة قرون تواجه تحديات كبرى في قدرتها على مواصلة تأثيرها، وتحفيز الأفراد والمجتمعات.

كانت الشيوعية والأناركية (الشيوعية الأكثر تطرفا) تشكل هاجس الدول والمجتمعات الليبرالية (بالمفهوم السياسي الواسع لليبرالية بمعنى الحكم المدني المستمد من الحريات الاقتصادية والسياسية والفردية) وفي ذلك فقد حشدت كل مواردها في خدمة هذه المواجهة، وفي أحيان كثيرة كانت تتحالف مع اليمين الديني والقومي،

وتوظف عداءهما الأيديولوجي للشيوعية، كما أنشأت منظومة اجتماعية واقتصادية من الحريات والضمان الاجتماعي والحقوق والحريات العامة، لكنها (الليبرالية) في ذروة انتصارها على الشيوعية وعندما حسمت الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي وحلفائه لصالحها على نحو يبدو «ضربة قاضية» تخلت وفي سرعة عن سياساتها الاجتماعية الاقتصادية، واجتاحت العالم اتجاهات وسياسات «نيوليبرالية» قاسية فقدت فيها المجتمعات والطبقات منظومات الحماية الاجتماعية والاقتصادية والتأمين الصحي وفرص العمل والأجور العادلة، وتحولت المؤسسات العامة للخدمة والموارد إلى شركات واحتكارات جعلت معظم الخدمات الأساسية سلعا استثمارية مكلفة، وتراجعت على نحو مخيف (وربما كان مقصودا) المرافق العامة والمؤسسات الحكومية للتعليم والصحة والتكافل الاجتماعي.

وعندما استفاق العالم على وقع الأزمة المالية الكبرى عام 2008 كانت «الرأسمالية الليبرالية» نفسها تتعرض للانهيار الذي وقعت فيه المنظومة الشيوعية السوفيتية في أواخر ثمانينات القرن العشرين، لكن ولسوء الحظ فقد تبين أن الإصلاح ليس فقط سياسات ومبادرات اقتصادية وسياسية واجتماعية تستوعب الأزمة أو تساعد الناس وتنقذهم من الفقر والبطالة، لكنه عالم جديد يتشكل وعالم قديم ينسحب وينهار، فالسياسات والاتجاهات التي عصفت بالعالم لم تكن مجرد فكرة أو نزوة سياسية أو اقتصادية، لكنها تفاعلات واستجابات معقدة للتحولات الكبرى في الموارد والتكنولوجيا، هكذا فإن العولمة الشبكية قهرت الاتحاد السوفيتي والشيوعية كما أخضعت الرأسمالية الليبرالية نفسها للتحول بل إلى ما يشبه الهزيمة. وفي ظل حالة الخوف والقلق وعدم اليقين المصاحبة للتحولات صعدت الحركات والجماعات القومية والدينية، باعتبارها مظلة بديلة للأمم تلجأ أو تنكص إليها في مواجهة التحديات الكبرى والعاصفة.

عندما ظهرت الليبرالية السياسية والاقتصادية في القرن السابع عشر كانت تعكس الوعي الاجتماعي للطبقة الوسطى الجديدة الصاعدة وإدراك هذه الطبقة للفرص والتحولات الواعدة، هكذا رحلت الطبقة الاقطاعية والارستقراطية مع الثورة الصناعية، وحلت مكانها كتلة اجتماعية كبرى من أصحاب المهن والتخصصات التي أنشأتها الحركة العلمية والصناعية الكبرى والأسواق والسلع الجديدة، وعلى يمين هذه الطبقة نشأت الاتجاهات المحافظة من الأرستقراطيين والأغنياء (ليسوا ارستقراطيي ما قبل الثورة الصناعية من الإقطاعيين والملاكين الكبار)، وعلى يسارها الاتجاهات اليسارية من الليبرالية الاجتماعية أو الاشتراكية الديمقراطية، وظلت هذه الكتلة الوسطية من الليبراليين والمحافظين والاشتراكيين في تفاهماتها وتسوياتها وصراعها أيضا تدير وتنظيم الحياة والقيم السياسية والعامة، وتطور التكيف والاستجابة مع التحديات والتحولات؛ هي حضارة الطبقة الوسطى، أو كما يقول المؤرخ الاقتصادي اريك هوبز باوم: «اجتمعت العناية الإلهية والعلم والتاريخ لتجعل الأرض لقمة سائغة للطبقة الوسطى»

كل قرار أو فعل او اعتقاد هو حكم أو مبني على حكم.

وهكذا فإن الاستيعاب الممكن أو المفترض للتحولات الكبرى الجارية في العالم يعتمد على استعادة أو تمكين الطبقة الوسطى التي عصفت بها الأحداث والأسواق والموارد الجديدة وحولت العالم إلى أقلية ضئيلة من الأغنياء وأغلبية من الفقراء، أو إيجاد طبقة وقيادات ومؤسسات قادرة على تحقيق العدل والرضا للناس جميعا، وإدارة وتنظيم الموارد والسياسات بعدالة وكفاءة، فإذا لم تكن الطبقة الوسطى قادرة على استيعاب المرحلة الجديدة، أو إذا كانت طبقة الثورة الصناعية التي لم يعد لها مكان؛ فإن العالم يبحث عن قادة جدد!

بدا في لحظة ما أن القادة الجدد هم الجماعات اليمينية من الأصولية الدينية والقومية، وأظهرت الأحداث التي سادت في عالم العرب منذ عام 2010 «الربيع العربي» أن المجتمعات بلا قيادات، وكانت الجماعات الدينية السياسية والقومية بجاذبيتها وإجاباتها الحاضرة ومخاطبتها لنوازع الخوف والبحث عن الطمأنينة مرشحا تلقائيا أو جاهزا لجأت إليه الأمم، لكنها أيضا جماعات آفلة تعكس أزمة الليبرالية نفسها، فهي كما اليسار كانت تصعد وتنحسر تعبيرا عن أزمة الليبرالية الوسطية وعجزها عن مواجهة التحديات الاقتصادية والاجتماعية المتواصلة، وفي ذلك فإنها برغم شعبيتها الكبيرة لا تملك المشروعية الحضارية بما هي تحسين الحياة والحفاظ على القيم الأساسية الضامنة للعقد الاجتماعي والمستمد من ولاية الأمم على السلطات والموارد بعدالة وكفاءة، لم تكن سوى اجابة جاهزة مبسطة لسؤال كبير ملحّ وهربا من قسوة وملل البحث عن إجابة حقيقية.

إصراري على طرح فكرة التسامح لم يكن منشأه إبداعيًا كتابيًا، بل جاء بقرار منّي للتصالح بين الأصالة والمعاصرة، وبين الكره والحب، وبين طرفين متنافرين، في سبيل التطوّر والانفتاح والنجاح والسلام، أطمح إلى أن يكون قرارًا شجاعًا أو على الأقل صائبًا.

الطيب صالح

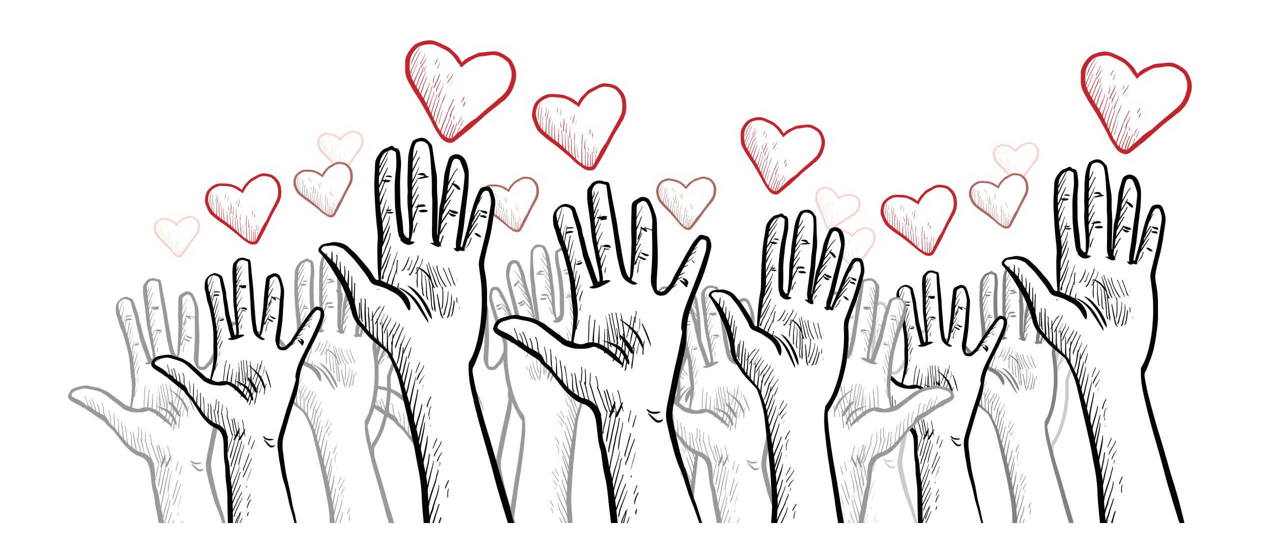
أديب سوداني

8II- التطوع

تتجاوز اقتصاديات العمل التطوعي في العالم التريليون دولار، ويشارك فيها حوالي مليار شخص، وبالإضافة إلى أبعادها الإنسانية وما تمنحه للأفراد والمجتمعات من معنى كبير فإن العمل التطوعي في الحقيقة يمثل مدخلاً أساسيًا لا يمكن الاستغناء عنه في جميع الأحوال في التشكلات الاجتماعية والسياسية والاختيارات الطبيعية للنخب والقادة المحليين والاجتماعيين، وعلى أساسه يتقدم المواطنون غالبًا في مجتمعاتهم وبيئتهم التي يعملون ويعيشون فيها، ذلك أنه وببساطة درجت الأمم في التاريخ والجغرافيا أن تقدم الناس على أساس الأكثر قدرة وحرصًا على خدمتها، وفي التراث العربي والإنساني أيضًا أن سيد القوم خادمهم، وهي مقولة تعني أن من يسود جماعة يجب أن يخدمها، أو أن من يخدم جماعة يصبح سيدها.

يقدر عدد المشاركين في العمل التطوعي كما في دراسة للأستاذ أحمد فتحي النجار في الولايات المتحدة بأكثر من 62 مليون مواطن، تشكل نسبة العاملين في المنظمات الطوعية 10 في المائة من القوى العاملة، وقدرت اقتصاديات العمل التطوعي في عام 2010 بحوالي 173 مليار دولار، وتقدر في بريطانيا بحوالي 50 مليار جنيه إسترليني، ويشارك فيها حوالي 22 مليون شخص، وكان عدد المشاركين في العمل التطوعي في أستراليا ثلث القوى العاملة (أكثر من 5 مليون شخص) تقدر مساهمتهم الاقتصادية بـ 713 مليون دولار، وكان عدد المتطوعين في أوروبا لعام 2011 حوالي 140 مليون شخص قدرت مساهمتهم بـ 227 مليار يورو.

ويبدو من نافلة القول أن العمل التطوعي في دول الشمال أكثر رسوخًا وتطورًا برغم أن الحاجة إليه أكثر إلحاحًا في الدول النامية، ولكن المشهد ليس قاتمًا، وبخاصة إذا نظرنا إلى العمل التطوعي بمفهومه الواسع ليشمل بالإضافة إلى المساهمات والجهود الفردية في الخدمة العامة بلا مقابل المؤسسات الطوعية والخيرية غير الربحية، وكذلك التبرعات التي يقدمها المواطنون باعتبارها أيضًا محصلة جهود وأعمال منتجة، ويمكن ببساطة ملاحظة إسهامات الدول العربية الخليجية الرسمية والأهلية حول



العالم في الإغاثة والتنمية، وهي مبادرات ومشروعات تساهم في خدمة المجتمعات ومواجهة الكوارث والأزمات.

ويمكن ملاحظة شبكة معقولة في الدول العربية من العمل التطوعي، يمكن تطويرها وتفعيلها لتمتد في كل قطاعات العمل العام والمجتمعي؛ التعليم، والصحة والرعاية الاجتماعية، والثقافة والفنون، والرياضة، والخدمة العامة، وحماية المستهلك، والعمل العام والجماهيري. ويمكن هنا بالطبع إدراج برامج المسؤولية الاجتماعية التي بدأت تنمو بشكل واضح في الدول والمجتمعات العربية، والتي تقوم على مبادرات للشركات ورجال الأعمال.

ليس العمل التطوعي فقط إضافة جميلة إلى حياتنا، ولكنه مكون أساسي في العمل العام والمشاركة والإنتاج. ولا تقف قيمة العمل التطوعي عند نتائجه المباشرة، ولكنه ينشئ متوالية من العمل والإنجاز والإبداع تضاعف قيمته. فالشباب الذين يقومون بصيانة مدرسة الحي، لم يحسّنوا فقط وضع المدرسة، وإنما أنشأوا بيئة جميلة محفزة وإيجابية لكل الطلاب والطالبات والمواطنين، للمحافظة على المرافق العامة والانتماء إليها؛ وتكونت لديهم خبرات متقدمة في احتياجات المجتمع والتعليم، يمكن أن يحاوروا على أساسها المسؤولين في التربية والتعليم، والشركات، وأصحاب الأعمال والمهن؛ لتطوير التعليم والرقابة عليه أيضًا. وهم امتلكوا كذلك خبرات قيادية في العمل مع الفريق، تساعدهم في أعمالهم الأخرى، وتزيد قدراتهم وإبداعهم، وتؤهلهم أيضًا لأن يكونوا قادة محليين واجتماعيين، قادرين على المنافسة والمشاركة في الانتخابات البلدية والنيابية والنقابية، ومنظمات المجتمع المدني والأندية.. وعندما يرتقون في الحياة والعمل سيكون لديهم رصيد وخبرات وشعور نبيل بالمسؤولية، تساعد في تطوير مجتمعاتهم وبلدهم.

ويساعد العمل التطوعي الدول والمجتمعات في إقامة حراك اقتصادي اجتماعي إبداعي يحقق التماسك والتطور، وينشئ إجابات واقتراحات حول الهواجس والأسئلة الإصلاحية والتنموية؛ كيف تتشكل قيادات جديدة تحمل الإصلاح، وتكتسب ثقة المجتمعات والمواطنين؟ كيف يتحول قادة المبادرات الاجتماعية والاقتصادية إلى رواد في مجتمعاتهم وأعمالهم وفي الأسواق والمصالح أيضًا، وكيف ننشئ قاعدة اجتماعية واسعة للإصلاح والتنمية في المجتمعات والمدن والبلدات وبين الشباب وطلبة المدارس والجامعات لأننا بذلك نجعل التنمية والحياة الكريمة ملهمة للناس وتجمعاتهم وقدرتهم على التماسك وإدارة احتياجاتهم بأنفسهم، وبأقل كلفة وأفضل فاعلية، كيف نقدم إلى الدول والمجتمعات رؤساء وأعضاء مجالس بلدية على أساس خدمتهم التطوعية؟ وكذلك الأمر في الجمعيات والمؤسسات والاتحادات المهنية والعمالية والأعمال والمصالح، وبذلك فإننا نجعل العمل التطوعي أساسًا للثقة والتقدم المهني!

كيف تتحول هذه المبادرات إلى برامج وتنافس اجتماعي وجدل في الحياة اليومية بين المواطنين بعضهم بعضًا ومع الحكومة والشركات، ويمكن أن تنشئ وتطور كثيرًا في حياة الناس ومرافقهم ومؤسساتهم المجتمعية والتعليمية؛ مكتبات عامة، مكتبات للأطفال، حدائق، برامج ومؤسسات

تسامحوا، ولا تقاوموا الشرّ بالشرّ، لأنّ أنقياء السريرة الأقوياء بالروح يتسامحون.
جبران خليل جبران
شاعر وكاتب ورسام لبناني

رياضية وتعليمية وثقافية، تطوير وتفعيل مصادر الطاقة والمياه في محيط وأفق الحي أو البلدة أو المنطقة؟ المنظمات الثقافية والاجتماعية الناشطة في الواقع وفي شبكات التواصل حول حقوق الإنسان والمساواة والعدالة والحريات وحماية المستهلك وحماية البيئة، ودعم الفئات الاجتماعية الخاصة من الأطفال وكبار السن والمرضى، والناشطون في المسرح والسينما والموسيقى والإبداع الفني والثقافي.. وهذه المبادرات وما يحيط بها من تفاعل اجتماعي وإعلامي وجدل عام يمكن أن تؤثر في السياسات العامة للدول والأسواق، وتقدم أيضًا لونًا جديدًا للنخب والقيادات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فنانون وشعراء ومعماريون، فهؤلاء بمشاركتهم الملهمة للعمل التطوعي يتحولون إلى قادة ونجوم يمكن استثمار تقدمهم العام في التأثير في السياسة والأسواق أو المشاركة فيها بالفعل.

ويمكن تطوير المبادرات إلى أسواق وفرص عمل حقيقية ومنتجة ودائمة، مثل المهن والأعمال المتصلة بالحياة اليومية والأعمال والخدمات المحيطة بها في التعليم والرعاية الصحية والطاقة والحرف الأساسية المتصلة بحياة الناس اليومية، كالتزيين وجلساء الأطفال والحضانات وخدمات المنازل، وهكذا تطور المبادرات الطوعية إلى حرف وأسواق عمل منتجة، ثم يتحول المشاركون فيها إلى قادة ونشطاء اجتماعيين يضيفون معنى إلى حياتهم وشعورًا بالرضا والتكامل الاجتماعي، وقد يتقدم بعضهم في القيادة الاجتماعية والاقتصادية، فيمكن أن نجد من هؤلاء أعضاء في المجالس البلدية والأندية والمؤسسات والبرامج الثقافية والفنية.

وهكذا فإن العمل التطوعي وإن كان يبدأ بمبادرات غير ربحية فإنه يتحول إلى منظومة اقتصادية اجتماعية ومتوالية منشئة لحلقات صاعدة في التنمية، كما أنه (العمل التطوعي) ينشئ حلقة وصل لا يمكن الاستغناء عنها بين الموارد والتشكلات الاجتماعية والثقافية حولها، وتزيد في الموارد وتجددها.

عالم واحد - 13

اللقاء المعقد بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع

يحاول عالم الاجتماع البلجيكي فيليس داسيتو التوصل إلى تقديم البرهان على أن مرحلة اللقاء الراهنة بين الحضارات في عالم يتعولم ويتداخل يجب أن تطرح مصطلحات جديدة، ويقول «إننا في أغلبية الأحيان ننظر إلى هذا اللقاء على أنه علاقات بين ثقافات أو ديانات، فيما الأمر يتعلق بتداخل بين الحضارات، يذهب تفكيرنا إلى عوامل لا مفر منها من أجل تنظيم العلاقات بين الأمم، فيما نحن نواجه عمليات تتخطى مفهوم الدول-الأمم التي نشأت في القرن التاسع عشر.

تحول الغرب إلى مصطلح محمل بالمعاني والترسبات الثقافية، الإرث اليوناني والروماني والمسيحي، والفكر الفلسفي المتعلق بالطبيعة والفرد والسياسة، والتكنولوجيا والعلوم التي تطورت منذ نهاية القرن الثامن عشر، وما نشأ عنها من ديناميات اجتماعية وثقافية صاحبت الثورة الصناعية. وبالطبع؛ فإن العالم المعاصر لم يعد غربيا، فأوروبا متنوعة، «وثمة حداثة تأتينا من بلدان شرقية،

كاليابان وكوريا والهند والصين، وجنوب إفريقيا والبرازيل والأرجنتين وروسيا»، «فحين نتكلم عن لقاء وعلاقة بين العالم الإسلامي والغرب لا بد قبل أي شيء من أن نعتمد في تحليلنا النظرة المتنوعة، وأن نأخذ في الحسبان تداخل الصلات، هذا إضافة إلى إدراج العلاقات المعقدة في إطار التوجهات العامة والموحدة للعالم المعاصر».

وعلى عكس ما يبدو ظاهرا، فإن بعض القيم البنيوية مثل الإيمان بالعلم النافع والمادية والتغيير والتجدد والتقدم لم تتبدل، بل تجذرت في بعض مناحيها إلى درجة أصبحت تثير القلق، كل شيء يصبح متساويا، شرط أن يؤمن التعبير عن الذات وتفتحها، واللذة الجمالية، وهذا ما ينتج أخذ وجهة نظر الآخر في الحسبان واستيعابها من أجل فهم الذات.

أين موقع العالم الإسلامي اليوم في علاقته مع الغرب من هذه التحولات الكبرى؟ يقول داسيتو «إن العالم الإسلامي يواجه غربا شمولي الأهداف، نخبويا وتسلطيا في نظرته إلى المستقبل، قلقا أكثر من أي وقت مضى، وهو يفتش عن ثوابت يقينية.. والفكرة التي تقود خطاه لا تتحمل عدم اليقين والتساؤل، لكن العالم الإسلامي من جهته يواجه كذلك البعد الحداثوي المتجدد، والنسبي والعلائقي، والمتفهم لغيره، والمتشوق للتعرف إلى تجارب أخرى؛ كالتجربة البوذية أو الهندوسية وغيرها»

يشكل الإسلام اليوم مرجعا لحياة أكثر من ألف وخمسمائة مليون شخص يعيشون في منطقة جغرافية واسعة وممتدة، ويتكون عالم الإسلام اليوم من عشر مجموعات كبرى، تشكل فضاءات وتراثات ثقافية

9II- الجمال:
الآداب والفنون تهذب النفس وتقوي العيش معاً

«وضعت الأمم في الفنون أسمى أفكارها»
هيغل

ربما تمثل القيم الجمالية وما يعكسها من فنون وآداب أهم رابط في العيش معاً، إذ تجمع بين الأمم من جميع اللغات والأديان وتخاطبهم جميعا بلغة وقيم وأفكار يفهمونها جميعا، ويقدم الدين والفن في بحثهما عن المعنى كلا منهما إلى الآخر معان ووظائف وآفاقا يستدل بها على الصواب والجمال بما هو ارتقاء في الروح، وإدراك للقبيح والحسن والتمييز بينهما، وفي ذلك نجزم أن غياب الفنون التشكيلية والموسيقى والنحت والشعر والقصّ عن عالم الدين سيجعل فهمه قاصرا، فالفن بما هو يلطف النفس البشرية ويرقى بها، يرقى أيضا بفهم الدين ويرتقي به، ويدفع بالمتدينين ليمنحوا الفن أيضا مجالات وآفاقا جديدة، تقلل من عجزه عن إدراك الفكرة والمعنى والحقيقة..

يستعين الإنسان بالدين والفن لأجل الوصول إلى الصواب، وبإدراكه أن ذلك مثال يكاد يستحيل الوصول إليه، يظلّ محكوما بهاجس أنه يتخذ الأدوات الصحيحة ليصل إلى الصواب، .. والحال أن هذه القدرة هي التي تمنح الإنسان المعنى والارتقاء وليس الصواب بذاته، وبغير ذلك فإن الشخصية الإنسانية تغرق في التفاهة، الفن يمنحنا ذلك الحدس الذي يحمينا من التفاهة ويمنحنا المناعة من الخواء والخوف والرغبات والكراهية والغضب.



«وضعت الأمم في الفنون أسمى أفكارها»
هيغل

نحتاج أولا أن نرى الأشياء والأفكار كما هي، وتبدأ الأزمة عندما نعجز عن رؤية الأشياء وفهمها، أو حين يلتبس الخطأ بالصواب، لكن يفترض أن الإنسان لديه ملكة ذاتية في رؤية الواقع والخبرة به، وكلما فسدت هذه الملكة أو ضمرت فسدت الحياة برمتها؛ فالبيوت والمهارات والأطعمة والسلع والعلوم والمعارف والتقنيات والسياسة والإدارة تتكيف مع قدرة الناس على الرؤية والتقييم، فتزداد السلع والخدمات والأعمال في مستواها وجمالها بمقدار فهم الناس ومستوى ذوقهم، وفي ذلك تتحسن الحياة والأعمال والأسواق والسلع والخدمات؛ إذ يجب أن تتفق مع أذواق الناس وإدراكهم.

الفن يمنح الناس المهارات والمواهب والملكات لرؤية الأشياء ووصفها والتعبير عنها؛ ذلك أن الفن هو تشخيص الفكرة المعنوية أو تحويلها إلى واقع محسوس، وتدهشنا قدرة الفنان على ملاحظة التفاصيل وعرضها في لوحة فنية أو عزف موسيقي أو في العمارة أو القصة والشعر.

والذائقة بما هي ملكة في الحكم على الأشياء والأفكار تكاد تنحصر كمهارة يتعلمها الإنسان في الفن والجمال، وفي غيابها يقع الناس في التطرف والتعصب، إذ يكون حكمهم على المسائل والأشخاص والأحداث خاليا من القدرة على ملاحظة الخير والجمال لدى الناس، لا يعود إلا «نحن» و«الآخر»، ويضيق الـ «نحن» إلى الطائفة إلى الجماعة إلى المجموعة حتى يكاد يقتصر على الذات، ويتسع الآخر بما هو مختلف أو مرفوض، ليبدأ بمن هو ليس من الـ «نحن» حتى يكاد يكون كل إنسان آخر.

وفي غياب المعنى وعدم القدرة على تتبعه، يغيب الهدف الواضح في الحياة أو التصور العملي والواقعي للنمو والنجاح، وغياب المشاركة العامة والانتماء، فيكون «الخواء»، أن يكون وجودنا أو عدم وجودنا سواء، ماذا نعمل؟ وماذا ينقص لو لم نؤد عملنا؟ ما أهمية عملنا ووجودنا لأنفسنا وأسرنا ومجتمعاتنا ودولنا؟



يتشكل الخواء عندما يكتشف الإنسان عجزه عن إدراك الحقيقة أو الصواب وتمثلهما في حياته، ولما كان ذلك أمرا حتميا أو تلقائيا، فالحقيقة يكاد يستحيل الإحاطة بها أو معرفتها أو امتلاكها، والواقع أن النجاح والارتقاء هو إدارة نقص المعرفة.. وربما تحويل هذا الجهل أو العجز إلى إبداع وارتقاء بالروح والنفس، وهنا يكون الفنّ ضرورة كبرى لحماية الإنسان من الخواء أو الشعور الزائف بالصواب وامتلاك الحقيقة.

فالفن يمنح الإنسان فرادة في العلاقة مع الخالق والكون والحياة، .. وفي غياب هذه الفردانية يلجأ إلى المجموع ليحمي نفسه، ولكن المجموع ليس سوى أفراد مثله، يحتمون بالكثرة التي لا تملك أيضا

الحقيقة، لا يحميه ولا يحميهم سوى التواطؤ على الوهم، فيزيده المجموع خواء وضعفا وهشاشة.. ثم تتحول الهشاشة إلى شعور وهمي أو خاطئ بالصواب والنظر إلى الصواب على أنه خطأ، «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»، فتواصل متوالية الخواء تشكيل أتباعها في مزيد من الضعف.. وأحيانا ندرك أن هذا الضعف اسمه تطرف وتعصب وكراهية! الفن يساعدنا بما يمنحنا من فرادة أن ندرك عجزنا ثم نحمي أنفسنا منه، .. لامجال إذن سوى فردية تملك بذاتها منعتها وتماسكها، فينشئ الفرد وحده طريقه التي تحميه مدركا أنه يتحمل وحده مسؤولية أفكاره ومعتقداته وأفعاله.

وهي بالتأكيد فردانية موحشة، لكن الفنّ يعوض الإنسان عن الوحشة والصعوبة في عالمه الذي خلق صعبا، أو كما يقول الفيزيائي العظيم والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء فيرنز هايزنبرغ يستحيل فهمه، لأنه يتغير على نحو يفوق قدرتنا على معرفته، كما أن ملاحظتنا له تغيره، لأننا نجتهد بالفنّ لأجل تقليل المسافة بين الفكرة والتعبير عنها، ويكون كل ما نعرفه هو ثمة فرق بين الحقيقة وما نعرفه، فيكون عدم المعرفة دليلا للدأب والتفرد، وحماية الذات من فجاجة عدم اليقين، هكذا يشق الإنسان طريقه مستدلا بالفنّ حين تعجز المنظومات المعرفية الأخرى إدراك حقائق الأشياء!

وفي عالم الإتاحة والإغراق بالمرئي والمسموع والمقروء لم تعد الحوزات والجامعات والمؤسسات الدينية والعلمية والجامعية والكتب والمصادر الدينية والتراثية والتاريخية سوى قطرة في محيط المعرفة المتدفق الهادر المتجدد المتغير والمبهر.. وحتى لو بقينا نتبعها أو نثق بها فيمكن لأحدنا أن يضعها جميعها على شريحة ضئيلة نلحقها بمجموعة المفاتيح ونشبكها بالموبايل أو اللابتوب بلا حاجة لوساطة من أحد أو مؤسسة أو عالم أو مذهب أو فقيه أو سلطة.. لم يعد أحد يملك سلطة أو تأثيرا على الفرد... ولم يعد للفرد سوى ما يمنحه الفن من حصانة أو منعة أو ذائقة أو قدرة.

وكما يلهم الفن الحياة والفكر، فإنه أيضا يلهم المتدينين في فهم الدين وتطبيقه على نحو غير مباشر، فليس بالضرورة أن يكون ثمة موسيقى أو فنون «دينية»، وإن كان الدين يمكن أن يكون ملهما ومصدرا للفنون والجمال، ولكن تذوق الفنون بعامة وأن تكون جزءا من حياة المتدين، يمكن إضافة إلى أنها تهذب النفس وتخفف من التوحش وتنمي الذائقة والمهارات والمواهب الجمالية، أن تلهم على نحو مباشر أو غير مباشر عزيمة وأفكارا ومعرفة كما لو كنت تقرأ في كتاب عظيم، فتزيد فهما للدين والحياة والطريق، .. نحتاج إلى تكامل بين الدين والفن؛ بحيث يعملان معا كي نستوعب بهما حياتنا اليومية الجديدة والمتغيرة والمختلفة عن الماضي وهمومها وتعقيداتها، وفي ضوء هذا الاستيعاب نفهم الحياة ونمارسها، بما هي العمل والمهن والطقس والحياة اليومية والسمر والليل والنهار والسؤال والموت والخلود والمصير والثلج والبرد والماء والعولمة والحنين والهجرة والعودة وصراع الأجيال والمدارس والجامعات والجبال والأنهار والصحراء والسهول والكدح والعدل والمساواة والمبادرة والخوف والتنافس والمدن والبلدات والطاقة والغذاء واللباس

التسامح يجب أن يكون موقفًا ثابتًا وليس قرارًا مؤقتًا، وإلا فهو يكون مجرّد تحمّل يقود إلى الشعور بالإهانة.
يوهان غوته
أهم أدباء ألمانيا وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية

الحكم هو إنفاذ الأمر في قضية ما، وهو في الدين تحريم أو إيجاب أو إباحة مطلقة أو بكراهية أو باختيار.

والانتظار والشوق والنسيان والذاكرة والطرق والمنجزات والاخفاقات والذكريات والآلام والفرح والحزن والزمن والأرصفة والأشجار والمقاهي والكتب والجيران والنوافذ والأبواب والشرفات والسطوح والندى والغيوم والضباب والمقاعد والحدائق والمكتبات والأعشاب والزهور والفصول الأربعة والأمل واليأس والأطعمة والطهو والانتماء والمشاركة والأمن والدفاع عن الأوطان والتاريخ والسلوك الراقي الجميل والعلاقات وأسلوب الحياة. والحب، .. أن نجد أنفسنا في الموسيقى والفنون؛ ما نبحث عنه ويبحث عنا.. فنقترب من الصواب، ونفهم الدين فهما جميلا أو أقرب إلى الجمال..

يقول هيغل إن «الفكرة الداخلية تصبغ الواقع الخارجي»؛ فالواقع المحسوس أو المتعين، إنما يعكس فكرة داخلية شكلته أو منحته هوية.. وهكذا فما من منتج أو سلعة أو لباس أو طعام أو بيت أو شارع أو مدينة... إلا وتعكس أفكار المنتجين.

وفي تعبير الجمال عن الفكرة يقول هيغل: «ثمة واقع خارجي له بما هو كذلك طابع محدد، ولكن داخله يبقى في حالة تجريد وعدم تعيين، وتتجلى هذه الداخلية من حيث هي فكرة في امتلاك الحياة النفسية في ذاتها ولذاتها، وفي صبغها الواقع الخارجي بداخليتها، ما يجعل الواقع الخارجي تظاهرا صريحا للداخل» وفي محاولة اقتباس المقولة في المجال الديني يمكن الاستدلال على الخواء والأزمة الروحية في عالم تطبيق الدين، عندما يتحول هذا التطبيق إلى كراهية وتدمير للحياة والناس أو كما يقول تعالى (سورة البقرة، آية 204): «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد».

صحيح أن المقولة مثالية بمعنى أن الفن لم يصل بعد ليعكس الفكرة بدقة، ولكنها تظل مقولة صحيحة في التحليل والمراجعة، وإذا كنا لا نرى أو نلاحظ سوى الواقع المعاين أو الظاهر، فإن ثمة عللا باطنة للأفعال والأحداث هي وإن لم تظهر على الدوام إلى السطح، وتظل في حدود المنطقة الدفينة التي تقيم فيها، فإنها في الوقت نفسه هي التي تنشئ هذا الواقع الظاهر، وهنا تساعدنا الفلسفة والفنون في إدراك حقائق الأشياء ثم تطبيقها في الحياة والتصورات للكون والحياة والذات والعلاقة مع الله ومع الوجود والكائنات.

والمسألة ببساطة يمكن توضيحها كما يلي: الإيمان فكرة فردية.. لا يؤمن الإنسان إلا فردا ويتحمل وحده مسؤولية إيمانه أو عدم إيمانه، وما من فكرة إلا ويحب التعبير عنها على نحو تصوري.. وفهمها بأدوات تعبيرية من اللغة والرسم والموسيقى وسائر الفنون، فلا يمكن فهم فكرة أو استيعابها



من غير تعبير، ولا يمكن التعبير إلا بالأدوات التي نملكها ونعرفها.

التعبير عن الفكرة ليس الفكرة ولكنه تقديمها أو تعبير عنها.. ودائما هناك فرق بين الفكرة في أصلها وكما هي وبين وجودها أو تقديمها في وسيلة تعبيرية،.. يعتمد ذلك على مسألتين: الفكرة نفسها وفنون وأدوات التعبير عنها، فاللغة والفنون تعكس الفكرة ومدى وضوحها وقوتها أو مدى قدرات مواهب من يقدم الفكرة،.. وفي ذلك فإننا فإننا أمام مجموعة من الافتراضات التي يجب اختبارها، ومن ثم إعادة تشخيص الحالة واقتراح تصميمها وتنفيذها وتطويرها على النحو الذي نقدر أنه «جميل» بمعنى الانسجام بين الفكرة في اصلها وبين تجليها.

وببساطة ووضوح، فإنه اذا كان لا يمكن فهم الإيمان أو تقديمه من غير اللغة والفنون والآداب، فإنها تمثل ضرورة قصوى للإيمان والدين، وسيكون قصورا في فهم الدين وتطبيقه أن تكون اللغة والفنون والآداب عاجزة أو قاصرة عن استيعاب الدين والإيمان!

فالإقرار واجب بأنه لا يمكن فهم الدين وتطبيقه إلا بالفلسفة والفنون، بالنظر إلى الفلسفة بوصفها «الأداة المنهجية في معرفة حقائق الأشياء»، والتي من دونها فإن اللغة، بما هي وعاء النص الديني، لا تمنح المعنى والدلالة والتأويل، أو أنه لا يمكن إدراك ذلك إدراكاً صحيحاً. وأما الفنون، فهي أداة التعبير عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس والخيال وتحويلها إلى معرفة ترشد الإنسان وترتقي به. هكذا لا يمكن فهم الدين فهماً صحيحاً من غير فلسفة، ولا يمكن تطبيقه

تتمة عالم واحد - 13

ولغوية متعددة ومتنوعة، وإن كان يجمع بينها دين ومعتقد واحد، وبدأت الدول الغربية تجتذب أعدادا كبيرة من المسلمين المهاجرين والمتوطنين والطلاب والتجار والسياح، الذين صاروا يشكلون تجمعات وظواهر إسلامية واجتماعية في الغرب. يقول داسيتو: « العالمان الإسلامي والغربي يتواجهان ويتلاقيان، وهما في الوقت نفسه يعيشان حالة من القلق وعدم اليقين، وينوءان تحت حمل تاريخ طويل ومعقد من العلاقات والقضايا العديدة والمتنازع عليها». اللقاء الصاخب بين العالمين الإسلامي والغربي غلب على العلاقة التاريخية بين الشرق الإسلامي والغرب الصراع العسكري والغزو المتبادل، وإن كان ثمة قدر من العلاقات الدبلوماسية والودّ في فترات وأمكنة متعددة، وفي هذا الجو نشطت التجارة بين العالمين، وتمكن التجار من إنشاء أجواء من الثقة المتبادلة، وفي بعض الأحيان نشأت علاقات سياسية دافئة كما حدث بين هارون الرشيد وشارلمان الفرنسي، وفي الأندلس أيضا نشأ تفاعل ثقافي واجتماعي فريد.

وتمثل الحملة الفرنسية على مصر في عام 1798 محطة مهمة في تاريخ العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، فقد أدت إلى صدمة ثقافية في العالم الإسلامي، وأظهرت الفجوة في العلم والتقدم والتكنولوجيا بين العالمين لمصلحة الغرب، ثم خضع العالم الإسلامي لاحتلال استعماري غربي، وكانت مواجهة مع الغرب مباشرة وعنيفة، ثم تشكلت علاقة ملتبسة، مزيج من مصالح الانجذاب المتبادل والصراع السياسي والثقافي، وتعرف الغرب أكثر من قبل على الإسلام والعالم الإسلامي، واكتسب المسلمون أفكار الغرب السياسية وأهمية الحداثة الغربية والتكنولوجيا المدنية والعسكرية، والنظام الصحي والتعليمي، ومكانة الدولة ـ الأمة.

وشهدت التسعينيات محطة أخرى مهمة في العلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي، فقد انتهت الحرب الباردة التي سادت العالم بعد الحرب العالمية الثانية، واجتاحت العالم برعاية أوروبية وأمريكية عولمة اقتصادية، نجم عنها عولمة ثقافية وسياسية، وتنامى شعور إسلامي بالقلق من عودة الهيمنة الغربية والتهميش والفجوة مع العالم المتقدم، وأنعش القلق المتبادل ظهور التطرف اليميني الأوروبي والإسلامي، وتوج هذا الصراع والقلق بأحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001، وما تبعه من غزو عسكري للعراق وأفغانستان.

اليوم تأخذ العلاقة بين الغرب والإسلام عدة اتجاهات ومحاور

1- دول وأمم: أرسى تشكيل الدول ـ الأمم مفهوما للعلاقات الدولية يقوم على أنها علاقات بين دول ذات سيادة، ونسجت الدول لنفسها هويات وطنية.

2- ثقافة ودين: لم

أنا متسامح، أرحّب أن يتم دحض رأيي إن كان ما أقوله غير صحيح، ومسالم لا أختلف مع مَنْ يدحض رأيي ويقول إنّ ما قلته غير صحيح، لأنني أرى فائدةً ونعمةً أكبر في أن يتمّ تخليص المرء من أسوأ الشرور، وهو التعصّب.
سقراط
فيلسوف إغريقي
469 ق.م - 399 ق.م

تطبيقاً صحيحاً من غير فنون.

ليس الفنّ رسما كان أو شعرا أو موسيقى أو عمارة شيئا مجرّدا مستقلا بذاته، ولكن الفنون فيما تحمله من مضامين وما تدل عليه وتؤشر إليه تساعدنا كثيرا في بناء خريطة التقدم، وندرك بها ما نحب أن نكون ونسعى إليه، أو تدلنا على عيوبنا وما ينقصنا ونحتاج إليه.

إن وظيفة الفن هي وضع الفكرة في متناول تأملنا في شكل حسي، وما دام هذا التمثيل يستمد قيمته وشرفه من التطابق بين الفكرة وشكلها المنصهرين معا والمتداخلين واحدهما في الآخر، فإن نوعية الفن ومدى مطابقة الواقع الذي يمثله المفهوم منوطان بدرجة الانصهار بين الفكرة والشكل. وبما أن المضمون غالبا إن لم يكن دائما مشوش ومجرد، فإنه يتجلى بالفن!

وأول تحقيق للفن يتمثل في العمارة بما تتجلى في البيوت والمدن والأحياء والمباني والمعابد؛ والمفترض أن تستوعب وعينا لذاتنا وحياتنا وما نحب أن نكون عليه، هكذا كما ساعدتنا العمارة في بناء المعابد فقد ساعدتنا في معرفة الله، فنحن حين نشيد المعابد، ونهيء لها الأرض وننظفها ونطهرها، تصبح هذه المواد الخارجية والأرضية «بيت الله» أو دليلنا إلى الله، وحتى تغدو أهلا للتعبير عنه وقابلة وجديرة باستقباله.

العمارة أيضا تفسح المجال للاجتماعات الحميمة، تشيد أماكن مسورة لأفراد هذه الاجتماعات، ملاذا من العاصفة التي توشك أن تعصف، من المطر والأنواء والوحوش، إنها تظهر إرادة الوجود المشترك، بإسباغها عليه شكلا خارجيا ومنظورا.

لدينا ثلاثة عناصر: النور واللون والصوت كإشارة تمثيلية؛ أي اللغة. والموسيقى وحدها تعبر عن تنبّه الشعور أو انطفائه، إنها بوجه عام الفن الذي يعبر عن داخلية الشعور المجردة الروحية.

وأما الشعر، فهو كما يعرفه هيغل الفن العام، الأكثر شمولا، الفن الذي أفلح في الارتفاع إلى الروحية الأسمى. الشعر هو القدرة المتاحة له على أن يخضع للروح ولتمثيلاته، العنصر الحسي الذي كان الرسم والموسيقى قد شرعا بتحرير الفن منه... الصوت يغدو الكلمة المنطوقة، المنذورة للدلالة على تصورات وأفكار، وعلى الروح الممثلة بالفرد الواعي.

الشعر يمد مضماره إلى ما لا نهاية، فيتدخل في الفنيين الرومانسيين الآخرين (العمارة والموسيقى)، ويدخل عليهما عنصرا جديدا ويقتبس منهما في الوقت نفسه عناصر لتكوينه الذاتي، وبالفعل إن الشعر مشترك بين جميع أشكال الجمال ويمتد فيها جميعها، لأن عنصره الحقيقي هو التخيل الذي يحتاج إليه كل إبداع يستهدف الجمال، كائنا ما كان شكله.

وهكذا تمنحنا العمارة والشعر والموسيقى فكرة كافية (ربما)، لنفهم المضمون والقيم والأفكار التي تحرك المجتمعات وتوجهها. ولو أردنا أن نشكل فكرة أو رؤية للمشاركة العامة، فإننا نستدل بحال العمارة والشعر والموسيقى في الفهم والتحليل للتشكلات القائمة اليوم في المجتمعات والأعمال والمدن والأسواق. ويمكن الاستنتاج بها أيضا مواطِن كثيرة من الخلل، وربما تساعد

تتمة عالم واحد - 13

يعد يجري الحديث عن الثقافة «الراقية» المتعلقة بالفنون، إنما بالشعب وحياته اليومية، وما ينجم عنها من نتاجات ورؤى للعالم تحكم حياة الناس، وفي هذا المعنى هناك بعد ثقافي في العلاقات بين الغرب والبلدان الإسلامية، حيث تلعب الموسيقى والتغذية واللباس وسائر مظاهر الحياة اليومية دورا مهما.

3- حضارات: يدل مفهوم الحضارة على مجموعات بشرية يجمعها عمق تاريخي شكل عماد مجتمعاتها لفترة طويلة، من طرائق التفكير والتوافق على بنى مجتمعية أساسية، كالزواج والبنوة والدين والعلاقة بالحياة والموت، وتحديد مفهوم للسياسة والقانون والاقتصاد.

نحتاج اليوم، أن نجد حياتنا الجديدة والمتغيرة التي نعيشها بكل جوانبها في الشعر والموسيقى. ونحتاج إلى أن نواجه أنفسنا بصراحة بأننا في حالة عمل وإنتاج ومواجهة مع الغثاء والاكتئاب والتشاؤم. وربما تجعل أغنية يسمعها الأطفال في المدارس والذاهبون إلى العمل والعائدون إلى بيوتهم، حياتهم أفضل وتمنحهم عزيمة وقدرة على الإبداع.. أو تمنحهم قدرا من السعادة!



في فهم القوة والضعف والعنف الكامن.

فالعمارة والشعر والموسيقى تقيس بدقة كبيرة (وربما تكون أفضل مقياس) التقدم والتخلف والنجاح والفشل، والفرص والتحديات، وما يمكن أن نفعله وما يجب أن نفعله، وما حققناه وأنجزناه بالفعل! ونلاحظ أيضا التغير الذي حصل في حياتنا وأفكارنا، من خلال التغير الذي يجري على العمارة والفنون! فنحن من خلال هذه الفنون نعبر حسيا عما نملكه من مشاعر وتخيلات، وكيف نعي وجودنا، وما تمثل فينا من قيم وأفكار؛ كيف نحب أن تكون حياتنا، وما نحب أن نكون عليه.

التقدم بما هو منظومة الموارد وإدارتها وتنظيمها وتجديدها على نحو كفؤ وبعدالة؛ يمثل فيه الفن حلقة ضرورية وأساسية في تحريك وتفاعل هذه المنظومات على نحو يمكن تبسيطه بالمسار التالي: موارد وتقنية - نظام اقتصادي - نظام سياسي - نظام اجتماعي وثقافي - موارد وتقنية جديدة وإضافية! وهذه الموارد الجديدة والإضافية هي بطبيعة الحال، ما يمكن وصفها تقدما أو تنمية.

وهذا ما يطور الحياة السياسية والاجتماعية، ويحمي المنجزات الاقتصادية ويفعلها، ويساعد في إنشاء الموارد وتطويرها. فالثقافة والفنون متطلبان ضروريان،

الزج بالدين والثقافة في الصراعات السياسية وفي تكريس الكراهية للآخرين والاشمئزاز منهم يزيد الصراع حدة من غير فائدة، ويقلل فرص التسوية والمصالحة، ويطيل أمد الحروب والآلام، ويساهم في تفكيك المجتمعات وانقسامها، ويخفض مستوى الثقة في الحياة اليومية والأسواق؛ ما يلحق ضررا بالمصالح والأعمال، كل ذلك من غير فائدة أو مقابل!

ومدخل حتمي للتقدم وتحسين حياة الناس؛ إذ بغير ثقافة الجمال ورؤيته وملكاته ومواهبه التي تلاحظ القبيح، لا يمكن الحكم على الأعمال والحياة حكما صحيحا أو كاملا، فلا تنشأ العمارة على النحو الذي يحقق راحة الناس واحتياجاتهم، واللباس على النحو الذي يحب أن يرى الناس أنفسهم عليه أو يراهم الآخرون، وكذلك الطعام والطرق والنقل. وكذا يمكن القول عن تصميم السلع والمنتجات والخدمات جميعها، وجودتها ومواصفاتها، إلى الحديث والسلوك والعلاقات والانتخابات والتشريعات والقرارات والسياسات.. إنها جميعها تتقدم نحو الصواب والتقدم والأفضل، بناءً على ما يملك الناس من ذائقة. وبذلك، ينظم الناس حياتهم، ويقدرون على اختيار الأفضل والمقارنة.

فالمجتمعات والأفراد والأعمال والمنجزات والسلع والأفكار والأذواق والخدمات، والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والبيوت والملابس والطرق والأحياء والمدن والأمكنة، تتحدد بالقدرة على تصميمها وإدراك الحالة التي يجب أن تكون عليها. وهي نهاية تقررها القدرة على الرؤية والخيال؛ أي الجمال. فحياتنا، إذن، تكون على النحو الذي نتخيله ونراه، وهي في ذلك في تقدمها وتخلفها بمقدار قدرتنا على إدراك الجمال.

إن أسمى مقصد للفن هو ذاك المشترك بينه وبين الدين والفلسفة. فهو كما الدين والفلسفة نمط تعبير عن الإلهي، عن أرفع حاجات الروح وأسمى مطالبها. لقد وضعت الشعوب في الفن أسمى أفكارها، وكثيرا ما يشكل بالنسبة إلينا الوسيلة الوحيدة لفهم ديانة شعب من الشعوب. لكنه يختلف عن الدين والفلسفة بكونه يمتلك المقدرة على إعطاء تلك الأفكار الرفيعة تمثيلا حسيا يضعها في متناولنا.

ليس هدف الفن محاكاة الطبيعة كما في الفهم السائد. مؤكد أن الطبيعة أجمل من أي عمل فني، ولكن الروح التي تعبر عنها الفنون أعظم وأهم من الطبيعة. فالفن يقدم مضمونا، يمكن ملاحظته حسيا بالقراءة أو النظر أو الاستماع، عن المشاعر والأفكار. وعلى هذا الأساس، يمكن أن يقال إن هدف الفن تلطيف الهمجية بوجه عام. وفوق هذا الهدف، يقع هدف تهذيب الأخلاق الذي اعتبر لردح طويل من الزمن أسمى الأهداف.

ويُظهر الإنسان بالفن ما هو كائن عليه في باطنه؛ يعبر بذلك عن وعيه. ويسعى الإنسان إلى تجميل نفسه تعبيرا عن تأمله في ذاته، وما يحب أن يكون عليه. ويسعى الإنسان المتمدن إلى الرقي الروحي والفكري، ويعبر بالعمل الفني عن وعيه لذاته.

ويهدف الفن أيضا إلى مخاطبة الحواس، وإيقاظ المشاعر وإثارتها. الفن وجد كي يوقظ فينا شعور الجمال. ولكن حس الجمال ليس فطريا في الإنسان؛ ليس فطريا كغريزة، أو كشيء معطى له منذ ولادته، كما يمتلك أعضاءه (العين على سبيل المثال)، وإنما هو حس بحاجة إلى التكوين والتدريب. وما إن يتم تدريبه وتكوينه، حتى يطلق عليه اسم الذوق.. «لقد كان الهدف من نظرية الفنون الجميلة وعلوم الجمال تكوين الذوق»... ويبقى أن الهدف النهائي للفن هو كشف الحقيقة، وتمثيل ما يجيش في النفس البشرية تمثيلا عينيا ومشخصا.

لكن الآداب والفنون لا تعمل في خدمة الاخوة الإنسانية على نحو تلقائي، بل يمكن أن تكون أداة فاعلة ومؤثرة في خدمة التخلف والتعصب، إذ يجب أن تعكس إدراكا وشعورا عادلا بالجمال؛ بما هو التمييز بين القبيح والحسن، وقيمة أساسية وعليا في الحكم على الأفكار والأشياء والأحداث والاتجاهات والسلع والخدمات والمنتجات المادية وغير المادية.

ونفترض بطبيعة الحال أن العلاقة بين الجمال وبين الكراهية والتطرف عكسية؛ بمعنى أن وجود مستوى جمالي متقدم ومؤثر يؤدي، بالضرورة، إلى انحسار التطرف والكراهية. وفي المقابل، يمكن توقع أن غياب البعد الجمالي أو ضعفه يعني، بالضرورة، زيادة فرص نمو وانتشار الكراهية والتطرف. فالفن تعبير عن الروح وحاجاتها، وإعطاء تلك الأفكار الرفيعة تمثيلا حسيا يضعها بين أيدينا. وكثيرا ما يشكل الفن الوسيلة الوحيدة لفهم ديانة شعب من الشعوب، ولذلك فإننا في ملاحظتنا للفنون (بما هي عمارة وشعر وموسيقى وتصميم ورسم...) يمكن أن نقدر بها تقدم أو انحسار الاعتدال والتسامح، ونمو أو انحسار الكراهية والتطرف.

وبما أن الفنون تعبر عن الخيال والحدس والشعور، فهي أيضا مقياس لوعي وأفكار الأمم والأفراد. فالفن يجعل هذا الخيال والعقل الباطن ظاهرين محسوسين، يمكن ملاحظتهما وتقييمهما. ويساعدنا الفن أيضا في جسر أو ملاحظة وقياس الفجوة بين الواقع وبين الأهداف والتطلعات. يقول هيغل: «يستخدم الفن الغنى العظيم لمضمونه ليكمل من جهة أولى تجربتنا بحياتنا الخارجية، وليستحضر من الجهة الثانية، وبصورة عامة المشاعر والعواطف والأهواء، وذلك حين لا تجدنا تجارب الحياة عديمي الحس، وحتى تبقى حساسيتنا منفتحة على كل ما يجري خارج أنفسنا. والحال أن الفن يتوصل إلى ذلك التحريك لأوتار الحساسية، لا بواسطة تجارب واقعية، وإنما بواسطة ظاهرها فحسب، بإحلاله، اعتمادا على ضرب من الوهم، منتجاته محل الواقع، وإمكانية أن يرفعها إلى علوّ كل ما هو نبيل وسام وحقيقي، وأن يحفزنا إلى حد الإلهام والحماسة، كما يستطيع أن يغرقنا في أعمق حسية وفي أخس أهواء، وأن يغمرنا في جو من الشهوانية، وأن يتركنا حيارى مسحوقين إزاء لعب مخيلة منفلتة من عقالها، تزاول نشاطها بلا قيد أو كابح. إن الإنساني غني بالخير والشر، بالأشياء السامية والدنيئة على حد سواء، ولهذا يقدر الفن على أن ينفخ فينا الحماسة والحمية للجمال والسمو، قدرته على الانحطاط بنا وإثارة أعصابنا، بتهييجه الجانب الحسي والشهواني منا... وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن هدف الفن تلطيف الهمجية بوجه عام. وبالفعل، يشكل هذا التلطيف للطباع لدى شعب، ما يزال يحبو على طريق الحياة المتمدنة، الهدف الرئيس المعزو إلى الفن، وفوق هذا الهدف يقع هدف تهذيب الأخلاق الذي اعتبر لردح طويل من الزمن أسمى الأهداف».

إن التسامح لم يتسبب قط في إثارة الفتن والحروب الأهلية، في حين . أن عدم التسامح قد نشر المجازر على وجه الأرض.
فولتير

III- القسوة والكراهية
شرور الإنسان ضد أخيه الإنسان



صندوق بنادورا

III- القسوة والكراهية شرور الإنسان ضد أخيه الإنسان

يبدو من نافلة القول أنه لا يجتمع التعصب والكراهية مع قيم الأخوة الإنسانية والاعتدال والتسامح، لكن لأن الشيء يعرف بضده، نحتاج أن نفهم القسوة بما هي من شرور الإنسان، وينشأ عنها منظومة من الاعتقادات والأفكار والمشاعر مثل الكراهية والتعصب والتطرف التي تلحق ضررا كبيرا بالأخوة الإنسانية وقيم التقدم والتضامن الإنساني، وتدفع بأصحابها إلى العنف والإرهاب والجريمة، وكنت أود أن يكون «الفشل» عنوان هذا الفصل، للتأكيد على ان التقدم الإنساني المادي مرتبط بتقدمه الأخلاقي، والعكس صحيح أيضا فإن المعتقدات والمشاعر القاسية كالتطرف والكراهية تؤدي أيضا إلى الفشل الاقتصادي والمادي. لكن لأنه مفهوم يكاد ينصرف فهمه على الجوانب المادية والاقتصادية أكثر من القيم الإنسانية اخترت أن تكون التسمية «القسوة» بما هي وصف مباشر لأسوأ ما يمكن أن يقع به الإنسان.

يناقش هذا الفصل ويعرض أنماطا من القسوة والشرور التي يمارسها الإنسان (دول أو مجتمعات أو مؤسسات أو أفراد) بحق أخيه الإنسان معتقدا أن ما يفعله صواب أو ضروري أو دون شعور بالخطأ، ولذلك فإن الكتاب لن يركز على الشرور التي تمنعها القوانين والتشريعات والثقافات السائدة؛ باعتبارها مرفوضة من غير حاجة لتوضيح ونقاش.

رامايانا: ملحمة هندية تقدم التراث الديني والاجتماعي للهند عالم واحد - 14

تعد «رامايانا» الملحمة الهندية الثانية بعد «مهابهارتا، وتقدم صورة واضحة عن الفكر والدين في الحضارة الهندوسية والهند القديمة، وقد ظهرت في القرن الثالث قبل الميلاد على هيئة تراتيل شعرية، وظلت الملحمة تطور ويضاف إليها على مدى القرون، وتنسب صياغتها النهائية إلى الشاعر الهندي فالميكي في القرن الأول قبل الميلاد، وكانت تسود في ذلك الزمان في الهند مملكة أوكسالا، ويتقاسم النفوذ فيها أسرتا اكشفاكو وفيديها، وقد عرفت الأسرتان بالحكمة والمدارس والآداب، ومازالت ملحمة رامايانا يقدمها المنشدون وتلاقي إقبالا كبيرا للاستماع إليها في الهند، وكان لها تأثير قوي على الإنتاج الأدبي والفكر الديني والاجتماعي في المجتمع الهندوسي.

وماتزال تشكل جزءا من الثقافة والبناء الاجتماعي، وتقدم في الاحتفالات السنوية في مشاهد مسرحية وأناشيد وروايات ويقبل عليها ملايين الهنود. يصفها ديورانت بالقول إنها تمتاز بدقة الشعور، وبإعلائها من شأن المرأة والرجل إعلاء مثاليا، وبتصوير الحياة تصويرا قويا، وهو تصوير واقعي أحيانا، وكان الفتية الهنود يستعيدون قصة راما على نحو واقعي فيعتزلون في الأديرة والغابات سنوات طويلة يتعلمون الحكمة، ويمارسون التقشف والزهد.

1III- القسوة

القسوة كما تعرفها أستاذة علم النفس بجامعة اكسفورد؛ كاثلين تايلور في كتابها «القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري» سلوك ذاتي متعمد غير مبرر يسبب الأذى والمعاناة والألم لشخص بريء أو لا يستحق ذلك، وغالبا ما يكون لا يثير الاستنكار أو الرفض تجاه مرتكبي الفعل في أوساط وجماعات ودول معينة، وقد تتضمن القسوة عدوانا جسديا أو إهانة وإيلاما تجعل المستهدفين يعانون حسيا أو نفسيا أو معنويا. والقسوة مفهوم أخلاقي، فمن يقدم على إيذاء الغير لا بد أن يبرر أفعاله.

إن ما يجعل القسوة بالغة الفظاعة؛ وما هو أكبر من الإيذاء الحسي والمعاناة هو تجريد الإنسان من آدميته والتجرد من المعاني الإنسانية. وإذا شعر مرتكب السلوك حتى لو كان عادلا أو مبررا بالمتعة في الإيذاء فإن سلوكه يعتبر شيئا بغيضا، وفي مرتبة الشرور تتفوق السادية وتعلو على غلظة القلب، وتجسد الدرك الأسفل والأفظع في شرور الإنسان.

تشمل القسوة كل المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بشرور الإنسان من غير مبرر، مثل الكراهية والتعصب والتطرف والإرهاب والحرمان والتمييز العنصري بسبب الدين أو اللغة أو اللون أو الجنس او الهوية، والحقد والحسد والظلم. وربما يكون تعبير «القسوة» هو الأكثر دقة في وصف الشرّ الإنساني وإن كانت الكلمة مألوفة ومستخدمة على نطاق واسع مختلف عن مقصودها في هذا الكتاب، إذ هي «القسوة» أكثر دقة وشمولا من «الوحشية» فالوحشية تتضمن سلوكا غريزيا بعضه مبرر ومفهوم، أو «الإرهاب» لأنه يقتصر على فعل العنف وإن كان مستمدا من الكراهية والتطرف، وأكثر شمولا من «الكراهية» لأنه مفهوم يقتصر على المشاعر والمواقف النفسية والفكرية والأيديولوجية ولا يصف الأفعال والممارسات.

في فهم القسوة (ويشمل ذلك بطبيعة الحال الكراهية والتطرف) تقول تايلور: يمكن ملاحظة عدة أنواع من التفسيرات عن سبب القسوة، والقوى والضغوط الاجتماعية والثقافية: الرفاق، وطلب الإذعان والطاعة، والأيديولوجيات، والخرافات، والأنماط والتغيرات الاقتصادية المفاجئة، والدوافع البيولوجية، والمخدرات والهرمونات، والبرامج الدفينة للاستجابة للتهديد، .. و«ظلال الأسلاف» التي تمثل حاجتنا ونزوعنا للتنافس ولعزل الغير/ الآخر.

البشر يشكلون العالم الخارجي كما يتصورونه أو حسب أهوائهم.



تشمل القسوة كل المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بشرور الإنسان من غير مبرر، مثل الكراهية والتعصب والتطرف والإرهاب والحرمان والتمييز العنصري بسبب الدين أو اللغة أو اللون أو الجنس او الهوية، والحقد والحسد والظلم.

تحدثت تايلور عن نظرية نقل وتطور الثقافة Meme Theory وكأنه نوع من غسيل الأدمغة بطريقة نشر الجديد من الظواهر الثقافية والأفكار ونماذج السلوك في العقول، وبين الأجيال بمنهج التكرار والمعلومات الموجهة، وعن طريق الفن وطراز الأزياء ووسائل الإعلام والتكنولوجيا، والسرّ هنا في ثلاث كلمات: «التبليغ والتكرار والتأثير، .. ثم يأتي القبول» ويمكن ملاحظة إيجابيات عدة في هذه الثقافة؛ مثل:

1- الاستعداد الذهني للنقاش والتقييم هو الذي يحدّ من القلق والخطر الناشئ عن صراع الفكر المخالف للعقيدة الذاتية.
2- القوة الظاهرة لأي عقيدة يمكن حصارها بالمناقشات والحوار والمناظرات، مما يعمق ويؤصل الثقافة داخل المجتمع. كما أن السادية والجرائم تنتشر بفعل العقائد الخاطئة واتجاه الإعلام ووسائل التسلية وبعض الأفلام التي تشيع وتنشر القسوة، تقول تايلور: «نحن نشاهدها على الشاشات ثم تنتشر في حياتنا اليومية»
3- عدم تنفيذ الأحكام في المجتمع وانفلات السلوك له سببان: إما أن أصحاب السلطة يريدون ذلك، وإما أن البيئة كلها شديدة الفوضى لدرجة أن القوانين لا تفرض عقوبات رادعة ولا تدعمها.
4- تعليم الأطفال التاريخ الصحيح هو دعامة الوعي السليم، ليس بتكرار سرد الأخطاء التاريخية وإدانة من ارتكبوها، لكن لا بد من أن توضع هذه الاخطاء في مضامينها لمعرفة أسباب حدوثها وكيف نتجنبها.

إن «القسوة» كما تؤكد تايلور ليست شأنا يخص المجانين أو من يولد شريرا بالفطرة، بل من الأرجح أن كثيرا من السلوك الذي يتسم بالقسوة سلوك منطقي نابع من العقل، أي أنه يرتكب لأسباب تبدو وجيهة وسليمة في رأي مرتكبها. كما أن القسوة أمر واحد نوعيا، وإن اختلفت الأفعال الموصوفة بالقسوة في درجة الإيذاء وليس اختلافا في نوع القسوة، مثال: الإهانة اللفظية لأحد المهاجرين، أو ضربه حتى الموت.

ومن السمات المؤذية في طبائع البشر ميلهم إلى تصنيف «الآخر» ليس فقط في أوقات ومجريات المحن الكبرى، ولكن كرد فعل على تحديات ضئيلة وأمور بسيطة في محيطنا الاجتماعي قد نعتبرها -نحن- تمس مقامنا أو كرامتنا وإحساسنا بالاعتزاز والفخر. إننا مازلنا نميل إلى بل نريد إنزال الضرر بالغير وأحيانا يبلغ الضرر درجة الإبادة الجماعية، ذلك فقط لأننا تحكمنا معتقدات تجاه غيرنا من الناس تدعونا إلى اعتبارهم طائفة تستحق الكراهية.

توصف الكيانات المعادية بالشرّ، .. كائن شرير معاد يهدد وجودنا وأشخاصنا، لا نستطيع أن نفعل شيئا يجعله يغير من سلوكه، كائن خطير ليس مثلنا، يهدف إلى الإيذاء والضرر والتدمير، ومسؤول أخلاقيا عن أفعاله، ولأن التهديد الذي يمثله هذا الكيان قاس وشديد فلدينا ما يبرر اللجوء إلى أن نبطل أو نقضي على هذا التهديد.

يلزم التمييز بين القسوة والعدوان والعنف، كلمة عنيف تصف سلوكا وتذكرنا بتأثيرات الفعل السريع، القوة، القدرة البدنية والقدرة على التدمير، أما كلمة عدوان فتعبر عن النية والقصد بالاعتداء، ولكن القسوة غالبا ما تتضمن العنف المتناهي. والقسوة تنشأ في مواقف

تتمة عالم واحد - 14

تتكون الملحمة من 24 ألف بيت موزعة في سبعة فصول، وقد أضيف الفصل السابع بعد فترة طويلة من تأليفها، وتبدأ الملحمة بذكر الملك داشارت ملك كوشال، وهو ملك محب للخير وكان يصلي للشمس في صحبة كاهن العائلة الحكيم فاسيستا. وقد رزق داشارت بمساعدة من إله النار أربعة من الأبناء الأمراء، أولهم راما ولي العهد وبطل الملحمة، وهذا جعلهم مزيجا من البشر والآلهة، وقد علمهم الحكيم فاسيستا علوم وحكم العصر وأهمها الفيدا (مجمل المعتقدات الهندوسية)

قال الحكيم فاسيستا معلما الأمراء: إن هذا العالم صنعه ثلاثة: براهما المبدع، وفيشنو الحامي، وماهش المخرب.

وحياة الإنسان مقسمة إلى أربعة أقسام: من مولده حتى سن الخامسة والعشرين، ويدعى براهما شاريا، ومن الخامسة والعشرين إلى الخمسين مخصص لتكوين الحياة العائلية ويدعى براهما جريهاستا، والقسم الثالث من الخمسين حتى الخامسة والسبعين ويدعى فانا براسا، وهو خط الحياة ويعني ترك الأمور الدنيوية، وفي المرحلة الرابعة بعد الخامسة والسبعين (شيمنياس) يغادر الحياة. ولدى البشر ثلاث صفات من طبيعتهم: الخير (سات) والزمني (تاماس) والملكي (راجاس) ويتكون الجسم البشري من خمسة عناصر: الماء والهواء والفضاء والتراب والنار. ولكي يكون ا لملك ناجحا عليه اتباع ثلاث وسائل: ساما أي السلام، وداما أي السلطة، ودناندا (العقاب) وبهيدا (التفرقة) وأول الواجبات الدينية الصدق، وأما الحب والعطف فيجعلان الإنسان أعظم الكائنات، وأما الكراهية فهي سبب كثير من الخطايا.

معينة ولكنها لا تكون أبدا عشوائية أو دون تمييز إلا ربما في حالات الاضطرابات العقلية الشديدة، لكن تحكمها الظروف مثلما تحكمها الشخصية، والناس سوف يستمرون في اقتراف القسوة في مواقف معينة.

وقد يملك الإنسان كل ما يمكن أن يعطيه له المجتمع من تربية أخلاقية، ويبدي تفهما واضحا للمبادئ الأخلاقية الحاكمة لثقافته، وربما يتصرف بحنان وطيبة مع من حوله، ومع ذلك يصبح ممن يعذب الغير او يكون قاتلا، وقد يتعلم بالفعل كيف يقتل دون التخلي عن أخلاقياته، ولكنه قد يجد من الصعب أن يعدل نفسه ويعود للعيش السوي المألوف فيما بعد، فالتعاليم الأخلاقية لا جدوى منها إذا لم تفعّل ويعمل بها وتكون مشاركتها فعالة ونشطة عند اتخاذ قرار الفعل.

إن إقصاء الآخر ولو بشيء من الاعتدال يجهز الناس ويؤهلهم للعدوان، سواء شجعهم هذا السلوك بوضوح أم لم يشجعهم على أن يسلكوا سلوكا عدوانيا، وعند التفكير في فعل قاس فإن ذلك يعني اتخاذ خطوة في سبيل إقصاء الآخر؛ ما يؤدي إلى السلوك القاسي، وسواء اتخذت الخطة التالية أم لا، ولأن الأفعال المتقاربة تسببها أنماط ذهنية متداخلة، فإن التنشيط المتكرر لفكرة إقصاء الآخر حتى إن تم باعتدال يطلق السلوك المتهور بشدة مفرطة، ويفسر ذلك أيضا لماذا يلجأ الناس الذين اعتادوا ثقافات العنف إلى القتل لأسباب بسيطة وتافهة. إن تقبل المجتمع للعنف ولفكرة إقصاء الآخر هو الذي سهل التعديات المهلكة للقتلة.

الأفعال الطوعية والإرادية يصاحبها اختيار حرّ واضح من جانب الفاعل، ويكون التأكيد على هذا الاختيار المنطقي العاقل قويا بصفة خاصة عندما نفكر في مرتكبي جرائم القسوة، لكن الاختيارات التي تقود

تترسخ المعتقدات في منظومة من المصالح والعلاقات والمشاعر والأفكار، وما من عنف مادي إلا ويسبقه ويمهد له عنف رمزي.

إلى أفعال القسوة مع أنها حرة قد لا تكون دائما واضحة، سواء للفاعل او للآخرين، وقد تدفع المواقف الضاغطة مثل التفكير الجماعي وتأثير البيئة السائدة الإنسان إلى أفعال تتعارض مع تفكيره الحر والمنطقي.

تترسخ المعتقدات في منظومة من المصالح والعلاقات والمشاعر والأفكار، وما من عنف مادي إلا ويسبقه ويمهد له عنف رمزي، وقد يساعد التعليم والتدريب العلمي على تعديل ومرونة بعض العقول، ولكنها محاولة ليست كافية، فهناك كثير وعديد حولنا من ذوي التعليم العالمي و/أو من المتدربين علميا وهم متعصبون ولديهم استعداد لمصادرة وفرض أي رأي بديل دون إعادة النظر، ولا داعي لديهم لأي فحص لدليل أو برهان، لأنهم يشعرون بشدة أنهم دائما على صواب.

ويجب علينا كما تقول تايلور ألا نندهش أن مجرد المناقشة للحقائق قد تفشل. والأدلة والبراهين العقلانية تعطينا الكثير، ولكنها لا تعطينا بنفسها أسبابا لأن نهتم كثيرا بالمعتقدات التي تؤيدها وتدعمها، وحب الحقيقة أحد الدوافع التي يشار لها غالبا ويبالغ فيها غالبا؛ مثل معظم أنواع الحب، فإنه من النادر أن يكون نقيا وبلا شروط فيما يبدو. إن العلم مجهود إنساني يهدف الوصول إلى نظريات أفضل وليست مثالية تصل إلى حدّ الكمال، إنها تفسيرات تقترب من الحقيقة ولذا تقدم تنبؤات أكثر دقة.

تتمة عالم واحد - 14

وكانت أول مهمة للأمير راما بعد عودته من صومعة الحكيم فاسيستا الذهاب في صحبة الحكيم فيشوميترا لمقاتلة الشياطين الذين يدنسون المعابد، ثم ذهب الأمير وأخوه لاكشمان مع الحكيم لزيارة الملك جاناك، وفي قصة تتطابق مع قصة أوديسيوس في الأسطورة اليونانية «الأوديسا» أقيم حفل مباركة الأميرة سيتا ابنة الملك، وأعلن الشاعر الملكي أن الملك اشترط على من يتقدم لخطبة الأميرة أن يرفع قوس الإله شيفا ويربط وتره، ولم يستطع أحد من الأمراء والملوك أو الفرسان أن يفعل ذلك، ولكن راما رفع القوس وشد الوتر، وجرى بهذه المناسبة احتفال مهيب، وتقدمت سيتا من راما وطوقت عنقه بإكليل من الورد.

وقرر الملك داشارتا أن يتنازل عن الملك لابنه راما ولكنه بعد القرار رضخ لطلب إحدى زوجاته وقرر أن ينفيه إلى الغابة لمدة أربعة عشر عام، فتكتمل قصة راما متطابقة مع قصة أوديسيوس، حيث يمضي في رحلة النفي هذه استجابة لوالده، ورافقه في الرحلة زوجته سيتا وأخوه لاكشمانا، وخرج ثلاثتهم إلى الغابة في لباس النساك، ومات الملك داشارتا بعد فترة وجيزة. وفي رحلتهم أقاموا مع الكهنة والرهبان وحاربوا الشياطين، ونعمت القرى والصوامع بالأمان، ولما عجز الشياطين عن محاربة راما لم يجدوا حيلة لمواجهته سوى خطف زوجته سيتا.

وفي البحث عن سيتا، تحدث قصص وأهوال كثيرة يساعد فيها راما الملوك الصالحين ويحارب الأشرار. ويعرف راما أن الأشرار خطفوا سيتا إلى جزيرة لانكا البعيدة في البحار، ويحكمها رافانا ملك الشياطين، ولا يمكن الوصول إلى هناك من غير مساعدة هانومانا ابن إله الريح... وعندما كان هانومانا طفلا صغيرا في حضن أمه رأى قرص الشمس قرمزيا فحسبه فاكهة، فقفز في السماء وأمسك بالشمس وابتلعها، فغضب منه إندرا إله الحرب والطقس وملك الديفات (الآلهة) ورب السماء. فأسكن أبوه الريح ردا على غضب إندرا، وكادت العوالم تفنى بعدما اختفت الشمس وسكنت الريح، فضجت الآلهة وتوسلت للآلهة الكبار ورئيسها إندرا ليرفع غضبه عن هانومانا، فاستجاب ومنحته الآلهة

من أين تأتي المعتقدات؟

تقول تايلور: هناك مصدران للمعتقدات: العلم والعواطف، في العلم بما هو المجهود العقلي استنادا إلى الملاحظات الحسية القابلة للاختبار ينشئ الإنسان معتقداته التي تبني علاقته بالأفكار والمعاني، وينشئها أيضا بناء على العواطف والمشاعر المستمدة من عناصر ومكونات غير تجريبية أو عقلية، إن المعتقدات القوية تعني الكثير بالنسبة إلينا، وهذا المعنى يشمل أهميته وعلاقته بالأفكار الأخرى، وثراء دلالة المعاني المصاحبة للفكرة، والمعنى العاطفي وقيمته.

المعتقدات التي تستند إلى ملاحظات حسية تكون أضعف لأن العالم الذي تنشأ عنه يمكن أن يتغير، والمعتقدات التي تعتمد على المنطق معرضة لمخاطر أخطاء التفكير أو الاستنتاج من الوقائع، فالتغيير الثقافي مثلا من الممكن أن يحوّل الافتراضات الواضحة لجيل ما إلى موضوع للسخرية عند الجيل التالي. لكن المعتقدات التي ترتبط بعواطف قوية لا تحتاج أن تتبع حقيقة متغيرة، ولا أن تزعجها أخطاء التفكير، ذلك أن قوتها تستمد طاقتها من العواطف والمشاعر، وهي لا تتغير إلا عندما تتغير المشاعر فقط، وقد لا يحدث هذا على الإطلاق، وبناء على ذلك فإنه يمكن أن تصبح قوية وصلبة بدرجة كبيرة.

ومن الممكن أن تكون المعتقدات محملة بأحمال عاطفية ثقيلة، فإذا كنت لا تحب المهاجرين وكنت أيضا تشمئز من الفئران وشاهدتها في مكان يعيش فيه المهاجرون فإنك تربط بوعي أو بدون وعي بين المهاجرين والفئران، وقد تكون الفئران جذبها الطعام الذي يلقيه الأغنياء في الحي المجاور، ولكن الاشمئزاز لن يغادرك حتى لو عرفت ذلك، وبالطبع فإنه من الأسهل عليك أن تلوم المهاجرين بدلا من تفسد علاقتك بجيرانك.

وهناك مصدران للمعتقدات يمنحانها قيمة إضافية، عندما تأتي من ناس نكن لهم مشاعر قوية، وعندما يكون للمعتقدات مضامين تقييمية لأنها عبارة عن تنبؤات بخصوص ما يجب أن يكون عليه حال العالم الواقعي؛ فالمعتقدات هي توقعات، وباعتبارها كذلك فإنها تكشف عن نفسها كمعابر تصل بين الحقيقي والمحتمل، فتصل علامة من الماضي والمستقبل. ولسوء الحظ فإن المعتقدات الاجتماعية غالبا ما تعتمد على نفس أفراد الجماعة الذين نلجأ إليهم عندما تتم معارضة هذه المعتقد، ذلك لأنهم هم ذاتهم الناس الذي تعلمنا منهم معتقداتنا في المقام الأول. فعندما تتلقى إشارة في جهازك العصبي والعقلي أن إيذاء الناس خطأ .. وتتلقى في الوقت نفسه إشارة بأنك تريد إيذاء هؤلاء الناس، فإنك تنشئ اعتقادا أن هؤلاء الذين تؤذيهم ليسوا «ناس» أو هم يستحقون الإيذاء.

هل المعتقدات مرنة؟ نعم ولا. تجيب تايلور، وتوضح «فالمعتقدات التي لا تهمنا نغيرها بتكلفة قليلة، لكن تكلفة تغيير القناعات الراسخة ستكون مروعة، إنها شيء مثل اصابة بالغة؛ مثل بتر عضو من الجسد، أو حتى أكثر من ذلك، لأن تغيير مثل هذا المعتقد يشعر به الإنسان وكأنه كسر جزء من النفس أو الذات، وينطبق ذلك علينا جميعا، وليس على المتطرفين فقط الذين يتجاوزون الخطوط والحدود، لأن معتقداتهم تتطلب العنف، وعلينا أن نتذكر أننا عندما نخالف المتطرفين ونتحدى أفكارهم فإننا بالفعل نطلب منهم

> تعليم الأطفال التاريخ الصحيح هو دعامة الوعي السليم، ليس بتكرار سرد الأخطاء التاريخية وإدانة من ارتكبوها، لكن لا بد من أن توضع هذه الاخطاء في مضامينها لمعرفة أسباب حدوثها وكيف نتجنبها.

أن يغيروا كثيرا من ماهيتهم وذواتهم، وهذا من منظورهم يشبه «الانتحار النفسي» ولا يعني هذا أن أفكارهم ليست سخيفة أو مضحكة أو غير معقولة أو خطيرة بكل ما في الكلمة من معنى، فهذا شيء قائم بذاته. إن المسألة هي كون المعتقدات الراسخة والقوة أقرب إلى اعتبارها جزءا جوهريا وصميما من النفس وليس كونها سمات وملامح قابلة للتعديل. وهذا ما يجعل تكلفة التغيير باهظة جدا. فقد يصل ثمن خروج الفرد عن الجماعة أن يدفع حياته ثمنا لذلك.

وقد يبدو أعضاء الجماعة حمقى او مغفلين لأنهم يتنازلون عن استقلالهم الذاتي ويقللون من فرديتهم بأن يجعلوا العقيدة المشتركة مع آخرين جزءا كبيرا من هويتهم، ولكن في مقابل ذلك تتحمل الجماعة كثيرا من الأعباء التي يتحتم على الأفراد مواجهتها منفردين. والتوتر الذي يرتبط بالموت والفناء على وجه الخصوص يمكن ان تهونه عضوية الجماعة.

وتمثل المعتقدات خطوطا دفاعية ضرورية لمواجهة التهديد، نستعير هذا السلوك الرمزي للأفكار كما تتعامل الكائنات مع المرض والجراثيم والسموم، فالمعتقدات التي نكرهها نصفها دائما بأنها مثيرة للاشمئزاز، وعلى مدى التاريخ كان من يأتون بمعتقدات جديدة تطرح تحديات مثل الناس والكتب يواجهون بالعداوة التي تتولد من عاطفة النفور والرفض، وغالبا ما تكون العاقبة مهلكة.

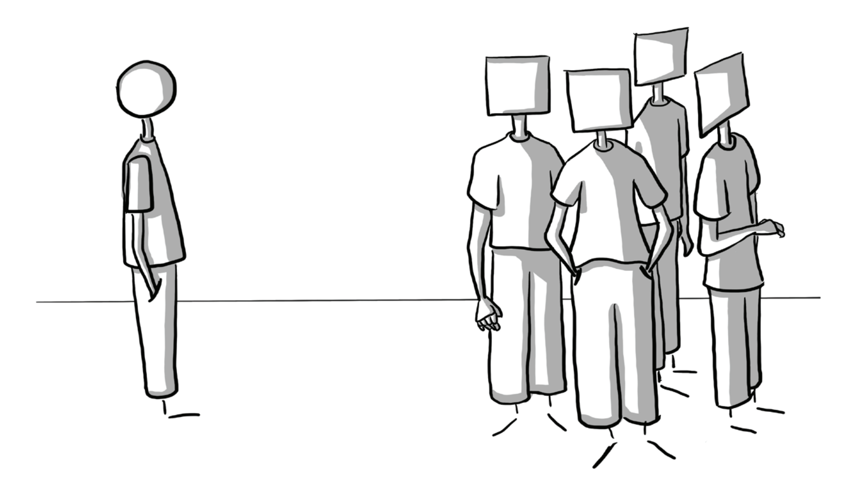
تمثل المعتقدات خطوطا دفاعية ضرورية لمواجهة التهديد.

إن العالم الخارجي هو ما نتصوره، سواء كان هذا التصور صحيحا أو خاطئا، لأننا نتعامل معه حسب تصوراتنا ومعتقداتنا، ثم تتشكل توقعاتنا عن العالم وفق معتقداتنا، وعندما لا تتلاءم المدخلات الصادرة عن العالم الخارجي والمحيط مع توقعاتنا قد تتحول في بدء العمليات المنظمة للذهن لتطرح قدرة فائقة على الضلال وخداع النفس. وإذا لم يحدث هذا فقد يتنازل المتلقي عن اعتقاداته، وعلى الدوام وبلا انقطاع فإن البشر يشكلون العالم الخارجي كما يتصورونه أو حسب أهوائهم. وعندما تكون هذا التوقعات معتدلة يمكن تغييرها بسهولة، ولكن بعضها يشكل جزءا من ذواتنا لدرجة أنها تستفزنا لنعمل بطريقة تهدف إلى ان نغير العالم حتى يتلاءم مع هذه التوقعات. فالناس الذين نصفهم بأنهم ضعفاء وخونة أنانيون مقززون يصبحون «آخرين» ويشكلون تهديدا إذا تحدوا هذه الأنماط بأن يكونوا على عكس ذلك أقوياء جديرين بالثقة عطوفين ولديهم مشاعر اهتمام بالغير مثلهم مثل اي شخص قد تغير حتى يتغلب على الشعور بالاشمئزاز!.

لا تكن سببا في أي أذى.» حكمة تنسب إلى جالينوس وأبقراط رائدي الطب في التاريخ أو كما يسميهما الرازي «الفاضلين» بدأت وصية الى الأطباء لكنها تصلح قاعدة للحياة والبشرية في الحكم والقضاء والحرب والصراع والسلم والعمل والتربية وكل شأن من شؤون الناس.... الارتقاء بالذات لدجة عدم الأذى؛ أي أذى.

2III- التطرف والتعصب

لا تكن سببا في أي أذى، الارتقاء بالذات لدرجة عدم الأذى؛ أي أذى.



تبدو مفاهيم ومصطلحات من قبيل الوسطية والاعتدال والتطرف، واضحة ومحدّدة (تقريباً) في الثقافة الإنسانية، فمقياس الوسطية والاعتدال والتطرف هو الاجتهاد الإنساني السائد أو الغالب، أو العقد الاجتماعي المنظِّم لعلاقات الناس ومصالحهم، بمعنى أن التطرف هو الاختلاف عن العقد الاجتماعي السائد أو الخروج عليه، والوسطية هي الموقف الوسط بين اتجاهين أو فكرتين يجمع بينهما وإن كان مستقلاً أو مختلفاً عنهما، لكن في غياب العقد الاجتماعي الإنساني ليس ثمة وسط أو تطرف! هناك صواب مطلق وخطأ مطلق، ولذلك فإن الذين يعتقدون أنهم يمثلون الحق أو الصواب لا يرون الأمور إلا حقا أو باطلا، هم الحق والصواب وغيرهم باطل وخطأ.

تتشكل الكراهية (ويتبعها التحريض والتعصب والعنف بطبيعة الحال) عندما تقدم الأفكار والآراء على أساس من الامتلاء بالشعور بالصواب والحق، وأن الآخر مخطئ وباطل، وعدم القدرة على إدراك وملاحظة معقولية أو احتمال معقولية الآخر، وخطأ أو احتمال خطأ الذات. إذ ليس المطلوب أن يقدم الصواب والاعتدال للناس على أنهما كذلك، ولكن في ظل الاعتقاد بأن أحدا لا يحتكر الصواب ولا يعرفه على وجه اليقين. وبذلك، تظل جميع الأفكار والمعتقدات محتملة الصواب، وتظل جميع الأفكار والمعتقدات قابلة للمراجعة واحتمال التغيير، والخلط بين الأفكار والمعتقدات وبين تطبيقها على الآخرين. فأن يعتقد أحد اعتقادا أو فكرة، فهذا أمر يخصه وحده، ولا يحق لأحد أن يُلزم غيره باعتقاد أو يمنعه منه، ولا أن يطبق التعاليم والمفاهيم التي يؤمن بها على غيره، لأن الأفكار والمعتقدات ليست هي القانون، ويبقى الحكم بين الناس هو القوانين والتشريعات، وحين تتعارض أو يفهم تعارض بين الأفكار والمعتقدات وبين التشريعات فالحلّ والحكم للمؤسسات التشريعية والسيادية، وليس بيد كل مؤمن بفكرة يرى أنه ملزم بتطبيقها على غيره، وغيره يعني كل من عداه، بمن في ذلك الأبناء والتلاميذ.

تتشكل الكراهية عندما تقدم الأفكار والآراء على أساس من الامتلاء بالشعور بالصواب والحق، وأن الآخر مخطئ وباطل، وعدم القدرة على إدراك وملاحظة معقولية أو احتمال معقولية الآخر، وخطأ أو احتمال خطأ الذات.

وصواب أو خطأ فكرة أو اعتقاد لا يغير شيئا في هوية الناس ولا في الموقف منهم والنظر إليهم؛ فالإنسان مستقل بكيانه واعتباره عن أفكاره ومعتقداته، هو إنسان أولا ومواطن ثانيا، ولا يغير في ذلك شيئا أفكاره ومعتقداته. الحكم على الناس وتقييمهم وتصنيفهم حسب أفكارهم ومعتقداتهم، ثم بناء المشاعر تجاههم على هذا الأساس، ينشئ بطبيعة الحال حالة الكراهية للآخر بمن هو المخالف في الفكر والاعتقاد، وينشئ أيضا الشعور بالتميز والاستعلاء والأفضلية.. وببساطة، هذا هو التطرف.

وفي عالم «التطرف الإيديولوجي» تنشئ المبادئ الدينية أو الايديولوجية اعتقادا بحق كل صاحب فكرة أن يتحرك لفرضها على الناس أو محاسبة الناس على أساسها، من دون اعتبار لاحتمالات الصواب والخطأ لدى الذات أو لدى الآخر، ومن دون اعتبار لدور المؤسسات والقوانين الناظمة لحياة الناس وعلاقاتهم؛ ماذا عن تعدد الأفكار والمفاهيم واختلافها؟ ففي سعي صاحب كل فكرة لتطبيقها على الآخرين ومحاسبتهم على أساسها، يتحول الفهم الديني أو الاجتماعي أو السياسي إلى صراع وعنف اجتماعي، يمتد إلى الأسر والزملاء والأصدقاء والجيران والأقارب، وبخاصة مع مفاهيم وأفكار ومقولات من دون تمييز في أهميتها وصحتها ومستواها ومعناها تشجع على الغضب والمفاصلة والكراهية بسبب الاختلاف في الرأي والفكر والمعتقدات.

ويضاف إلى ذلك تقديس التراث والتاريخ والتجارب الحضارية والفقهية بلا تمييز بين الأصول والفروع واحتمال الخطأ، أو من دون تمييز بين الدين والخطاب الديني وبين النصوص وفهمها ومعانيها المتعددة المحتملة، .. إن الأكثر أهمية من تعليم الاعتدال والتنوير هو تعلم مظنة تعدد الصواب واحتمال الخطأ دائما.

نجد في مادة التطرف في قواميس اللغة العربية: تَطَرَّفت الناقة، أَي رَعَتْ أَطرافَ المرعى ولم تَخْتَلِطْ بالنوق. وفي الحديث النبوي « كان لا يَتَطَرَّفُ من البَوْلِ» أَي لا يَتباعَدُ؛ من الطرَف: الناحية. وتَطَرَّف الشيءُ: صار طرَفاً. وتَطَرَّفَتِ الشمسُ: دَنَت للغروب؛ قال الشاعر: دَنا وقَرْنُ الشمس قد تَطَرَّفا.

وفي قاموس أكسفورد يأتي التطرف بمعنى الزيادة، وهو معنى ملائم لفهم التطرف، وربما يشبه أو يقابل مفهوم الغلو في التراث العربي والإسلامي. وفي القرآن الكريم «قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم» بمعنى الزيادة في الدين والتشدد على نحو غير صحيح، ويأتي الغلوّ في اللغة والتراث بمعنى مجاوزة الحد والإفراط، والحقد والكراهية «ونزعنا ما في صدورهم من غلّ»، والقيود «غلت أيديهم» وسوء الخلق، ومنه أيضا الغلاء في الأسعار بمعنى الزيادة فيها، وغلت الدابة في سيرها؛ أي جاوزت حسن السير،

ويمكن اقتراح تعريف التطرف الديني بأنه فهم أو تطبيق الدين على نحو يتعدى الفرد والعلاقة بين الإنسان بما هو فرد وبين السماء، ورفض مبدأ أن الإنسان قادر وحده على معرفة وتنظيم حياته وتمييز الحق والخير والجمال، والعجز عن الاعتراف باحتمال خطأ الذات وصواب الآخر.

وعلى نحو عملي فإن التطرف الديني يعني ويشمل:

الدعوة إلى أو التطبيق العملي لتنظيم حياة الناس وفهم عالمهم المشهود وفق الاعتقاد بأن ثمة حق نزل من السماء لأجل ذلك.

1- فرض أحكام وتطبيقات وقوانين وتشريعات وأنظمة عمل وحياة في تنظيم شؤون الناس والمجتمعات والدول على أنها من الدين، ومحاسبتهم على عدم تطبيقها.

2- فرض اعتقادات وممارسات دينية على الناس أو محاسبتهم عليها وإكراههم على الترك أو الاعتقاد بمسائل دينية.

3- التمييز بين المواطنين على أساس الدين في الحقوق والمكاسب والتشريعات.

4- بناء مشاعر وأفكار ومعتقدات تمييزية سواء في التفضيل والانحياز او الكراهية والاشمئزاز والرفض على أسس دينية.

5- محاسبة الناس خارج القانون والمؤسسات القضائية وإيقاع الأذى والرعب واستخدام العنف ضد أفراد أو مؤسسات أو جماعات .. وفي هذه الحالة يكون التطرف إرهابا.

الذين يحاسبون غيرهم فردياً أو مؤسسياً في المشاعر أو المعاملة أو التطبيق على أسس دينية أو بمعيار الاتفاق والمخالفة في المعتقدات والأفكار الدينية يقحمون المقدس في الإنساني، أو يضعون أنفسهم مكان الله أو شركاء له، فإذا كنت مؤمناً بقدرة الله وحسابه فدع ذلك له وأشغل نفسك سواء بما يخصك وتنشئه وتتوافق فيه مع أعضاء المجتمع.

تتمة عالم واحد - 14

القوة والحماية من النار، وجعلت جسمه صلبا قويا قادرا على الطيران وعبور البحار.

وطار هانومانا فوق البحار ولكنه في أثناء طيرانه رأت الشيطانة سنهيكا ظله على سطح الماء، فأمسكت بظله وجذبته إليها وابتلعته... ولكنه مزقها، ومنحته سورسا ربّة العالم السفلي التوفيق، ووصل إلى الجزيرة وقصر رافانا متخفيا في هيئة شيطان، ودخل في صراع مع الشيطان، وأحرق مدينتهم، ثم جاء جيش من مملكة فارنا بقيادة راما مستعينا بالإله شيفا وإله البحر الذي ساعده ببناء جسر فوق الماء ليعبر منه الجيش، وحدثت معركة هائلة طويلة تحتل جزءا طويلا من الملحمة، وينتصر راما ويستعيد زوجته سيتا.. وكانت مدة نفي راما قد اكتملت في أربعة عشر عاما، وصار في مقدوره العودة إلى مدينته آيودهيا واستئناف حكمه للمدينة.

وظلت تراود راما الهواجس حول سيتا، بالرغم من أنها استعانت بإله النار ليثبت له نقاءها، إذ مشت في النار وخرجت منها دون أن تحترق بل خرجت أكثر جمالا وإشراقا، ولكنه طلب منها أن تعتكف في الغابة، فلقيها الحكيم فالميكي فعرفها وكان صديقها لأبيها، فأخذها إلى صومعته، وكانت حاملا فأنجبت ابنين سماهما الحكيم كوشو ولاف، ونشأ الصبيان في صومعة الحكيم فعلمها الحكمة وفنون القتال والصيد، وصاغ قصة أبيهما وأمهما في ملحمة شعرية وحفظها للصبيين، وهما لا يعلمان عن علاقتهما بالقصة.

وقرر الملك راما أن يقدم للآلهة احتفالات الحصان، وبعد الاحتفالات المهيبة أطلق الحصان الأبيض أشفاميدا يتبعه جيش راما، وقد علق في رقبة الحصان قلادة كتب عليها، إما أن تطيع الملك أو تبعث له هدية أو تقاتله، وهزم جيش راما وحلفاؤه جميع الخصوم والأشرار، ولكن الحصان في أثناء مروره في الغابة وجده الصبيان كوش ولاف وقرأ القلادة أخذا الحصان وربطاه بجوار الكوخ، وعندما لحق الجيش بالحصان وجدا الطفلين يريدان الحرب وهزما الجيش بالفعل، وظل راما يرسل الأمراء والقادة لاستعادة الحصان والصبيان يصدان كل المحاولات حتى جاء راما بنفسه إلى الغابة، وعرفه الحكيم فالميكي على ولديه وعاد بهما إلى مدينته أيوديهيا، ولكن سيتا طلبت من الآلهة ان تأخذها إلى السماء، فأمطرت السماء وقصفت الرعود وانشق البحر عن آلهة الأرض التي احتضنت سيتا ومضت بها إلى السماء.

وحزن راما كثيرا وشعر أنه أكمل مهمته، فتنازل عن الملك لأخيه بهارتا، وقرر أن يرحل إلى السماء، وكان أخوه لاكشمانا قد سبقه أيضا، ومازال هانومانا مخلدا يزور ويبارك أضرحة ومعابد راما.

يؤمن أكثر الناس بمعتقدات ونصوص دينية، ويمنحهم هذا الإيمان مشاعر ومواقف وأنظمة سلوك وحياة، ولا مشكلة في ذلك بالطبع، لكن المشكلة في محاولة فرض الاعتقادات على الآخرين، أو محاول منعهم من اعتقاد. إذ يكفي الإنسان ليصل الى الهدى أن يفكر ويتأمل في صدق ويهتم بالعالم اهتماماً عميقاً بعيداً من اللغو، مهما كان اعتقاده وما توصل إليه، ولا يضره أن يكون مخطئاً او مصيباً فلا أحد غير الله يعلم الصواب، والله لم يطلب منا في الفكر والاعتقاد سوى الصدق: «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم»، فلماذا نطالب الناس بأكثر مما يريد الله؟ ولم يطلب الله من أحد أن يجبر أحداً على إيمان «لا إكراه في الدين»... «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»

وبالنظر إلى الكراهية على أنها حالة ثقافية أو موقف جماعي أو فردي، فإن المواجهة لا تكون إلا ثقافية؛ بناء ثقافة جديدة مناهضة للكراهية. لكن الثقافة عملية وعي معقدة، تنشئها المجتمعات أولا، وتخصها أكثر من السلطة السياسية. وتتشكل الثقافة في متوالية من التفاعلات والاستجابات مع الموارد وإدارتها وتنظيمها، والمنظومة الاقتصادية والسياسية المتشكلة حول المكان والموارد، ثم بما يحكمها ويؤثر فيها من تاريخ وقيم وعلاقات. وما يمكن اقتراحه وتنفيذه من سياسات وبرامج ثقافية لا أهمية له في الواقع إلا بمقدار ما يحمله الأفراد وتلتزمه المجتمعات، وهو ما لا يمكن تحقيقه بمجرد تشريعات ومؤسسات وبرامج وتوجيهات واقتراحات. ولن تفيد المؤسسات الإعلامية والثقافية إلا بمقدار ما تؤثر في اتجاهات الأفراد والمجتمعات.

بالنظر إلى الكراهية على أنها حالة ثقافية أو موقف جماعي أو فردي، فإن المواجهة لا تكون إلا ثقافية؛ بناء ثقافة جديدة مناهضة للكراهية.

وقد أصبحت الثقافة، كما الإرهاب والتطرف، متصلة بخيارات واتجاهات عالمية. ولا يكفي أن تكون الدولة والمجتمع على قدر من الحصانة الثقافية من التطرف والكراهية، ولكن لا بد من المشاركة في العالم على نحو معقد؛ لأجل التأثير في العالم والتفاعل معه في التلقي والتأثير والانتماء العالمي والتقبل العالمي أيضا، ثم بناء اتجاهات عالمية نحو التسامح ومواجهة الكراهية.

يعرض إيريك هوفر في كتابه «المؤمن الصادق» الخصائص التي تشترك فيها الجماعات الايديولوجية المتطرفة، سواء كانت دينية أو اجتماعية أو قومية، برغم الاختلافات فيما بينها فإنها تولد في نفوس أتباعها استعدادا للموت وانحيازا للعمل الجماعي، وجميعها تولد الحماسة للكراهية وعدم التسامح، وجميعها قادرة على تفجير طاقات قوية من الحراك في بعض مناحي الحياة، وجميعها تتطلب من أتباعها الإيمان الأعمى والولاء المطلق، وجميعها تستقطب أتباعها من النماذج البشرية نفسها، وتستميل الأنماط والعقول نفسها. فالتطرف واحد وذو طبيعة واحدة، سواء كان تطرفا دينيا أو قوميا أو أيديولوجيا، وتتشابه الحركات الجماهيرية أيضا في إخلاصها وإيمانها وسعيها إلى السلطة، وفي وحدتها واستعدادها للتضحية.

ويلاحظ إيريك هوفر أنه يصعب على الذين يعتقدون أن حياتهم فسدت أن يستهويهم تطوير أنفسهم مهما كان احتمال حصولهم على فرص أفضل، فلا شيء ينطلق من النفس التي يكرهونها يمكن أن يكون جيدا أو نبيلا، وشوقهم العميق إلى حياة جديدة، ومعنى جديد لقيم الحياة لا

يتحقق إلا بانتماء إلى قضية «مقدسة» من وجهة نظر أصحابها بالطبع، والتماهي مع جهود الحركة ومنجزاتها ومستقبلها يمنحهم الشعور بالكرامة والثقة. إن الإيمان بقضية «مقدسة» هو محاولة للتعويض عن الإيمان الذي فقدناه بأنفسنا، وكلما استحال على الإنسان أن يدعي التفوق لنفسه كان أسهل عليه أن يدعي التفوق لأمته أو دينه أو عرقه أو قضيته المقدسة. فالناس يميلون إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصة عندما تكون جديرة بالاهتمام، وعندما لا يكون لديهم شأن خاص حقيقي يهتمون بشؤون الآخرين الخاصة، ويعبرون عن اهتمامهم هذا بالغيبة والفضول. والاعتقاد بالواجب المقدس تجاه الآخرين كثيرا ما يكون طوق النجاة لإنقاذ الذات من الغرق، وما يجذب الناس إلى الجماعات الايديولوجية هو أنها تقدم بديلا للأمل الفردي الخائب، والعاطلون يتزعون إلى اتباع الذين يبيعونهم الأمل قبل اتباع الذين يقدمون لهم العون، فالأمل هو السبيل الوحيد لإدخال القناعة والرضا لدى المحبطين.

عندما يصبح الناس جاهزين للانضمام إلى جماعة ايديولوجية فإنهم كما يقول هوفر يصبحون عادة جاهزين للالتحاق بأية حركة فاعلة، ويبدو من السهل على الحركات الجماهيرية أن تستقطب أتباع حركات أخرى تبدو مختلفة عنها أو متناقضة معها، فاليساريون المتطرفون يتحولون إلى يمينيين متطرفين، والعكس صحيح. فجميع الجماعات المتطرفة متنافسة فيما بينها، ومغنم واحدة منها لا بد أن يكون مغرم الأخرى، وبوسع الحركة أن تحول نفسها بسهولة إلى حركة أخرى، فيمكن للحركة الدينية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو حركة قومية، كما أنه يمكن للحركة الثورية الاجتماعية أن تتحول إلى قومية متطرفة أو إلى حركة دينية، ويمكن للحركة القومية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو إلى حركة دينية.

ولا تنبع فاعلية الأيديولوجيا من مضمونها كما يلاحظ هوفر، ولكن من الاعتقاد بعصمتها عن الخطأ. وعندما تصبح الأيديولوجيا مفهومة تفقد كثيرا من قوتها،

الجماعات الايديولوجية المتطرفة، سواء كانت دينية أو اجتماعية أو قومية، برغم الاختلافات فيما بينها فإنها تولد في نفوس أتباعها استعدادا للموت وانحيازا للعمل الجماعي، وجميعها تولد الحماسة للكراهية وعدم التسامح.



البوذية: دين الفلسفة والحكمة

عالم واحد - 15

البوذية هي التعاليم المنسوبة إلى بوذا/ سدهارتا غاوتاما (بودا) التي جمعها أتباعه ومريدوه، وتؤشر كلمة بوذا إلى الحكمة واليقظة. نشأت البوذية في شمال الهند في القرن الخامس قبل الميلاد، وانتشرت في آسيا، ويتبعها اليوم حوالي خمسمائة مليون شخص.

ولد سدهارتا جوتاما (بوذا) مؤسس البوذية 560 – 480 ق.م أميرا فقد كان والده حاكما لمملكة ساكيا (جزء من نيبال اليوم)، وتزوج في السادسة عشرة من عمره، وفي التاسعة والعشرين انصرف إلى التأمل وعاش حياة متقشفة حتى وفاته، وهو في الثمانين من عمره.

تقوم البوذية على الإيمان ببوذا معلما للحكمة، والإيمان بالدارما، كان بوذا كاهنا برهميا، ولكنه رفض وصاية السلطة الكهنوتية، والنظام الطبقي الهندوسي، ولم يعترف أيضا بأهلية «الفيدا» الكتاب المقدس في الهندوسية، وكانت تعاليمه موجهة إلى الرجال والنساء وإلى جميع الطبقات بلا استثناء، فقد رفض بوذا المبدأ الهندوسي والقائل إن القيمة الروحية للإنسان تتحدد عند ولادته، وجمع أتباع بوذا بعد وفاته تعاليمه، وتقوم هذه المبادئ مثل الأديان السماوية على قيمة العمل وأثره في مصير الإنسان.

يصف بوذا نفسه بأنه كائن إنساني خالص وبسيط، لم يقل إنه يمثل تجسيدا للإله، أو أنه تلقى الوحي والإلهام من الله أو من قدرة خارجية، وقد ردّ إنجازه وما اكتسبه إلى المجهود والذكاء الإنساني، فكل إنسان يستطيع أن يكون بوذا، وتعني كلمة بوذا الإنسان الكامل لدرجة أنه يكاد يكون فوق البشر، فالحالة الإنسانية سامية بحسب البوذية، والإنسان سيد نفسه، وليس من كائن أعلى منه، ولا من قوة تقيم فوقه وتتحكم بمصيره. يقول بوذا: الإنسان ملجأ نفسه.

وينزع الأيديولوجي إلى استخدام الكلمات كما لو كان يجهل معناها الحقيقي، ومن هنا يجيء شغفه بالنقاش والجدال العقيم.

يؤمن المتطرف بفكرة أو قضية لا بسبب عدالتها أو سموها، ولكن لحاجته الملحة إلى شيء يتمسك به، ويعتبر المتطرف أية قضية يعتنقها قضية مقدسة، ولا يمكن إبعاده عن قضيته بالمنطق والنقاش، ولا يجد صعوبة في القفز بقوة من قضية مقدسة إلى قضية مقدسة أخرى (كل القضايا التي يؤمن بها مقدسة) فالروابط التي تجمع بين الرجعي والراديكالي أكثر من الروابط التي تجمع أيا منهما بالليبرالي أو المحافظ، ونقيض المتدين المتعصب ليس الملحد المتعصب، ونقيض المتطرف الوطني ليس الخائن. والجماعات المتطرفة تحطم بإثارة المشاعر الملتهبة التوازن النفسي الداخلي، وتضمن اغترابا دائما عن النفس، فأي وجود مستقل هو في نظر هذه الحركات وجود عقيم لا معنى له، والإنسان بمفرده بائس وملوث وعديم الحيلة، ولا يمكن للإنسان الخلاص إلا برفض نفسه والعثور على حياة جديدة في أحضان كيان جماعي مقدس (جماعة أو أمة)، وازدراء النفس هذا يولد مشاعر تظل في حالة اشتعال دائم. ولا يستطيع المتطرف أن يستمد الثقة من قدراته الذاتية أو من نفسه التي تنكر لها، ولكنه يجد الثقة بالتصاقه المتشنج بالكيان الذي احتضنه، ويعتنق المتطرف قضية ما، ليس بسبب عدالتها أو سموها، ولكن لحاجته الملحة لشيء يتمسك به، ومن المستبعد أن يستطيع المتطرف الذي هجر قضيته أو الذي وجد نفسه فجأة بلا قضية أن يتأقلم مع وجود فردي مستقل، الأغلب أنه سيبحث عن قضية أخرى، شأنه شأن المسافر المفلس الذي ينتظر مرور سيارة تحمله مجانا.

ومن أهم العوامل التي تشجع على التجمع المتطرف «الكراهية» وهي أكثر العوامل الموحدة شمولا ووضوحا، فالكراهية الجماعية تستطيع أن توحد العناصر المتنافرة، بل إن هذه الكراهية يمكن أن توجد رابطا مشتركا مع عدو على نحو ينخر قواه ويضعف مقاومته، والكراهية تعبير عن إخفاء الشعور بالنقص أو قلة

الأهمية، أو الذنب أو العيوب الأخرى، كثيرا ما يحدث عندما يظلمنا شخص أن تتحول كراهيتنا إلى شخص آخر أو جماعة أخرى لا علاقة لها بالأمر. وتتبنى الحركة الجماهيرية أهدافا مستحيلة وغير واقعية، تتمشى مع رغبات المحبطين، ويشعر المحبط بالرضا عن الوسائل العنيفة التي تتبعها الجماعات المتطرفة أكثر من شعوره بالرضا عن أهدافها، إن التطلع إلى الشيء لا امتلاكه بالفعل هو الذي يؤدي إلى التضحية بالنفس، فالأحلام والرؤى والآمال الجامحة أسلحة وأدوات فاعلة. ولا تقاس فاعلية أيديولوجيا بعمقها أو سموها أو صدق الحقائق التي تنطوي عليها، بل بقدرتها على حجب الشخص عن نفسه وعن العالم كما هو عليه بالفعل. يقول باسكال: «الأيديولوجيا الفاعلة لا بد أن تعارض الطبيعة والمنطق والرغبة». وعندما تبدأ حركة في عقلنة أيديولوجيتها وجعلها مفهومة، فمعنى هذا أن فترتها الديناميكية قد انتهت، وأنها أصبحت حريصة على الاستقرار، والاستقرار يحتاج إلى استقطاب المثقفين وكسب ولائهم، فتبتعد عن تحريض الجماهير على التضحية بالنفس، ومن هذا الحرص يجيء العمل على شرح الأيديولوجيا وعقلنتها.

يحاول برنار شوفييه؛ وهو أستاذ علم النفس المرضي في جامعة ليون في فرنسا في كتابه «المتعصبون، جنون الإيمان» الاقتراب من مرتكبي العنف المتعصب للوقوف على الديناميكية النفسية لديهم من خلال المظاهر والتضحيات والالتزامات نحو الدوافع اللاواعية التي تدفع المتعصبين إلى ممارسة أفعال نهائية قد يكونون أول ضحاياها.

المتعصب يعرفه شوفييه بأنه إنسان المقدس؛ يهب نفسه جسدا وروحا في سبيل قضيته إلى حد الإفراط، بل إلى غاية الوله الجنوني، والمقدس المعني هو مقدس يضع نفسه في مقام المثال الذي يفترض أن يكون بعيدا عنه أي مجال مدنس، فلا يعود المتعصب يفرق بينهما لأنه تحول إلى كائن من كتلة واحدة.

يحدد المؤلف أربعة نماذج من المتعصبين؛ المُلهَم المشبع بحضور الإله، ويذهب به الأمر إلى الموت الرمزي والجزئي، والمعظّم أو المتعصب الامتلاكي الذي يغرق في العمى الكلي، ولا يعود ملكا لنفسه بسبب حالة التثوير التي تنتابه والمحفزات الخارجية المستخدمة في الطقوس مثل الموسيقى والمخدرات، ويتحول إلى ممسوس مستحوذ عليه، ومن أمثلته الهذيان المقدس. والمطّلع (الفيثاغوري) الشغوف بالعقل، وهو انسان مبدع يتوق إلى تكوين حركة هدفها تأبيد مجده، والساخط؛ مثل الجماعات العسكرية والميليشيات.

يقول رونيه مانيللي في كتابه «الحياة اليومية للمانونيين» إذا كان التاريخ لا يعيد نفسه أبدا، فإن المتعصبين يعيدون أنفسهم دائما بمثابرة مدهشة. وكما في المجتمعات التقليدية التي لا تزال تحتفظ حتى اليوم بممارسات مماثلة، فتظهر أحيانا بعض الانحرافات التي تفضي إلى اقتراف افعال تعذيب أو قتل.

يقول روجيه كايوا في كتابه «الإنسان والمقدس» إن الكون المدنس هو عامل أشياء، بينما الكون المقدس هو عالم قوى. فالمقدس من الناحية النفسية هو شحنة الطاقة غير الواعية ذات طبيعة غريزية،

> يصعب على الذين يعتقدون أن حياتهم فسدت أن يستهويهم تطوير أنفسهم مهما كان احتمال حصولهم على فرص أفضل، فلا شيء ينطلق من النفس التي يكرهونها يمكن أن يكون جيدا أو نبيلا.

الإيمان بقضية «مقدسة» هو محاولة للتعويض عن الإيمان الذي فقدناه بأنفسنا، وكلما استحال على الإنسان أن يدعي التفوق لنفسه كان أسهل عليه أن يدعي التفوق لأمته أو دينه أو عرقه أو قضيته المقدسة.

وضعت في شيء أو شخص أو في مكان محدد يمنحها قوة كبيرة جاذبة أو نابذة. والالتقاء المقدس يعني الشعور بزلزلة داخلية في طبقات اللاوعي أو في جزء منها بدوي عاطفي جاذب أو رافض لبعض أشياء العالم الخارجي.

المكان لازم لترسيخ الإيمان وما يقتضيه من ممارسات، والنار ضرورية لتمنحه القوة المتخيلة، لكن كيف يتم الانتقال من المقدس إلى التعصب؟ الشعائر القديمة تبين درجة العنف الغريزي الذي يصل قوة الحياة بقوة الموت، وتوجهه في هذه المظاهر المتعصبة، إن حماسة التابع التي تدفع حتى منتهاها تبحث عن منافس فتجدها في أفعال طقوسية تشكل اولى عمليات الرعب، أي إلى حد يصعب التحكم به، بمعنى العنف المحض، المنفلت من عقاله؛ فلا يقف عند حد.

الألم الجسدي بالاعتداء على الذات هو دلالة نوعا ما على الإلهام الإلهي الذي يتم الاعتراف به على هذه النحو، ويؤكده الأتباع الآخرون، فالرجل أو المرأة القادران على مثل هذا التخلي عن «أناهما» ego من أجل معتقدهما جديران بالتصديق والاحترام من الطائفة التي ينتميان إليها، ولهذا يتحول هذا او ذاك نفسه إلى صورة للمقدس، فشخصه عابد ومعبود، ويعترف له بأنه بمثابة «شفيع» فاعل لدى الإله، ويصبح موقرا، أي صورة رمزية انتدبتها الجماعة (الطائفة) لتمثيلها، لأنها أولا موقرة لقدرتها لحقيقية والمرئية والمحسوسة على التواصل مع الإله ونقل رسائله من خلال آلية الرعدة الذاهلة. والرعدة حركة جسدية ذات طبيعة تنويمية، تعزز لسلطة الإيمان لدى الشخص لأنها تزيد من قدرته على التلقي وتطور الشعور بالتواصل مع واقع آخر.

يطبق المتعصب الألم والتدمير على نفسه في محاولة منه لتأكيد عمق تعلقه بالمعتقد، ويظهر علامات ملموسة على ذلك، وهو ما يمكن فهمه في إطار تعزيز معتقدات الجماعة كلها، وكلما كان المتعصب خاضعا لقانون المعبود الذي يسكنه تزداد حاجته إلى المطابقة بينه وبين الواقع الخارجي أو معتقده، فسفح الدم وبتر العضو فعلان يبينان للآخرين مقدار قناعة الشخص وإيمانه بمعتقداته.

في التعصب الامتلاكي أو الاحتكاري الاوليغاركي يتحالف المؤمن المتعصب مع المعبود لنيل بركاته، ويتميز هذا التعصب بالحشد والتعبئة العمياء، ويتحول البطل الأسطوري إلى كاهن او خادم متحمس للدين.

وفي النموذج العلمي أو المعرفي «الفيثاغوري» يقوم التعصب على تقدير زائد للعقلاني ولمكانة العقل – الحقيقة، والمبالغة في العقلانية المترافقة بالمنطق المركب لمجتمع اطلاع الأسرار، ويقود ذلك حتما إلى تعصب فريد، لا يختلف عن الأشكال الأخرى من التعصب.

وضع فيثاغورس في القرن السادس قبل الميلاد أفكارا لبقاء الجماعة قابلة للحياة والاستمرار بعد التأسيس، مثل المعرفة الدقيقة المتكونة والقابلة للنقل التدريجي، والقواعد الدقيقة الواضحة التي تتيح الاطلاع على الأسرار، وتكوين مجموعة نخبوية مغلقة على نفسها تعرف طريقة عملها، وخضوع هرمي ومتدرج لقائد في مستوى القدسية ومالك للحق الخير والجمال.

تتميز البوذية باحترام الشك أو عدم اعتباره خطيئة، لأنه ليس في البوذية عقيدة ثابتة ينبغي الإيمان بها، ولا تدعي البوذية احتكار الحقيقة والإحسان، فأهلية المرء أو عدم أهليته لصفة حسنة أو لنقيصة لا تزيد ولا تنقص بسبب انتمائه أو عدم انتمائه إلى دين، والإيمان البوذي (سادها) مستمد من ثقة قائمة على المعرفة والفرح الصافي من الخصال الحسنة والأمل في امتلاك القدرة على إنجاز أمر مراد.

الحقائق الأربع النبيلة

تقدم موعظة سدهارتا التي قدمها بعد ست سنوات قضاها في التأمل والزهد لحظة تأسيسية للبوذية، ويسميها البوذيون «الحقائق الأربع النبيلة» وملخصها أن الإنسان تحيط به الآلام (دوكها) والرغبات والشهوات (سامودايا)، ويكون بدء الخلاص بالتحرر من الآلام والرغبات (نيروذا) ويوصل ذلك إلى الطريق المستقيم (ماجّا) الذي يقود إلى المعرفة والهدوء والرؤية العميقة فاليقظة (نيرفانا)، ويشار إلى الصراط النبيل هذا بالصراط الثماني، لأنه يتضمن ثمانية أقسام: الرؤية الصحيحة، والفكر الصحيح، والكلام الصحيح، والعمل الصحيح، ووسائل الحياة الصحيحة، والمجهود الصحيح، والانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح.

وفي النص المسمى ميتا سوتا (الحب العالمي) يدعو سدهارتا (بوذا) من يسعى إلى الحكمة والسلام أن يكون مجتهدا مستقيما، ولا ينغمس في مشاكل

سيطر فيثاغورس وجماعية على مدينة كروتونيا وأنشأ نظاما اجتماعيا دقيقا وصارما، ثم هاجم الفيثاغورين مدنا أخرى بهدف إقامة مجتمع مثالي ومنظم، ثم انشق سيلون حاكم سيبارس التابعة للفيثاغوريين عنهم وأنشأ حركة ديمقراطية قضت على الفيثاغوريين ودمرت مدارسهم واماكن اجتماعاتهم. لكن الجماعة الفيثاغورية ابتعثت بعد مائة عام بقيادة الفيلسوف أرشيتاس الذي مارس سلطة بلا منازع، ويقال إن أفلاطون التقي ارشيتاس في تارانتا عام 388 ق.م واستوحى منه نموذجه في سلطة الفلاسفة في المدينة المثالية التي وصفها في كتابه «الجمهورية»

ويمثل التعصب الناشئ عن الالتزام لجماعة مسلحة أو عسكرية منظمة تنظيما مضبطا ودقيقا نوعا خطيرا من التعصب لدرجة أن فولتير يقول أليس من العار ان يفتقد العقلاء إلى الحمية التي يتمتع بها هؤلاء المتعصبون، وهم في العادة يبذلون قوتهم الضاربة لخدمة القائد، ويتفانون في سبيله جسدا وروحا.

ويوضح أستاذ القانون بجامعة هارفادر كاس ر. سينشتاين في كتابه «الطريق إلى التطرف: اتحاد العقول وانقسامها» كيف أن التشابه يؤدي حتما إلى التطرف، والاختلاف يؤدي إلى الاعتدال، وفي ذلك يمكن الملاحظة أيضا كيف يظهر التطرف والاستقطاب بين الأفراد في حياتهم الاجتماعية، ليس فقط في التنظيمات الدينية، وإنما في كل التجمعات بدءا من مجالس الإدارة حتى المجالس النيابية، حيث تعمل المناقشات والمداولات العلنية على دفع العقول إما إلى الاتحاد والانقسام في ميول تطرفية ظاهرة، وكيف يكوّن الأفراد اتجاهاتهم ومعتقداتهم وكيف يغيرونها، والظروف التي تتغير في ضوئها. ويصل في تحليله إلى أن مواجهة التطرف تكون في التنوع والتعدد لحياة الأفراد والشعوب.

إن الجماعات تنشئ سلوكا جمعيا موحدا مختلفا عما يمكن أن يسلكه الفرد، يصدق ذلك على جماعات المراهقين، والأصدقاء، والجماعات الدينية المتطرفة والإرهابية، والمستثمرين، وأفراد الشرطة،

الناس يميلون إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصة عندما تكون جديرة بالاهتمام، وعندما لا يكون لديهم شأن خاص حقيقي يهتمون بشؤون الآخرين الخاصة، ويعبرون عن اهتمامهم هذا بالغيبة والفضول. والاعتقاد بالواجب المقدس تجاه الآخرين

ما يجذب الناس إلى الجماعات الايديولوجية هو أنها تقدم بديلا للأمل الفردي الخائب

وهيئات المديرين، والجيران، والمعارضين السياسيين، والنقابات العمالية، وجماعات العقارات والتنظيمات الريفية، والأحزاب السياسية، والهيئات التشريعية حركات التحرر، ويعتبر هذا من أفضل وأسوأ ما يصيب الحياة الاجتماعية بسبب ديناميات الجماعات التي يقتنع بمقتضاها أعضاء الجماعات بالأفكار والاتجاهات الجديدة.

تميل الجماعات إلى الحدود القصوى للتطرف، ومن المعتاد أن ينتهي أعضاء الجماعة الذين يتشاورون فيما بينهم إلى مواقف متطرفة داخل الاتجاه العام للجماعة نفسه أكثر مما كانت عليه ميولهم قبل أن يبدأ هذا التشاور. لماذا يميل الأفراد المتشابهون إلى التعصب أو المبالغة؟ ومتى تظهر أفعالهم تلك؟ ترتبط الإجابة بنطاق واسع من القوة الهائلة للسلطات وطبيعة البشر، والتفكير الجماعي، والتيارات الاجتماعية التي تتحرك من خلالها مجموعات كبيرة من الأفراد في اتجاهات جديدة فيما يتصل باستثماراتهم واختياراتهم السياسية وقناعتهم الدينية.

تصبح آراء الناس أكثر تطرفا لمجرد تأكيدها لوجهات نظرهم الأولية ولتعزيزها ولأنهم أصبحوا أكثر ثقة بعد التعلم من وجهات نظر شاركوا الآخرين فيها، والكثير مما نعتقد فيه أو نحبه أو نكرهه في الحياة اليومية يتأثر بتبادل المعلومات والتواصل. وبطبيعة الحال فإن الأفراد حينما يبدأون انطلاقا من وجهة نظر متطرفة ويوضعون في جماعة من الأفراد ذوي التفكير المتشابه، فمن المرجح أن يغالوا في التطرف.

ويلاحظ أنه في الجماعات (الدينية أو القومية أو النقابية أو التجارية أو الطبقية أو السياسية، أو القرابية، ..) يميل المتطرفون الى التحرك والفاعلية، ويميل المعتدلون الى العزلة والخروج من الجماعة، وتميل المجموعات الى الفهم المتحيز، فينقص الأعضاء من أهمية الآراء غير الملائمة لهم بوصفها آراء ساذجة أو غبية، ويجدون أن الآراء الملائمة لهم ذكية ولائقة، ومن ثم يزيدون تشددا.

وقد أصبح بديهيا القول إنه من الوسائل الواقعية لإنشاء جماعة متطرفة أو طائفة دينية من أي نوع؛ فصل أو عزل الأعضاء عن بقية المجتمع، فصلا ماديا أو سيكولوجيا، وخلق إحساس بالشك في من هم من غير أعضاء الجماعة.

ويذكر سينشتاين نقطتين يصفهما بأنهما جوهريتان؛ كلما تحركت دافعية الأفراد نحو تكوين اهتمام من أجل شهرتهم الخاصة، فإنه من غير المحتمل أن يتغيروا بسبب المعلومات أو الآراء الجيدة، وفي هرب الناس وخوفهم من العزلة فإنهم يتكيفون مع الجماعات التي يجدون أنفسهم فيها أو يمكن أن ينتموا إليها. وفي ذلك ينشئون مواقفهم كما يتوقع منهم أو كما يعزز انتماءهم وموقعهم في الجماعة.

إن الاستمرار في النظر إلى التطرف باعتباره مجرد نزعة فردية أو فهم مغلوط لنصوص دينية أو أيديولوجية؛ يقلل من فرص فهمه ومواجهته، ويعفي المتسببين بالتطرف من مسؤوليتهم!

3III- الثمرة العفنة للعولمة

كما كانت العولمة مجالا للأخوة الإنسانية فإن لها أيضا ثمارا عفنة، فقد استخدمت العولمة وأدواتها لأجل العنف والكراهية والتمييز ضد الأقليات، ويعرض المفكر الهندي أرجون أبادوراي في كتابه «الخشية من الأعداد الصغيرة» كيف أن العولمة تزيد في إثارة الارتياب حول الحد الفاصل بين «نحن» و«الآخر» وتولد بواعث جديدة للعنف الجماعي، وتقوض حدود ونفوذ الدولة – الأمة، فنحن نعيش اليوم في عالم يتسم بغزارة إنتاج العنف وظهور أنماط جديدة من التنظيمات السياسية التي لا تحتكم للقوانين التقليدية للسياسات والدول، عالم يصفه أبادوراي بأنه يملؤه الارتياب والشعور بعدم الاكتمال، ويغلب عليه الخوف والغضب تجاه المجموعات الصغيرة التي تستمد منها أبلغ معانيها من أن تكون موضوع خشية أو غضب، وقد تطرح مسألة الغضب تجاه المجموعات الصغيرة العدد في أي حقبة من التاريخ، ولكن أبادوراي يطرحها في إطار العولمة الذي ارتبطت فيه الأحداث بخطاب الإرهاب، ونسجت خلاله علاقات جديدة تربط السياسات الوطنية والتحالفات الدولية والتوترات الإقليمية لترسم خرائط جديدة وتشكل تضاريس جغرافية الغضب.

ثمة ظواهر عالمية جديدة مختلفة عما هو سائد ومعروف في الانطباع الأولى لدى الحديث عن العولمة، مثل المنظمات الدولية، فهناك أيضا العولمة الشعبية، والحركات والمنظمات غير الحكومية المشتغلة بحقوق الإنسان والفقر والتنمية والبيئة والأمراض والأوبئة، وبعبارة أخرى ثمة آمال وفرص في العولمة يمكن انتزاعها ومختلفة أيضا عن إفرازات العولمة الكريهة مثل العنصرية والإبادة والإرهاب والجريمة المنظمة والاتجار بالبشر،...

شهدت العولمة مجموعة كبيرة من جرائم العنف المرتبطة بدوافع ثقافية، وقد رصد أبادوراي مجموعة من هذه الجرائم في الهند وأوروبا الشرقية وأفريقيا، وهناك بالطبع العمليات الإرهابية والحرب على الإرهاب التي شغلت العالم، والسؤال الذي يفرض نفسه بطبيعة الحال هو ما الذي يجعل فترة ما يمكن تسميتها «العولمة القصوى» هي

من أهم العوامل التي تشجع على التجمع المتطرف «الكراهية» وهي أكثر العوامل الموحدة شمولا ووضوحاً.

تتمة عالم واحد - 15

الناس، ولا يحمّل نفسه عبء المال، وأن يسيطر على حواسه، وأن يسعى في سعادة جميع الكائنات، وألا يخيب أمل أحد، ولا يحتقر كائنا آخر.

وفي موعظة مانغالا سوتا (النعمة) يقول بوذا النعم هي معايشة العقلاء، واكتساب الثقافة والعلوم والفنون، والعناية بالأسرة والوالدين، والتصرف بكرامة ولطف وتجنب الشرّ والأذى، والتقشف في الحياة، والصبر بعامة وعلى المصائب.

وفي موعظة سيغالوفادا سوتا يشرح بوذا معنى تحية الجهات الستّ، وهو طقس يومي يمارسه البوذيون، فكل جهة ترمز إلى فكرة، الشرق يمثل الأبوين، والجنوب: المعلمين، والغرب: العائلة والأولاد، والشمال: الأصدقاء والشركاء، والسمت الأعلى: رجال الدين، وسمت القدم: الخدم، وتعبر التحية للجهات عن الالتزام المتبادل، وأداء الواجبات وفعل الخير وتجنب الأخطاء والظلم.

ويعرض الشرور الرئيسة (الموبقات) التي يجب تجنبها، وهي القتل والإيذاء والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور، ويتجنب المرء ارتكاب الشر بمعاندة الرغبات والشهوات والجهل والغضب والخوف.. وعلى الساعي إلى الحكمة تجنب المسكرات والقمار ورفاق السوء واللهو وهدر الوقت.

وفي موعظة فاسالا سوتا (المنبوذ) يردّ سدهارتا على فكرة الطبقية واعتبار فئة من الناس منبوذين منذ ولادتهم، إذ يرفض ذلك، ويعتبر ما يرفع قدر الإنسان أو يجعله منبوذا هو عمله؛ فالمنبوذ هو الذي يفعل الشر من الغضب والكراهية والنفاق وإيذاء الكائنات الحية والسرقة وعقوق الوالدين والاعتداء على الناس والبخل والخداع والكبر. إن المرء لا يصبح باريا (منبوذا) أو برهمانا (نبيل) عن طريق الولادة.

العاطلون ينزعون إلى اتباع الذين يبيعونهم الأمل قبل اتباع الذين يقدمون لهم العون، فالأمل هو السبيل الوحيد لإدخال القناعة والرضا لدى المحبطين.

نفسها فترة العنف المنتشر على قطاع واسع في عدد من المجتمعات والنظم السياسية المختلفة؟

يقول أبادوراي إن العالم اجتاحته مع ذروة العولمة مجموعة من النظريات والآمال المفرطة بالوعود والتفاؤل حول انفتاح الأسواق وتحرير التجارة وانتشار المؤسسات الديمقراطية والإمكانيات الهائلة للإنترنت والتكنولوجيا الافتراضية المتعلقة بها، .. ولكن ظهر الكثير من التطهير العرقي والعنف السياسي ضد المدنيين!

يفسر أبادوراي ذلك أن العولمة باعتبارها أسلوبا خاصا صارت تنظم من خلاله الدول والأسواق والأفكار التي تدور حول التجارة في إثارة العنف الوساع النطاق، وكما يبينه واقع الأمر في التسعينات أفرزت قوى العولمة كظروف ملائمة لتزايد الارتياب الاجتماعي.

وتشكلت أيضا ظاهرة جديدة مرافقة للعولمة، وهي إفلات الحرب من مجال تدخل الدولة – الأمة وتجاوزها حدود الواقع المعقول، وطمس الخط الفاصل بين حرب الأمة والحرب داخل الأمة، فقد فاق عدد الحروب الأهلية عدد الحروب الخارجية، إنها حروب لا تعريف لها، سوى العدو، إنها حرب يديرها نوع جديد من الإدارات لا يسعى إلى إقامة دولة ولا إلى معارضة دولة بعينها ولا يهتم بالعلاقات بين الدول

تمثل العولمة موضوع جدل في كل مكان تقريبا، إنها تسمية لثورة صناعية جديدة بدأت حديثا مدفوعة بالتكنولوجيات المتطورة للمعلومات والاتصال، وبما أنها حديثة العهد (يقول أبادوراي) فهي ترهق مواردنا اللغوية لفهم كنهها ومواردنا السياسية للتحكم فيها، وسواء كنا في الشمال أو الجنوب فالعولمة تتحدى أقوى الأدوات التي نستخدمها للتحكم في الحداثة وهي اللجوء إلى التاريخ، فالعولمة مصدر قلق وتهديد للفقراء والاغنياء معا، المهاجرين والمهمشين والنخب والأغنياء، ونحن نبذل قصارى جهدنا لنرى العولمة مجرد مرحلة جديدة ووجها جديدا للرأسمالية أو الامبريالية أو الاستعمار الحديث او التحديث أو التطور!



وفي موعظة واتثوباما سوتا يعرض بوذا خبائث الفكر وقذاراته التي يجب الانتباه إليها وتجنبها، وهي سوء النية والنفاق والغيبة والحسد والخداع والكبر والكذب والإهمال والجشع.

ويسعى البوذي إلى الفضيلة والحكمة والتأمل، ويصل إليها بسلسلة من السلوك والأعمال تقوم على الزهد والتقشف وفعل الخير والمعرفة وكبح الشهوات، ويمارس لأجل ذلك رياضة نفسية قائمة على التأمل ليصل إلى السلام والخلاص.

اتجاهات ومفاهيم بوذية

الواجبات (كارما) - تشترك البوذية مع الهندوسية واليانية والطاوية والسيخية في مفهوم وقانون كارما، ويعني ببساطة أن الإنسان مسؤول عن أفعاله، وأن ما يفعله خيرا كان أو شرّا يعود عليه بالعواقب والنتائج حسب ما فعل أو نوى أو فكر.

سامسارا - ويشير إلى مسار حياة الإنسان وما فيها من آلام ورغبات وموت، وربما تعبر عنها الآية القرآنية «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه»

الكمال (نيرفانا)، وهي الحالة التي يسعى البوذي إلى الوصول إليها وتحقيقها، وتعبر عن الكمال والسلام التام للروح بالتحرر من الرغبات والآثام وفعل الخير والتأمل والتركيز الذي يمنح الإنسان الحكمة والسعادة، والخلاص من آلام الغضب والجشع والخوف. ولعله مفهوم يقابل الخلاص في المسيحية.

العطاء (دانا)، وتؤشر إلى الممارسات والأعمال النبيلة والخيرة التي يقوم بها الإنسان وبخاصة التبرع والمساعدة في الطعام واللباس والدواء للمحتاجين والمستحقين.

السلوك الحكيم (سيلا) وتركز على ترك الأفعال السيئة، والتي يقابلها في الإسلام مفهوم الكبائر أو الموبقات، وهي القتل والسرقة والزنا والكذب وعقوق الوالدين وشهادة الزور، وتنهى عن أفعال أخرى أيضا يساعد تركها على الكمال أو تحمي صاحبها من الخطيئة، مثل اللهو والقمار والمسكرات ورفاق السوء، كما تدعو إلى الزهد والتقشف في الحياة واللباس والزينة والطعام. وتطبق في مستويات ومراتب، وبعضها موجه إلى جميع الناس وبعضها إلى التلاميذ وبعضها إلى الرهبان المكرسين (سانغا).

التأمل (بهافانا) أو «ميتا»، وهي الرياضات النفسية والروحية التي توصل صاحبها إلى السلام واتّباع الصواب والحكمة، وقد تكون هذه الفلسفة وتطبيقاتها هي الأكثر شهرة خارج الفضاء البوذي، وتأخذ في بعض الأحيان تطبيقات وفي مؤسسات تبدو مستقلة عن البوذية، وفي النموذج الهندوس تسمى يوغا، وهي أيضا رياضة منتشرة ومعروفة في جميع أنحاء العالم.

هل البوذية دين أم تصوف؟

على الرغم من أن البوذيين يؤمنون بالله، ولكن التعاليم البوذية لا تقدم إلى أتباعها بأنها دين نزل من السماء، ولا يصف بوذا نفسه بأنه نبي أو إله أو تجسيد للإله، ولا تتدخل البوذية في الإيمان، ولكنها تدعو إلى الحكمة والفضائل وترك الموبقات والأعمال القبيحة، وتسلك بأتباعها ورهبانها في رياضة روحية وعلمية للوصول

لا تنبع فاعلية الأيديولوجيا من مضمونها، ولكن من الاعتقاد بعصمتها عن الخطأ. وعندما تصبح الأيديولوجيا مفهومة تفقد كثيرا من قوتها.

يؤمن المتطرف بفكرة أو قضية لا بسبب عدالتها أو سموها، ولكن لحاجته الملحة إلى شيء يتمسك به، ويعتبر المتطرف أية قضية يعتنقها قضية مقدسة، ولا يمكن إبعاده عن قضيته بالمنطق والنقاش.

لماذا تتعرض الأقليات إلى الغضب والعنف والتعذيب برغم أنها مجموعات صغيرة، يفترض ألا تشكل خطرا على الأغلبية؟ يقول أبادوراي: لقد رافق العولمة ظاهرة «الهويات المفترسة» المتولدة عن تواجد هويتين أو أكثر لها تاريخ طويل من الاحتكاك والاندماج وحدا معينا من التنميط المتبادل، وتتحول إحدى هذه الهويات إلى هوية مفترسة، وهذا النوع من التعبئة هو الخطوة الأولى في تحول هوية اجتماعية أليفة إلى هوية مفترسة، هويات تدعي أن بقاءها يتطلب انقراض مجموعة أخرى، وكثيرا ما تكون الهويات المفترسة هويات أغلبية، أي أنها تركز على مطالب في صالح أغلبية مهددة، وهي في معظم الحالات أغلبية ثقافية أو لغوية او عرقية تنشد ارتباطا حصريا أو شاملا بهوية الأمة، وغالبا ما يتمحور خطاب هذه الأغلبيات المعبأة حول إمكانية تحولها هي ذاتها إلى أقلية إذا ما لم تنقرض أقلية أخرى.

إن الفجوة الصغيرة بين وضعية الأغلبية كأغلبية والنقاء العرقي والقومي المكتمل أو الكلي قد تكون مصدرا للغضب المستشيط ضد المجموعات العرقية الأخرى المستهدفة، وهذا الطرح الذي يسميه أبادوراي «عدم الاكتمال» وهنا يأتي دور العولمة، فالعولة تزيد في إمكانية حدوث تبادل المواقع السريع بعدة طرق، فتجعل الحياة الطبيعية المفترضة للهويات مهددة على الدوام بسبب العلاقة التجريدية التبادلية بين فئتي الأغلبية والأقلية، إذ تزعزع حركات الهجرة العالمية عبر الحدود الوطنية وداخلها ارتباط الأشخاص بأيديولوجيات الأرض والوطن، وينشئ التدفق العالمي لصورة الأنا والآخر والتي تسوقها وسائل الإعلام وتحولها في بعضب الأحيان إلى سلعة زخما متراكما من التهجين الذي يقوض الحدود الفاصلة بين الهويات واسعة النطاق، وتعمد الدول الحديثة إلى التلاعب والتغيير في طبيعة الفئات التي تحصيها والوسائل الإحصائية التي تعتمدها.

ويعرض الباحث الأردني سعود الشرفات في كتابه «العولمة والإرهاب» التأثير المتبادل بين العولمة والإرهاب، ويلاحظ أن متغير التكنولوجيا اتسعت معه آليات العولمة، ولكنها أيضا تنطوي على اتساع الآليات المنظمة لآليات عمل المنظمات الإرهابية، ويكشف عن جدلية الظواهر في حراك المجتمع الدولي، فالقوى التي تسعى لتطوير آليات العولمة هي ذاتها الأكثر تضررا بالإرهاب، ومن هنا تبدو الأزمة، فالعولمة تزود المنظمات الإرهابية بغض النظر عن التوصيف الأخلاقي والقانوني والسياسي لهذه المنظمات بأدوات التكنولوجيا التي تعزز قدرتها على الحركة، وبالمقابل فإن النكوص عن العولمة لا يقل في تكلفته وخطورته عن آثار الإرهاب.

إن الجماهير تنزع غالباً إلى التعصب، وخاصة حين تمر بتحديات وهزائم، وعلى هذا الأساس تنجح الاتجاهات اليمينية القومية والوطنية في الغرب وفي العالم، لكن نسبة كبرى من الجماهير في عالم العرب والمسلمين استبدلت بهويتها القومية والوطنية الهوية الدينية، وربما تكون المسألة أكثر وأعمق من الهوية، إذ من المتوقع أن تهيمن على الناس حالة من الخوف وعدم اليقين، ليس فقط بسبب الفشل والهزائم، لكن أيضاً بسبب التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى التي هبطت على العالم من غير إعلان أو إنذار مسبق (تقريباً). لماذا لم تؤثر الحالة الدينية الكاسحة كما هو

متوقع منها بداهة في حياة الناس وسلوكهم الاجتماعي والأخلاقي في الاتجاهات والأفكار المفترض أنها منسجمة مع الأفكار والمبادئ الدينية؟ إذ لا يبدو ثمة أثر للتدين في السلوك الاجتماعي السائد والذي تغلب عليه مناقضة الدين، فما نراه اليوم في عالم العرب والمسلمين من الكراهية وغياب التسامح والتضامن في الحياة اليومية والسلوك الاجتماعي وقيادة السيارات وحركة المرور على نحو مملوء بالعنف والتهور، أو في حالات التحرش والسرقة والغش يتناقض مع الإقبال الكبير على التدين. وإذا أضيف إلى هذا التناقض بين التدين الكاسح والسلوك غير الاجتماعي الكاسح ملاحظة انهيار كل أوعية التدين التقليدية مثل الجماعات والطقوس الروحية والصوفية والمذاهب الفقهية والمؤسسات العلمية الدينية الأهلية فإن تفسير الحالة الدينية القائمة والتنبؤ بمساراتها يحتاج إلى البحث عن مداخل واتجاهات أخرى في البحث والتأمل.

لقد ترافق صعود الحالة الدينية مع صعود العولمة وتقنيات الحاسوب والاتصالات والإنترنت وغيرت في الموارد والعلاقات السائدة من قبل، ومن المتوقع في مواجهة عالم يحتضر وتختفي مؤسساته وأعماله وموارده وقيمه وأفكاره أن تسلك الأمم والمجتمعات، كما يقول أرنولد توينبي، في أحد اتجاهين: النكوص إلى الماضي ومحاولة استعادته والتمسك به تعويضاً عن الواقع المرّ، أو محاولة استيعابها والتغلب عليها وتوظيفها إيجابياً.

تتمة عالم واحد - 15

إلى الحكمة والخير، من خلال الاقتداء بسدهارتا (بوذا) ونصوصه وتعاليمه والرهبان القائمين على خدمة البوذية، وهي في ذلك تبدو أقرب إلى التصوف أو هي التصوف بالفعل، وقد تكون الصوفية في نماذجها الإسلامية والمسيحية واليهودية استيعابا للبوذية واقتباسا منها.

يرصد الكسندر بيرزين فضاء واسعا للتفاعل بين الإسلام والبوذية، ويلاحظ أن كثيرا من مصطلحات الصوفية ومفاهيمها هي في أصلها بوذية، مثل مفهوم الفناء الذي كان يدعو إليه القطب الصوفي أبو يزيد البسطامي، ويشير تاريخ العلاقات الإسلامية البوذية إلى تفاعل مبكر، وكتب مؤرخون وعلماء مسلمون في مرحلة مبكرة عن المقارنة بين الإسلام والبوذية، مثل الكرماني في القرن الثامن الميلادي، وقد اعتبر الفاتحون المسلمون لشرق آسيا ووسطها منذ العهد الأموي البوذيين أهل كتاب.

يبدو من السهل على الحركات الجماهيرية أن تستقطب أتباع حركات أخرى تبدو مختلفة عنها أو متناقضة معها، فاليساريون المتطرفون يتحولون إلى يمينيين متطرفين، والعكس صحيح.

4III- العنف

«صوت دم أخيك صارخ إلى من البرية»
سفر التكوين

«.. من قتل نفسا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» سورة المائدة

تؤسس جريمة قتل الإنسان لأخيه الإنسان لمنظومة عميقة في الذاكرة والثقافة الإنسانية، فقد تأسست قيم احترام وتقدير الحياة الإنسانية، وفي المقابل ظهر عنف الإنسان تجاه أخيه الإنسان باعتباره شرّا وقسوة، ولسوء الحظ فقد تطور العنف مع تطور الحياة الإنسانية، من القتل والاعتداء ثم الحروب بين الأمم، إن الحقيقة المؤسفة هي أن الحرب كانت نتاج الحضارة الإنسانية وتقدمها المادي، فقد طور الإنسان أدوات السلاح والقتل والدمار، كما طورت الدول الجيوش، وحظيت الحروب والمجالات والتقنيات العسكرية باهتمام كبير، وخصصت لها أولويات في الميزانيات والموارد، وفرغ لها أفضل العقول الإنسانية في العلم والتنقية والإدارة والتخطيط.

وصعدت في السنوات الأخيرة الجماعات والعمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين، واجتذبت للأسف الشديد عددا كبيرا من المؤيدين في عالم المسلمين، وتعرضت دول ومجتمعات كثيرة للحروب الأهلية والانقسامات الاجتماعية العميقة، كما

عالم واحد - 16

ابن كمونة: فيلسوف يهودي عاش في بغداد وألف في نقد الأديان ومقارنتها

يعرض ابن كمونة في كتابه تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لأحوال النبوّات في اليهودية والمسيحية والإسلامية، وأصول معتقدها وأدلة أربابها على صحّة النبي الآتي بها، والردود والطعون الموجهة إليها، وقد توفي ابن كمونة سنة 683 هـ (حوالي 1280م)، ووصفه ابن الفوطي في كتابه «تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب» بالقول: ... الإسرائيلي البغدادي الحكيم الأديب، كان عالماً بالقواعد الحكمية، والقوانين المنطقية، مبرزاً في فنون الآداب، وعيون النكت الرياضية والحساب، وشرح كتاب الإشارات لابن سينا» وكان يهودياً معروفاً بيهوديته، ويقصده الناس طلباً للحكمة، ومن كتبه: الجديد في الحكمة، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا، وشرح التحصيلات للسهروردي، ورسالة في خلود النفس، وتعاليق على المعالم لفخر الدين الرازي، وتذكرة في الكيميا، والفروق بين الربانيين والقرائين، وتقريب المحجّة وتهذيب الحجّة، والمطالب المتمّمة من علم الحكمة، والكافي، ورسالة في العقليات، واللمعة.

مؤكد أنّ الكتاب يعكس الحالة الفكرية المتطورة في القرن الثالث عشر الميلادي، ومستوى التسامح والتعددية الثقافية والدينية والفكرية في العالم العربي والإسلامي، ولكن أهمية الكتاب تكمن في الفكر الديني العقلي المتقدم والقائم على

استهدفت مؤسسات ومنشآت وفئات من المواطنين بالقتل والخطف والاستعباد.

وشهد العالم مجموعة من عمليات الإبادة والتهجير على أساس عرقي أو ديني، كما حدث في البلقان، ورواند وبوروندي وبورما، يوجد اليوم أكثر من 60 مليون مهجر من بلادهم، معظمهم من المسلمين.

ربما يكون العالم قد نجح في وقف الحروب بين الدول، وبالنسبة للغرب فقد كانت الحرب العالمية الثانية آخر الحروب، لكن صعدت الحروب الأهلية والعنف المسلح الذي تشنه جماعات ايديولوجية أو قومية وإثنية، وكانت حصة العالم الإسلامي من الإرهاب كبيرة، سواء في أهداف العمليات الإرهابية التي كان معظمها في الدول الإسلامية، أو المنفذين الذين كانوا ينتمون إلى جماعات إسلامية متطرفة.

وفي تطور أدوات وتكنولوجيا السلاح تمكن الإنسان من التوسع في أعمال القتل والحروب والإبادة، وقد شهد القرن العشرون حروبا طاحنة قتل فيها عشرات الملايين، كما حدثت مجازر وعمليات إبادة واسعة استهدفت فئة من الناس، مثل إبادة مئات آلاف الأرمن في الدولة العثمانية التركية في أثناء الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) وعمليات إبادة اليهود في ألمانيا والبلاد التي سيطر عليها النازيون الألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) وتعرض مئات آلاف الصينيين للقتل والاغتصاب والتهجير على يد القوات اليابانية في العام 1937 ومات الملايين في الاتحاد السوفيتي في أثناء حكم ستالين بسبب التهجير والمجاعات والاعتقالات الجماعية، وقتل حوالي مليون إنسان من شعب التوتسي في رواندا عام 1994 على يد الأغلبية من شعب الهوتو، وأعدم ومات أكثر مليوني كمبودي بين عامي 1975 – 1979 على يد نظام السياسي (الخمير) بقيادة بوت، وقتل مئات الآلاف من الكرد ودمرت قراهم في العراق، وقتل حوالي مائة ألف بوسني في العام 1992 على يد قوات الصرب، وتعرضت آلاف النساء للاغتصاب.

وشهد العصر الحديث عددا كبيرا من الثورات المسلحة التي أدت إلى تغيير في الأنظمة السياسية والحدود للدول، مثل الثورة البلشفية في روسيا عام 1917، والثورة الصينية بقيادة ماو عام 1949، وقد احتلت أوروبا أكثر من ثلاثة أرباع العالم في الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والعشرين، وتغيرت في أثناء ذلك خريطة العالم، فذهبت دول وحضارات وظهرت أخرى.

يعنينا في هذا الكتاب نظرا لاتساع وتعقد موضوع العنف والإرهاب أن نشير إلى الأفكار والأيديولوجيات الحاضنة للإرهاب والعنف، إذ دائما ما يهيئ للعنف المادي عنف رمزي من الثقافة والأفكار والايديولوجيات، وقد ظهرت في عالم الإسلام جماعات وأفكار دينية تبرر الإرهاب، وتكفر الأفراد والمجتمعات والدول؛ واعتمدت على الفكر التكفيري والمتطرف في حشد المقاتلين والمؤيدين لتخوض عمليات قتل وإرهاب كثيرة على امتداد العالم، كان معظمها في العالم الإسلامي.

نشأت جماعات العنف والإرهاب في وسط جماعات الإسلام السياسي وبشكل خاص جماعة الإخوان المسلمين التي ظهرت في مصر في أواخر العشرينات، وبرغم أنها

الكراهية تعبير عن إخفاء الشعور بالنقص أو قلة الأهمية، أو الذنب أو العيوب الأخرى.

جماعة بدأت سلمية تعمل في ظل القانون، فقد تطورت في عملها وأفكارها وعلاقاتها وامتداداتها إلى حالة خارجة عن السيطرة، بدأت في أوائل الخمسينات بظهور حزب التحرير الإسلامي في وسط الجماعة، ثم جماعات التكفير والعنف، ودخلت هذه الجماعات في مواجهات عنيفة مسلحة مع الدول والمجتمعات، مثل ما حدث في مصر في منتصف السبعينات ثم اغتيال الرئيس المصري أنور السادات وما تبع ذلك من عمليات مسلحة كثيرة جدا استهدفت السياح والمساجد والكنائس ومنتسبي الأمن العام والجيش، وكذلك ما حدث في مكة المكرمة عام 1979 عندما احتلت مجموعة مسلحة المسجد الحرام ودخلت في مواجهة مسلحة مع الجيش والأمن السعودي، وعمليات خطف الطائرات واغتيال الشخصيات السياسية والثقافية في أنحاء واسعة في العالم الإسلامي، وحدثت مواجهات مسلحة واسعة في الجزائر امتدت على مدى عشر سنوات، وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين.

وفي أفغانستان شكل أسامة بن لادن بالمشاركة مع جماعة الجهاد بقيادة أيمن الظواهري وآلاف الشباب الذين تدفقوا إلى أفغانستان في عقد الثمانيات من القرن العشرين جماعة مسلحة ومتطرفة أسميت «القاعدة» ودخلت هذه الجماعة في مواجهة مع الولايات المتحدة توجت بعملية الهجوم على مركز التجارة العالمي في 11 أيلول 2001، وأسست هذه العملية لمتوالية من المواجهات والحروب والفوضى والصراعات الداخلية والخارجية لم تتوقف حتى اليوم، في العراق وسوريا واليمن والصومال وأفريقيا وسائر أنحاء العالم.

وأنشأت القاعدة فروعا لها في أقطار ودول أخرى، مثل العراق وسوريا، ثم خرج منها تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» والذي سيطر لفترة من الزمن على أجزاء من سوريا والعراق، وارتكب في أثناء ذلك أفظع الجرائم، وأنشأ تنظيم الدولة فروعا وجماعات تابعة له في دول وأقطار غير العراق وسوريا وخاصة في أفريقيا، مثل جماعة «بوكوحرام» والتي ارتكبت أعمالا فظيعة في القتل وخطف الفتيات وبيعهن كرقيق «سبايا».

شغل «الإرهاب» والعنف العالم، ولقي اهتماما سياسيا وفكريا واسعا، ولالتزامنا في هذا الكتاب بمناقشة الأفكار والظواهر والاتجاهات الملتبسة والقادرة على العمل سلميا وفي ظل القوانين أو يكون صعبا أن يطالها القانون، فإننا معنيون في هذا السياق بمناقشة الفكر الديني في عالم الإسلام والجماعات التي تشكلت حول هذا الفكر وأسست لمنظومة فكرية تتقبل العنف وتروج له، ذلك أن أسوأ ما في العنف والإرهاب أنه يرتكب بدوافع أيديولوجية، ويعتقد مرتكبوه ومؤيدوهم أنها أفعال جيدة؛ بل يجب فعلها.



كانت جماعة الإخوان المسلمين قد أعادت تشكيل نفسها في ستينات القرن العشرين باتجاه أفكار وأيديولوجيات جديدة تبدو مختلفة اختلافا كبيرا عن الرواية المنشئة للجماعة، بل وتتناقض معها، وشهدت صفوف الجماعة جدالات عميقة ومريرة، تمخضت في محصلتها عن هيمنة تيار «البديل الإسلامي» والعمل لأجل الأسلمة والهيمنة على المؤسسات واختراقها، ونشأت أيضا على يمين هذه الكتلة المهيمنة في الإسلام السياسي وعلى يسارها اتجاهات وتيارات أخرى مختلفة مع «التغييرية أو الاستبدالية» ومختلفة أيضا عن الإصلاحية المنشئة، والحال أن الفكرة الإصلاحية تحولت إلى رسالة الدول والمؤسسات والشخصيات التي تعمل من خلالها، ولم تعد رسالة الجماعات الإسلامية السياسية.

نشأت على يمين الجماعة جماعات التحرير الإسلامي والتكفير والهجرة والجهاد، وأخرى انقرضت أو اندمجت في غيرها مثل المجموعات التي يشار إليها بمجموعة الفنية العسكرية والسلفيات الجديدة والتي تستمد من مقولات المفاصلة والتميز واستعلاء الإيمان كما موجة الهزيمة والفشل والخوف التي سادت عالم العرب والمسلمين رؤى جديدة للعمل والأفكار والمواقف العنيفة والرافضة للدول والمجتمعات والقيم والعلاقات السائدة، والتي كانت هي الأخرى (وما زالت) تواجه أزمة روحية ووجودية عميقة تهزّ كيانها من الأعماق.

يمثل الإسلام السياسي أزمة الدولة والمجتمعات في سعيها إلى الشرعية والحداثة والانسجام مع الشريعة الإسلامية، لكن حزب التحرير يعكس أزمة الإسلام السياسي في تصدعه وتكيفه مع أهدافه المستحيلة ومتطلبات المشاركة والبقاء والمكاسب السياسية والاجتماعية، ففي تعاملها الواقعي مع الأفكار والأهداف التي وضعتها لنفسها جماعة الإخوان المسلمين وهي إعادة الخلافة الدينية؛ وجدت أنها في حاجة إلى أن تكيف نفسها جماعة دعوية وتأثيرية وأن تتحايل بالمرحلية والواقعية للتخلي عن الأهداف الكبرى التي بدت مستحيلة، حيث تتكرس الدولة الحديثة وتختفي الامبراطوريات ومنها بالطبع الخلافة الدينية التي اعتبرت الجماعة نفسها محاولة لاستئنافها، وبالطبع فلا بد أنه تحول أنشأ أزمة للإسلام السياسي؛ فنهضت مجموعة من الشباب في أوائل الخمسينات وانشأت حزب التحرير الإسلامي لاستعادة الرواية الأصلية المنشئة للجماعة وهي إقامة الدولة

تتمة عالم واحد - 16

أسس عقلية وفلسفية، والنظر إلى السياق الديني والجدل العقلي والفكري حول مسائله وقضاياه من تفكير علمي نقدي.

يعرض ابن كمونة الأدلة المنطقية على صحة النبوة وضروراتها، ويعرض أيضا ردّ المنكرين وحججهم المنطقية، ثم يعرض الأدلة والشبهات والردود حول نبوة موسى وعيسى ومحمد في إحاطة واسعة مدهشة بالفلسفة والعلوم والتوراة والإنجيل والقرآن، والجدل الديني بين أتباع الديانات الثلاث والجدل مع غير المؤمنين بها، وما يجمع بين هذه الملل الثلاث؛ التوحيد.

يجد ابن كمونة أنّ التوراة متواترة وكاملة وأنّ وصف القرآن بالقول : «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» يعني أنها كانت في زمن النبي موجودة وكاملة، وقد اعتنى اليهود بها عناية فائقة على نحو عناية المسلمين بالقرآن، والتشابه الحاصل في التوراة عند النصارى المؤمنين بها والذين يتلونها، والسامرة المختلفين عن اليهود، والتوراة التي عند اليهود يؤكد أنها محفوظة على التواتر، ويقول إنّ الاختلاف بين نسخ التوراة ليس أكثر من الاختلاف بين القراءات والأحرف المتعددة للقرآن، ويناقش أيضاً مقولات النصارى في التوحيد والتثليث والردود والشبهات، ويتأول لهم ويجيب على الأسئلة والشبهات حول معتقداتهم ونبوة عيسى، إلى أن

التشابه يؤدي حتما إلى التطرف، والاختلاف يؤدي إلى الاعتدال

يميل المتطرفون الى التحرك والفاعلية، ويميل المعتدلون الى العزلة والخروج من الجماعة.



الإسلامية في هيئة الخلافة التي كانت الطابع العام والشكلي غالبا للأمة الإسلامية في تاريخها.

بدا أن حزب التحرير انحسر وضعف تأثيره، لكنه صعد مرة أخرى في تسعينات القرن العشرين في المشهد الإسلامي الجهادي والاحتجاجي في أوروبا وفي إندونيسيا وآسيا الوسطى، ثم وفي ظهور داعش بدا الحزب مزودا فكريا وتنظيريا وخزانا بشريا للتنظيم. وبدأ يكسب أنصارا ومؤيدين بأعداد كبيرة في أوساط المسلمين في أوروبا في مرحلة الصعود الديني في تسعينات القرن العشرين المصاحب لموجة العولمة والبحث عن الهويات والجذور الذي اجتاح المجموعات الثقافية والإثنية في أوروبا وجدت فئة من المسلمين وخاصة الأجيال الشابة في حزب التحرير ملاذا للبحث عن هويتها التي تمنحها التميز والخصوصية في وسط مجتمعات ودول وضعت المهاجرين وأبناءهم في مركز ثانوي وهامشي، ويمكن الملاحظة أن حزب التحرير لم يتقدم في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تشكلت المجتمعات من أفراد وجماعات من المهاجرين في حين وضعت التشكلات الاجتماعية المتراكمة والتاريخية في أوروبا المسلمين في حالة شعور قوي بالاغتراب وعدم القدرة على الاندماج.

وفي حالة شبيهة بأوروبا على نحو ما فإن صعود الهوية الدينية في دول آسيا الوسطى التي استقلت حديثا عن الاتحاد السوفيتي وفي إندونيسيا التي خرجت من مرحلة طويلة من العزلة والاستبداد؛ وجد حزب التحرير نفسه مرشحا قويا وملاذا مناسبا لفئات تبحث عن هويتها ومستقبلها.

إن الذي يقول اعتقد ما أعتقده والا لعنك الله، لا يلبث أن يقول اعتقد ما اعتقده أو اقتلك.
فولتير

توظيف الحوافز الدينية باتجاه العنف

ينشئ الدين أي دين لأتباعه حالات نفسية وحوافز قوية وشاملة ودائمة، هذه المشاعر والأفكار والطمأنينة التي يحصل عليها المؤمنون مرتبطة بالدين وطبيعته، ولا فضل في ذلك أو ميزة لجماعة دينية ولا يختلف فيها دين عن دين آخر، وإن كانت الجماعات بالطبع توقظ هذه الحالات وتحركها، وهنا يحدث خلل كبير؛ عندما تفصل هذه الحالة عن الدين، وتمنح لشخص أو جماعة، هذا الانتحال للدين الذي تمارسه الجماعات الدينية السياسية يحرف الدين عن غاياته ومساره ويؤثر في السياسة والاجتماع على نحو مفتعل.

إن الضمير في أبسط تعريف ممكن هو أن نشكل أنفسنا بوعي الذات وإعادة وعي الذات. لنكون ما نحب أن نكون ونفعل ما يجب فعله لنكون ما نحب. وفي ذلك يتشكل أيضا الشعور بالخطأ والصواب، والدافع لفعل الصواب وتجنب الخطأ من غير حافز أو دافع مادي أو قانوني أو ديني. لكن الدين كان على الدوام محفزا وداعما أخلاقيا. وهنا تتشكل ضرورات التأكيد على عدم المساس بهذه العلاقة المعقدة بين الإنسان وبين الأخلاق، ذلك أن من قواعد نجاحها أن تعمل من غير تدخل تنظيمي مباشر، لتظل تتحرك وتتفاعل معبرة عن إدراك الجماعات بالصواب والخطأ.

وما تفعله الجماعات الدينية السياسية هو توظيف هذه التطلعات والأشواق الروحية للإنسان وتوقه الدائم والملح للمعنى في عمليات سياسية وتنظيمية، أو الدفع بالمنظومة الأخلاقية لتعمل في تضامن محدود جماعاتي أو فئوي، ثم تحويل الرذائل مثل الكراهية والغش والسخرية والاستعلاء والكذب إلى فضائل عندما يتعلق الأمر بالعلاقة مع الآخر!

يقع الخلل والافتعال في تحريك القلق الإنساني المتأصل تجاه الخطأ والصواب إلى يقين، لأن إضفاء اليقين على غير اليقيني يهدد النظام الأخلاقي على نحو مخيف وخطير، ففي حالة عدم اليقين تكون الفضيلة في الجهل والألم! وفي ذلك فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث للمنظومة الاخلاقية عندما تمنح الجماعات الدينية السياسية الأتباع والمؤيدين شعورا براحة الضمير تجاه الخطأ.

تتمة عالم واحد - 16

يخلص إلى القول «وأما سائر ما ذكر من المخالفين فبعضه مجرد تشنيع واستبعاد، وبعضه لا يخفى على المحصل وجه دفعه ولو بتكلف، وأكثر هذه الأجوبة لم أجدها في كلام النصارى، ولكني أجبت نيابة عنهم، وتتميماً للنظر في معتقدهم».

ثم يناقش الشبهات والأقوال في نبوّة محمد والمعجزات وما بين القرآن والتوراة والإنجيل من التعارض، وما يمكن التأوّل فيه والتوفيق، والشبهات المثارة حول القرآن ونبوة محمد والردّ عليها..

ويبدو نّ ابن كمونة يؤمن بالدين الواحد الممتد على نحو عام مستمد من الحكمة والضرورات، والتأول للتناقضات وغير المعقولات إلى السياق العام، وإن كان ثمة مجال لإنكار ما لا يقبله العقل ينكره ويرده، وإن لم يجد فيعلقه إلى مظنة أنّ حكمته أو تأويله لم تعرف بعد.

ولكن المدهش في الكتاب هو الإحاطة الواسعة بالأديان ونصوصها وتراثها وبالفلسفة والحكمة والعلوم المتصلة بها، ثم ما يكشف عنه الكتاب من مستوى متقدّم في النقد والردّ والحريات الواسعة التي كان يمتلكها العلماء والناس.

> كلما تحركت دافعية الأفراد نحو تكوين اهتمام من أجل شهرتهم الخاصة، فإنه من غير المحتمل أن يتغيروا بسبب المعلومات أو الآراء الجيدة

تزييف المعنى

تشكلت جاذبية الجماعات الدينية السياسية على المعنى الذي تمنحه لأعضائها وأنصارها ومؤيديها، ففي هذا الشعور بالتميز والاستعلاء تجمعت الجماهير والأنصار مزهوة بالمعنى والاختلاف، الشعور أنها الأفضل وأنها الدين الصحيح، لكن ما حدث بالفعل هو استخدام المعنى العام وإضفاء الدين والمعنى الديني عليه، وهكذا فقد كان التزييف في منح الاجتماع الإنساني المتغير المنبثق عن تفاعل الناس مع حياتهم ومواردهم بما هي عملية واقعية أبعادا تبدو هبطت من السماء كأنها وعد خارجي معجز ومستقل عن قدرة الناس وحياتهم الواقعية.

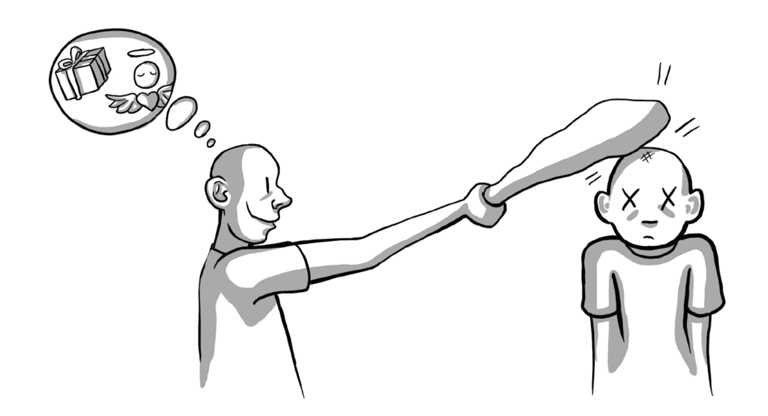
وفي ذلك عطلت الجماعات المقدس أن يعمل في مجاله الأصلي وهو معرفة الله والارتقاء بالذات وفق مثال الله، كالرحمة والعدل والجمال والمحبة، ثم دفعت به (المقدس) إلى العنف والعمل بعيدا عن المعنى الديني الأصلي لهذه الحقول والمجالات، بما هي إنسانية واقعية تستجيب لقيم الاجتماع الإنساني والازدهار والتقدم وتجنب الشرور المصاحبة له كالظلم والكراهية ....

إن الفعل الديني هو المقاربة بين الرموز ومعناها، وفي الفضاء العام تكون هذه الرموز فكرة مثالية أو إطارا يقترب من أو يكاد يكون معنى وليس رمزا، هكذا فإن استعارة الرموز الدينية بما هي في ابتدائها أداة أو وسيلة لفهم ما ترمز إليه لتظل رمزا عمليا في الحياة اليومية لا يجعلها تفعل فعلها الأصلي لأنها ببساطة في هذه الحالة لا تؤدي إلى الله أو إلى معرفة الله، لكنها يفترض أن تكون مثالا يوجه الحياة اليومية قدر الإمكان، أو مشروعية عليا تجعل الاجتهاد الإنساني منسجما مع الدين أو لا يتناقض معه.

إن الفعل الديني يتحول في الفضاء العام إلى خطاب ثقافي، أي نظام من المفاهيم يعبر عنها بأشكال رمزية، ويتواصل الناس بهذه الأشكال ويديمون ويطورون معرفتهم حول الحياة ومواقفهم منها. وتعمل الرموز المقدسة في تركيب روح الجماعة أو الحقيقة المميزة لها في الأخلاق والجمال ورؤية العالم. **ماذا فعل الجماعات الدينية السياسية بهذه المفاهيم؟**

يكون النظام الثقافي رموزا توجيهية عامة يملكها جميع المتدينين على اختلاف مستويات تديّنهم والمسافة التي يتخذونها من الدين، ولا يملك أحد سلطة تنظيمية واضحة على هذه الرموز والأفكار والمفاهيم حتى المؤسسة الدينية والسياسية لا تملك سلطة مادية أو قانونية أو تنظيمية عليها، ولا تحولها بالطبع إلى مؤسسات وتشريعات منظمة ومنضبطة، فلم يحدث مثل ذلك في تاريخ الأمم إلا مرات قليلة كانت كارثة على المجتمعات والدول وأدت إلى حروب وصراعات طاحنة وكراهية تذيب الصخر، كما حدث عندما حاول الخليفة العباسي المأمون أن يفرض العقلانية على الناس في فهم للدين، وبرغم تقدمية فكرته وهدفه فقد حدثت فتنة عظيمة لم تتوقف مفاعيلها حتى اليوم، وفي المقابل فإن «النقلية» المعارضة للعقلانية فرضت على الناس تطبيقات وأحكاما أشد فتنة.

لكن المؤسسة السياسية والدينية اقتصر دورها المؤسسي والقانوني على تنظيم الشؤون الدينية الواضحة والأساسية



كالصلاة والمواقيت والحج أو تطبيق القوانين والأحكام المحددة بالنص الديني، كالأحوال الشخصية والمواريث والأسرة، وتركت الفضاء الديني العام للمجتمعات والأفراد تستلهمه بلا سلطان عليها، ذلك أن امتداد السلطة إلى أرواح الناس وضمائرهم ينشئ أفظع أنواع القهر، أو اندفاعا خطيرا ومدمرا مشحونا بالمعنى الديني الفائض لقضايا واتجاهات بل وأزمات إنسانية يجب أن تكون فردية أو غير يقينية وقابلة للتسوية.

لكن الجماعات الدينية السياسية بما هي متخففة من الشعور العام بالمسؤولية تجاه المجتمعات والعلاقات الدولية والعقد الاجتماعي مضت بأتباعها ومؤيديها القابلين والمتحمسين لفكرة التنظيم العملي والمؤسسي للرموز والقيم الدينية العامة لتكون جماعات بل ومجتمعات متميزة ومتماسكة، تحول المفاهيم والأفكار العامة إلى أنظمة تفصيلية محددة ومتماسكة، وبرغم أنها ظنية وأنتجتها اجتهادات إنسانية فإنها تقدم على أنها الدين وما سواها ليس دينا أو مخالفا للدين، مثل الحكم الديني، والاقتصاد الديني، واللباس الديني، والإعلام الديني، والفن الديني، والشخصية الدينية، ... لقد حولت الرموز المفتوحة اللانهائية إلى أنظمة وادلة إرشادية مفصلة ومحددة، وصارت هذه المقولات والأفكار والقيم العامة والإرشادية صلبة ومتماسكة ومنظمة ومحددة، ولم يكن ابتداء يراد لها ذلك، ولو كان الله يريد للمؤمنين أن يتبعوا أو يسلكوا في الحياة اليومية وفي السياسة والأسواق والاقتصاد والاجتماع والفنون على النحو الذي تقترحه جماعات الدينية السياسية لرأينا في القرآن الكريم والكتب الدينية تشريعات وأحكاما مفصلة ودقيقة كما حصل في المواريث على سبيل المثال.

لقد أدى هذا التزييف للمعنى إلى متوالية من الكوارث الخطيرة، أولها تغيير فهم الدين من مساره وفعله الأصلي إلى منظومة عملية تفصيلية؛ هي إنسانية في حقيقتها، لكنها تفهم وتقدم وتفرض على أنها من عند الله وما هي من عند الله، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وثانيها أنها أنشأت جماعات ومجتمعات منفصلة بذاتها في أفكاره وقيمها ومصالحها، وتتحول بالتدريج إلى طوائف جديدة، أو جماعات مختلفة ، وأنشأت انقساما اجتماعيا حادا وعميقا ومشحونا بالشعور بالتميز والاشمئزاز من الآخر، واعتباره غير مسلم، ما يبيح القتل والكراهية والغش والظلم على الآخرين بل واستعبادهم وبيعهم رقيقا وسبايا.

تميل المجموعات الى الفهم المتحيز، فينقص الأعضاء من أهمية الآراء غير الملائمة لهم بوصفها آراء ساذجة أو غبية، ويجدون أن الآراء الملائمة لهم ذكية ولائقة، ومن ثم يزيدون تشددا.

مصادمة الاجتماع الإنساني

أنشأ الاجتماع الإنساني على مدى التاريخ والجغرافيا في جدله وتفاعله مع الأسواق والسلطات منظومة اجتماعية وثقافية كانت في محصلة تاريخ الإنسانية مؤسسة أو مشاركة للتقدم الإنساني، ففي تطور التجارة والمقايضة نشأت الطرق والبريد والمدن والمهن والحرف وبرغم أنها في أساسها قائمة على المصالح والتجارة والمقايضة والبيع والشراء فقد أنشأت منظومات رائعة للتواصل الاجتماعي، فكما كانت الطرق للتجارة والجيوش كانت أيضا للعلم والدعوة والحب والتعارف والتعاون والتضامن، وكما كان البريد لأجل تنظيم تداول المعلومات ونشرها كان أيضا تواصلا اجتماعيا وإنسانيا ومعرفيا واسعا وجميلا، وكما كان الإعلام للإعلان التجاري والتسويق فقد كان أيضا للمعرفة والتأثير في السياسة والنخب والمجتمعات، هكذا فإن الاجتماع الإنساني ينشئ في تفاعله مع الموارد والأسواق والمؤسسات السياسية منظومة من الثقافة والقيم والأفكار التي تحمي التقدم الإنساني وتهذبه وتجعل للموارد معنى جميلا يرقى بحياة الإنسان.

إن هذا المعنى يتشكل بأفعال واتجاهات ثقافية مستمدة من تفاعل الإنسان مع الموارد والقضايا والحياة اليومية، وفي هذا التفاعل أنشأ الإنسان قيم الجمال والمحبة والتعاون والثقة والتضامن ومواجهة الشرور التي تصاحب التقدم المادي كالكراهية والاستحواذ والبخل والظلم والاستغلال والأنانية،.. وفي ذلك فإن الفعل الثقافي والاجتماعي يكون حلقة مهمة وأساسية في التقدم الإنساني، ويكون تعطيل هذه الحلقة تعطيلا للتقدم الإنساني نفسه، لأن مهارات وقيم الإبداع والاستيعاب والتراكم والتجديد والمراجعة تنشأ أساسا بدوافع اجتماعية وإدراك جمالي وإنساني لتلطيف الهمجية كما يقول هيغل، ولتحويل الأفكار السامية إلى منظومة رمزية وجمالية، فقد وضعت الأمم في الفنون أسمى أفكارها!

هكذا كانت الثقافة والفنون والآداب فعلا ضروريا للاجتماع الإنساني. لكنها برغم سموها ليست مقدسة وليست أيضا منزهة عن الشهوات والأهواء والانحطاط، وفي ذلك فإن الفعل المطلوب هو التفاعل، وليس التعطيل والتحريم كما هو أيضا ليس البديل أو المواجهة والصراع بين نموذجين، فقد نشأت في الكنيسة على سبيل المثال

عالم واحد - 17

الأسطورة بالنظر إليها دليلا للارتقاء ومواجهة التعصب

تشير الأسطورة دائما إلى وقائع يزعم أنها حدثت في التاريخ البعيد، ولكن النمط الذي تصفه يكون بلا زمن، وبالنظر إليها تعبيرا رمزيا عن محتوى ثقافي أو حكمة أو معرفة فإنها تظل باقية ومتجددة، ولا تعني تاريخيتها أو أعجوبيتها أنها تشير إلى مرحلة سحيقة مضت أو إلى أديان وطقوس لم تعد موجودة.

يلاحظ كلود ليفي شتراوس (الأسطورة والمعنى) أن الشعوب التي بدون كتابة قادرة على التفكير تفكيرا منزها عن الهوى، أي أنهم يتحركون من خلال الحاجة أو الرغبة لفهم العالم المحيط بهم؛ وليس تفكيرا نفعيا، ويتقدمون من خلال وسائل عقلية بالضبط كما يفعل فيلسوف او عالم، يستطيعون ذلك ويطمحون إليه أيضا، فلدى المجتمعات الموصوفة بالبدائية معرفة دقيقة ببيئتهم ومواردهم، وأظنها ملاحظة يمكن أن تغير تفكيرنا ومنهجنا في فهم المعضلات المحيطة بنا، وربما تساعدنا أكثر في مواجهة الكارثة التي تحل بنا، وأقصد موجة التطرف والكراهية والعنف التي تكاد تكون أكبر تحد يواجه العرب والمسلمين، وأكثر ما يشغل العالم اليوم.

ويجد أليكسي لوسيف في كتابه فلسفة الأسطورة أن الأسطورة ليست بدعة أو وهما أو نتاج خيال، فالواقع الناشئ عن الأسطورة ليس مختلقا، أنما هو الواقع الأكثر وضوحا وملموسية، والمقولة الحتمية للتفكير

حركة فنية وموسيقية وتعليمية واسعة ومتقدمة أسست للتقدم العلمي والفني والثقافي، ولم تكن الكنيسة بطبيعة الحل موافقة على الاتجاهات الفنية المفرطة في الحسية وفي مخاطبة الشهوات والآثام، كما لم تكن الكنيسة منزهة عن الظلم والخطأ، فقد حدثت خلافات عميقة واتهامات بالهرطقة والردّة، لكن المحصلة الإنسانية لهذا الجدل كانت تقترب غالبا إن لم يكن دائما من التقدم والجمال والسلام الإنساني.

ولكن ما فعلته جماعات الإسلام السياسي هو تعطيل المنظومة الثقافية والاجتماعية والفنية بالتحريم والمواجهة أو بالبدائل المختلفة، هذا التحول من الإصلاح والتأثير والتفاعل إلى البدائل والمواجهة عطل الاجتماع الإنساني في فضائه الثقافي والفني أو أضعفه كما أن النموذج أو البديل الذي قدمته أو دعت إليه جماعات الإسلام السياسي كان ضعيفا وضحلا أو خطيرا فيما يدعو إليه، والسبب هو اللبس بين الفعل الثقافي بما هو رمز وبين الأصل المفترض أن يرمز إليه الرمز، إذ يجب النظر ومواصلة النظر إلى الأفعال الثقافية والفنية والاجتماعية باعتبارها رموزا وليست هي الفكرة المقدسة الأصلية.

فالرموز أفعال ثقافية، وأحداث اجتماعية تمتاز كما يصفها عالم الانثروبولوجيا كليفود غيرتز بالعمومية والعلنية لكنها ليست الشيء ذاته، مثل الفرق بين المنزل ومخطط المنزل.

يساعدنا غيرتز بهذه الملاحظة في التأسيس لملاحظة الخطل في اللبس والمزج بين التراث والمقدس، وبين ما هو تراثي واجتماعي وما هو نفسي في مجريات الحياة اليومية، ويظل من المفيد التمييز بينها في التحليل، فالرموز تخبر الإنسان بما يمكن أن يعمله، وقد تكون الرموز أصلية لأجل المرموز إليه كما تفعل الجينات، أو تكون مكتسبة متراكمة تعبر عما ترمز إليه، وعلى سبيل المثال فإن القندس تسعفه جيناته في بناء بيته وسدود الماء، لكن الإنسان يحتاج أن ينشئ منظومة من المخططات والأفكار المشابهة للسدود والبيوت.

جماعات الإسلام السياسي والتلاعب بالمفاهيم

أنشأ الإسلام السياسي مجموعة من المفاهيم أو أعاد إنشاء واستخدام مفاهيم وأكسبها معنى دينيا محددا وحاسما، وتوسع في امتداد مفاهيم وتطبيقات أخرى، مثل الحكم والحاكمية، والدولة الإسلامية، وتطبيق الشريعة، والردّة والحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإسلامية، والجاهلية، والتميز، واستعلاء الإيمان، واستخدم آيات وأحاديث للدعوة إلى مفاهيم وتطبيقات واسعة وممتدة في الحياة والعلاقات أكثر مما تحتملها النصوص أو ليست هي المعنى الوحيد لها، والحال أن جماعات الإسلام أنشأت مدلولات وتطبيقات ومفاهيم وأفكار أخذت صبغة إسلامية وكأنها هي الإسلام، برغم أنها لم تكن معروفة من قبل أو لم تكن مفهومة وتطبق على النحو الذي دعت إليه الجماعات، وصارت هذه المفاهيم منتشرة على نطاق واسع خارج إطار وعمل الجماعات، بل امتدت إلى المناهج التعليمية والتدين العام، وفي الوقت نفسه فقد تشكل شعور لدى «الآخر» بمن هو ليس جماعات الإسلام السياسي من المتدينين وغيرهم كما

في هرب الناس وخوفهم من العزلة فإنهم يتكيفون مع الجماعات التي يجدون أنفسهم فيها أو يمكن أن ينتموا إليها. وفي ذلك ينشئون مواقفهم كما يتوقع منهم أو كما يعزز انتماءهم وموقعهم في الجماعة.

القادة السياسيين والمشرعين والجماعات والأشخاص شعور بالخطأ والابتعاد عن الإسلام، برغم أنهم ليسوا كذلك بالضرورة.

إن اللغة بقدر ما تمنحنا المعنى وتحفظ لنا الأفكار والعلوم والإشارات فإنها أيضا تفتح المجال واسعا بلا حدود لنفهم النصوص الدينية وغيرها، ولا تمنح أحدا اليقين بأن ما يفهمه هو الصواب أو الصواب النهائي. يقول روفائيل سانشيت فولوسيو إن مبتدأ قصة الخوارج أنهم رفضوا إمكانية أن الحقيقة الإلهية يمكن توضيحها بالمعرفة والمفردات البشرية، لكنهم قبلوا فكرة تجليها في تلاقي سيوفهم. وأثبت البشر مرة أخرى أنهم يحبون الحقائق أكثر من المعارف، ولسان حالهم «زائف لكن مؤكد» فالحقائق دائما زائفة بطبيعة الحال، مثلما يؤكد ذلك أن قادتهم ليسوا علماء، لكنهم قادة اجتماعيون أو مقاتلون ومحاربون يشعرون بالغضب والتهميش.

يمكن الإشارة على سبيل المثال إلى مفهوم «دين» ومعانيه الكثيرة المتعددة الممكن فهمها من القرآن الكريم، مثل «يوم الدين» بمعنى العدل، «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك» بمعنى القانون، «ألا لله الدين الخالص» «ذلك الدين القيم» «مخلصين له الدين» «ويكون الدين لله» «ليظهره على الدين كله» وكذا الحكم، المفهوم الذي أسس لانقسام عميق وتاريخي في الأمة الإسلامية، ومن طرائف الخلاف أن الخوارج استندوا إلى الآية القرآنية «إن الحكم إلا لله» لرفض التحكيم بين الطرفين المتقاتلين على «الحكم» بمعنى أنه لا يجوز لبشر أن يحكم في هذا الخلاف، وذلك لأن الخوارج كانوا لأسباب اجتماعية وقبلية يريدون محاربة الأمويين وأنصارهم، ثم وفي وقت لاحق استخدم الخوارج الآية نفسها ليكتسبوا شرعية موقفهم وقتالهم مع الأمويين، حتى إن بعض العلماء والحكماء ردوا عليهم إنكم تجعلون الله سلطانا، وبالفعل فإن جماعات الإسلام السياسي تفهم الآية «إن الحكم إلا لله» وكأنهم يعتقدون أن الله هو رئيس الوزراء!.

واستخدم مفهوم «الجاهلية» بمعنى واحد، هو ما ليس إسلاما، واختير هذا الاستنتاج من الآية «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» لتقسيم العالم إلى فسطاطين: حكم الله، وحكم الجاهلية. دون ملاحظة أو رغبة في الملاحظة المعاني الكثيرة والمتعددة للكلمة والتعسف الواسع في الاستنتاج والتطبيق، ثم تحويل هذا الاستنتاج إلى جزم تقوم عليه جماعات وحروب ومؤسسات وأفكار وكتب ودراسات.

وهكذا فإن الجماعات الدينية السياسية وإن بدت سلمية تمهد للعنف والكراهية، وتنشئ بيئة تشجع على الإرهاب والتكفير والخروج المسلح على القانون والسلم الاجتماعي، أو تنشئ حالة اجتماعية ثقافية تلحق خللا وضررا جوهريا بالعقد الاجتماعي للدول والمجتمعات، فجماعات الإسلام السياسي بمختلف أطيافها سواء الملتزمة بالسلم والرافضة قانونيا أو مباشرة للعنف ومرورا بالمتطرفة صراحة دون عنف عملي ووصولا غلى الجماعات المتورطة فعلا وقانونيا بدماء بريئة أو تلحق الرعب والأذى بالمجتمعات؛ يمكن اعتبارها جماعات تدعو للكراهية، فالعلاقة بينها وبين الكراهية حتمية، وهي علاقة تؤسس للعنف والتطرف.

لقد ألحقت جماعات الإسلام السياسي ضررا كبيرا بالمنظومة السياسية والاجتماعية والثقافية المحركة للدول والمجتمعات العربية والإسلامية، ويمكن أن تدمر القواعد والمبادئ المنظمة لعلاقة الدولة والمجتمع، ودور الدين في الدولة، والعلاقة والتوازن بين مكونات المجتمع المتعددة، والدور المفترض للجماعات والحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية، والأفكار والفلسفات المنظمة والمنشئة لعمل وغايات الأحزاب السياسية والجماعات التأثيرية والاجتماعية، كما أنها أنشأت وكرست فكرا انفصاليا عن الدولة والمجتمعات، وفهما للدين يرفض القيم السياسية التعددية والتسامح، ويعادي الآخر الذي هو كل من ليس من الجماعات أو ليس مسلما، ويضر بالحياد المفترض للدولة تجاه الدين، ويتناقض جوهريا مع فلسفة العقد الاجتماعي للأمم وفكرته المنشئة والقائمة على النسبية وعدم اليقين؛ المبدئين المؤسسين للانتخاب وإعادة الانتخاب والمراجعة الدائمة للسياسات والأفكار والتشريعات ليستبدل بهما يقين يعتقد اصحابه أنه نزل من السماء! وتلحق جماعات الإسلام السياسي أيضا بفهمها للدين ضررا كبيرا بالثقافة والفنون، وتعطل دورهما في الارتقاء بالحياة والموارد، ولم تكن الجماعات الدينية السياسية في سلوكها التنظيمي الداخلي وافكارها التي يتجمع حولها أعضاؤها ومؤيدوها مؤمنة عمليا بالديمقراطية والمساواة بين الرجال والنساء، ولا متسامحة مع غير المسلمين أو غيرهم من المسلمين.

وأخيرا فأن تكون بعض الجماعات أقل تطرفا وعنفا من بعضها الآخر، لا يعني أنها مختلفة عن بعضها في المحصلة والأفكار المؤسسة، كما أنه اختلاف لا يجعل هذه الجماعات مؤهلة لدور إيجابي ومشاركة صحيحة في الحياة العامة. ذلك أنها تبقى جميعها على تفاوتها في العنف والتطرف تشكل تهديدا خطيرا للدول والمجتمعات والعقد الاجتماعي.

الاجتماع الإنساني ينشئ في تفاعله مع الموارد والأسواق والمؤسسات السياسية منظومة من الثقافة والقيم والأفكار التي تحمي التقدم الإنساني وتهذبه وتجعل للموارد معنى جميلا يرقى بحياة الإنسان.

تتمة عالم واحد - 17

والحياة. ويقول لوسيف إن الأسطورة ليست اختلاقا، إنما هي تتضمن بنية بالغة الصرامة والتحديد، وهي منطقيا وقبل ذلك جدليا مقولة ضرورية للإدراك وللوجود عموما. والأسطورة ليست مؤلفا أو موضوعا عن فكرة نقية، وليست وجودا مثاليا، إنما هي واقع معيش مادي ملموس حياتيا، وليست بنية علمية، ولا علمية بدائية، فالإدراك الأسطوري مباشر وعفوي، أما الإدراك العلمي فيتخلى بطبيعة استنتاجية منطقية، وليس عفويا مباشرا، وهو صعب الاستيعاب ويتطلب تعلما طويل الأمد وخبرة تجريبة، والتطابق بين الأسطورة والعلم البدائي هو عرضي وليس جوهريا، ولذلك فليست صحيحة برأي لوسيف مقولة إن الأسطورة سبقت العلم وأن العلم بدأ مستمدا منها، ولكن العلم قائم بذاته، ولا يمكنه أن يحطم الأسطورة، وكل ما يقوم به أن يدركها ويخلصها من الغريب عنها كمخططها المنطقي والعقلي والرقمي على سبيل المثال، الأسطورة في المنظور العلمي علاقة حية ذاتية موضوعية متبادلة، تتضمن في ذاتها حقيقة خارج علمية خاصة بها، حقيقة أسطورية خالصة كما وتملك مصداقيتها الخاصة وبنها الخاصة وشرعتها المبدئية التي تخصها وحدها.

وليست الأسطورة بنية ميتافيزيقية، إنما هي واقع معيش مخلوق ماديا وحياتيا وحسيا، يكون في الوقت ذاته منفصلا عن سير الظواهر المألوف، وبالتالي فهو يتضمن درجات متفاوتة ومستويات مختلفة من الانفصال.

5III- الظلم

يعني الظلم في لسان العرب وَضْع الشيء في غير موضِعه، والظُّلْم المَيْلُ عن القَصد، والعرب تَقُول: الْزَمْ هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِمْ عنه أي لا تَجُرْ عنه. والظالمون هم المانِعونَ أهْلَ الحُقوقِ حُقُوقَهم. ويأتي الظلم أيضا بمعنى المعاملة القاسية، وعدم الإنصاف، وضدّ العدل.

ولأغراض الكتاب فإن الظلم المقصود هنا هو الممارسات والأفكار والمعتقدات والمشاعر التي تتقبلها ثقافات وأعراف سائدة وتتواطأ عليها بعض المجتمعات، مثل العبودية، والاتجار بالبشر، وإساءة المعاملة، والتمييز، والعنصرية، والاستبعاد الاجتماعي، والتهميش والحرمان، والتعذيب، ...

كان الرّق أسوأ مظالم البشرية وأخطائها، وللأسف الشديد فقد كان من ثمار التقدم الاقتصادي والتقني، فلم يكن الإنسان يستعبد أخاه الإنسان في عصور ما قبل الزراعة والأسلحة والجيوش والدول والجماعات المنظمة، لكن أيضا ولحسن الحظ فإن التقدم الاقتصادي والتكنولوجي ساعد على إلغاء الرق والتخلص منه، وهكذا فإن التقدم الاجتماعي والأخلاقي يظل مرتبطا على الدوام بالتقدم الاقتصادي والتقني، لكنه في محصلته النهائية هو الصراع الإيجابي بين نوازع الخير والشرّ، والحيلولة دون الاستخدام السيء للموارد والتقنيات.

وكان من أسوأ ما فعلته الجماعات الإرهابية مثل داعش وبوكو حرام هو خطف النساء واستعبادهن واستخدامهن

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»
حديث نبوي قدسي، رواه مسلم

تتمة عالم واحد - 17

هي (الأسطورة) بعد سلسلة النفي هذه وكما يحددها لوسيف مقولة جدلية عن الإدراك والوجود عامة، وليست وجودا مثاليا، إنما هي واقع محسوس حياتيا، ومادي خلاق، وليست بنية علمية وعلى وجه التحديد ليست بنية علمية بدائية، إنما هي علاقة حية متبادلة موضوعية متضمنة كل الحقيقة اللاعلمية الأسطورية الخاصة بها، ومتضمنة كذلك المصداقية والانتظام المبدئي والبنية.

وفي مقارنة الأسطورة بالدين يقول لوسيف إن الشخصية في الدين تبحث عن السكينة، والعذر، وعما ينقيها، وحتى عن الخلاص، أما الشخصية في الأسطورة فتحاول أن تظهر وأن تعبر عن نفسها وأن يكون لها تاريخها الخاص، وإذا كان التدين تأكيدا ماهويا لذات الشخصية في الوجود الأبدي، فإن الميثولوجيا لا تقتصر على أن تكون تأكيد ما هويا، ولا حتى تأكيدا في الأبد، على الرغم من أن في أساس حياتها بلا شك جذرا شخصيا، وبالتالي هذا مايجعل الميثولوجيا الدينية أو المطلقة ممكنة وضرورية، .. هل يكون مبدأ الأسطوري ذاته بمثابة شيء ما ديني؟ هل يمكن القول إن كل ميثولوجيا وكل ما في العالم بلا استثناء هو شيء ما ديني؟ الأسطورة بذاتها الأسطورية الصرفة قائمة بذاتها ليست مضطرة على الإطلاق في أي حال من الأحوال لأن تكون من حيث المبدأ دينية، ..

وأخيرا فإن الأسطورة/الميثولوجيا هي نتاج النفس البشرية الطبيعي، وهي ظاهرة اجتماعية طبيعية، وهذا يعني

رقيقا للترفيه والخدمة أو بيعهن في الأسواق، وذلك في استعادة سيئة وظالمة لمرحلة مظلمة من تاريخ البشرية. إن الأمم والمواثيق الدولية تجمع اليوم وتشدد على منع الرّق والعبودية والاتجار بالبشر، والاعتداء على حقوقهم الأساسية، ومنعهم من ممارسة حياتهم وأعمالهم وحقوقهم التي تكفلها الشرائع والأعراف والدساتير والأنظمة الوطنية والدولية.

ومن أنواع الظلم ما يقع على المستضعفين الذين لا يستطيعون ردّ الظلم، مثل الغرباء والأطفال والأيتام وعابري السبيل واللاجئين والمهاجرين وكبار السن والمعوقين والمستخدمين وفئة من أصحاب المهن والأعمال.

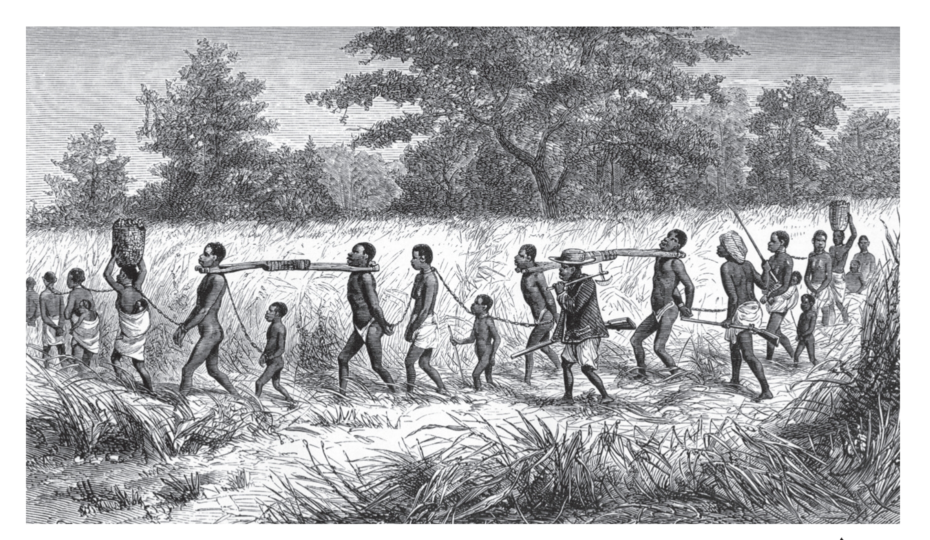
ويشمل الظلم أيضا الكائنات الأخرى غير البشرية، مثل الحيوانات والطيور والنباتات والطبيعة والبيئة والهواء، فكل ما له روح وفيه حياة ويتألم لا يجوز إيقاع الألم به، وكذلك ما يؤدي إلى الإضرار بالطبيعة والبيئة وحياة الناس، مثل التلوث، وإفساد الأرض والجو والماء بالفضلات والملوثات والغازات السامة، أو الاعتداء على الغابات والمرافق العامة.

وفي الحديث النبوي أن امرأة دخلت النار في هرّة ربطتهاربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض(صحيح البخاري) وفي الحديث أيضا أن الله غفر لرجل سقى كلبا، فعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ اشْتَدَّ علَيْهِ الْعَطشُ، فَوجد بِئراً فَنزَلَ فِيهَا فَشَربَ، ثُمَّ خَرَجَ فإذا كَلْبٌ يلهثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ العطشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَملأَ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَه بِفيهِ، حتَّى رقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَه فَغَفَرَ لَه فَأدْخَلَه الْجنَّةَ.. قَالُوا: يَا رسولَ اللَّه إنَّ لَنَا في الْبَهَائِم أَجْراً؟ فَقَالَ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ (متفقٌ عليه)

وفي الحديث أيضا (رواه مسلم) بيْنَما رجُلٌ يمْشِي بِطريقٍ وَجَدَ غُصْن شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأخَّرُه فشكَر اللَّهُ لَهُ، فغفر لَهُ.

إن المساواة في الحياة المعاصرة تقوم على التطبيق العملي والواضح للعدل كمؤشر صادق للاندماج الاجتماعي والاقتصادي لجميع المواطنين والمقيمين، على مستوى الإنتاج والاستهلاك والعمل والتفاعل الاجتماعي، وبطبيعة الحال فإن الظلم هو الاستبعاد والحرمان من المشاركة. وبدأ الاهتمام بالاستبعاد الاجتماعي بملاحظة آثار البطالة والحرمان من الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية، ثم اعتبرته الأمم المتحدة بأنه الحرمان من الحقوق الاجتماعية والمدنية، كالتعليم والصحة والعمل، وتؤكد الأمم المتحدة في مواثيقها وتقاريرها على خطورة التمييز على التنمية والسلم الاجتماعي، ومنها على سبيل المثال

تكون بعض الجماعات أقل تطرفا وعنفا من بعضها الآخر، لا يعني أنها مختلفة عن بعضها في المحصلة والأفكار المؤسسة، كما أنه اختلاف لا يجعل هذه الجماعات مؤهلة لدور إيجابي ومشاركة صحيحة في الحياة العامة.


ديفيد ليفينغستون

الفروق بين الذكور والإناث أو بين الفئات الاجتماعية في الفرص والمعاملة والميراث والتعليم والصحة، فاللامساواة لست خطأ فقط، لكنها كما يؤكد تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية (2018) مصدر خطر، يكن أن يغذي الكراهية والتطرف، ويقوض أسس التنمية الشامة والمستدامة للجميع، وتلحق ضررا بالغا بالتماسك الاجتماعي، وبدأت الأمم المتحدة منذ العام 2010 تصدر في تقريرها السنوي مؤشرات رقمية حول اللامساواة في العالم معتبرة إياه مؤشرا على التنمية والتقدم.

وركزت نقاشات الأمم المتحدة كما في التقرير السنوي لعام 2017 على التفاوت في الدخل بين السكان، وأشارت إلى تقرير منظمة أوكسفام الدولية والذي ذكر أن ثمانية رجال يملكون ثروة تساوي ما يملكه 306 مليار شخص هم النصف الأفقر من البشرية. وأن 82 في المائة من ثروات العالم يملكها أعنى واحد في المائة من الناس.

والحال أن فكرة الاستبعاد الاجتماعي هي إعادة تسمية للفقر، إذ لم يعد يعرّف بنقص المال فقط، لكن بنقص القدرة، أو كما يقول أمارتيا سن «فقر القدرة» فمن الواضح اليوم أن ثمة علاقة بين التهميش وبين الأعمال والموارد التي يحوزها الإنسان، أو كما يقول البنك الدولي العجز عن إسماع الصوت والتأثير في السياسات والإنفاق العام.

لكن هل يمكن النظر إلى فرد معتزل وهو في الوقت نفسه يتمتع بمستوى صحي ومالي وعقلي جيد بأنه مستبعد اجتماعيا؟ بمعنى هل يعتبر الانسحاب الإرادي تهميشا؟ وفي المقابل أيضا ألا يعتبر أمرا جيدا ذلك الانكفاء لفئات اجتماعية و أو اقتصادية لتحمي هويتها وأسلوب حياتها، وتتضامن في تأمين احتياجاتها؟ إن كثيرا من الفقراء والفئات الاجتماعية يفضلون العزلة أو أن يقتصر الاندماج على فئتهم وذلك لأجل الحفاظ على كرامتهم وحماية أنفسهم من الاساءة، كما أنهم بذلك يحافظون على خصوصيتهم وهوياتهم الثقافية، فهل هو أمر جيد أن تفقد فئات وطبقات اجتماعية خصائصها وهوياتها في حال اندمجت بالمجتمع المحيط؟

قد لا يعتبر تهميشا وحرمانا أن يقتصر اندماج الأفراد على بيئتهم الخاصة، حتى لو كانت هذه المجتمعات في مجملها فقيرة ومهمشة بالنسبة للمجتمع الكبير، ولكن التهميش يمكن أن يتحول هنا إلى اجتماعي أو فئوي، وقد يكون أبلغ في الإساءة والحرمان، ويحكم على أجيال متتابعة بالبقاء في دائرة الفقر والتهميش، حتى لو كانت هذه الفئات تفضل التهميش على الاندماج، أو كانت راضية بأسلوب حياتها. ويشكل «الغجر» مثالا صارخا على المجموعات التي صارت تفضل التهميش مع الخصوصية والحفاظ على أسلوب الحياة.

وهناك نوع آخر من العزلة الاجتماعية، يمارسها الأغنياء، وهو سلوك وإن كان ترفعا فإنه في المحصلة يؤدي إلى عزلة فئة من المجتمعات وتغييبها، وقد تتعرض مع الزمن إلى الاستبعاد أو تستهدف بالعنف والنبذ الاجتماعي والسياسي وخاصة في الانتخابات العامة، كما ينشئ صراعا اجتماعيا عنيفا، وتنشئ هذه الطبقات أيضا في عزلتها ثقافة وأنماطا من السلوك وأساليب الحياة المختلفة والمتخلفة أيضا.

> اللامساواة لست خطأ فقط، لكنها كما يؤكد تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية (2018) مصدر خطر، يكن أن يغذي الكراهية والتطرف، ويقوض أسس التنمية الشامة والمستدامة للجميع، وتلحق ضررا بالغا بالتماسك الاجتماعي.



فالمجتمعات تطور ثقافات وأساليب حياة مستمدة من التفاعل مع العالم تكون على قدر من التكيف والاستجابة للسياق العالمي في حين تظل المجتمعات المنغلقة متخلفة عن السياق العالمي؛ حتى لو كانت غنية، وعلى سبيل المثال فقد تخلت شريحة واسعة من المجتمعات عن الزواج المبكر، لكن جيوبه مازالت راسخة في طبقات غنية، كما تتجه الاجيال الجديدة إلى التكافؤ والمساواة بين الزوجين في التعليم والعمل وإدارة البيت والأسرة، وصار ضرب الأطفال في المدارس والأسر مرفوضا بعدما كان متقبلا وسائدا؛ لكنها مازالت لدى فئات غنية تنتمي إلى مرحلة سابقة تجاوزها العالم، وهي قيم عالمية لا يمكن ملاحظتها واقتباسها إلا في بيئة من التفاعل والمشاركة.

وتعاني مجتمعات كثير من التمييز الطبقي أو الاجتماعي، وبسبب هذه السياسات والثقافات تتعرض فئات واسعة من الناس للاستبعاد والظلم، مثل السود في مجتمعات ذات أغلبية من غير السود، والسكان الأصليون في بلاد غلب عليه المهاجرون المستوطنون مثل السكان الأصليين في القارة الأمريكية قبل استيطانها من قبل الأوروبيين، والسكان الأصليين في أستراليا، ومازال التمييز الطبقي في الهند وجنوب آسيا راسخا برغم حظره قانونيا، وتتعرض الأقليات الدينية والإثنية في بلاد كثيرة للظلم والاستبعاد، مثل الروهينغا في ميانمار (بورما)

وتتعرض أعداد كبيرة من الناس للتعذيب في السجون والمعتقلات وأماكن العمل والإقامة على يد موظفين حكوميين أو خارج سلطات وعلم الحكومات أو بالتواطؤ معها، وقد حظرت الأمم المتحدة التعذيب، ووقعت معظم دول العالم على المعاهدة الدولية لمناهضة التعذيب (1986) ومعاهدات جنيف لحقوق الأسرى والجرحى والمدنيين في الحروب (1949) فإن تقارير المنظمات الدولية والكتب والروايات والتقارير الصحفية التي تصدر حول العالم تؤكد وجود ممارسات واسعة للتعذيب الجسدي والنفسي والإهانة والاغتصاب؛ تجري في دول ومجتمعات كثيرة. ومن أشهر الكتب التي تحدثت عن التعذيب كتاب «السؤال» تأليف هنري علاق، ويعرض بالتفصيل أساليب التعذيب التي كان يستخدمها الفرنسيون في الجزائر.

خبائث الفكر:
سوء النية والنفاق والغيبة والحسد والخداع والكبر والكذب والإهمال والجشع.
بوذا

تتمة عالم واحد - 17

أن ثمة جدلا خاصا بها يكون ملازما لها، جدلا لا يشبه على الإطلاق جدل الإدراك العلمي.

ومن المهم التوضيح أيضا أن الأسطورة في معناها العلمي ليست الخرافة، ولكنها من السطر بمعنى الكتابة، وفي القرآن «ن. والقلم وما يسطرون» «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» وهي اجابات وافكار فلسفية متصلة بالكون والحياة والموت حملت في رموز وقصص وحكايات تبدو خارقة للعادة او خرافية، ولكن قيمتها الأساسية في معناها الاساسي والجوهري وما ترمز اليه، ولم تكن القصة سوى حيلة للحفاظ عليها واستمرار وسهولة تداولها، وليس مهما في الدراسة والتحليل أن تكون القصة قد حدثت أو لم تحدث، ومن المدهش أن الفيلسوف السرياني قثامى الكسداني قال ذلك في كتابه «الفلاحة النبطية» الذي ألفه في القرن الثاني الميلادي.

6III- التكفير

يؤسس تكفير الناس أفرادا أو جماعات أو أمما أو دولا وأنظمة سياسية للكراهية والعنف وتبرير كل المشاعر والتجاوزات والممارسات المناهضة للضمير الإنساني والشرائع والقوانين، ولذلك يمكن اعتباره أحد أشكال القسوة والكراهية الخطيرة، ذلك أنه في الواقع العملي شكل دافعا قويا لجماعات كثيرة وأعداد واسعة لممارسة الإرهاب والقتل والخروج على القانون، بل وارتكبت باسمه جرائم بشعة جدا، مثل قتل عشرات المصلين في المساجد في سيناء في مصر وفي العراق، وفي المقابل فقد ارتكبت بدافع الكراهية والنفور الديني جريمة بشعة بحق المسلمين في أثناء الصلاة في نيوزيلندا وفي الخليل في فلسطين، وتعرض السياح المستأمنون لجرائم قتل وخطف، كما هجرت أعداد كبيرة من المسيحيين والأزيديين في الموصل شمال العراق على يد تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» ووقعت في التاريخ الأوروبي حروب وعمليات واسعة للقتل والتعذيب بسبب الخلاف الديني بين الكاثوليك والبروتستنت، كما حدثت حروب وانقسامات سياسية وصراعات أهلية كبيرة ومحزنة في جنوب آسيا بسبب الخلافات الدينية بين المسلمين والهندوس.

لقد استقر السلوك الإسلامي على عدم تكفير «الأعيان» أي تكفير فرد معين أو جماعة معينة بالتعيين أو التحديد، والاكتفاء بالمقولات والمبادئ العامة إن لزم الأمر دون إصدار أحكام على أحد أو فئة من الناس، كما نهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» العنكبوت 46 ووصف جميع المعابد بأنها يذكر فيها اسم الله كثيرا «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» الحج 40 كما أن الله يقبل من جميع الناس إيمانهم به وعملهم الصالح «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» البقرة 62

تطور الفكر والسلوك التكفيري في عالم المسلمين المعاصر في وسط جماعة الإخوان المسلمين، ويعتبر كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» الإعلان المؤسس لهذا الاتجاه الذي اكتسح جماعات الإسلام السياسي حول العالم، ثم انفتح باب للفتنة والشرور بنشوء جماعات متطرفة ومسلحة حشدت حول التكفير والمفاصلة مع المجتمعات والدول أنصارا ومؤيدين وفئات اجتماعية متحالفة، ودخلت في عمليات عنف وكراهية أدت إلى انقسامات اجتماعية وحروب أهلية وإقليمية ودولية.

كان «التكفير» هو مبتدأ الشرور وأعمال القسوة والعنف والكراهية، وتطور التكفير في وسط الشعور بالتميز والاختلاف والاستعلاء التي ادعتها جماعات الإسلام السياسي ومنحتها لأنصارها ومؤيديها، وسأكتفي في المساحة المتاحة بعرض مختصر لأفكار ومقولات سيد قطب في كتابه «معالم في الطريق» والردّ عليها

إن الذين يجعلونك تعتقد بما يخالف العقل قادرون على جعلك ترتكب الفظائع.
فولتير

باختصار، لكن في مقدور القارئ أن يجد اليوم مئات الكتب والدراسات التي ناقشت الموضوع.

يقول سيد قطب إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع من قرون كثيرة، ولا بد من إعادة وجود هذه الأمة، فالعالم اليوم يعيش كله في «جاهلية» «ونحن اليوم في جاهلية مثل التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، .. تصورات الناس وعقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم، وثقافتهم وفنونهم وآدابهم وشرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية وفلسفة إسلامية وتفكيرا إسلاميا هو كذلك من صنع الجاهلية». ولأجل ذلك يقول سيد قطب «لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي، والتصورات الجاهلية، والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية، في خاصة نفوسنا، وإن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته»

ويكون الجهاد في سبيل الله لأجل إقامة ما يصفه سيد قطب «مملكة الله في الأرض» ولذلك فإن كل قتال دفاعا عن أوطان أو صد عدوان عليها ليس جهادا، فلا جهاد إلا لأجل تحرير الإنسان برده إلى عبودية الله والتي هي اتباع ما أمر الله، وإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ.

لكن ما هو المجتمع الجاهلي؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟ يتساءل سيد قطب، ويجيب إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم، «وإذا اردنا التحديد الموضوعي قلنا إنه كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده، متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية، وبهذا التعريف الموضوعي تدخل فعلا في إطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض. بما في ذلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة!»

وفي المقابل يصف سيد قطب المجتمع الإسلامي بأنه «المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وشريعة وعبادة ونظاما وخلقا وسلوكا، ويمتد ذلك الى الثقافة والفنون والمعارف الإنسانية والاجتماعية، وليس من مجال للتلقي في الحضارة والثقافة عن غير الله، .. يمكن ذلك في العلوم البحتة والتقنية... فشريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم واصول الأخلاق واصول السلوك، وأصول المعرفة أيضا».

ويقول قطب إن اتجاهات الفلسفة بجملتها واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها، واتجاهات علم النفس بجملتها، ومباحث الأخلاق بجملتها واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها، .. كلها في الفكر الجاهلي أي غير الإسلامي قديما وحديثا متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات ومعظمها إن لم يكن جميعها يتضمن في أصوله المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الديني جملة وللتصور الإسلامي على وجه خاص.

وقد يكون تصور الجهاد في الإسلام كما قدمه وعرضه سيد قطب في كتابيه في ظلال القرآن ومعالم في الطريق مثالا كافيا

الرموز أفعال ثقافية، وأحداث اجتماعية تمتاز كما يصفها عالم الانثروبولوجيا كليفود غيرتز بالعمومية والعلنية لكنها ليست الشيء ذاته، مثل الفرق بين المنزل ومخطط المنزل.

من المتوقع في مواجهة عالم يحتضر وتختفي مؤسساته وأعماله وموارده وقيمه وأفكاره أن تسلك الأمم والمجتمعات في أحد اتجاهين: النكوص إلى الماضي ومحاولة استعادته والتمسك به تعويضاً عن الواقع المرّ، أو محاولة استيعابها والتغلب عليها وتوظيفها إيجابياً.

أرنولد توينبي

باعتبار هذا التصور هو المؤسس لجماعات العنف، فبعد عرض مراحل الجهاد في الإسلام كما في كتاب زاد المعاد لابن القيم يصف سيد قطب الجهاد بالقول هو تقديم الإسلام إلى العالم في وذلك يجب إزالة الأنظمة والسلطات التي تحول بين الناس وبين التصحيح والبيان للمعتقدات والتصورات، ..

و»مملكة الله في الأرض» تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة. وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة . وإلغاء القوانين البشرية . . ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في « الأرض « لإزالة « الواقع « المخالف لذلك الإعلان العام بالبيان وبالحركة مجتمعين، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تحكم بغير شريعة الله.

ولا مجال بالطبع كما يؤكد سيد قطب للاستشهاد بآيات قرآنية مستقلة أو معزولة عن سياق الدعوة والجهاد، فالكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة. كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة. هذا هدف أولي لا بد منه، ولكنه ليس الهدف الأخير، إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق، ويؤمن قاعدة الانطلاق لتحرير «الإنسان» ولإزالة العقبات التي تمنع «الإنسان» ذاته من الانطلاق!

هكذا فإن مفهوم الجهاد عند سيد قطب والجماعات المقاتلة باسم الدين إعلان حرب شاملة على العالم لا هوادة فيها، ولا مجال للمصالحة أو المهادنة مع جميع الدول والمجتمعات، وهكذا أيضا جرى بناء معتقدات للإقصاء والاستبداد والتهميش أو لأجل الرفض والتمرد والفوضى. وحولت الأفكار والعواطف الناشئة عن الشعور بالتهديد والمخاطر او محاولة تعزيز السلطة والوجود إلى معتقدات دينية متماسكة لعلها أكثر ثباتا وحضورا من الدين الأصلي.!

وفي تأسيس للشعور بالتميز ورفض الآخر والاشمئزار منه يدعو سيد قطب إلى «استعلاء الإيمان» وهي الحالة التي يجب أن يمتلئ بها «المؤمنون» ويؤكد أنها حال استعلاء لا تقتصر على الجهاد والقتال والنصر والهزيمة في الميادين العسكرية، «ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة، بكل ملابساتها الكثيرة. إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن، وتصوره، وتقديره للأشياء والأحداث، والقيم والأشخاص سواء» ويحدد محتوى واتجاهات هذا الاستعلاء على قوى الأرض وقيمها وتقاليدها وقوانينها وأوضاعها، وهو موقف كما يصفه لا يتردد ولا يهادن ولا يصالح ولا يساوم، وبهذا الاستعلاء «ينظر من عَلٍ إلى القيم السائدة، والتصورات الشائعة، والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات، والجماهير» فالمؤمن هو الأعلى من كل ما يقدمه «ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب، سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديما، وما انتهت إليه العقائد وما اعتسفته المذاهب»

والمؤمن «حين يراجع كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً، ويقيسه إلى شريعته ونظامه، فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخبط العميان، إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل. وسينظر إلى البشرية الضالة من عَلٍ في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال.»

أرجوك اعتن بأمي.. رواية كورية تعبرعن القيم العالمية

عالم واحد - 18

حظيت رواية ارجوك اعتن بأمي، تأليف الروائية الكورية الجنوبية؛ كيونغ سوك شين بإقبال كبير، وبيع منها في السنة الأولى لصدورها (2011) مليون نسخة وبيع منها في 2012 مليونا نسخة، ووزع منها 10 آلاف نسخة في طبعة خاصة للاحتفال بالرواية التي حصلت على جائزة مان الآسيوية وهي أول امرأة كورية تحصل على هذه الجائزة.

القصة تروى على لسان الابنة تشي هون وتبدأ احداثها بفقدان الوالدة بارك سونيو واجتماع العائلة المكونة من الأب والأبناء للبحث عن الوالدة المفقودة... كانت العائلة تعيش في قرية زراعية، ولكن الأبناء تعلموا في المدارس وذهبوا إلى العاصمة، وكبر الوالدان وبقيا وحدهما في القرية، وفي أثناء انتقالهما لزيارة بيت أحد أبنائهما ضاعت بارك سونيو في محطة القطار. وتبدأ التداعيات والذكريات منذ تلك اللحظة، فتتذكر تشي هون الحياة في القرية وكيف تعلمت مع إخوانها في المدرسة. وتتذكر كيف كان يعلمها أخوها القراءة والكتابة وأن الكبار كانوا يبذلون جهدا ويلجأون إلى الضرب احيانا لمنعها من استخدام يدها اليسرى، ذهبت تشي هون إلى المدرسة وباعت أمها لأجل ذلك خاتمها الذي لم تكن تملك غيره.

بدأت بارك سونيو وقد تجاوزت السبعين تفقد القدرة على التركيز، عندما زارتها تشي هون فجأة في القرية وجدتها وحيدة شبه مغمى عليها، تعاني من صداع شديد، ووجدتها في الصباح عندما استيقظت نائمة خارج البيت بدون غطاء، فغطتها وعندما استيقظت

ولا يغير من موقف «المؤمنين» كل ما عليه الآخر حتى وهو مؤمن مثله ويصلي ويصوم ولكنه «آخر» جاهلي «فهي حكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الإغراء، لا قربى من حاكم، ولا اعتزاز بسلطان، وإنما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد»

مرجح بالطبع أن كثيرا ممن يقرأ هذه النصوص المتدفقة في بيان موسيقي مؤثر ومدهش أنه سيجد مشاعره السلبية وهمومه بسبب الفشل والعجز عن الاندماج أو شعوره بالذنب أو التقصير سوف يجد نفسه قادرا على أن يكون نقيا وخالصا من كل نقص حين يحول عيوبه ومشاعره إلى بطولة وإنجاز. ويمكن ملاحظة التأثير القطبي في آلاف الحالات والأمثلة من الجماعات والكتب وأبحاث الماجستير والدكتوراه واتجاهات التدين والمواقف السياسية والاجتماعية والعلاقات والسلوك اليومي، والمؤسسات التعلمية والثقافية والاقتصادية،....

يعتبر كتاب حسن الهضيبي «دعاة لا قضاة» والذي ألف عام 1969 للردّ على الفكر القطبي التكفيري الذي اكتسح الإخوان المسلمين في الستينات من أفضل الردود وأهمها على الفكر التكفيري.. لكن لا يبدو الكتاب (دعاة لا قضاة) منتشرا بين الإخوان المسلمين ولا يبدو في تأثيره مثل سيد قطب الذي استطاع أن يحول الإخوان المسلمين وكثيرا من جماعات الإسلام السياسي في انعطافة كبرى ويجعلها على حال مختلف عن فكرتها المنشئة وفي حالة اختلاف كبير عن أفكار وتصورات مؤسسها حسن البنا، بل واتبعت أيضا سيد قطب جماعات التحرير والجهاد والقاعدة.

يركز الهضيبى على مناقشة الحكم والموقف الذي بنته جماعات الإسلام السياسي والقتالي حول الآية القرآنية «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» وفي ذلك فإنه يقدم تأصيلا مهما للحكومات الإسلامية «الواقعية» ويرد الموقف والفهم

جماعات الإسلام السياسي تفهم الآية «إن الحكم إلا لله» وكأنهم يعتقدون أن الله هو رئيس الوزراء!.

تتمة عالم واحد - 18

بدأتا تحضران الإفطار معا، ولكنها كانت تعدّ الطعام بطريقة مخيفة، تقطع اللفت على نحو يهدد اصبعها، وطهت الاخطبوط من غير تنظيفه، وتناولته بيدها، وكانت في بعض الاحيان توقع اللقمة على الأرض،... قالت لها تشي هون يجب أن تذهبي معي لزيارة المستشفى ومراجعة الطبيب، ولكنها رفضت وقالت إنها ستذهب الى الطبيب الصيني وتأخذ علاجا طبيعيا لرقبتها، ويتبين فيما بعد أنها تعرضت بدون علم وملاحظة أحد إلى سكتة دماغية!

لقد تحولت بارك سونيو إلى كائن غامض، سألت ابنتها تشي هون ما أصغر بلد في العالم؟ أريد من هناك سبحة مصنوعة من خشب الورد! وأصبحت حواسها واهنة، في أحد الأيام وضعت على موقد الغاز إناء مليئا بالماء والخرق لأجل تنظيفها، ولكنها وقعت على ارض المطبخ، وجف الماء واحترقت الخرق وامتلأ المطبخ بالدخان، وكاد المنزل يحترق لولا أن إحدى الجارات انتبهت. وافقت بارك سونيو ان ترافق ابنتها الى سول، وبعد مراجعة لعدة أطباء أخبرها احدهم أن والدتها تعرضت لسكتة دماغية...

في مسألة الحكم الى القواعد الاساسية في الدين، ومنها أن «حكم الناطق بشهادتي (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) أن نعتبره مسلما تجري عليه أحكام المسلمين، وليس لنا أن نمحض صدق شهادته»، ولم ترد «الحاكمية» «حاكمية الله» في الكتاب والسنة ولكنه مصطلح حديث، ولكن ورد لفظ الحكم «إن الحكم إلا لله» (سورة يوسف 40) وهناك أيضا قوله تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (النساء 65)..

ويقول الهضيبي: «وقد توهم البعض في قول المودودي (المصطلحات الأربعة في القرآن) أن من مقتضى الإيمان ألا يكون الحكم والأمر والتشريع إلا بيد الله استحالة أن يأذن الله على للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التي تنظم جانبا من حياتهم، .. وهذا فهم خاطئ، كما أن عقولنا ليست حاكمة على الله بشيء، فلا يجوز لمسلم أن يجعل من عقله حدّا لسلطة الله تعالى، والذي ينفي أن يكون الله عز وجل أذن للناس في وضع بعض التشريعات أو التنظيمات إنما يحدّ بعقله من سلطان الله».. والحق أن الله عز وجل ترك لنا كثيرا من أمور دنيانا ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا في إطار مقاصد عامة وغايات حددها سبحانه وتعالى وأمر بتحقيقها، وبشرط ألا نحل حراما أو نحرم حلالا» ولا يملك أحد ان يبيح محرما، وأما المباحات فإن للمسلمين أن يسنّوا فيها من الأنظمة التي قد تتخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون، وهي تشريعات لا يجوز أن يزعم أحد أنها من تشريع الله..

وما من احد إلا وغاب عنه شيء من أحكام الشريعة وبعض من أوامر الله، وما من أحد إلا وقد أخطأ في حكم من أحكام الشريعة، فليس بعد النبي المعصوم معصوم، وعامة الناس أقل علما وأقل قدرة على النظر في الأدلة وأكثر خطأ في فهم النصوص واستنباط الأحكام الشرعية منها، وجلّهم عاجز عن النظر في الأدلة جاهل بمعرفة كيفية إقامة البراهين لمعرفة الحكم... « فمن أخطأ في اعتقاد او حكم جهلا فإنه وإن كان مخطئا محكوم بإسلامه وإيمانه» حتى الرسول يمكن أن يخطئ في الحكم كما في الحديث «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر مثلكم، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه من الآخر، فأقضي على نحو ما اسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»..

ويرد على القائلين بأن الحاكم بمعنى ولي الأمر الذي لا يحكم بما أنزل الله كافر،

«لا بد حتى يكون الحكم بالكفر أن يكون معلنا بالكفر وان يكون متبرئا من دين الإسلام جملة وعلانية بحيث لا يجوز الاختلاف في حقيقة صفته»

الهضيبي

بصريح قوله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» وقالوا أيضا إنه حكم معلوم من الدين بالضرورة فمن توقف عن الحكم على ذلك الحاكم بالكفر فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة، وأن من لم يحكم بتكفير ذلك الحاكم فهو بدوره لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وهكذا.. يقول الهضيبي: «وقد توهم البعض أن قول الله عز وجل «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» مقصود به الحاكم بمعنى ولي الأمر أو القاضي، وهذا غير صحيح، وإنما الآية عامة في كل حكم في دين الله تعالى، سواء كان ولي أمر أو قاضيا أو مفتيا او غير ذلك من عامة الناس، إذ ان تخصيص النص بغير برهان مما لا يجوز شرعا، ذلك أن معنى الحكم هو إنفاذ الأمر في قضية ما، وهو في الدين تحريم أو إيجاب أو إباحة مطلقة أو بكراهية أو باختيار، (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، 49/1) فالحكم إذن بإنفاذ الامر أو وضع صفة شرعية للشيء أو الفعل.» وفي قواميس اللغة فإن من معاني الحكم القضاء، والحكمة، والإتقان والتصرف أو التحكم، والحكم: التنفيذ....

وعلى هذا الأساس فإن كل قرار أو فعل او اعتقاد هو حكم أو مبني على حكم ..يقول: «.. وإذ ذلك هو معنى الحكم فإن كل معتقد في دين الله يكون باعتقاده حاكما فيما اعتقد، ويكون كل قائل في دين الله حاكما بقوله فيما قال به، ويكون كل عامل حاكما بعمله الذي فعله، ويستوي في ذلك ولي الأمر والقاضي والمفتي وأي شخص» وقد ورد في الخبر الصحيح أن ابن عباس وطاووس اليماني قالا إن الآية ليست على ظاهرها وإطلاقها وإن الكافر هو من حكم بغير ما انزل الله جاحدا وبذلك قال السدي وعطاء وجميع فقهاء اهل السنة.. وجميع الفرق الإسلامية «

ويحتج البعض بالآية القرآنية «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» (النساء 60) والآية «والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى» (الزمر 17) والطاغوت في اللغة عند العرب ما عبد من دون الله، الوثن او الشخص، وقد يكون الشريعة الزائدة عن حد الله تعالى.. وفرق كبير بين أن نكفر بالطاغوت فننكره ونجحده ونكذب بدعواه ولا نتبعه ولا نطيعه وبين ان نصدر عليه حكما بانه كافر، فهذه قضية وتلك قضية أخرى متمايزة عنها ومختلفة.

وأخيرا يؤكد الهضيبي أنه «لا بد حتى يكون الحكم بالكفر أن يكون معلنا بالكفر وان يكون متبرئا من دين الإسلام جملة وعلانية بحيث لا يجوز الاختلاف في حقيقة صفته، أما من يظهر الإسلام ويأتي علنا شعائره ولكن يكون كفره من جهة تحتاج إلى علم ببعض أعماله وأقواله على حقيقتها وعلى حقيقة أمر الله تعالى فيها فهذا في الأغلب مما تختلف فيه الآراء ويخفى أمره على كثير من الناس خاصة عامتهم، فلا يتأتى القول بأن عامة الناس أو المتأولين قد خرجوا عن الحكم الواجب وصفه به، وأنهم بذلك آثمون أو كافرون» عدا أيضا عن الإعذار بالجهل والخطأ والإكراه...

حتى الرسول يمكن أن يخطئ في الحكم كما في الحديث «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر مثلكم، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه من الآخر، فأقضي على نحو ما اسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»

7III- حرب الأفكار:
كيف نحمي أنفسنا ومجتمعاتنا من الكراهية والتطرف؟

يظل التطرف والكراهية موقفين ثقافيين أولاً، والصراع معهما ثقافي، فما من شك، ثمة متطرفون وكارهون مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم بسبب الكراهية، وهم على مستوى من الانتشار والتواجد ما يكفي لحروب أهلية مدمرة. وأخطر من ذلك أن كثيرين منهم يظهرون فجأة على نحو غير متوقع ومن دون معرفة مسبقة بمواقفهم ونواياهم، وفي ذلك يجب الإقرار بأن البيئة الثقافية والعالمية السائدة تشجع على الكراهية وتحتضنها، وتنتجها أيضاً، وأن السياسات والعمليات الثقافية المتبعة لم تنجح في إنشاء بيئة ثقافية تواجه ثقافة الكراهية.

المدخل الأساسي والأهم والذي لا يمكن أيضاً تجاوزه في مواجهة الكراهية والتطرف هو الثقافة والتمدن، فعندما يكون كل من العنف والتطرف والكراهية منبوذاً ومكروهاً في المجتمع، ينحسر ويكاد يختفي، ويقتصر على قلّة من الخارجين على المجتمع أو الخارجين منه، وهذا يخفض مستوى المواجهة والتوتر. وفي جميع الأحوال، فإننا نستطيع أن نقلل العنف والكراهية بنسبة كبيرة جداً بمنظومة التمدن والسلوك المدني الذي يحمي المدن ويرتقي بها ويجعلها بيئة للسلام والأمن، وهذا يشمل أيضاً الجريمة والحوادث المرورية والضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية.

إن الطبقات الوسطى المشكّلة للمدن والتمدن تملك في العادة (أو يجب أن تملك) رؤية واضحة واعية للحياة والمكتسبات التي تريدها. وبسبب الفجوة بين ما ترغب فيه وبين الإمكانات المادية للفرد من أبناء الطبقة الوسطى، فإن المجتمعات والطبقات تتصالح وتتعاون على منظومة من التشريعات والبرامج والمؤسسات والسلوك وأسلوب الحياة، وعقد اجتماعي ينظم ويدير هذه المنظومة وفق ما يحقق أهداف الفرد وسعادته ويحميه. وهكذا كانت الفردانية والديموقراطية والثقافة والفنون والجمعيات والنقابات والمبادرات الفردية والإبداع، وكانت أيضاً حالات من القسوة والتطرف والجريمة والانحراف.

يفترض أن نظام المدينة يصلح نفسه بنفسه، فإذا تُرك العقد الاجتماعي المنبثق أساساً من الفردية يعمل، فإنه ينتج حلوله الخاصة بقدر من الحيوية والتطور والتراكم يجعل المشكلات والعيوب تتناقص، فالطبقات الوسطى تحتاج أن تنشئ نظاماً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً يحقق تطلعاتها ورؤيتها واحتياجاتها بأفضل مستوى ممكن، ولأجل ضمان هذه المنجزات وتطويرها، أنشئت المجالس البلدية والجمعيات المهنية، والمسارح والفنون والآداب، ونشأ المجتمع المدني ليوفق بين مطالب الفرد وحمايته وبين وجهة الحكومات والشركات، ولأجل أن تحقق الضرائب التي يدفعها المواطنون عائداً حقيقياً في حياتهم وتطلعاتهم، ولكن ضمانة حماية هذا العقد الاجتماعي وتحقيق أهدافه تأتي من الفردانية. فالأغلبية المعبرة عملياً عن المدينة والعقد الاجتماعي يجب أن تحمي الأقليات والأفراد، وأن تتيح لهم العمل والنشاط لأنهم بمبادراتهم وبقائهم على الأقل يضمنون عدالة الديموقراطية والأغلبية،

ويجعلون النظام قادراً على الرقابة والتغيير والإصلاح. فتغييب الفرد يؤدي حتماً إلى الاستبداد وفساد الديموقراطية نفسها. وبذلك، فإن المدن تنشئ نظاماً اجتماعياً وثقافياً دقيقاً ومتوازناً، يحمي حقوق الناس ومصالحهم وخصوصيتهم، ويمنحهم أيضاً الدفء والانتماء.

والأكثر شذوذاً في المدن هو «التطرف»، وما ينشأ عنه من عنف وصخب وفضول وتطفل وتشدد. وهكذا، فإن بين التطرف والتمدن عداوة كبيرة، تجعل التمدن الضمانة الأساسية لمواجهة العنف والتطرف وتحقيق الأمن.

يبدأ التضامن والتماسك بمساعدة أهل المدن وأطفالها على العيش معا؛ أن يكون في مقدروهم المشي واللعب في أمان والمشاركة الثقافية والاجتماعية في مدنهم وأحيائهم والعمل والتفكير بأنفسهم، وأن يجدوا قريبا منهم حدائق ومسارح ومجالاً للإبداع.

والحال أن الكراهية أبعد بكثير من مشاعر سلبية، إذ هي متوالية من العلاقات والسياسات والمشروعات والصراعات والأفكار التي تطور الخلاف وحتى الحروب والصراعات إلى حالة أكثر قسوة وتدميرا. فالكراهية والحقد يختلفان عن العداء. العداء عمليات صراع لها قواعد وتقاليد، ولكن الكراهية والحقد مرض خطير ومشاعر سلبية تلحق الضرر بأصحابها وبمنظومة الحياة، ولا تخدم الاختلاف ولا الصراع والعداء إلا بما يزيدها تعقيدا وخسارة، ويجعل نتائجها مدمرة وعلى نحو يمتد في المستقبل. والعداء ينتهي غالبا بتسويات يقبل بها الطرفان، وقد يتحول إلى

أن الكراهية أبعد بكثير من مشاعر سلبية، إذ هي متوالية من العلاقات والسياسات والمشروعات والصراعات والأفكار التي تطور الخلاف وحتى الحروب والصراعات إلى حالة أكثر قسوة وتدميرا.

تتمة عالم واحد - 18

لعل الاختفاء يرمز إلى عدم المعرفة، فالأم برغم تفانيها في خدمة أسرتها لم تكن حاضرة في حياة أحد، ولم يكونوا يعرفون عنها شيئا، صحيح أن علاقتها بأبنائها كانت ودية ودافئة ولكنهم لم يكونوا يعرفونها..

ينشر الأبناء أعلانا في الصحيف، ويوزعون الأبناء الإعلان في الأمكنة المتوقع أن الوالدة اختفت بها ويسألون كل من يقابلونه، وقرأت الإعلان موظفة في دار الأمل للأيتام وجاءت مرات عدة إلى بيت بارك سونيو في القرية ووجدته مقفلا، وفي مرة وجدت الزوج، قالت إنها كانت تمر عليها أو تستقبلها في دار الأيتام وتقرأ لها من كتاب، وكانت هي تأتي إلى دار الأيتام تتبرع بالنقود وتساعد في العمل.. علم الزوج للمرة الأولى أنها كانت تذهب الى هناك منذ عشر سنوات، كان أبناؤها يرسلون إليها كل شهر 650 ألف وان وهو مبلغ لا بأس به، ولكنها كانت تتبرع بـ 450 ألف وان، قالت هونغ تاي موظفة الدار إن الأولاد كانوا يتلهفون لزيارتها وينتظرونها بشوق، وكان أحدهم وقد أسمته كيون يعتبرها أمه، واشترت له حقيبة مدرسية وقرطاسية ليستعد لدخول المدرسة الإعدادية.

كان الكتاب الذي تحمله هونغ تاي هو كتاب الابنة، لم تكن تعلم أنها ابنة بارك سونيو، ولكنها لاحظت من الكتاب أن المؤلفة تعود أصولها إلى هذه القرية وأنها درست فيها المرحلة الابتدائية!

عندما أقام الابن البكر في بيته في سول بدأت أمه تزوره من القرية، كانت تأتي محملة على رأسها وكتفيها وفي خصرها

صداقة أو حياد. وقد يستمر العداء، ولكنه يظل في إطار الاتفاق والتسويات التي تجري.

الكارهون والحاقدون يشكلون خطرا على أنفسهم وعلى المجتمعات والدول. وفي حالات الصراع، يلحقون ضررا بالغا بإدارة الصراع، ويُفشلون السياسيين والعسكريين ويمضون بالصراع إلى الانتحار والهاوية. ويحولون الاحداث إلى ذاكرة ممتدة تؤسس لكراهية متواصلة بل وتنشئ مذاهب وطوائف جديدة، ما تجب ملاحظته والتفكير فيه ملياً، هو أن كثيرا من المواقف السياسية والفكرية والكتابات والعلاقات والتحالفات وأنماط الحياة والسلوك الاجتماعي واليومي مستمدة على نحو غير واعي من الكراهية والحقد، فتنشئ متوالية من التدمير والفشل اللذين لا يردّان غالبا إلى الكراهية، إذ يلتبسان على الفهم والتحليل ويصعب التمييز بين الفكرة والكراهية.

هناك وعي إنساني جديد يتشكل في العالم، ينشئ قيما وموارد وثقافات جديدة، إذا لم نسارع في استيعابها واستدراكها نتحول جميعا إلى أمم لا يقبلها العالم ولا تقبل العالم. فاليوم، يكاد العالم يتغير تغيرا جذريا، في الأفكار والقيم وأسلوب الحياة، ومعنى القوة والضعف، والتقدم والتخلف، والثراء والفقر، والانتماء والمشاركة. ولم تعد المدارس والجامعات والمؤسسات العامة والاقتصادية والأعمال والمصالح كما كانت عليه. يجب على الدول والمجتمعات إدراك أنها بحاجة لتعلم مهارات وخبرات وعلوم ومعارف ومبادئ جديدة في الحياة والعمل والموارد والتقدم والتنمية، أو أنها مهددة بالتحول إلى مجاميع تتقاتل على الماء والكلأ.

ما من احد إلا وغاب عنه شيء من أحكام الشريعة وبعض من أوامر الله، وما من أحد إلا وقد أخطأ في حكم من أحكام الشريعة، فليس بعد النبي المعصوم معصوم

فالمكان يؤسس لرواية المواطنة والدولة والمجتمع بدلا من الإثنيات والايديولوجيات؛ والتعاون والتنافس والعمل المشترك تحلّ بدلاً من مقولات الوحدة والاندماج المثالي أو المستحيل أو الارتداد إلى الصراع المرير؛ وتحويله إلى مؤسس للهوية والتجمع والتضامن، وتشكل المعرفة والأعمال اليوم الاقتصاد بدلاً من الموارد المادية المباشرة؛ والتنظيم والإدارة بدلاً من الأموال والنقود. والزراعة تعود من جديد أساساً لتنظيم الموارد والصناعات والثقافة والعلاقات الاجتماعية والفنون والآداب؛ والمدارس والجامعات تشاركها بل وتغير فيها شبكات الاتصال؛ وكثير من المهن والأعمال تحل بدلاً منها خبرات مجتمعية وشبكات جديدة من المعارف والعلاقات. والأفكار والاتجاهات لم تعد تنشئها أو تمنعها اتجاهات وتشريعات سياسية مركزية وإن كانت تؤثر فيها، والعالم يتغير والمجتمعات تتغير، والأفكار والاتجاهات تتغير أيضاً.

تتمة عالم واحد - 18

بالمنتجات التي أعدتها في القرية، وكان ابنها يتعجب عندما يأتي إلى محطة القطار لإحضارها كيف استطاعت امرأة أن تحمل كل هذه الرزم!

الوالدة لم تظهر، ولكنا تعرفنا في الرواية على التحولات الاجتماعية والثقافية التي جرت في كوريا في انتقالها من بلد زراعي فقير إلى بلد صناعي متقدم، .. وفي ذلك يدفع كبار السن ثمنا كبيرا، وهم يفقدون أبناءهم وأسلوب حياتهم..

نعيش اليوم حالة انتقالية يغلب عليها عدم اليقين، فالدول الحديثة القائمة اليوم تشكلت وفق رواية قومية؛ دولة الأمة، فلم تكن الدول المستقلة قبل الحرب العالمية الأولى تزيد على 20 دولة، ولكنها اليوم مئتا دولة وفقاً لعضوية الأمم المتحدة. وصعدت الليبرالية والماركسية والفوضوية تعبيراً عن أزمة وعجز القومية، وفي مقابلها صعدت أيضاً الحركات اليمينية المتطرفة، وأشهرها بالطبع النازية، ولكنها لم تكن الحركة الوحيدة في العالم. ثم نهضت الأصوليات الدينية رداً على الشعور بالعجز والخواء. واليوم تصعد حركات واتجاهات تبحث عن العدالة الاجتماعية، ترى في المكان رابطاً وأساساً للعقد الاجتماعي بدلاً من القومية والإثنية، وتبني السياسة على المصالح والأعمال، وتحيّد الصراعات.

مرجح أن العالم سوف ينجح في الحاق الهزيمة بالجماعات والتنظيمات الإرهابية، لكن مؤكد أيضا أن التطرف بما هو أفكار ومعتقدات ومشاعر تؤسس للعنف والإرهاب لن ينحسر إن لم يزد؛ إلا إذا أنشأت السلطات السياسية والمجتمعات استراتيجيات ثقافية واجتماعية تضمن ألا تحمل الأجيال الأفكار المتطرفة وتنضم إلى الجماعات المتشددة والإرهابية، وربما يكون الجزء السهل في المواجهة مع الإرهاب هو المواجهة العسكرية والأمنية.

كيف تنشأ البيئة الحاضنة للاعتدال والرافضة للكراهية والتطرف؟ الإجابة ببساطة ووضوح هي المنعة الفكرية والاجتماعية، لكنها أيضا ليست اجابة، فالمناعة هي الهدف العملي الذي تسعى إليه الدول والمجتمعات، وفي ذلك فإن المواجهة العملية والحقيقية مع التطرف ليست استراتيجية خاصة مستقلة عن عمليات الإصلاح والتنمية في سياقها العام والشامل. يمكن بالطبع أن نلاحظ ونقيم السياسات التعليمية والاقتصادية والتنموية والثقافية وعلاقتها بنشوء التطرف أو مواجهته، لكن لا يمكن المواجهة من غير سياسات شاملة للتنمية والإصلاح، وتمكين المجتمعات من المشاركة الفاعلة مع الدولة وأن يكون لها مصالحها المستقلة في هذه المواجهة مع التطرف.

تبدأ ملاحظة المواجهة مع الكراهية والتطرف بالنظر إلى المجتمعات والقيم التي تسودها، إذ يجب أن تسود قيم الاعتدال والتسامح ورفض التطرف والكراهية، وأن يجد الناس تقدمهم في المشاركة الإيجابية والنشطة في الحياة الاجتماعية والثقافية، وأن يؤمنوا بخطر التطرف والكراهية على حياتهم ومصالحهم وتناقضهما مع معتقداتهم الدينية وقيمهم الاجتماعية والثقافية. هكذا فإن الجهود والبرامج الرسمية والمجتمعية والفردية يجب أن تخدم هذه الرؤية للذات والمجتمعات.

وتحدد المؤسسات والبرامج والأعمال التعليمية والثقافية والإعلامية والإرشادية كما الاقتصادية والاجتماعية أيضا أهدافها في تعزيز البيئة الاجتماعية والثقافية الحاضنة للاعتدال والتسامح والرافضة للتطرف والكراهية، وبناء المناعة لدى الأفراد والمجتمعات على النحو الذي يرتقي بها في المعرفة والثراء الروحي ويحصّنها من التطرف والهشاشة والقابلية للضعف والجريمة والانحراف. والمشاركة الإيجابية مع العالم فرديا ومجتمعيا ومؤسسيا في مواجهة الكراهية والتطرف. وبناء سياسات تعاون وتقبل وتعايش داخلية وعالمية، .. أن

جماعات الإسلام السياسي تفهم الآية «إن الحكم إلا لله» وكأنهم يعتقدون أن الله هو رئيس الوزراء!.

الكارهون والحاقدون يشكلون خطرا على أنفسهم وعلى المجتمعات والدول. وفي حالات الصراع، يلحقون ضررا بالغا بإدارة الصراع، ويُفشلون السياسيين والعسكريين ويمضون بالصراع إلى الانتحار والهاوية.

نكون جزءا من العالم يتقبلنا ونتقبله. وبناء شراكة تكاملية بين الأفراد والمجتمعات والأسواق والسلطة السياسية والتنفيذية في مواجهة التحديات كما في التنمية والإصلاح. وتعزيز استقلال المدن وتمكين المجتمعات لتملك المناعة والكفاءة اللازمة لتحقيق الاحتياجات والأولويات الأساسية والقدرة على الاستجابة الصحيحة والملائمة للتحولات والتحديات العالمية والاقتصادية والاجتماعية. وتحقيق التكامل الاجتماعي المؤسس للتقدم والمناعة والمشاركة الاقتصادية والاجتماعية والمستدل عليه بالرعاية الاجتماعية ومؤشرات الثقة والرضا والجريمة والانحراف والتفكك الأسري والاكتئاب ..

لقد جاء التطرف والإرهاب في سياق تحولات كبرى أهمها العولمة وفي ذلك يجب النظر إلى الظاهرة في سياق التحولات وما تنشئه من فرص وتحديات، فالعولمة بما هي انسياب المعلومات والسلع والناس والأفكار والمخاطر؛ جعلت التطرف والإرهاب منتجا قابل للانسياب والتحرك في العالم، وفي ذلك فإن ما يحدث في منطقة من العالم يؤثر في معظم إن لم يكن جميع مناطق العالم الأخرى، وفي ذلك تتعولم الأزمات كما التجارب والأفكار والمعارف والمعلومات.

وأتاحت العولمة والتقنيات المصاحبة والمنشئة لها مثل الشبكات لجميع الناس ومنهم المتطرفون بطبيعة الحال فرص التأثير والوصول إلى أي مكان في العالم واستهداف الأفراد والمجتمعات، وفي المقابل فإنه يمكن بناء شراكة عالمية للتضامن في مواجهة التطرف والإرهاب وتبادل المعلومات والأفكار والخبرات، ما يجعل المتطرفين في مواجهة العالم.

ولم تعد الأسر والمؤسسات التعليمية والإعلامية تعمل منفردة، ولكن تشاركها في عملها جهات أخرى بلا حدود تصل إلى الأفراد والناشئة والمجتمعات من خلال الإنترنت والفضائيات وشبكات التواصل والاتصالات، ما يجعل المؤسسات المجتمعية والوطنية في حالة منافسة قوية وصعبة وفي الوقت نفسه يمكن بناء شراكة سهلة ومتاحة مع المؤسسات والجهات المتحالفة واقتباس تجاربها الناجحة والمتقدمة.

وترشح الأسرة لتكون هي المؤسسة الأكثر أهمية في هذه المرحلة؛ ففي الإمكانيات التي تتيحها الحوسبة والشبكية للأسرة يتجه العالم إلى إسناد التعليم والرعاية الاجتماعية والصحية إلى الأسرة أو مشاركتها في ذلك بقدر كبير، إضافة بالطبع إلى أن الأسرة تشكل في سلوكها وعلاقاتها وفي منهجها الخفي الجزء الرئيسي والأكثر قوة وحضورا في وعي الأطفال والقيم التي تحكم مواقفهم واتجاهاتهم وفي مسارهم واتجاهاتهم المستقبلية، وفي ذلك فإنها قادرة وبنسبة حاسمة على حماية الأطفال من التطرف والكراهية أو دفعهم إلى التطرف والكراهية وتشجعيهم على ذلك، وتشكل الأسرة أيضا مكونا أساسيا في التكامل والشراكة مع المجتمع والدولة أو التناقض معهما وفي حماية الفرد من طغيان المجتمع والتأثير السلبي أو في دفعه للاندماج والمشاركة الإيجابية.

وتمثل البيئة المحيطة بالأفراد؛ المجتمع والثقافة السائدة والرأي العام ووسائل الإعلام والتأثير والتوجيه فرصة كبرى وأساسية في بناء قيم المواطنة والمشاركة والاعتدال ويمكن أن تكون أيضا عاملا مضادا لأهداف الدول والمجتمعات والتقدم

فتشجع على الكراهية والتطرف.

وفي هذه المواجهة مع التطرف والكراهية ثمة ما يمكن ملاحظته وتقديره من قوة وضعف؛ فنسبة التعليم المتزايدة وفرص العمل والمشاركة المتاحة تشكل مصدرا أساسيا للارتقاء بالأفراد، وفي الوقت نفسه فإن الهشاشة الفكرية والاجتماعية وضعف المناعة تجاه الأخطار يجعل من التعليم والإعلام والعولمة ساحة ملائمة للمتطرفين للتجنيد واجتذاب المؤيدين.

وتتشكل اليوم قناعة شاملة لدى جميع الأطراف المشاركة في مواجهة التطرف بضرورة المواجهة الشاملة مع التطرف وأن تشارك في ذلك جميع مؤسسات المجتمع ووسائل الإعلام، وهذا يزيد الوعي بأهمية مواجهة التطرف ويوسع جبهة المشاركة ولكن هذه المواجهة ليست خطة محددة أو دليلا واضحا يمكن اتباعه ولكنها منظومة معقدة وشاملة من السياسات الاجتماعية والثقافية والتعليمية والإعلامية يصعب قياس أثرها على نحو مباشر إلا من خلال زيادة أو تراجع الإقبال على الفكر المتطرف وتأييد الجماعات المتطرفة وهو ما يصعب ربطه مباشرة بالسياسات الاجتماعية والثقافية والتعليمية، كما أن الجماعات المتطرفة لديها فكر متماسك وأدوات نشر قادرة على الوصول والتأثير، وفي ذلك فإن المواجهة الفكرية والتعليمية تنطوي على مغامرة وليست معركة محسومة تلقائيا لصالح الدول والمجتمعات في حربها على التطرف والإرهاب.

« وكلم قايين هابيل اخاه. وحدث اذ كانا في الحقل ان قايين قام على هابيل اخيه وقتله. فقال الرب لقايين: «اين هابيل اخوك؟» فقال: «لا اعلم! احارس انا لاخي؟» فقال: «ماذا فعلت؟ صوت دم اخيك صارخ الي من الارض. فالآن ملعون انت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دم اخيك من يدك. متى عملت الارض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الارض». فقال قايين للرب: «ذنبي اعظم من ان يحتمل.

سفر التكوين

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: 27-32].

تتجه الأمم حسب نظرية أرنولد توينبي «التحدي والاستجابة» في التعامل مع الصدمات التي تتعرض لها في أحد مسارين: النكوص إلى الماضي ومحاولة استعادته والتمسك بعه تعويضا عن الواقع المرّ، أو محاولة استيعابها والتغلب عليها وتوظيفها إيجابيا

يلاحظ كلود ليفي شتراوس (الأسطورة والمعنى) أن الشعوب التي بدون كتابة قادرة على التفكير تفكيرا منزها عن الهوى، أي أنهم يتحركون من خلال الحاجة أو الرغبة لفهم العالم المحيط بهم؛ وليس تفكيرا نفعيا، ويتقدمون من خلال وسائل عقلية بالضبط كما يفعل فيلسوف او عالم، يستطيعون ذلك ويطمحون إليه أيضا، فلدى المجتمعات الموصوفة بالبدائية معرفة دقيقة ببيئتهم ومواردهم.

وتتحمس الأسر والمؤسسات التعليمية والإعلامية لمواجهة التطرف وحماية الأفراد والاجيال من تأثيره، لكنها لا تملك الكفاءة والمعرفة الكافية وتعاني أيضا من ضعف مصادر المواجهة الفكرية والدينية التي تصلح لذلك، وتبدي الدول رغبة أكيدة للعمل والتحالف في منظومة وطنية وعالمية لمواجهة الإرهاب، ولكن يصعب السيطرة على وسائل وأدوات ومؤسسات البث والنشر والاتصال والتجنيد.

وبرغم أن وسائل الإعلام الكبرى والمؤثرة تعادي التطرف وتتعاون مع الدول والمجتمعات في مواجهته فإنها في سياسات البث والنشر تشكل أداة دعاية فعالة للمتطرفين ويرجح أن الناس تتعرف على الجماعات المتطرفة من وسائل الإعلام العادية أكثر من وسائل الإعلام التابعة للمتطرفين.

ويظل السؤال قائما ومعلقا: كيف نضمن ألا يكون كراهية وتطرف؟

تؤشر الحياة اليومية إلى فائض من الكراهية والعنف المادي والرمزي، في الكتابة والأحاديث والمجالس والرموز والطقوس والممارسات الفكرية والثقافية وقيادة المركبات والعلاقات الاجتماعية والأسرية، والكثير من مؤشرات الكراهية تستخدم على نحو متقبل ومتواطأً عليه، ولا نتوقف عندها، مثل الاستعارات المستخدمة للذم والاحتقار والكراهية أو الاعتزاز والتقدير، على الرغم من أنها مفاهيم وتسميات تدل على حالة محددة وبحياد، ومن ذلك على سبيل المثال استخدام مجموعة إثنية أو سكانية أو دينية على سبيل الذم والكراهية والسخرية؛ يهود، غجر، بدو، فلاحون، زنوج، أو استخدام اللون على سبيل الذم والإهانة أو المدح والاعتزاز؛ أسود وأبيض، أو استخدام وظائف وأعمال للدلالة على الإهانة والسخرية والجهل وعدم المعرفة، أو استخدم الجنس (رجل أو امرأة) على سبيل المدح أو الاعتزاز أو الإهانة والشتيمة، أو الأمراض للدلالة السياسية أو الاجتماعية أو الشتيمة والاحتقار؛ معوق، مريض، مريض نفسيا، مصروع، أو تعيير الناس بحالتهم الطبيعية، أعور، أعمى، قصير، سمين، نحيف، قزم، شايب، مراهق،

عجوز، مطلقة، أرملة، مجهول النسب، وهناك استخدام للحالات الاجتماعية والاقتصادية على سبيل الإهانة أو الاعتزاز، فقير أو غني، شيخ صعلوك، وهناك استخدام كاسح لدرجة يصعب انتقادها لمهن وأعمال واتجاهات اجتماعية وسلوكية على سبيل التحقير والشتم؛ العاملون في المجالات الفنية والترفيه؛ الرقص والغناء،.. والتحريض على مرتكبي الجنايات في أثناء أو بعد محاكمتهم وتطبيق القانون عليهم، وهناك أيضا التنابز بالألقاب واستخدامها وإطلاقها على نحو يلحق إساءة بالناس، وقد يلتصق اللقب بأحد او فئة حتى يصير أكثر شهرة من الاسم، ومن الواضح اليوم أن كثيرا من أسماء العائلات التي صارت معتمدة وموثقة هي في أصلها ألقاب وأوصاف أطلقها الناس. وتفيض النكات الشعبية والأمثال المتداولة بوصف الناس بصفات نمطية تعمَّم ظلما على فئة من الناس أو أهل مدينة أو منطقة، مثل البخل والدهاء والغباء.

إن الزج بالدين والثقافة في الصراعات السياسية وفي تكريس الكراهية للآخرين والاشمئزاز منهم يزيد الصراع حدة من غير فائدة، ويقلل فرص التسوية والمصالحة، ويطيل أمد الحروب والآلام، ويساهم في تفكيك المجتمعات وانقسامها، ويخفض مستوى الثقة في الحياة اليومية والأسواق؛ ما يلحق ضررا بالمصالح والأعمال، كل ذلك من غير فائدة أو مقابل!

IV- السياسات والاتجاهات المؤسسة للعيش معاً



تعزيز العيش معاً

IV- السياسات والاتجاهات المؤسسة للعيش معاً

تتشكل القيم والمواقف الاجتماعية والفكرية عبر منظومة متفاعلة ومتراكمة من السياسات والتشريعات واتجاهات الدول والمجتمعات والأسواق والأفراد، ويجب أن نأخذ بالاعتبار أن الأفكار مهما كانت جميلة ومهمة لن تأخذ مجالها في التطبيق والتأثير إلا بتكامل وانسجام أدوار ومصالح الحكومات والأسواق والمجتمعات والأفراد، وهو أمر لا يحدث تلقائيا بطبيعة الحال، ولا يعني ذلك بالضرورة أن تتفق مصالح واتجاهات مكونات الأمم والدول، لكنها يجب أن تكون قادرة على العمل المشترك وتبادل التأثير والجدل والحوار والتواصل الاجتماعي على النحو الذي يمكنها في المحصلة من تحويل الأفكار والقيم الجميلة إلى واقع مطبق وسياسات وتشريعات وأعمال وأعراف متبعة، وفي مرحلة العولمة والشبكية صارت الأمم تتبادل التأثير والمعرفة، وتتشكل أيضا قيم واتجاهات عالمية، كما تتأثر القيم والسياسات الوطنية بالعالم وأحداثه واتجاهاته وأزماته، ولم يعد في مقدور أمة من الأمم أن تنشئ عمليات تنظيم اجتماعي وأخلاقي على نحو مركزي كما كان يجري من خلال المؤسسات التعليمية والإرشادية والإعلامية والتنشئة الأسرية والاجتماعية.

إن قيم العيش معا برغم أهميتها وضرورتها للتقدم وحماية الأمم والمصالح لا يمكن للدول أن تطبقها بتشريعات ومؤسسات رسمية وتنظيمية بالطريقة التي تنشئ بها الجيوش والأجهزة الأمنية والبنوك، لكنها تتحق وتنجح من خلال ثقافة سائدة وشراكة مجتمعية وفردية مع الدولة والشركات وببناء منظومة من المؤسسات الاجتماعية الوسيطة بين المجتمع والدولة وبين المجتمع والأسواق.

يجب أن تدير الحكومات منظومة اقتصادية اجتماعية، بحيث تنشأ بيئة ثقافية تحتضن قيم الأخوة الإنسانية وتواجه الكراهية والقيم المناهضة للأخوة الإنسانية، وتتمكن المجتمعات والأسواق كما الأفراد من العمل والإنتاج بكفاءة عالية، فالقيادات السياسية تقود أيضا الأفكار والقيم، كما أن الحكومة بقيامها بواجباتها الأساسية في التنمية والخدمات العامة مثل العدل والأمن والتعليم والصحة والرعاية الاجتماعية، تمنح المواطنين والمؤسسات الكرامة والقدرة على تمثل القيم والفضائل الاجتماعية والأخلاقية، فلا يمكن أن تنشأ الفضائل في الدول والمجتمعات الفاشلة او المقصرة بالخدمات والموارد الأساسية للحياة، لأن ضغوط الفقر والفوضى تدفع بالضرورة إلى الأنانية والخروج على القيم والقوانين، كما يجب أن تدير الحكومات منظومات في العمل والتعليم والتنسيق والتكامل الاجتماعي بحيث تضمن بناء رأس مال بشري كفؤ وقادر على العمل وتمثّل فضائل وقيم الأخوة الإنسانية، وينبذ الكراهية.

وهناك مجموعة من القيم والفضائل التي لا تنشأ أو لا تزدهر إلا في ظل سياسات واتجاهات حكومية، فكل مكون أو قطاع في الأمة مثل المجتمعات والأفراد والأسواق تنشئ قيما وفضائل واتجاهات مستمدة من تفاعلها مع حياتها وأعمالها والعالم المحيط، وفي ذلك تنشأ فضائل وعيوب أيضا، وهنا تكون وظيفة السلطة السياسية تنسيق ومراقبة الاتجاهات الاجتماعية والقيمية وملاحظة الاتجاهات العالمية بحيث تستطيع التصحيح والاستدراك ومواكبة الاتجاهات

العالمية، وضمان بناء وحماية القيم التي لا تتحمس لها المجتمعات والأسواق.

ولذلك فإن التكامل بين الحكومات والمجتمعات والأسواق والأفراد في بناء منظومة القيم والفضائل ومناهضة الكراهية يحتاج إلى سياسات وبرامج حكومية، وهي وإن كانت لا تغني عن الاتجاهات المجتمعية والثقافية وقيم العمل المتبعة في الشركات والنقابات والجمعيات فإنها تعززها وتحميها من نفسها، كما أن الحكومة والمجتمعات والمؤسسات تتبادل التأثير في المعارف والقيم والمهارات.

وفي ذلك يمكن تلخيص أهم واجبات الدولة وأدوارها في تعزيز قيم الأخوة الإنسانية والتصدي للاتجاهات والأعمال المناهضة لهذه القيم؛ فيما يلي:

1- القيام بدور الدولة الأساسي في بناء أمة ناجحة متماسكة، مثل العدل والأمان والخدمات الأساسية في التعليم والصحة والتضامن الاجتماعي، والازدهار.
2- تعزيز وحماية القيم والفضائل الاجتماعية والفردية العامة، مثل الثقة والإتقان والصداقة والتطوع والاعتدال والتسامح، والتصدي لاتجاهات وممارسات الكراهية والتطرف والتعصب والعنف
3- بناء وتعزيز وحماية القيم التي تختص بها الدولة، مثل الالتزام بالمواثيق والقوانين والمعاهدات الدولية والأعراف الدبلوماسية وحماية البيئة، والملكية، والحقوق العامة والخاصة، وتطبيق وتطوير القوانين والتشريعات الناظمة للقيم والحقوق وتعزيز التسامح
4- المشاركة العالمية في التضامن والتعاون الدولي ومساعدة الدول والمجتمعات المحتاجة، ومواجهة التطرف والكراهية. والاعتداءات على الدول والمجتمعات والقيم والأرواح والممتلكات.
5- تنظيم وإدارة قيم الأخوة الإنسانية من خلال مؤسسات وتشريعات تكفل الالتزام بها وحمايتها والتصدي لما يناهضها، والتنسيق مع المؤسسات الوطنية والدولية في هذا المجال.
6- بناء القدوة الحسنة والملهمة، بحيث تكون القيادات والمؤسسات السياسية في سلوكها وأفكارها واتجاهاتها نموذجا تقتدي به الشعوب والمجتمعات والمؤسسات.

عالم واحد - 19

قصة عن الحب والظلام.. الروائي الإسرائيلي عاموس عوز

تبدو الرواية وكأنها سيرة ذاتية يعرض فيها عوز سيرته وسيرة عائلته، الأجداد الذين عاشوا في بولندا، ثم هجرة الآباء إلى فلسطين، حيث ولد هو في القدس عام 1939، وطفولته في القدس وقصة والديه، ثم حرب 1948 وقيام دولة إسرائيل، ثم التحولات الكبرى التي مر بها عوز، وكيف انتقل من أسرة تنتمي تاريخيًا إلى «حيروت» وتستلهم «جابوتنسكي» إلى حزب العمل، ولينضم في صباه للعيش في كيبوتس ينظمه حزب العمل، .. لكنها تبدو أيضًا ليست سيرة ذاتية إلا بمقدار الحاجة لبناء الأفكار والأسئلة.

وبالطبع فإن أهم حدث في الرواية هو وفاة أمه انتحارًا عندما كان عمره ثلاثة عشر عامًا، وكان عمرها ثمانية وثلاثين عامًا، ويبدو مدهشًا ومؤثرًا قدرة عوز على التعبير عن المسألة وتذكرها وعرضها بعد خمسين سنة من وقوعها، وكأنه مازال ذلك الطفل الذي يعيش الصدمة، وكأنه مازال يعيش الأيام القليلة التي أعقبت المصيبة.

«ولا زلت أحيا مصيبتي، اتهمت نفسي: فلو كنت أنا أفضل من ذلك، ومخلصًا، لم أكن لأبعثر ملابسي على الأرض... «. ويختم الرواية بالقول: «لو كنت هناك بجوارها في تلك الغرفة المتجهة ناحية الفناء الخلفي في شقة «حيا» و«تسفي» في تلك الساعة، في الثامنة والنصف أو التاسعة إلا ربعًا في عشية يوم السبت؛ لكان من المؤكد أنني سأحاول بكل قوتي أن أشرح لها لماذا هذا ممنوع. وإذا لم أنجح في أن أشرح لها ذلك لفعلت أي شيء لكي أثير بداخلها الشفقة، لكي تشفق على ابنها وحيدها. كنت سأبكي وأستعطفها بدون أي خزي،

إدارة التنوع والتعدد

يمثل التنوع فرصا وتحديات للدول والمجتمعات، ولا شك أن النجاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي يقوم على إدارة كفؤة وعادلة للتنوع بكل مجالاته ومستوياته، الدينية واللغوية والإثنية والاتجاهات والأفكار والفلسفات السياسية والاجتماعية، والتنوع الاقتصادي والاجتماعي في الثروة والمهن والأعمال، كما التنوع في أساليب الحياة في اللباس والطعام والفنون والموسيقى والآداب، وتستطيع الدول الناجحة أن تحول هذا التنوع إلى مصدر للتقدم والتبادل المعرفي والاعتدال والتقبل والتسامح والعيش معا، بحيث يستطيع الأفراد كما المجتمعات الاقتباس والتبادل وأيضا المراجعة والنقد، ويمكن أيضا تعلم وبتكلفة قلية نسبيا اتجاهات وتقنيات ومعارف ومهارات جديدة ومفيدة، كما يبدو واضحا في العمارة والأثاث والطعام والطهو والمهن والحرف والبناء والزراعة، والترجمة والآداب والفنون، والعلوم والتكنولوجيا،..

إن تاريخ التقدم الإنساني كان على الدوام في توظيف واقتباس التنوع ثم استخدام وتطوير منتجاته، أو ببساطة ليس سوى عمليات تراكم واستيعاب وإبداع للحضارة الإنسانية على تنوعها وامتدادها، الفلسفة على سبيل المثال والتي ازدهرت ونضجت في اليونان استوعبتها حضارات شرق المتوسط وورثتها من اليونان، ثم ورثها وترجمها العرب وأضافوا إليها، ثم انتقلت إلى أوروبا لتشارك في التأسيس والتطوير للحضارة الغربية القائمة اليوم، واستطاعت الولايات المتحدة أن تبني جمهورية قوية ومزدهرة وممتدة وواسعة من المهاجرين المستوطنين من جميع أنحاء العالم، ونهضت هولندا والدول الاسكندنافية بمشاركة واسعة ومهمة من المهاجرين إليها من الاضطهاد الديني في جنوب ووسط أوروبا.

وفي المقابل فإن الأمم التي رفضت التنوع استدرجت نفسها إلى الفشل والحروب والصراعات الأهلية والإقليمية، وربما يكون من أسباب فشل وانهيار إسبانيا والبرتغال بعد نهضتهما في القرن السادس عشر هو التعصب الديني والاضطهاد والاستبعاد ضد غير الكاثوليك وغير المسيحيين؛ ما أدى إلى هجرات واسعة للناس وكثير منهم متعلمون وأصحاب مهارات ولديهم أموال نقلوها معهم إلى مواطن هجرتهم الجديدة.

وفي العصر الحديث نرى ونعيش حالات مخيفة ومدمرة من الحروب والفشل والفقر والهجرة واللجوء بسبب الصراعات والخلافات الإثنية والدينية والمذهبية، مثل ما حدث في البلقان ويحدث اليوم في دول كثيرة في آسيا وأفريقيا، ..

المشاركة العالمية والإقليمية

يؤشر أيضا على قيم العيش معا بالعلاقات الدبلوماسية والمشاركة العالمية والإقليمية، وتعدّ الدبلوماسية واحدة من أهم أدوات ومؤسسات الدول في تنمية العلاقات والمصالح الدولية المتبادلة، وحماية القيم العالمية الكبرى والأساسية، كالسلام وحريات المرور وحماية البيئة والممرات والطرق والأنهار والبحار الدولية، والالتزام بحماية أرواح الناس وكرامتهم وممتلكاتهم في أثناء سفرهم وإقامتهم خارج بلادهم.

> نحن بحاجة إلى التسامح الآن أكثر من أي وقت مضى، وهو يقودنا إلى احترام التنوّع الثقافي وأساليب الحياة والتعبير عن إنسانيتنا، بل هو شرطٌ حيوي للسلام والتقدّم لجميع البشر في عالم متنوّع مترابط بشكل متزايد.
>
> إيرينا بوكوفا
> سياسية بلغارية أول امرأة تشغل منصب رئيس منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو)

IV1- الدور المؤسسي والتشريعي لتنظيم وتعزيز العيش معا

تعكس الدول التزاماتها نحو القيم بمنظومة مؤسسية وتشريعية

قيم العيش معاً في المعاهدات والمواثيق..

وضعت الأمم على مدى التاريخ قيم الأخوة الإنسانية المنظمة للحياة والعلاقات في مواثيق ومعاهدات، ومن أشهر هذه المواثيق في التاريخ العربي حلف الفضول الذي عقد في مكة بين مجموعة من بطون وعشائر قريش عام 590م، وتعاهد مؤسسو الحلف على «ألا يظلم أحد في مكة إلا ردت ظلامته» وقد حضر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحلف وكان شابا عمره عشرون سنة، أي قبل البعثة النبوية بعشرين سنة، وقال الرسول عن هذا الحلف: «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» (السنن الكبرى للبيهقي، والبداية والنهاية لابن كثير)

وفي حدود العام 500 م أي قبل الإسلام بأكثر من مائة سنة عقد حلف الأحابيش بين قبائل مكة وما حولها لأجل حماية قيم السلام والحج والتجارة في مكة، وكان لهذا الحلف قوة عسكرية وأمنية لفرض القوانين والمبادئ المتفق، وهذه القوة «الأحابيش» هي التي ضمنت أن يؤدي المسلمون العمرة في أثناء العداء بينهم وبين قريش بحدود 630 م/ 6 هـ وقد جعلها المبدأ الذي قامت عليه وهو عدم منع أحد جاء إلى مكة زائرا أو حاجا أو معتمرا أن تؤثر على قريش وتلزمها بالاتفاق، وهو المبدأ نفسه الذي نص عليه

تتمة عالم واحد - 19

وكنتُ سأعانق قدمها، وكنتُ سأضرب وأخربش نفسي حتى يسيل الدم كما رأيتها تفعل ذلك في لحظات اليأس..».

وبالنسبة لقارئ الرواية فإنه يصاب أيضًا بالصدمة، فهو يعيش في أسرة تبدو مثالية مثقفة متماسكة ومحبة لبعضها، وتنتمي إلى عائلة عريقة من الثقافة والعلم، وبالطبع فإنه لمن يعرفون عن الانتحار يدركون أن بعض الناس يمكن أن يقدموا عليه بدوافع مثالية وتفاعلات معقدة ومتراكمة يصعب جدًا تحليلها..

يبدو عوز في الرواية وحيدًا، ليس له أصدقاء، كأنه لم يتعلم في مدرسة ولم يلعب مع أحد، ثم وفي المراحل اللاحقة بقي وحيدًا، ولكن من المؤكد (لي على الأقل) أن قصة عن الحب والظلام ليست سيرة ذاتية، ولذلك لا يشغل عوز نفسه بذلك، ولعله يقصد هذه الوحدة، ومن يقرأ الرواية على أساس أنها سيرة فسوف يخرج خالي الوفاض، وهي أيضًا ليست حكاية مسلية، برغم أنها على ضخامتها رواية مؤثرة لا يمكن لقارئها (أظن) إلا أن يقرأها كاملة ويعيد قراءتها، وأن يجد نفسه بعد قراءتها أنه ليس هو قبل قراءتها، فهي تتغلغل في نفس القارئ ومشاعره ولا تفارقه، الحياة والموت والإنسان الوحيد، والشعوب التي تسعى أن يكون لها دولة، فتكون ضحية للقوى والدول الكبرى.. «. ربما هكذا هي الأمور التي بين العربي واليهودي منذ مائة عام: أوروبا التي نكلت بالعرب، واستغلتهم بواسطة الاستعمار، والإمبريالية، والاستغلال، والاضطهاد- هي نفسها

لا احد يولد إرهابيا. ولا شيء يبرر الإرهاب لكن عوامل مثل النزاعات الطويلة التي لم تحل، وانعدام سيادة القانون، والتهميش الاجتماعي والاقتصادي يمكن أن تلعب دورا في تحويل المظالم إلى عمل مدمر.

الأمين العام للأمم المتحدة
أنطونيو غويترش

تتمة عالم واحد - 19

أوروبا التي طاردت واضطهدت اليهود كذلك، وفي النهاية سمحت أو ساعدت الألمان لاقتلاعهم من كل أطراف الأرض وقتلتهم كلهم تقريبًا. ولكن العرب ينظرون إلينا ويرون أمامهم ليس سوى حفنة من الفارين، بل رافدًا جديدًا ومتعجرفًا لأوروبا الاستعمارية... أما نحن، من جانبنا، نظرنا إليهم ووجدنا أمامنا أنهم ليسوا ضحايا مثلنا، وليسوا إخوةً في الضائقة..».

الأفكار والقيم التي يعرضها عوز في تنشئته وعالمه تبدو مثالية ومدهشة، وفيها ثراء إنساني عميق .. «الإهانات في اليهودية أسوأ من القتل، وقد كان جدك إنسانًا لا يهين أحدًا مهما كانت الأسباب والظروف..»، «أمك كانت متسامحة أكثر من اللازم، لم ترفع صوتها ولو مرة واحدة، لم توبخ أحدًا..».

وفي حديثه عن القصص التي كانت تروى للأطفال يختار واحدة مشحونة بالرموز، وربما تعكس بنسبة كبيرة رؤيته للمسائل، قصة عن ملك عجوز يختار طفلاً «أهبل» ليكون ملكًا بعده عندما رآه يسد حاجز الماء بخبزته التي هي كل ما يملك من غذاء يومه، ولكنه بذلك حمى المدينة من فيضان، وعندما صار «يانوشكا» ملكًا بدا أحمقَ، ولكن البلاد ازدهرت في عهده ولم تحدث حروب، ثم قتله الجنرالات واستولوا على الملك، ودخلت البلاد في حروب ودمرت وشرد أهلها...

القرآن الكريم «.. والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه أو الباد». (سورة الحج، 25)

ومن أهم المواثيق في التاريخ الإنساني وثيقة المدينة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر لأهل المدينة وحددت حقوق وواجبات أهل المدينة على قدم المساواة سواء المسلمين أو اليهود أو غيرهم، أو المهاجرين والأنصار، ويعتبرها بعض الباحثين مثل المستشرق الروماني جورجيو أول دستور ينظم الحقوق والواجبات والعلاقات بين المواطنين وعلى أساس المواطنة بغض النظر عن الدين.

وقد توسع العالم في العصر الحديث في المواثيق والمعاهدات الدولية لحماية قيم السلام والعلاقات والتعاون والتجارة والدبلوماسية وحفظ حقوق الناس، وبعد الحرب العالمية الثانية وتأسيس هيئة الأمم المتحدة أقرت دول العالم مجموعة من المعاهدات والمواثيق، وطلبت من الدول أن توقع عليها، ومن أهمها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 10 كانون أول ديسمبر 1948

ويعد هذا الإعلان وثيقة مهمة بوصفه «المعيار المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم. ويحدد، و للمرة الأولى حقوق الإنسان الأساسية التي يتعين حمايتها عالميا. وترجمت تلك الحقوق إلى 500 لغة من لغات العالم.»

وينص الإعلان في مادته الأولى «يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء.» ثم يفصل حقوق الإنسان الأساسية في الحياة بحرية وكرامة وأمان وخصوصية ودون تمييز، والجنسية والعمل والضمان الاجتماعي والإجازة والسفر والتقاضي والتعليم والرعاية الصحية والاعتقاد والمشاركة السياسية والعامة والملكية، والتأكيد على حظر الرق والتعذيب والمعاملة القاسية والسخرة والإكراه.

2IV- الذات الفاعلة

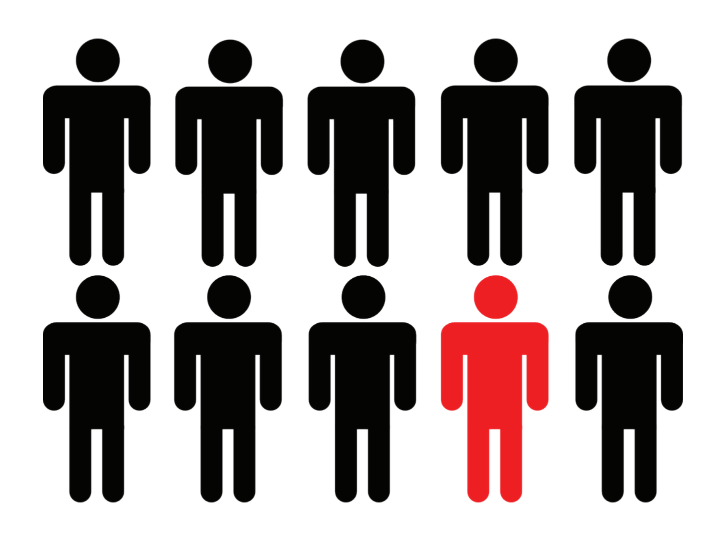
تتوجه قيم الأخوة الإنسانية إلى الفرد على نحو رئيسي، فنجاحها وفاعليتها يعتمدان على إيمان الأفراد بها وتمثلهم لها متطوعين ومستقلين عن التنظيم الاجتماعي والأخلاقي والقانوني والمؤسسي للقيم والاتجاهات، وذلك لأسباب عدة:

1- الطبيعة الفردية للقيم؛ إذ هي ابتداء قيم يتمثلها الأفراد، ثم تتحول إلى قيم اجتماعية ومؤسسية، ولا يمكن أن تنجح وتعمل بفاعلية من غير إيمان فردي بها، وحماس ودافع ذاتي.

2- الفرد هو أساس القيم ومصدرها بما هو كائن حرّ، وينزع إلى الخير بفطرته وغرائزه الأساسية، وما تفعله المجتمعات والسلطات والمؤسسات هو استيعاب وتنظيم وحماية هذه القيم التي أنشأها الأفراد، وتعبر عن ضمائرهم، وبما هي ابتداء فعل الخير والصواب وتجنب الضرر والخطأ من غير دافع قانوني أو ديني أو مادي.

3- صعود الفرد والقيم الفردية في مرحلة ما بعد الصناعة؛ باعتبارها فضيلة وأساسا للتنظيم الاجتماعي، وباعتبار الفرد مسؤولا ومستقلا بذاته عن أفعاله وشريكا بصفته فردا مع المجتمعات والمؤسسات في تشكيل القيم وتمثلها.

4- تغير دور الدول والمجتمعات والمؤسسات الدينية والإرشادية، إذ أنها لم تعد مركزية قادرة حصريا أو على نحو مؤثر تأثيرا حاسما على تنظيم وإدارة الشأن الاجتماعي والأخلاقي والتنشئة، لكنها أصبحت جزءا من شبكة عالمية تشارك فيها جهات ومؤسسات كثيرة، ومعظمها



خارج سلطة وحدود المؤسسات والمجتمعات.

5- صعود الثقافة بما هي وعي الذات كإطار عام وشامل يتفاعل معه الأفراد مستقلين من غير وسائط تنظيمية واجتماعية.

تؤكد الاتجاهات والمؤسسات التنموية الدولية على أهمية الفرد في التنمية والإصلاح باعتباره رأس مال بشري في غاية الأهمية، إذ تعتمد الأعمال والموارد ومن ثم بطبيعة الحال التقدم والازدهار على الفرد الفاعل المنتج والذي يتمتع بالكفاءة والفضائل اللازمة لاستقرار الأمم وقدرتها على مواجهة التحديات.

ويؤشر بصعود حركات الحقوق الفردية والثقافية والبيئية والنسوية لمرحلة جديدة من القيم المنظمة للمجتمعات، ونهاية المجتمعات كإطار شامل ومهيمن يحدد الأهداف السياسية للدولة وتنظيم الموارد وضبط الأفراد وتنظيمهم في منظومات وقوانين اجتماعية، ونشوء بيئة اجتماعية واقتصادية تؤسس لمرحلة الفرد المؤثر أو القادر أو «الذات الفاعلة».

الضعيف لا يمكن أن يتسامح ويُسامح، لأنّ التسامح من صفات الأقوياء

المهاتما غاندي
حكيم وسياسي بارز
وزعيم روحي للهند خلال
حركة استقلال الهند

تتمة عالم واحد - 19

ويبدو الأمر في النهاية وكما قالت خالته «كل العالم إذا نظرنا إليه لن يستمر دهورًا طويلة، يقولون بأن الشمس ستنطفئ ذات يوم، والظلام سيعود ليسود الكرة الأرضية، إذن علام يذبح الناس بعضهم بعضا على امتداد التاريخ، ما هو الشيء المهم إلى هذا الحد، أيهم يحكم كشمير، أو المغارة التي تحت الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل؟ بدلاً من أن نأكل تفاحة من شجرة الخلد أو شجرة المعرفة، يبدو أننا أخذنا من الأفعى تفاحة سامة من شجرة الشرّ وأكلنا بشهية، هكذا انتهت الجنة وبدأ الجحيم!».

فالمواطن القادر اليوم على تحقيق متطلبات الحرية والحياة الكريمة من غير دعم أو مشاركة من مؤسسات سياسية أو حكومية أو منظمات اجتماعية؛ يبحث بطبيعة الحال عن الفرص الجديدة الممكنة، والأفراد قادرون اليوم أن يعملوا بأنفسهم لأنفسهم كما هم قادرون على أن يعلموا أنفسهم معتمدين على الشبكة، أو يحلوا مشكلات كثيرة كانت تحتاج إلى تكاليف ومهارات معقدة مثل الصيانة والتصميم والبحث عن سلع وخدمات والتسويق والعمل.

وقد يبدو ملفتا وطريفا أن قوى التقدم والريادة في المرحلة السابقة أصبحت رجعية؛ إذ يشعر كثير من المتخصصين والمهنيين اليوم بالانزعاج والمنافسة من العمل الفردي المستقل عن المؤسسات والمتخصصين في العمل والتعليم والتنمية الذاتية والكتابة والنشر والاستشارات والتفاعل الاجتماعي والسياسي، والأعمال الفنية والإعلامية الفردية والمستقلة، ورغم صحة كثير من الأدلة والشواهد التي يقدمها المتخصصون على الضعف والأخطاء في محاولات الأفراد مواجهة احتياجاتهم مستقلين، فإنها أيضا تؤشر إلى التغير الكبير في المهن والأعمال والمؤسسات، ومعها قيم وأفكار ونظريات وتجارب وتراث متراكم من الإنتاج الفكري والعلمي والفني والأدبي والمؤسسي.

وبطبيعة الحال، وكما يؤكد التاريخ، فإن نهاية مرحلة وابتداء مرحلة جديدة تصحبها تحولات، وتسبقها مرحلة انتقالية مربكة، فالقوى الإيجابية الفاعلة ليست جاهزة ومستعدة فورا لتحل مكان المنظومات السابقة التي هيمنت على الحياة والأعمال والأفكار والقيم.

هكذا ففي تغير دور الدولة والمجتمع صعدت قوى اجتماعية بديلة، كما نشأت في بلاد كثيرة صراعات أهلية ودينية، ويمكن في هذا السياق ملاحظة كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية الجديدة حولنا، مثل الكراهية والتطرف وصعود الهويات الفرعية والاكتئاب والانتحار والسطو وعمالة الأطفال والاتجار بالبشر والأزمات المرورية والسلوك غير الاجتماعي، لكن يمكن أيضا في هذا الركام ملاحظة كثير من الظواهر الإيجابية الجديدة، مثل الأعمال والخدمات الجديدة في النقل والتوصيل والعمل والتعليم المنزلي والفردي والعمل من بعد، والجدالات والتفاعلات الشبكية حول القضايا والأفكار الدينية والوطنية والثقافية والتواصل الاجتماعي وتبادل المهارات والمعارف بيسر وفاعلية.

الفرد؛ كل فرد تقريبا، يمتلك اليوم من الكتب والأفلام والموسيقى والدراسات والأوراق العلمية والوثائق والمخطوطات والمحاضرات وورش العمل والتدريب والقدرة على الوصول والتواصل مع وسائل الإعلام والجامعات ومراكز الدراسات ما يساوي في قيمته وتكلفته لو جرى تحويله إلى موجودات مادية ملموسة مئات المليارات من الدنانير! ومؤكد أن هذه الموارد الهائلة المتاحة للفرد تجعل منه قوة جديدة مؤثرة تتجاوز السلطات والمجتمعات والشركات.

لكن أيضا في صعود الفرد والفردانية وانحسار الدور الاجتماعي والأخلاقي للدول والمجتمعات؛ يشعر الفرد اليوم بأزمة تكاد تفوق أزمة التنميط المنظم والوصاية التي خضع لها قروناً طويلة، يحدث له اليوم مثل قصة المتصوف الذي أمضى أربعين عاماً يسير في الطرقات باحثاً عن اسم الله الأعظم، وفجأة لقيه طفل في طريقه فقال له: أنت اسم الله الأعظم، لكنه حين عرف اسم الله لم يعد يعرف ماذا يفعل، فلم يكن يفعل من قبل سوى البحث. هكذا فإن الفرد الذي ظل يناضل في مواجهة التنظيم والتنميط الاجتماعيين والأخلاقيين لم يعد يعرف ماذا يفعل وكيف يفكر ويميز وحده من غير مرجعية دينية أو مجتمعية بين الصواب والخطأ وبين القبيح والحسن. وهكذا أيضاً يمكن فهم وتفسير الأزمات الاجتماعية والسلوكية الجديدة.

نحتاج إلى تأمل طويل لملاحظة التحول أو التشوه الذي أصاب الإنسان على نحو متراكم بفعل التنشئة الاجتماعية والسلسلة الطويلة المتراكمة من الشرائع والمنظومات الدينية المؤسسية، كيف يستعيد ذاته وينعتق من كل هذا الركام ويكون في الوقت نفسه أقدر على تحقيق السلام وحماية وتطوير العقد الاجتماعي؟ كيف يحل الضمير مع أو بدلا من الدين والمجتمعات في التنظيم الاجتماعي والسياسي والبناء الإيجابي للعلاقات الاجتماعية؟ كيف ينظم الناس أنفسهم ومصالحهم من غير مجتمعات؟ **أو ليكن السؤال كيف تعمل الدول والمجتمعات والمؤسسات في ظل قيم الفردية؟**

عالم واحد - 20

رواية «الخلود» تأليف ميلان كونديرا.. أن ترى العالم بمنظور الله

يقدم الروائي الفرنسي من أصل تشيكي ميلان كونديرا في رواية الخلود حوارات طويلة حول الخلود والحياة والموت والخالق والتحولات التي تجري في فرنسا وأوروبا والمعاني الجديدة للسياسة والثقافة...

تتذكر إنييس والدها وأنّها سألته في إحدى النزهات التي كانت ترافقه بها، هل تؤمن بالرب؟ فأجاب: أؤمن بحاسوب الخالق، ظل الجواب عالقًا بذهن الطفلة، كان والدها يتحدث عن الخالق وليس عن الربّ، والد إنييس أستاذ جامعي أمضى حياته من الوحدة إلى الوحدة مرورًا بالزواج، وعندما توفي أوصى بثروته للبحث العلمي ولكن تبين أنّه أودع في حساب ابنته إنييس معظم ثروته، ولم يترك شيئًا لابنته الثانية لورا..

اكتشفت إنييس أنّها تحب الوحدة، فذات يوم حين مرضت زميلتاها واشتغلت بمفردها لأسبوعين في المكتب لاحظت باندهاش أنّها تكاد لا تشعر بالتعب.. الوحدة هي غياب عذب للنظرات.

تذكرت أنّها كانت مفتتنة في طفولتها بفكرة أنّ الرب يراقبها باستمرار، يمنحها ذلك شعورًا باللذة التي تساور البشر عندما يكونون تحت الأنظار، لمّا ينتهك النظر حرماتهم، كانت أمها تقول لها: الرب يراك، آملةً بذلك أن تنزع منها عادة الكذب وقضم الأظافر وإدخال إصبعها في خياشيمها، ولكن العكس هو ما كان يحصل، فإنييس لم تكن تتخيل الرب تحديدًا إلا في هذه اللحظات التي كانت تمارس فيها عاداتها السيئة، أو في لحظات خزيها.

الناس يتميزون بوجوههم، تقول إنييس، واسمنا نلاقيه بالصدفة دون أن نعرف متى ظهر في هذا العالم، ولا كيف علق بأحد الأجداد المجهولين، نحن لا نفهم هذا الاسم، ولا نعرف شيئاً عن تاريخه، ومع ذلك فإنّنا نحمله بإخلاص مبجل، وتعجب به كثيرًا، ونعتز به على نحو مضحك،

لقد أنشأت الحضارة الإنسانية بمركزية الدين ثم الدولة والمجتمع منظومة من القيم والأخلاق مليئة بضدها، صحيح أنها منظومة أنشأت المدن والشرائع والتنظيمات القانونية، وحسّنت الحياة إلى مستويات مدهشة، لكننا في حاجة اليوم لنعرف ماذا أصاب الفرد من تشوه، وما الذي يجب التخلص منه أو التمسك به، فكثير مما كان يبدو خلقاً جميلاً صار رذيلة يجب التخلص منها، كانت المؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية تحمي حياة الناس وتقدم المعرفة أيضاً، أو تنظم الحصول عليها، لكن الإنسان الفرد في مقابل الحياة والمعرفة تحول إلى تابع للدولة والمجتمعات بلا ملاءمة حقيقية أو جميلة لما يريده بالفعل وما يحتاج إليه وما يحب أن يكون عليه!

وفي كثير من الأحيان كانت السلطات والمؤسسات الدينية تحول توق الإنسان إلى الارتقاء والمعرفة والمعنى والجدوى إلى جموع منظمة تمضي في حماسة وصدق وذكاء إلى النشوة بدلاً من المعنى، والترفيه بدلاً من المعرفة، وإلى النظر إلى الذات بدلاً من الكون، والاكتفاء بالانتماء بدلاً من الغايات والجدوى، وصناعة الوهم بدلاً من الحكمة، وحولت الثقة والفضول والاستعداد إلى قرابين تضحي لتحقيق أهداف الدول والمجتمعات والقادة السياسيين والدينيين.

أصبح ذكاء الفرد وتفرده عبئاً على المؤسسات الاجتماعية والسياسية، فلا تستطيع أن تظل فرداً كما أنت، لأنك لا تقدر على الانتماء والمشاركة إذا لم تشبه الجموع المنتظمة والمتشابهة والمتحمسة على نحو يجعلك مختلفاً أو خارجاً عن السياق وربما مجنوناً، فيتخلى الفرد عن إبداعه وبراءته الفطرية لينشئ استجابات وتكيفات تلقائية مع القيم التنظيمية السائدة والمعدة لأجل الطاعة والولاء أكثر مما هي للإبداع والانسجام.

وفيما يحسبه تحايلاً ذكياً للتوفيق بين انتمائه وحكمته المستقلة، كان الفرد كثيرا ما يحول صدقه ونزاهته إلى وهم وتُقْيَةٍ، ويحسب أنه قادر على التظاهر بالانتماء وهو متفرد، أو أنه يسير في رحلتين

تتمة عالم واحد - 20

كما لو أنّنا نحن من ابتكرناه في دفق من الإلهام العبقري، والأمر نفسه بالنسبة إلى الوجه... أيقظت الموسيقى في نفسها ذكرى والدها فبكت، لكن لما تعالى صوت الأداجيو في الغرفة للمرة الثامنة أو التاسعة بدأ نفوذ الموسيقى يخفت، وعند المرة الثالثة عشرة لم تشعر إنييس بأدنى أثر كما لو كانت تسمع نشيد الباراغوي الوطني، وبفضل هذا التمرين لم تنتحب أثناء الجنازة.

بالنسبة إلى إنييس كان عالم الدروب هو عالم الأب، في حين أنّ عالم الطرق هو عالم الزوج. تنتهي قصة إنييس بشكل دائري: من عالم الدروب إلى عالم الطرق، ثم تعود الآن من جديد إلى نقطة الانطلاق.. يراودها شعور غريب عندما تجد نفسها في وسط الزحام أنّها لا يجمعها شيء بهذه المخلوقات الغريبة التي تمشي على قدمين وتحمل رأسًا فوق العنق وفماً في الوجه. هل معنى هذا أنّها قاسية القلب؟ لا أحد يتصدق مثلها على المتسولين، ولكن لكرمها مع المتسولين خلفية سلبية: إنييس تهبهم الصدقات لا لأنّهم ينتمون إلى الجنس البشري، بل لأنّهم غرباء عنه، ومُقْصَوْن منه، وربما لأنّهم يتنصلون منه مثلها.

كيف العيش في عالم نختلف معه؟ كيف العيش مع أناس لا نشاركهم عذاباتهم وأفراحهم؟ كان يلتحق بالدير قديمًا من كانوا على خلاف مع العالم ولا يحفلون بأحزانه وأفراحه، ولكن بما أنّ قرننا يرفض الاعتراف للناس بحقهم في أن يكونوا على خلاف مع العالم فقد ولى عهد الأديرة.

لا أثر للسعادة في الحياة، أن يحيى المرء معناه أن يحمل أناه المتألمة عبر العالم، لكن الوجود سعادة، الوجود معناه أن تتحول إلى نافورة، أي إلى حوض من الحجر يتساقط فيه العالم كمطر فاتر.

وتفكر إنييس باعتزال الناس والإقامة وحيدة في سويسرا، .. وفي الطريق وهي تقود سيارتها في الليل

متوازيتين؛ رحلة الذات ورحلة الجماعة، لكنه أنشأ قيماً هائلة ومطورة من البلاهة والندم ليحمل نفسه على الانتماء والتكفير في الوقت نفسه عن خطيئته، وكان ذلك أفضل وأهم ما حصلت عليه المؤسسات والنخب السياسية والدينية، إذ يتحول إلى كائن متوقع ومنسجم.

هكذا تمضي متوالية تشكيل الفرد لذاته، فيحمي مصالحه مع الجماعة المهيمنة بالتخفي والتمويه والتخلي عن الفردانية، ويحمي ذاته من التآكل وفقدان الكرامة بالندم والتكفير بأعمال شتى، وفي أحيان ينزلق إلى الكراهية والتطرف والتمرد، وأسوأ من ذلك حين ينشئ أفكارا ومعتقدات خاطئة، فإذا كانت الإساءة والظلم خطأ فإنه يصير يعتقد أن هؤلاء الذين يغشهم أو يظلمهم لا يستحقون العدل والعطف، يصبح العدل يخص الجماعة وليس قيمة حياتية مطلقة ومستقلة! فيكون بذلك قادراً على المشاركة في سياسات القتل والاعتداء والظلم والتمييز وفي الوقت نفسه يكون محباً للحياة وأسرته وأطفاله ومواطنيه وجماعته.

يقدم المفكر الاجتماعي الفرنسي آلن تورين في كتابه «براديغما جديدة لفهم عالم اليوم» مقاربة مهمة وربما تكون فريدة، فهو يرى أن المجتمعات والحركات الاجتماعية تتغير تغيّرا جوهريا، لتفسح المجال للذات الفاعلة والحركات الثقافية، لتستوعب عالم اليوم المتشكل حول الشبكية والعولمة، هكذا أيضا يجب برأيه تصعد سوسيولوجيا الفاعلين والذوات الفاعلة. وقد يبدو ذلك صعب التقبل على الاجتماعويين (المتحمسين للمجتمعات)، لكن لا مناص لنا نحن الخارجين من مرحلة تاريخية طويلة سيطرت عليها فكرة المجتمع من التخلي عن أداة تحليل فقدت قوتها ظاهريا. إننا نعيش نهاية التصور الاجتماعي، وندخل في قطيعة تشبه تلك التي تشكلت قبل قرون خلت، عندما نهضت المجتمعات بديلا تنظيميا للمؤسسات الدينية والإقطاعية، وأنشأت ديمقراطيات وأنظمة سياسية كانت تبدو في ذلك الحين خيالا متطرفا!

في هذه الديمقراطيات صرفت المجتمعات نظرها عن الأفراد، لقد أحبت الفكر والعلم لكنها نفرت من الضمير، إذ كانت ترى فيه سمة الدين الذي يمارس تأثيرا سلبيا على النساء بخاصة، وقد جاءت مناهج التعليم الرسمي مطابقة للصورة التي تريد هذه المجتمعات أن تكونها عن نفسها، حيث كان يفترض بالمدرسة أن تنقل المعارف وتنشئ العقل الجمعي، وتفرض الانضباط، وتحجب الاختلافات القائمة بين الأفراد وراء ستار النظام الموحد؛ أي أن تخضع الجميع للحياة والتفكير اللذين يضمنان الإنتاج الاتجاهات العامة كما تراها النخبة. كانت الفردية ضريبة لحضارة الصناعة، لكنها اليوم تبدو فضيلة أو هي عنوان «الشبكية».

ونلاحظ في هذه المرحلة الانتقالية أن مؤسسات راسخة تتعرض للتحديات وربما الاختفاء أو التحول، فالمدارس التي أنشئت لتلبية احتياجات المجتمع أكثر منها لتلبية حاجات التلاميذ، والجامعات التي أنشأتها المؤسسات الدينية والنقابات المهنية والأرستقراطيات أو القيادات الاجتماعية في عصر سابق، تبدو موضع إعادة نظر جذرية، لأن المجتمعات والمؤسسات الاجتماعية نفسها تتعرض للتلاشي، والقوميات التي صعدت مصاحبة للحداثة والديمقراطية والمجتمعات تحولت إلى أداة

هدم داخلي، كما لو أن الحداثة أنتجت نقيضها، وصارت عبئا على نفسها كما هي بطبيعة الحال عبء على الاعتماد المتبادل الذي تقتضيه العولمة اليوم. وتتشكل مجتمعات وقيم جديدة حول الشبكية، تبدو فيها الفردانية سائدة ومستقلة عن كل بيئة اجتماعية، لكنها «زوالية» مصحوبة بآلام وصراعات مخيفة، وتبدو حتى من وجهة نظر المتفائلين بها ليست بديلا إيجابيا، وليست بطبيعة الحال المخلص المنتظر، رغم كل وعودها القادمة.

كيف ستحدد المجتمعات دورها وتنشئ القيم والاتجاهات والأفكار السياسية والاقتصادية في ظل صعود الفردية الذي تبشر به الشبكية؟ الحال أن المجتمعات تعرضت للإضعاف والتفكيك بفعل هيمنة السلطة والشركات والحروب، ولم تعد تملك السيادة التي بشر بها فولتير وتوماس هوبز كلا من وجهة نظره، ذلك أنهما رغم اختلافهما الكبير اتفقا على أن المجتمعات تحدد الأهداف السياسية واستخدام الموارد الاقتصادية وتنشئة الفاعلين الاجتماعيين ومعاقبة المنحرفين والخارجين على القانون.

لكن الدولة التي هيمنت على المجتمعات وألحقتها بها تتعرض هي أيضا للتغير والتحولات، وكما أن الجديد لا يصنع من الجديد، بل من القديم كما يقول آلن تورين؛ فقد تشكلت الحداثة بفعل مكونات لا اجتماعية فرضت على المجتمع الخضوع لمبادئ أو قيم ليست اجتماعية؛ الحريات والحقوق الفردية، والعقلانية الاجتماعية والأخلاقية، ويبدو ذلك وكأن المجتمعات التي أنتجت هذه الفردية وأدخلتها في التنشئة الاجتماعية تعمل ضد مبادئها المفترضة في تنظيم الناس وتشكيلهم وفق مبادئ وقيم جماعية شاملة، كما يتعارض أيضا مع مبدأ قيم خارجية أو مستقلة أو معدة مسبقا لتنظيم المجتمعات، ووجود سلطة روحية تهيمن على السلطة السياسية الزمنية. لكن تورين يقرّ أيضا أن هذا الوصف أصبح تاريخيا، ولم تعد مجدية الحلول التقليدية والمجربة لمواجهة التحولات الكبرى الجارية وتحدياتها، فقد تكيفت الحضارة والمجتمعات الصناعية وفق متواليات معقدة تبدو متناقضة، من الجدل بين المنفعة والحقوق المبادئ، ومن ثم التكيف مع أوضاع متقلبة وغير محددة وتخرج عن نطاق سيطرتنا؛ دون المساس بالفكر العقلاني والحقوق الإنسانية، أو الجدل الحر بين الحداثة والواقع القائم، ففي حاضر متفتت متغير يتغير أيضا معنى الحداثة، أو الجمع بين الفردية والخصوصية في الفكر والدين وأسلوب الحياة وبين التنظيم الاجتماعي والتعليمي الذي يتجاهل الفردية وتعدد الثقافات والخصوصيات.

لم يعد ذلك يصلح (يقول تورين)؛ فالمجتمع يفسح المجال لتقدم قوى جديدة؛ هي قوى السوق والحرب والعنف من جهة، وقوى الحداثة المشكلة للعقلانية والحقوق الإنسانية الشاملة من جهة أخرى. وفي ذلك، فإنه يلاحظ قوتين تظهران على أنقاض الأنظمة الاجتماعية؛ هما قوى السوق والعنف والحرب، وقوى الحقوق والقيم الإنسانية والعقل، ولم يعد تاريخنا يتحدد بوجهة سيره ونقطة وصوله المحتملة ولا بروح عصر أو شعب، بل بتصارع قوى طبيعية؛ هي قوى الأسواق والحروب والكوارث مع الحداثة، مع الذات الفاعلة.

وكما انفصلت المجتمعات عن المؤسسات الدينية لتنشئ الحضارة الصناعية، فإن الذات الفاعلة تنفصل في الحضارة الشبكية (سوف تنفصل) عن المجتمعات لأجل خدمة الحرية الخلاقة لكل فرد، ولتواجه العنف والهيمنة والاتجاهات السوقية والاستهلاكية متحررة من الانتماءات والقواعد المفروضة، ذلك أن قوى السوق والعنف التي أضعفت المجتمعات والدول أتاحت في الوقت نفسه للذات الفاعلة أن تعمل وتتحرك مستقلة بذاتها، وأن تكون أكثر قدرة وتأثيرا، بل وتستغني عن المجتمعات لتنشئ مجتمعات جديدة «لا اجتماعية»!

لكن كيف تتشكل الأخلاق والقيم في ظل هذا التغير الذي لم تعد فيه المؤسسات الدينية والاجتماعية منشئة أو ضامنة حصرية للأخلاق والقيم والتنشئة الاجتماعية والضبط والتنظيم الاجتماعي؟

تشكلت المنظومة الأخلاقية السائدة (كانت سائدة) بناء على مصالح المجتمعات والدول، ففي الشجاعة والكرم تحمي مواردها وسياساتها وأهدافها، لم تكن هذه القلاع والهياكل وكذا الأسواق والدفاع والأمن والقيادات الاجتماعية لتعمل لولا منظومات الشجاعة والكرم، هكذا يؤشر أيضا بصعود قيم الثقة والإتقان كرأسمال اجتماعي يحمي المنظومة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة بصعود الفردية كمحرك للأسواق والقيم والسياسة؛ ففي الأعمال والعلاقات المتشكلة عبر الشبكة أو المستمدة من اتجاهات وتأثير الفرد؛ لا يحمي الأسواق والمصالح الناشئة سوى الثقة والإتقان، فالفرد الذي ينشئ عبر

تفاجئها فتاة في منتصف الطريق تحاول الانتحار، فتحاول أن تتجنبها فتنحرف سيارتها، وتموت إنييس وتنجو الفتاة! لكن ويا للمصادفة كانت الفتاة قد ألقت بنفسها أمام سيارة إنييس لأجل أن تموت!

الفتاة التي حاولت الانتحار، جلست في الطريق ووضعت رأسها بين راحتيها منتظرة أن تدوسها سيارة، لماذا قررت أن تنتحر؟ يجيب كونديرا الانتحار ليس رغبة ناتجة عن سبب خارجي، بل تنمو في تربة كينونة المنتحر، نمت ببطء ثم تفتحت كزهرة سوداء، نمت فيها الرغبة في تدمير الذات ببطء، وفي يوم من الأيام لم تعد تقوى على المقاومة، أتخيل أنّ المظالم التي حلت بها لم تكن قاسية، لكنها كانت تتعرض للمظالم والإهانات الصغيرة باستمرار، لمّا يحل الشرّ بالإنسان يسارع إلى عكسه على الآخرين، وهذا ما نسميه خصامًا أو شجارًا أو ثأرًا، لكن الضعيف لا يملك القوة اللازمة لعكس الشرّ الذي يصيبه، فيشعره ضعفه بالخزي والقهر، ويظل عاجزًا إزاءه، ولا يعود أمامه إلا تدمير ضعفه عبر تدمير ذاته، وهذا ما حصل للفتاة.

إنّ الموت الذي كانت تتوق إليه ليس اختفاءً، بل نبذًا، نبذًا للذات، لم تشعر قط بالرضا على يوم من أيام حياتها، ولا على كلمة تفوهت بها، كانت تحمل نفسها خلال الحياة كعبء ثقيل تمقته، غير قادرة على التخلص منه، لهذا كانت تتوق إلى رمي نفسها مثل ورقة مكمّشة، مثلما يلقى بتفاحة متعفنة، كانت ترغب في الإلقاء بنفسها كما لو أنّ الملقي والملقى به شخصان متباينان، كانت تتخيل نفسها ترمي بنفسها من النافذة، لكن الفكرة بدت لها سخيفة لأنّها كانت تقطن بالطابق الأول، وحتى المتجر الذي كانت تعمل فيه كان في الطابق السفلي وليس له نوافذ، كانت تتوق إلى الموت بلكمة قوية تصدر صوتًا شبيهًا بالصوت الصادر عن سحق خنفساء كبيرة، إنّها رغبة جسدية في الانسحاق شبيهة بالحاجة التي يشعر بها المرء في الضغط براحته على موضع مؤلم في جسده.

لما كانت تتوجه بالخطاب إلى الآخرين لم يكن أحد يسمعها كانت بصدد فقدان صلاتها بالعالم، كان العالم بالنسبة إليها يتحول شيئًا فشيئاً إلى كيان أخرس، ويكف عن أن يكون عالمها. كانت تبقى منكفئة على ذاتها وغارقة في عذابها، هل كان بوسعها على الأقل أن تنتشل نفسها من عزلتها عبر رؤية عذاب الآخرين؟ كلا، لأنّ عذاب الآخرين كان يحدث في عالم انقطعت صلتها به، عالم لم يعد عالمها، فلو كان كوكب المريخ كله عذابات وحتى لو أنّ كل صخوره تصرخ ألمًا فلن يؤثر ذلك فينا، لأنّ المريخ لا ينتمي إلى عالمنا، إنّ الإنسان الذي انفصل عن العالم يفقد الإحساس بآلام العالم، والحدث الوحيد الذي انتشلها للحظة من عذابها هو مرض كلبها الصغير وموته.

الشبكة أو بذاته مصالحه ويقدم نفسه إلى الآخرين، ويعمل ويبيع ويشتري لا يجد ما يديم هذه المنظومة الهشة أو غير المرئية سوى الثقة والإتقان، والأسواق والمؤسسات التي تقدم نفسها اليوم عبر الشبكة تجد نفسها متجهة إلى الفرد، كل فرد على حدة، لتنال ثقته.

وبالطبع، لم تكن منظومة الثقة والإتقان غائبة عن الأسواق والأعمال كما أن الشجاعة والكرم لن تغيب أيضا في حضارة الفرد ومجتمعاته، لكن يتغير توزيعها وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية، بل وتتغير معانيها وتطبيقاتها أيضا؛ فالكرم يتجلى اليوم أكثر ما يكون في العمل التطوعي والخدمة العامة وتبادل المعرفة والمهارات والتعاون المهني والاجتماعي.

عندما صعدت المجتمعات في مرحلة الصناعة بديلا للمؤسسات الدينية والإقطاعية كان ثمة خشية أن تتفكك المنظومة الدينية والأخلاقية الحامية للقيم والمجتمعات والأعمال، لكنها (المجتمعات) كانت بديلا كفؤا وفاعلا، ولم ينحسر الدين كما لم تتلاشَ الأخلاق، وفي صعود الفردية بديلا للمجتمعات والدولة، فإن الضمير هو الضامن والبديل المتماسك والمتوقع ليعيد تنظيم وتطبيق القيم والأخلاق على النحو الذي تواصل به الإنسانية خط سيرها الطبيعي في الارتقاء والتطور، ولا يخلو المسار بالطبع من المشكلات والأزمات والخسائر، لكن يمكن الاستدلال والملاحظة كيف صعدت على نحو غير مسبوق قيم حقوق الإنسان والحريات والبيئة والعالمية والمشاعية المعرفية، وكيف تتزايد فرص النساء والفئات الخاصة التي كانت مهمشة ومستغلة في الأعمال والمواقع والمساواة والتأثير والتعبير عن ذاتها.

تتمة عالم واحد - 20

ولكن ما حدث أنّ الفتاة لم تمت وماتت إنييس، .. هل كانت إنييس تريد الانتحار؛ وكانت الفتاة تريد الحياة؟

اليس الناس سواسية أمام الخلود، يقول كونديرا، ينبغي التمييز بين الخلود الصغير، كذكرى شخص في أذهان من عرفوه، والخلود العظيم هو ذكرى شخص في أذهان من لم يعرفوه، الخلود شغل به الناس على أنحاء واتجاهات مختلفة. غوته وجده في البقاء حيًّا بعد الموت، الموت والخلود عاشقان لا ينفصمان

3IV- الجمال:
صعود الثقافة والفنون والآداب

لم تعد الثقافة كما وصفها ماكس فيبر عاملاً مساعداً يدفع المجتمع نحو غاياته، أو كما يراها كارل ماركس ناتجاً فرعياً لطور الإنتاج السائد، أو كما يراها إميل دوركايم إحدى المؤسسات الاجتماعية، ففي التشكلات الاجتماعية الناشئة اليوم بفعل تكنولوجيا المعلومات تحتاج سلسلة الاستجابة نفسها إلى ثورة، إذ في عالم الصناعة أنشأت الموارد والتقنيات أسواقاً وأنظمة اقتصادية جديدة، وهذه أنشأت منظومة سياسية ثم تشكلت مدن ومجتمعات، وأخيراً نشأت الثقافة.

لكننا اليوم في حاجة إلى البدء بالثقافة لتقود تشكيل السياسة والأسواق والمدن، لأنه بغير ذلك تدخل الأسواق والأعمال والمجتمعات في حالة من الفوضى والخوف والتطرف، ويصعب استيعاب الصدمة الناشئة بغير وعي جديد وبناء تشكلات اجتماعية وثقافية جديدة تمكن الدول والمجتمعات من إعادة تنظيم نفسها.

صحيح أننا لم نعرف بعد على نحو نهائي ما المجتمع الإنساني الذي سيتشكل حول تكنولوجيا المعلومات، ومن ثم فإنه يصعب تقدير القيم والثقافة الجديدة، لكننا نملك أن نطلق حالة من الحريات والجدل المفتوح، وأن تحصل المدن والمجتمعات والطبقات على فرصة كافية لتشارك في تنظيم وإدارة أولوياتها وتصوراتها وتختار قياداتها التي تعكس اتجاهاتها ومصالحها بكفاءة وعدالة، وألا نطيل عمر المؤسسات والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والمهنية التي تتآكل بسبب التكنولوجيا الحديثة، فذلك ليس سوى لعب في الوقت الضائع، ويؤخر استيعاب المجتمعات والدول للحقائق الجديدة ويكرر مآسي سابقة، عندما حاولت نخب سياسية أن تمنع المطبعة أو سكة الحديد أو آلات النسيج، فالتاريخ يؤكد أن البحث عن الفرص



ومجالات التكيف هو الوسيلة الوحيدة للقدرة على الاستمرار وربما النمو، في حين أن مقاومة التغيير هزيمة مؤكدة.

يقول الفيلسوف الفرنسي وأستاذ الاجتماع بيار ليفي والذي شغل بالتأثير الثقافي والاجتماعي للإنترنت: ثمة ظاهرة اجتماعية جديدة تتشكل لم يسبق للدين أو القانون أو الاقتصاد التقليدي أن تناولها، إنها الذكاء الجمعي الكلي الذي يتضاعف مع زيادة التفاعل وزيادة معدل إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها وزيادة التفاعل بين عناصر المنظومة المجتمعية.

يمكن التقدير في استيعاب صدمة الشبكية أن الثقافة تمثل في الحياة والعمل والاقتصاد والإنتاج مساحة أكبر بكثير مما يبدو في التفكير الانطباعي السائد، ويمكن ملاحظة هذه المقولة بوضوح في اقتصاد المعرفة القائم على الفكرة والتصميم والإبداع، والذي يشكل معظم الاقتصاد السائد اليوم. ولم يعد مستهجناً الربط بين التقدم الاقتصادي والثقافي، فقد كرس التقرير العالمي للتنمية الإنسانية هذه المقولة على نحو بدأ يغير في خطط

واستراتيجيات التنمية في العالم، لكن الأمر يحتاج ربما إلى توضيح وتأكيد متواصل ومتكرر للقدرة على الربط بين الثقافة والتقدم، أو بين الثقافة والفشل أو لتشكيل تجمعات ومشروعات للتقدم قائمة على أساس الثقافة.

يجدر التأكيد أن الثقافة هي منظومة الأفكار التي تعبر بها المجتمعات عن وعيها لذاتها من اللغة والإبداع والآداب والفنون والتراث والعمارة، والقيم والعادات والتقاليد، وفي ذلك يكون السؤال كيف تؤدي إلى التقدم والازدهار وقيم الأخوة الإنسانية الحركة الثقافية والفكرية من الإنتاج الأدبي والإبداعي والترجمة من الشعر والقصة والرواية والنقد الأدبي واللغات والفنون البصرية والسماعية، وحركة النشر بعامة من الكتب والمجلات والدوريات ومعارض الكتب والمطابع والمكتبات ومواقع الإنترنت والمدونات، وأنماط الحياة في السلوك الاجتماعي والانتماء والمشاركة والعادات والتقاليد والتعليم والعمارة واللباس والطعام؟

إن المجتمعات في تنظيمها لمصالحها ووعيها لذاتها تحتاج إلى معرفة ثقافتها وفحصها، وتطوير هذه الثقافة لتكون استجابةً صحيحة لتشكلها حول أهدافها وما تريد أن تكون عليه من تقدم حضاري واجتماعي واقتصادي، وأن تشكل ثقافتها على النحو الذي يمكنها من التوافق الصائب مع البيئة المحيطة والموارد والتقنية وسبل الحياة والرفاه، وعلى النحو الذي ينشئ الناس به كفايتهم ويحققون الأمن والاستقرار والرضا والسعادة والانسجام مع متطلبات حياتهم وتطلعاتهم وآمالهم بحياة أفضل.

الفكرة الرئيسة هنا أن الثقافة والفنون تلهم بالجمال الأفرادَ والمجتمعات، للاتجاه نحو السلام والازدهار وتجنب الكراهية والخواء والتطرف؛ ففي غياب «الجمال» يكون الخواء ليس مجرد أزمة نفسية، ولكن ذلك يفسر أيضاً الكراهية والانحياز ضد التقدم بما هو أيضاً انحياز ضد الذات.

في تحول التطرف إلى كراهية يصعد دور الأفراد والمجتمعات في المواجهة، بل تكاد المواجهة الاجتماعية والثقافية مع التطرف

> لقد جاء الدين من أجل إسعادنا في هذه الحياة وفي الآخرة، فما شرط السعادة في الحياة الآتية؟، هو أن يكون المرء عادلاً، وماذا على المرء القيام به لكي يكون عادلاً، هو أن يكون متسامحًا
>
> فولتير
> كاتب وفيلسوف فرنسي

والكراهية هي الخيار الوحيد لأجل الخروج من الحروب والصراعات التي تعصف اليوم بكثير من الدول والمجتمعات وتقضّ مضجع العالم.

لقد أصبحت المواجهة مع التطرف والكراهية أقرب إلى الثقافة والفنون أو وعي الذات وتشكيلها، وفي ذلك، فإن المجال العلمي والموضوعي لفهم الكراهية والتطرف يتغير عما كان سائدا، فلم تعد علوم السياسة والاجتماع كافية إلا بمقدار ما تساعد في تشكيل الاتجاهات والمواقف الفردية والجماعية، وصار من فضول القول إن الفكر الديني في الرد على المتطرفين لا يفيد إلا غير المتطرفين لأجل فهم التطرف، وأما المتطرفون فإنهم لم ينشئوا مواقفهم بناء على فهم ديني خالص أو مستقل أو اجتهاد ومحاولة للبحث والتفكير في التوجيه الديني، ولكنهم اختاروا من النصوص والنماذج الدينية ما يشبههم ويلائم اتجاهاتهم وحالتهم التي وجدوا أنفسهم فيها.

عالم واحد - 21

الأيديولوجيات السياسية

لا تنشأ الأفكار السياسية من فراغ، ولا تسقط من السماء كالمطر، لكن تكونها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وببساطة ترتبط النظرية بالحياة السياسية. والناس لا يرون العالم كما هو لكن فقط كما يتوقعونه أن يكون، أو عبر حجاب من المعتقدات والافتراضات المتأصلة، وقد استخدم مفهوم الأيديولوجيا والأيديولوجي للإشارة إلى المتعصبين؛ ما جعل المفهوم ملتبسا، كما ارتبطت الايديولوجيات السياسية بطبقات اجتماعية معينة، فالليبرالية ارتبطت بالطبقة الوسطى، والايديولوجية المحافظة ارتبطت بالأرستقراطية المالكة للأرض، والاشتراكية بالطبقة العاملة، لكن مؤكد أنه مفهوم يشمل جميع الأفكار والفلسفات السياسية باعتباره منظورا لرؤية العالم.

ليس هناك تعريف مستقر أو متفق عليه لمصطلح الأيديولوجيا، وقد عرفها مارتن سيلجر (1976) بأنه مجموعة من الأفكار يضع من خلالها الناس ويبررون غايات ووسائل النشاط الاجتماعي المنظم بغض النظر عما اذا كان ذلك النشاط يهدف إلى الحفاظ على نظام اجتماعي بعينه أو تعديله او تغييره، وبهذا التعريف لا تعد الأيديولوجيا أمرا سيئا أو جيدا، صادقة أو كاذبة، معتدلة أو متطرفة، لكن يمكن أن تكون جميع ما ذكر. ولعله تعريف جامع شامل ينطبق على جميع المذاهب.

وقد تبلورت خريطة الأيديولوجيات في القرن العشرين على النحو التالي: الليبرالية في وسط المشهد وعلى يمينها المحافظة، ثم القومية، ثم الفاشستية وعلى يسار الليبرالية تأتي الاشتراكية ثم الشيوعية، ثم الفوضوية أو الأناركية. وهناك مجموعة من الايديولوجيات الجديدة مثل النسوية، والايكولوجية والأصولية الدينية والتعددية الثقافية.

وقد اعتبر الليبراليون الأيديولوجيا بأنها نسق عقيدي يدعو إلى احتكار الحقيقة، ولذلك يعدونها قمعية وشمولية، ويصنفون فيها الشيوعية

4IV- المنعة والتماسك الاجتماعي

في النظر إلى أن اتجاهات العنف والكراهية والتسامح والخضوع والاكتئاب والتمرد والاحتجاج والعزلة والمشاركة والانقياد والمغامرة والنزعة إلى الانتحار والقتل والإدمان والسادية (الاستمتاع بالإيذاء) والماسوشية (الاستمتاع بتلقي الإيذاء) أو أمراض واضطرابات نفسية وعقلية وسلوكية، مثل الانفصام والنرجسية والعدوانية والقلق والتوهم، يمكن أن تتفاعل مع السلوك الديني أو تأخذ تمظهرات دينية أو قومية أو إثنية أو أيديولوجية، أو أن يكون الدافع إلى السلوك الديني أو السياسي نفسيا أو بيولوجيا؛ تتشكل رؤى واتجاهات علمية وسياسية في مواجهة التطرف والكراهية، .. ويمكن، على سبيل المثال، الإشارة إلى كتاب «بيولوجيا السلوك الديني: الجذور التطورية للإيمان والدين»، تحرير جيه. آر. فيرمان، وكتاب «القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري»، تأليف كاثلين تايلور، أستاذة طب الأعصاب وعلم الدواء في جامعة أكسفورد.

وأسوأ ما تقع فيه عمليات مواجهة التطرف الكراهية والعنف المنتسبة إلى الدين الاعتقاد بأنها عمليات استجابة ميكانيكية أو تلقائية لنصوص دينية يساء فهمها أو تفهم فهما صحيحا أو خاطئا، ذلك أنها نصوص موجودة منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ويفترض أن تؤدي إلى حالات متشابهة لدى أفراد مؤمنين بهذه النصوص وفي مجتمعات وبلاد لا يحدث فيها تطرف وإرهاب، ولكن أهلها يؤمنون بالنصوص الدينية نفسها التي يؤمن بها المتطرفون والكارهون، وليس المقصود بالطبع هو إعفاء التأويل المتطرف للنصوص الدينية من المسؤولية عن الكراهية، ولكن التأكيد على أنه فهم جاء منسجما مع ظروف اجتماعية واقتصادية، واتجاهات شخصية ونفسية، فالمعتقدات والأيديولوجيات ليست عمليات عقلية أو ناشئة عن مجهود علمي وفكري، وإن كانت تستند إلى تراث فكري وفلسفي أحيانا، ولكن معتقداتنا في الحقيقة تعكس شخصياتنا، أو هي جزء من هويتنا وميولنا، .. نحن ننحاز إلى المعتقدات والتأويلات التي تشبهنا. وحين نطالب أحدا بالتخلي عن الأوهام يجب أيضا أن نغير الظروف التي أنشأت هذه الأوهام.

تقول كاثلين تايلور أستاذة طب الأعصاب وعلوم الدواء، إن القسوة وهذا يشمل بطبيعة الحال العنف والتطرف والكراهية في حالتها الانتقائية، تعكس الفشل، ولكنها في حالتها الشاملة مرض عقلي، ولكن حين يمتلك هذا المرض العقلي تأييدا اجتماعيا كاسحا كما يحدث كثيرا في القوميات والأيديولوجيات، فإن الوباء يتحول إلى أصل أو سلوك سائد يصعب الخروج عليه، وربما يكون قريبا من ذلك ما يحدث اليوم

في موجة التعصب الديني التي تحولت إلى كراهية شاملة لفئات ومذاهب وطوائف وأنشأت عنفا شاملا ومجازر وتهجير بلا رحمة أو تعاطف، كما يحدث في سوريا والعراق، وكما حدث من قبل في رواندا وبوروندي والبلقان وألمانيا النازية..

إن بناء المعتقدات ليس قائما على عمليات علمية عقلانية؛ فالعلم والعقل لا ينشئان أيديولوجيا، ولكنها أفكار تكتسب صلابة وإيمانا عميقا بسبب اتجاهاتنا وميولنا التي نملكها بالفعل، إنها (المعتقدات) مثلنا ونحن عموما نفضل ما يماثلنا، خصوصا أن المعتقدات تصبح مكونات من هويتنا، وفي ذلك، فإنها تميزنا وتنشئ موقفا من الآخر الذي لا يعتقد مثلنا، فيصبح ليس منا، أو مختلفا عنا، أو عدوا أو مثيرا للاشمئزاز، ثم نطور موقفنا منه (الآخر) أو اعتقادنا عنه بأنه يريد إيذاءنا، ومن ثم يجب إزاحته أو إقصاؤه أو اخفاؤه من الوجود، .. فتبدو عمليات الإقصاء والإبادة كأنها دفاع ضروري عن الذات، أو هي تعكس الخوف الوهمي على وجود الذات ومصيرها.

والحال أنه لا يكاد يوجد فرق كبير وجوهري في الدافع والمحرك بين الإرهاب أو الجرائم السياسية وبين الجرائم الأخرى التي تقع على نحو متكرر ويدفع إليها مشاعر عميقة متراكمة من الكراهية والاكتئاب والشعور بالظلم والمهانة والتهميش والعجز، مثل الانتحار، وجرائم القتل التي تخلو من دوافع السطو والسرقة، والانتقام، وفي ذلك تتقدم اليوم فكرة النظر إلى الإرهاب في سياق الجرائم الناشئة عن التشكلات والحالات الاجتماعية النفسية، سواء في بيئتها الداخلية الفردية (عقل المجرم وجهازه العصبي والنفسي) أو الخارجية في علاقات الأفراد والطبقات والمؤسسات وما قد تنشئه من كراهية وشعور بالظلم وفقدان المعنى والجدوى.

والواقع أنه ليس أمرا أو اكتشافا جديدا محاولة فهم الإرهاب ضمن مجالات واهتمامات علم النفس وطب الأعصاب والبيولوجيا، ولكنه منظور يحتاج إلى وقت طويل وعمل شامل في حين تفضل الحكومات والمجتمعات والمؤسسات حلولا ومشروعات

> مسؤولية التسامح تقع على من لديهم رؤى شاسعة وأفق أوسع
> جورج إيليوت
> روائية إنجليزية

تتمة عالم واحد - 21

والفاشستية. ونظر المحافظون إليها (الأيديولوجيا) باعتبارها أحد تجليات غطرسة المذهب العقلاني، فهي أنساق محكمة وخطيرة لا يوثق بها، وغير قابلة للتحقق، ويصنفون فيها على هذا الأساس الاشتراكية والليبرالية. وأما الاشتراكيون فيرونها تجسيدا لأفكار تخفي تناقضات المجتمع الطبقي، وتروج للوعي الزائف، لكنهم لاحقا تبنوا تعريفا محايدا يعتبر الأيديولوجيا منظومة فكرية لأية طبقة اجتماعية، بما في ذلك الطبقة العاملة. ويفضل الفاشستيون تصوير أفكارهم كرؤية كونية وليس فلسفة نسقية، وتعامل الأصوليون الدينيون مع النصوص الدينية الرئيسية كأيديولوجيا على أساس أنها تقدم برنامجا شاملا لإعادة البناء الاجتماعي كونها تعبر عن الكلمة التي أوحى بها الله.

تمثل الليبرالية العمود الفقري للفلسفة السياسية للعصر الحديث، وهي مصدر الأيديولوجيات العلمانية على يمينها وعلى يسارها، وتلتزم الأيديولوجية الليبرالية بمجموعة متميزة من القيم والمعتقدات؛ اهمها الفرد والحرية والعقل والعدالة والتسامح. ويفهم الليبراليون الديمقراطية بمصطلحات فردية كالرضا الذي تعكسه صناديق الانتخابات، حيث تساوي الديمقراطية بين جميع المواطنين، وبينما يعيق الديمقراطية إساءة استخدام السلطة، فإنها ينبغي أن تمارس في إطار دستوري لمنع طغيان الأغلبية.

تتمة عالم واحد - 21

ويدعم المحافظون الحكم الديمقراطي الليبرالي لكن بشروط تتعلق بالحاجة لحماية الملكية والمؤسسات التقليدية من الإرادة غير المنضبطة للأغلبية، وقد ربط اليمين الجديد في الديمقراطية الانتخابية بين مشكلات الحكومة المهيمنة والركود الاقتصادي.

الاشتراكيون أيضا يدعمون تقليديا شكلا من الديمقراطية الراديكالية التي تقوم على المشاركة الشعبية والرغبة في وضع الحياة الاقتصادية تحت الرقابة العامة، ويرفضون اعتبار الديمقراطية الليبرالية ببساطة ديمقراطية رأسمالية، ومع ذلك يشعر الديمقراطيون الاجتماعيون المحدثون بالالتزام بصورة راسخة بالديمقراطية الليبرالية.

ويؤيد الأناركيون الديمقراطية المباشرة، ويطالبون بالمشاركة الشعبية المستمرة واللامركزية الراديكالية، ويعدون الديمقراطية الانتخابية او التمثيلية مجرد واجهة تحاول إخفاء سيطرة النخبة وإرضاء الجماهير بما تتعرض له من قمع.

ويعتنق الفاشستيون أفكار الديمقراطية الشمولية ويرون أن الديمقراطية الأصيلة هي الديكتاتورية المطلقة، حيث يحتكر القائد الحكمة، وهو وحده قادر على التعبير عن المصالح الحقيقية للناس، ولذلك فإن المنافسة الحزبية والانتخابية تعد فاسدة ومتفسخة.

ويؤيد الايكولوجيون ديمقراطية المشاركة أو الديمقراطية الراديكالية، وقد طور الراديكاليون نقدا خاصا للديمقراطية الانتخابية يصورها كوسيلة فرض مصالح الجيل الحالي من البشر على الأجيال اللاحقة (الأجيال التي تتمتع بحق الاقتراع) والأنواع الأخرى والطبيعة.

وبدأت منذ أواخر القرن العشرين تزدهر أفكار عن نهاية الايديولوجيا أو ما بعد الأيديولوجيا أو الأيديولوجيات الجديدة مثل العقلانية والطريق الثالث وما بعد الحداثة والتعددية الثقافية؛ والمستمدة من مرحلة ما بعد الصناعة.

ذات نتائج فورية أو سريعة، فالحديث عن الحلّ المستمد من الصحة النفسية والتماسك الاجتماعي ومواجهة الهشاشة والضعف الاجتماعي والاقتصادي لدى الأفراد والمجتمعات، وبناء وتكوين المهارات المعرفية والحياتية التي تؤهل المواطنين والمجتمعات؛ يقتضي بطبيعة الحال بناء تنمية إنسانية متقدمة، ومجتمعات حرّة ومستقلة وقادرة على المشاركة والولاية على شؤونها ومواردها، وأفراد مؤهلين بالمعرفة المنطقية والقدرة على النقد والتحليل؛ ما يعني أيضا سيادة قيم العدل والمساواة والمشاركة والتسامح والتنوع، وهو ما أدركته وأكدت عليه تقارير التنمية للأمم المتحدة والبنك الدولي وغيرهما من المنظمات الدولية، ومؤكد أن ما ينطبق على التنمية ومواجهة الفقر والجهل والمرض والجريمة يمتد إلى الكراهية والعنف الديني والقومي والصراعات الاجتماعية، فالشخص الذي يملك الإرادة والتصميم على القتل والانتقام أو الانتحار مرشح لأن يكون إرهابيا.

وكما تؤكد الأمم المتحدة، وهو ما تؤيده الإحصاءات والمؤشرات أن التكامل الاجتماعي والرضا يصاحب الارتقاء بالتعليم والرعاية الصحية والاجتماعية ومستوى الدخل، وأن الفقر مصاحب للصراعات والانقسام، وأن الكوارث والأمراض والأوبئة والجرائم أكثر وأعمق حضورا وتأثيرا في بيئة الفقر والاستبداد والفشل، فمن المنطقي أن تكون مواجهة الكراهية والتطرف في بناء التماسك الاجتماعي والاقتصادي ومواجهة الضعف والهشاشة في حالتها العامة، إذ يستحيل أن تعالج الكراهية جراحيا أو أن تستأصل من المجتمع والأفراد مثل حالة معزولة أو مستقلة عن مناعة المجتمعات

والأفراد، ولكنها نسيج اجتماعي يستدل عليه بمؤشرات الضغوط النفسية والاكتئاب والعزلة والإدمان والنرجسية والعدوانية والقلق، ويمكن الاستدلال عليه في أسلوب الحياة والسلوك الاجتماعي واليومي في الشوارع والأسواق والأعمال والعلاقات وشبكات التواصل الاجتماعي.

وفي ذلك، فإن الردّ على التطرف والكراهية والحوار مع أصحابهما أو التأثير عليهم لا يندرج في الجدل والتأثير العلمي والعقلي، ولا تفيد هنا المؤسسات الدينية والتعليمية والأكاديمية إلا بقدار ما تساعد الأفراد والمجتمعات على بناء الشخصية السوية والمستقلة والقادرة على تحمل المسؤولية والمشاركة والانتماء، وأما الردود العلمية والفقهية والفكرية على المتطرفين فإنها تفيد المعتدلين ولا تؤثر على المتطرفين، وبالطبع فإنه أمر جيد أن يتعرف غير المتطرفين على أفكار المتطرفين ومصادرهم.

وبالنظر إلى الكراهية حالة ثقافية أو موقف جماعي أو فردي فإن المواجهة لا تكون إلا ثقافية؛ بناء ثقافة جديدة مناهضة للكراهية، ولكن الثقافة عملية وعي معقدة تنشئها المجتمعات أولا، وتخصها أكثر من السلطة السياسية، وتتشكل الثقافة في متوالية معقدة من التفاعلات والاستجابات مع الموارد وإدارتها وتنظيمها والمنظومة الاقتصادية والسياسية المتشكلة حول المكان والموارد، ثم بما يحكمها ويؤثر فيها من تاريخ وقيم وعلاقات، وما يمكن اقتراحه وتنفيذه من سياسات وبرامج ثقافية لا أهمية له في الواقع إلا بمقدار ما يحمله الأفراد وتلتزمه المجتمعات، وهو ما لا يمكن تحقيقه بمجرد تشريعات ومؤسسات وبرامج وتوجيهات واقتراحات، ولن تفيد المؤسسات الإعلامية والثقافية إلا بمقدار ما تؤثر في اتجاهات الأفراد والمجتمعات.

وقد أصبحت الثقافة كما الإرهاب والتطرف متصلة بخيارات واتجاهات عالمية، ولا يكفي أن تكون الدولة والمجتمع على قدر من الحصانة الثقافية من التطرف والكراهية، ولكن لا بد من المشاركة في العالم على نحو صعب ومعقد لأجل التأثير في العالم والتفاعل معه في التلقي والتأثير والانتماء العالمي والتقبل العالمي أيضا ثم بناء اتجاهات عالمية نحو التسامح ومواجهة الكراهية.

إذن تبدأ المواجهة مع الكراهية والتطرف ببناء المجتمعات المستقلة، والتي تنشئ في ولايتها على مواردها وشؤونها وتشكلها حول حياتها ومواردها ثقافة ووعيا يمجّد السلام.

لكن في التفاعل المعقد بين الظروف والأفكار يغلب على المجتمعات والمهمشين والمستضعفين عدم الإدراك لمصالحهم، وعزوفهم عن العمل في الاتجاه المفترض أن يؤدي إلى تشكلهم وتنظيمهم حول أولوياتهم، .. وفي ذلك يزداد العمل الإصلاحي صعوبةً، فالحركات السياسية والاجتماعية الإصلاحية لا يُفترض أن تعمل بالنيابة عن المجتمعات، ولا يمكنها أن تقوم بواجباتها ومسؤولياتها، لكن العمل الإصلاحي السياسي والاجتماعي يركّز دائماً، في محتواه وأهدافه، على الارتقاء بالمجتمعات، وبناء قاعدةٍ اجتماعيةٍ واسعةٍ وملائمةٍ للإصلاح.

إن القسوة وهذا يشمل بطبيعة الحال العنف والتطرف والكراهية في حالتها الانتقائية، تعكس الفشل، ولكنها في حالتها الشاملة مرض عقلي.

كيف تعمل المجتمعات وتكون مؤثرة في مواجهة التطرف والكراهية؟

لدينا ثلاثة قطاعات رئيسة للعمل والتنظيم والتشكل، يفترض أنها مستقلة ومتكاملة أيضا، وهي حسب الترتيب في الوجود والتشكل: الموارد، وما يتبعها ويتشكل حولها من أسواق وتكنولوجيا وأعمال ومهن، وصارت تسمى «القطاع الخاص». والمجتمعات، بما هي المدن والبلدات والجماعات والبلديات والنقابات والمنظمات والمؤسسات الاجتماعية. والسلطات السياسية والتنفيذية والتشريعية والقضائية، وصارت تسمى «القطاع العام».

هناك وضوح ومؤسسية في القطاع العام والقطاع الخاص، لكن المجتمعات تبدو حلقة غائبة. وفي ذلك، فإن المثال أو النموذج المفترض بناؤه والجدل حوله يفقد (إن وجد) قدرته على العمل والتأثير؛ فما من أسواق متماسكة ومزدهرة، وما من برامج وسياسات وتشريعات عامة عادلة وكفؤة من غير مجتمعات مستقلة ومنظمة وقادرة على المشاركة والتأثير.

يفترض أن كل مدينة أو بلدة قادرة، بمواردها ومساهمات أبنائها، على إقامة محطة للطاقة الشمسية، ومحطة لتكرير المياه، وخزانات لجمع المياه، وتعاونية استهلاكية لتوفير السلع الأساسية، يمكن توفير معظمها أو جزء كبير منها من موارد محلية، وبذلك تستطيع كل بلدة أن تخفض بنسبة تقترب من الاكتفاء الذاتي في الطاقة والمياه والسلع الأساسية. ويمكنها أيضا، بمواردها الذاتية، إقامة مركز للرعاية الصحية والاجتماعية، وناد رياضي ثقافي اجتماعي، ومكتبة عامة، وأن تدير منظومة للرعاية الاجتماعية.

الأرض المنخفضة .. رواية للصراع المديد في الهند ومتوالياته التي لا تنتهي أبدا

تعرض الرواية قصة الثورة والصراع الاجتماعي كلكتا في الهند والذي أخذ أبعادا سياسية وإقليمية أيضا منذ عام 1967 والتي استمرت عدة سنوات، ثم ظلت تداعياتها الثقيلة تؤثر بعمق في حياة ومصائر الناس حتى اليوم، والمؤلفة هي جومبا لاهيري، روائية أمريكية من أصل هندي بنغالي، وقد نشرت مجموعة من الروايات والقصص، وحصلت على جوائز أدبية رفيعة المستوى، مثل بوليتسر، وترجمت رواياتها إلى عشرات اللغات، وحولت رواية «السميّ» إلى فيلم بعنوان غوغول.

تعرض الرواية أحداث الثورة الماوية في البنغال الهندية ضد الحكومة الشيوعية المنتخبة في الولاية عام 1967.. ويا لها من مفارقة في الصراع الوحشي بين الرفاق وابناء الوطن الواحد، لقد قتلت الحكومة معارضيها بلا رحمة ولا محاكمة. وتركت جثثهم ملقاة في كل مكان. ولم تسمح بدفنها او حرقها. وفي المقابل فقد قتل الثوار وأحرقوا خصومهم وأعوانهم البريئين، .. وتركت الثورة واحداثها جروحا غائرة في نفوس الناس وارواحهم ما زالت تنزف حتى اليوم.!

تدور الرواية حول قصة ساباش وأوديان؛ أخوين ولدا في منتصف الأربعينات في مدينة كلكتا الهندية البنغالية في أسرة من أدنى الطبقة الوسطى، وتفوقا في دراستهما وأتما دراستهما الجامعية في العلوم في كلكتا، وقد انخرط أوديان في الحزب الشيوعي الماوي (المؤيد للصين) في حين انشغل ساباش بدراسته وحصل على منحة لإتمام دراسته في الولايات المتحدة.

تصف لاهيري شخصية الأخوين بالقول «كان أوديان هو الصبي الجسور، لم يكن يملك أي حس لحدود كيانه، كحيوان فاقد تماما للتمييز بين الألوان، وأما

5IV- المواطنة

تمثل المواطنة التزاما متبادلا بين الدولة والمواطن وبين المواطن والمجتمع، وهي تعكس العقد الاجتماعي المعبر عن القيم والتشريعات والأنظمة كما الثقافة الاجتماعية والأخلاقية، هكذا فإن المواطن في تفاعله مع الدستور والقوانين والتشريعات في بلاده والمجال العام الناشئ حول منظومات السياسة والإعلام والإرشاد والتعليم والعلاقات الاجتماعية والأسرية ينشئ سلوكه وحياته اليومية، ومن المهم جدا أن يعكس المواطن هذه الأهداف والقيم التي تدور حولها المواثيق والتشريعات، وحين يحدث فجوة بين المنظومة والأهداف التشريعية والمؤسسية في البلاد تتآكل المواطنة أو تعمل ضد نفسها، فالوحدة والتماسك الاجتماعي كما التضامن العام تحركه أساسا قيم المواطنة والشعور بها،

إن لم نكن مستعدين للدفاع عن المجتمع المتسامح ضدّ المتعصّبين، فسنكون بذلك قد دمّرنا المتسامح وتسامحه معهم، علينا المطالبة باسم التسامح الحق في عدم التساهل مع المتعصبين، واعتبار أي حركة تعظ بالتعصب خارجةً على القانون، واعتبار التحريض على التعصب والاضطهاد جريمة، تمامًا مثلما نعتبر التحريض على القتل جريمة.
كارل بوبر
فيلسوف نمساوي-إنكليزي

نفترض بطبيعة الحال أن الأهداف والقيم التي تقوم عليها الدول مستمدة من السعي إلى الازدهار والاستقرار والسلام.

لكن في تطور المؤسسات والحياة الاجتماعية وما وصلت إليه من تعقيد وتداخل لا تبدو العلاقة مباشرة بين المواطنة وأهداف الدولة والمؤسسات والتشريعات المنظمة للحياة والمصالح، وتتشكل حاجة ملحة لتحويلها إلى دليل إرشادي يلاحظ هذه العلاقة.

ساباش فقد كان يبذل ما في وسعه للاختفاء عن عيون الآخرين، كالحشرات التي تتماهى مع محيطها، وتختفي بتغيير لونها حسب الشجرة أو النبتة التي تقف عليها هربا من الأعداء»

وعندما حفر الطفل أوديان خطواته في الصبّة الإسمنتية على أرض البيت نصح العامل والديه بأن يدعا الوضع كما هو، وقال: من الخطأ إزالة آثار أقدام طفل عن الأرض. هكذا تحولت آثار قدمه إلى علامة فارقة للمنزل!

أدار الماويون بقيادة ماجومدار وسانيال ثورة للفلاحين ضد الإقطاع والظلم في غرب البنغال، سميت الثورة الناكسالية، كان ماجومدار ابنا لمحامي من أسرة إقطاعية، وأما تلميذه سانيال فقد كان راهبا براهميا، ومازالت الثورة التي امتدت في المدن والقرى والجبال قائمة حتى اليوم، مات ماجومدار تحت التعذيب عام 1972، وظل سانيال معتقلا حتى عام 1977 لكنه واصل تمرده وغضبه، ثم أنهكه المرض، ورفض أن يتلقى العلاج في مستشفيات الحكومة؛ حتى توفي (منتحرا) عام 2010 وعمره ثمانية وسبعون عاما، وأما أوديان فقد اعتقل عام 1971 وأعدم ميدانيا في ساحة منزله أمام أسرته وجيرانه وزوجته الشابة غاوري، وهي زميلته في الحزب والجامعة، وكانت عند مقتل زوجها حاملا. عاد ساباش من الولايات المتحدة عندما علم بمقتل أخيه، وبقي مع أسرته بضعة أسابيع، وتزوج من أرملة أخيه، التي لحقت به وأنجبت ابنتها بيلا في رود آيلند.

ظلت غاوري حزينة مكتئبة، ولم تستطع أن تعيش مع زوجها ساباش وابنتها، وكانت منفصلة عنهما حتى وهي تعيش معهما إلى أن تركتهما نهائيا بعد ست أو سبع سنوات، كان ساباش وبيلا في زيارة طويلة إلى الهند وعندما عادا بيتهما في رود آيلند وجدا البيت مهجورا، تركت غاوري

6IV- رأس المال البشري

يشكل رأس المال البشري المورد الأساسي للأمم والأفراد سواء لأجل تمثل القيم الأساسية أو لأجل القدرة على الاستجابة والتكيف مع التحولات ومواجهة التحديات الكبرى وبخاصة تلك الناشئة عن الكراهية والتطرف والتهميش والحرمان، ففي هذا البناء للموارد سيكون في مقدور جميع الناس المشاركة الاقتصادية والاجتماعية؛ ما يقلل أو يجفف موارد الكراهية والعنف، ويدفع إلى القيم والفضائل الاجتماعية.

لقد نشأت المؤسسات التعليمية القائمة اليوم في الموجة الثانية أو الثورة الصناعية وهي تعكس المؤسسات والأعمال والأسواق التي تشكلت حول الصناعة في موجتها الثانية منذ القرن الثامن عشر، ويمكن ببساطة الملاحظة كيف أن الجامعات أنشأتها ثلاث مؤسسات أو روايات؛ أولاها المؤسسة الدينية، وثانيها النقابات المهنية والشركات الصناعية والتجارية والتي أنشأت تخصصات المهن والأعمال مثل الطب والهندسة والمحاماة والمحاسبة،... وثالثها: النخبة الاجتماعية التي طورت تخصصات الفنون والآداب والفلسفة، وكان واضحا بالطبع كيف تطورت وتفوقت العلوم البحتة والتكنولوجية، وتراجعت وتهمشت الدراسات الإنسانية والاجتماعية كما الفلسفة والآداب والفنون. ونواجه اليوم (كما العالم أيضا) تحديا أساسيا وخطيرا في تشكيل المؤسسات والاتجاهات التعليمية وفق تحديات وفرص المرحلة الجديدة في التقنية والأسواق والمؤسسات، وهي أن العمليات التعليمية التي تقودها الاتجاهات العلمية البحتة والتطبيقية تواجه سؤالا استراتيجيا عن معناها وجدواها، بل وتتجه إلى والتحول الجوهري، وتجر معها قاطرة التعليم إلى المجهول وربما اللاجدوى! والتحدي الآخر هو أننا لم نتبين بعد آفاق المرحلة الجديدة، ولا نملك في واقع الحال للاستعداد لها واستيعابها سوى تطوير



تتمة عالم واحد - 22

رسالة بالبنغالية تقول إنها انتقلت للعمل والعيش في كاليفورنيا. وقد أدخلت هذه التجربة بيلا في حالة صدمة عميقة.

عملت بيلا كما لو أنها تستحضر جينات أبيها أوديان في تدريب الفلاحين في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمضت حياتها تعمل في الزراعة العضوية وتسويق منتجاتها بوسائل بدائية، وبرغم محبتها العميقة لساباش فقد ظلت وحيدة متنقلة تفاجئه بين الحين والآخر بزيارة، ثم تعود لتعيش في المزارع والحقول، لكنها بعد الثلاثين أنجبت ابنة اسماها ساباش فيغنا تيمنا بأحد الأنهار البنغالية، وعاشت في بيت العائلة في رود آيلند، وأما ساباش فقد تزوج بعد الخامسة والستين من عمره من أستاذة التاريخ في مدرسة بيلا .. هكذا تنتهي من قراءة خمسمائة صفحة، لكن الرواية تظل مفتوحة بلا نهاية، ولا أمل أيضا، كما الحياة نفسها، .. وكأن الثورات لا تنتهي ولا تتوقف حتى عندما تهزم. لكنها تتوالى وتتداعى في تشكلات ومشاعر واتجاهات معقدة وغير متوقعة. ما من ثورة توقفت في نتائجها وتداعياتها عند انتصارها أو هزيمتها..

المهارات الإنسانية والمعرفية العامة، مثل الإبداع والتفكير النقدي والحرّ والفلسفة والفنون والآداب، وهي تخصصات ومعارف ضمرت كثيرا.

إن الإبداع والتفكير الحر والنقدي والآداب والفنون ليست مجرد مهارات فنية يمكن التدريب عليها، لكنها عمليات استيعاب طويلة وعميقة تنشئها منظومة راسخة ومتراكمة من التعليم والثقافة والسلوك.. وأخيرا المهارات والأداء. والفنون بعامة هي تعبير محسوس عن مشاعر وأفكار. والمشاهد يتذوق بصريا و أو سمعيا الفلسفة المنشئة لهذه الفنون. هكذا يجب ان تكون لدينا أولا حياة اجتماعية ثقافية وفكرية نعيشها ونتجادل بشأنها ثم نلتمسها في الموسيقى والفنون والشعر والقصة والعمارة والرقص والمسرح، وسوف يظل ما لدينا من ثقافة وفنون أسير هذه الحالة. لكن بالتأكيد فإن ما يبذله المشغولون بالإبداع هو جهود نبيلة ومقدرة. وتظل مسؤولية المؤسسات التعليمية والثقافية ان تنشئ قاعدة اجتماعية وجمهورا عاشقا ومتذوقا للفنون.

بناء الإبداع ورأس المال البشري والمهارات المعرفية هي عمليات طويلة متراكمة ومملة وقاسية، ولا يمكن تحصيلها في دورات سريعة ومسلية، بل هي ليست مهارة محددة لكنها روح عامة يؤشر إليها بالقدرة الإنتاجية والمعرفية والإضافة الممكنة للموارد والأعمال، هكذا فإن الإبداع يكون محصلة لعمليات طويلة من التفكير الحر والنقدي الذي يمارسه التلاميذ وجميع الناس في حياتهم وأعمالهم، وفي مهارات وعلوم تبدو غير مباشرة لكنها تطلق الخيال المؤسس للإبداع؛ مثل الكتابة والشعر والموسيقا والفلسفة والفنون التشكيلية والنحت والمسرح والتصوير والتصميم والسينما، ومهارات الحياة والاستماع والتعلّم المستمر.

وتقاس نوعية التعليم بمؤشرات قياسية

أعدتها المنظمات الدولية ومستمدة من اختبارات للتحصيل العلمي والمعرفي للطلاب، ويلاحظ البنك الدولي أن أقل من نصف الطلاب في البلدان النامية يتمتعون بالمعيار القياسي لكفاءة التعليم والتحصيل المعرفي، في حين أن 98 في المائة من الطلاب في سنغافورة يتمتعون بالمهارات العلمية والمعرفية القياسية! وهذا يعني أساسا أن جميع طلاب المدارس الثانوية في سنغافورة على استعداد لمرحلة ما بعد التعليم الثانوي وعالم العمل، في حين أن ما يقرب من ثلاثة أرباع الشباب في الدول النامية غير مؤهلين للعمل ولا للجامعات!

والمؤشر الرئيسي الثالث (بعد كفاءة التعليم والإبداع) للإنتاجية والعمل هو الصحة، لأنه وببساطة لا يصلح للعمل إلا من يتمتع بصحة جيدة، لكن الصحة ترتبط مؤشراتها بمجموعة واسعة ومعقدة من المكونات الاقتصادية والاجتماعية، مثل الفقر والتغذية والسلوك الاجتماعي والحياتي تجاه السلامة والنظافة، كما تؤثر البيئة والأنشطة الاقتصادية الصناعية والتجارية واتجاهات البناء والعمارة وتخطيط المدن والفضاءات على صحة المواطنين وسلامتهم، إضافة بالطبع إلى الخدمات والأعمال الصحية المباشرة، مثل التطعيم ضد الأمراض، وتوفير الأطباء والممرضين والمستشفيات والمراكز الصحية والأجهزة والتقنيات الطبية، والتدريب الفني والتوعية الصحية، وتجنب المخاطر الصحية. ومن المؤشرات القرائية التي يستدل بها على الحالة الصحية: العمر المتوقع ومعدلات الوفاة بين الأطفال، وحالات التقزم وسوء التغذية لدى الأطفال والبالغين.

عالم واحد - 23

كافكا على الشاطئ للروائي الياباني موراكامي .. البحث عن معنى الوجود

يعد الروائي الياباني هوراكي موراكامي من أهم الروائيين في العالم ممن هم على قيد الحياة حسب تصنيف صحيفة الغارديان، وتعد روايته «كافكا على الشاطئ» من أكثر رواياته شهرة وأهمية، ولقيت إقبالا كبيرا وترجمت إلى عدة لغات.

في البحث عن معنى الوجود وحقيقته، كما في سفر التكوين وقصة آدم في القرآن وأسطورة بروميثوس وأوديب، يحاول موراكامي أن يقدم استيعابا حديثا للقصة، ويواصل التأمل والتفكير في الحياة والعالم. ويبدو أنه يجد ذلك في التخلي عما أضيف إلى الحياة، واستعادتها كما بدأت؛ ثم النظر في رموزها من جديد. إذ يجد أن امتلاك هذه الرموز يصبح أهم من الحقيقة التي ترمز إليها، وربما للسبب نفسه نواصل قراءة الأسطورة.. أن تملك شيئا يجسد الحرية، يسعدك أكثر من الحرية، يقول موراكامي. وللسبب نفسه ربما، يكون الأقدر على الفهم والانسجام مع الكون والحياة هم الأقدر على التحرر من قيود العقل والحياة مثل ناكيتا وهوشينو الذين سنتعرف عليهما بعد قليل.

ناكيتا العجوز دخل في غيبوبة طويلة، وعندما يستيقظ يفقد الذاكرة والقدرة على التعلم. لكنه الأقدر على فهم الكائنات والحياة (ربما). وهوشينو الشاب الذي لم يكن يرى في الحياة سوى قيادة الشاحنات، يصبح في الأيام التي رافق فيها ناكيتا إنسانا جديدا؛ فاهما للحياة، ومحبا للقراءة والموسيقى!

إذا كان ذلك صحيحا، فإنه يمتد إلى كل الأشياء؛ أن تملك رموزها يسعدك أكثر من أن تملكها. النقود الورقية، والبطاقات البنكية، ترمز إلى المال وليست هي المال. ولكننا نحتفي بها أكثر من المال، بل لم نعد نعرف المال سوى النقود أو ال«كريدت». والأيام والسنين ترمز إلى الزمن، وهي ليست هي الزمن، ولكن الزمن لم يعد يعرف إلا أنه دقائق وساعات. والرموز والطقوس الدينية هي رموز، ولكنها تحولت إلى حقائق تحجب ما ترمز إليه، ثم صارت تملك روايتها وهويتها المستقلة عما ترمز إليه! وفي حديثه مع القطة، يقول ناكيتا إنه لا يقرأ ولا يكتب. ترد عليه القطة: أقول لك، وليس زهوا ولا خيلاء، أنا أيضا لا أقرأ ولا أكتب.. ربما لا تحتاج إلى القراءة والكتابة إلا بمقدار ما تساعدك على فهم ذاتك، وإدراك الحياة والعالم!

يقرر الفتى كافكا تامورا سارد الرواية في يوم عيد ميلاده الخامس عشر أن يغادر بيت أبيه من غير رجعة، ويرشد الفتى في تفكيره وقراراته فتى آخر يتمثل له في هيئة غراب «كرو» ولعله تامورا نفسه أو جانب خفي من شخصيته. كانت المكتبة بمثابة بيتي الثاني. يقول تامورا، وكان قد عرف من خلال الإنترنت عن قصة المكتبة التي أنشأتها عائلة عريقة وثرية في

هكذا فإن المسؤولية الوطنية للحكومات والمجتمعات والمنظمات لأجل رأس المال البشري تتلخص في بيئة تعليمية وصحية واجتماعية متقدمة، وسوف يكون التقدم العملي والإنتاجي والإبداعي محصلة طبيعية وشبه تلقائية لهذه البيئة، وهكذا أيضا يمكن تقدير النمو الاقتصادي والدخل وقراءة مستقبلنا ومستقبل أطفالنا في عالم قادم يعتمد على التعليم المتقدم والإبداع، وتتداخل أسواقه حتى تكاد تكون سوقا واحدة، فلا يعود مجال لغير الأقوياء للمشاركة الاقتصادية حتى في بلادهم.

وفي مستوى مواز من العمل والتخطيط تؤثر في بناء رأس المال البشري الحريات والمساواة وعدالة التوزيع والعدالة الاجتماعية؛ إذ من شأن هذه السياسات أن تطلق الإبداع والروح الإيجابية للمبادرة والعمل والانتماء والمشاركة، كما تساعد المخططين على اكتشاف المواهب والكفاءات، وعندما يتقدم أبناء الفقراء في حياتهم وأعمالهم فإن مكتسباتهم تعود أيضا على مجتمعاتهم وأسرهم فتنشأ متوالية من التقدم والازدهار.

تواجه عمليات بناء وتكوين رأس المال البشري ليستوعب التحولات تحديات أساسية، لا تقف عند التدريب والتأهيل والاستثمار وتطوير التعليم، .. وكل المبادرات والأفكار والاقتراحات الإيجابية، ذلك أن التحولات الكبرى لم تقتصر على الأعمال والمهارات والمعرفة، لكنها تمتد عميقا لتغير في بنية المجتمعات والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية والاقتصادية القائمة اليوم، فقد أصيبت هذه المكونات بضربة قاصمة ولم تعد قادرة على التنظيم الاجتماعي والأخلاقي للمواطنين، وتهيئة الفاعلين الاجتماعيين للقيام بمسؤولياتهم تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم، والحال أنها ظاهرة عالمية لا تخصنا وحدنا، لكننا كما يبدو أقل اهتماما وشغلا بالظاهرة، وما زلنا نصر على تطوير رأس المال البشري لدينا من خلال مؤسسات ومنظمات تتعرض للتصدع والتغير بنفس القدر الذي تعرضت له الأعمال والمهن والأسواق، ولا بد أنها مقولة بديهية، لكنها برغم بداهتها تتعرض للإهمال والنسيان، لكن لا مفر من مواجهة الحقيقة ومتطلباتها؛ إذ لم يعد ممكنا أن تستمر هذه المؤسسات والأوعية في عمل لم يعد موجودا، أو لأداء أعمال وأغراض جديدة عليها ومختلفة عن روايتها المنشئة اختلافا كبيرا وجوهريا.

النفوس الكبيرة وحدها تعرف كيف تتسامح وتسامح.
جواهر لال نهرو
أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال

تتمة عالم واحد - 23

المدينة، ويستقبله في المكتبة شاب وسيم اسمه «أوشيما» يتبين فيما بعد أنه فتاة، ويجد تامورا أن المكتبة هي المكان الذي كان يبحث عنه طوال حياته، ويتحدث مع أوشيما ويصيران صديقين، يخبره أوشيما بما قرأه لريستوفانيس في أسطورة الوليمة: لم يكن الناس ينقسمون إلى رجال ونساء، ولكن كان كل شخص شخصين، ثم أخذ الرب سكينا وقطع الجميع إلى نصفين متساويين تماما، وصار العالم منقسما إلى رجال ونساء، وهكذا صار الجميع يقضون أعمارهم كل وراء نصفه الآخر، .. يتساءل كافكا تامورا ولم فعل الرب هذا؟ يقول أوشيما: للرب طرق غامضة في فعل الأشياء!

يجد كافكا تامورا نفسه في منتصف الليل نائما في ساحة معبد شينتو (ديانة ظهرت وتطورت في اليابان سبقت البوذية)، ولا يتذكر كيف وصل إلى هنا، آخر شيء يتذكره أنه أمضى نهاره في المكتبة وتناول عشاءه، ويلاحظ عندما يستيقظ بقعة لزجة من الدم على ملابسه، يحاول أن يزيلها ولكنها لا تزول، ويصيبه رعب لدرجة أن أسنانه تصطك ولا يستطيع إيقافها. لا يتذكر شيئا يفسر الدم اللزج الطازج على ملابسه، لكن حدث أيضا أن والد تامورا كان قد قتل بالفعل على بعد مئات الأميال في نفس لحظة الحلم! ويجد أنه بحاجة إلى مكان آمن دافئ يلجأ إليه، فيتصل بساكورا الفتاة التي تعرف عليها في الطريق إلى تاكاماتسو، فتستقبله في شقة صديقتها التي تقيم فيها، ويروي لها قصته، ..

تركت والدة تامورا بيت زوجها عندما كان في الرابعة من عمره، وأخذت معها أخته الكبرى، نعرف ذلك، وهو يروي لساكورا «لم أرها منذ ذلك الحين، ولا رأيت أمي، لم تتصل بنا، ولا أعرف مكانها، ولا أتذكر شكلها..» تسأله ساكورا: كانت أختك طفلة متبناة؟ يجيبها: نعم، وولدت بعد هذا، ثم تتساءل ولكن عندما تركت أمك المنزل لم تأخذك، وبدلا من ذلك أخذت أختك المتبناة، هذا ليس ما تتوقعه من أم، لم فعلت هذا؟ لا يعرف كافكا تاموارا طبعا، يقول لقد سألت نفسي هذا السؤال مليون مرة!

يستعين كافكا بأوشيما، ويسعى هذا في توظيفه في المكتبة مساعدا له، ويرتب له إقامة في كوخ تملكه عائلته في غابة بعيدة عن المدينة، يتحدثان في الطريق عن موسيقى شوبرت التي يحب أوشيما سماعها في أثناء القيادة، لأن عزفها الناقص يستفز من يقود السيارة ولا يجعله يستسلم للنوم «تجعلني أشعر بحدود قدرة البشر، أن هناك نوعا معينا من الكمال لا يمكن إدراكه سوى عبر التراكم غير المحدود للنقائص» .. يقول أوشيما.

يمضي كافكا تامورا في الكوخ عدة أيام وحيدا يفكر، يشعر أنه اقترف جريمة لا يتذكرها ولكن ثمة دليل واضح على ذلك هو الدم على ملابسه، المسألة كلها خيال، لكن مسؤوليتنا تبدأ بالقدرة على التخيل، كما قال ياتس في الأحلام تبدأ المسؤولية، ويتخيل كافاكا نفسه يحاكم بسبب الحلم وما حدث فيه، يقول المدّعون: هذا الحلم تسلل إلى داخلك، إلى رواق روحك المظلم.

وبعد ثلاثة أيام من الإقامة وحيدا في الكوخ المعزول، يأتي أوشيما ويعيد كافاكا تامورا إلى المدينة ليبدأ العمل في المكتبة مساعد لأوشيما، ويتعرف على مديرة المكتبة الآنسة سايكي، وتنشأ بينهما علاقة، رغم أن كافكا يتوقع أنها أمه، وأما هي فتظل كتومة ولا نعرف إن كانت أمّه بالفعل، كما يبدو أن ساكورا ربما تكون أخته ولكن ذلك كله يظل شكا وتلميحا.

الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية هو ناكيتا، كهل يوصف في الرواية دائما بأنه عجوز، لعله في منتصف العقد السابع، إذ إنه كما نتبين فيما بعد كان طفلا في أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد تعرض لحادث وفقد الوعي لعدة أشهر، وعندما استيقظ من غيبوبته فقد الذاكرة، ولم يعد قادرا على القراءة والكتابة، وعاش معوقا يعتمد على المعونة التي تقدمها البلدية لأمثاله، ولكن ناكيتا، رغم إعاقته وعجزه عن القراءة والكتابة يملك قوى وطاقات غامضة، فهو يملك تأثيرا على الطبيعة كما يقدر على التنبؤ بأشياء سوف تحدث، ..

يسافر ناكيتا إلى كاتاماتشو ويجد دائما من يرشده ويساعده، هوشينو سائق الشاحنة، أحد هؤلاء، ولكنه تميز بمرافقته لناكيتا طوال رحلته وأمضى معه حوالي أسبوعين تاركا عمله. إذ يقرر هوشينو أن يتفرغ تماما لمرافقة ناكيتا في رحلته التي لا يعرف عنها شيئا، فيسلم حمولة الشاحنة ويبلغ الشركة أنه يريد إجازة لمدة ثلاثة أيام، يجد هوشينو نفسه يفهم لغة القطط، ويحب الموسيقى الكلاسيكية وقراءة الكتب.

وفي هذه الأثناء، يعود كافكا تامورا إلى الكهف، ويمعن في الغابة بعيدا، وينتقل إلى عالم آخر ليس ينتمي إلى العالم الأرضي ولكنه كما يبدو ليس العالم الآخر، يلتقي

إن الإجابة الوحيدة والواضحة والمؤكدة لمواجهة التحديات وحالة عدم اليقين السائدة هي «الذات الفاعلة» بمعنى الاستثمار في الفرد ليكون قادرا على تمثل المعارف والمهارات والأخلاق الضرورية للتنمية وتحسين الحياة، ولا يبدو وعاء ممكن يجمع الأفراد والذوات الفاعلة سوى منظومة ثقافية مستقلة عن المؤسسات والنقابات والمدارس والجامعات والمعابد وسائر الهيئات والتشكيلات القائمة والمقترحة.

وعلى سبيل المثال فإن الوعي بأهمية وضرورة الصحة النفسية، ينشئ سلوكا واتجاها فرديا وجماعيا للتعامل مع المرض النفسي مثل المرض الجسدي، وكما تغير اتجاه الناس لعلاج المرض الجسدي من الحجب والتعاويذ والطلاسم إلى العلم؛ فإن علاج الأزمات والأمراض النفسية يجب أن ينتقل أيضا إلى العلم، ولا بأس بتكرار القول إن الثقافة تعني وعي الذات المنشئ للاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولا تشكل العمليات الثقافية مثل الآداب والفنون سوى جزء قليل من المنظومة الثقافية.

تتمة عالم واحد - 23

سابيكي هناك وآخرين منهم جنديان هربا إلى الغابة في الحرب العالمية الثانية ولم يجدهما أحد، يجد فتاة هي سابيكي عندما كانت في الخامسة عشر من عمرها... ثم يعود إلى طوكيو ومعه لوحة فنية رسمتها سابيكي واسمها كافكا على الشاطئ، وكانت قد أوصت أن تسلم اللوحة له، وطلبت قبل وفاتها من ناكاتا وهوشينو حرق جميع أوراقها ومذكراتها بعد أن سلمتها لهما، ويسمع من جديد مقولة سابيكي له عندما التقاها في الغابة وضمته إليها «أريد أن تتذكرني أنت، فلا يهمني إن نسيني الجميع» ويسأل رفيقه كرو هل فعلت الصواب؟، يجيبه نعم، ثم يقول من الأفضل أن تنام قليلا، وحين تصحو، ستغدو جزءا من عالم جديد!

ملحق

العيش معا: المفاهيم والقيم والمهارات

الدليل التدريبي

يتوقع من المستهدفين والمدربين أن يكونوا قادرين على الوعي والامتثال للمفاهيم والقيم الأساسية للعيش معا ثم تحويلها وتطبيقها في مهارات حياتية ومعرفية ..

الرؤية: أن نعيش معا في سلام ومختلفين ومتنوعين

1- العيش معا في الدولة والمجتمع الذي ننتمي إليه
2- المشاركة العالمية .. أن نكون جزءا من العالم يتقبلنا ونتقبله ونأخذ منه ما يفيدنا ونضيف إليه أيضا ما يساعد على تحسين الحياة
3- مساعدة الأفراد والأمم التي تواجه تحديات في العيش معا، مثل الفقر والحرمان والتطرف والصراعات، ..

المفاهيم والقيم الأساسية

1- التقدم والازدهار – الوفرة كأساس للقيم والارتقاء

التأكيد على العلاقة الوثيقة بين التقدم الإنساني وبين السلام والعيش معاً

- تتكون الحضارة الإنسانية من تطور الموارد والتقنيات والأعمال ثم القيم والسلوك الاجتماعي والثقافة المصاحبة لهذه الموارد والتقنيات
- يحمي الإنسان منجزاته منظومة اجتماعية وثقافية من القيم والأخلاق والسلوك الاجتماعي والأفكار
- من غير الوعي الكافي بأهمية وقيمة التقدم يهدر الإنسان الفرص للتقدم والحياة الأفضل

كيف تؤدي قيم العيش معا مثل السلام والمحبة والتسامح والتعاون والاعتدال والصداقة إلى الازدهاروالتقدم؟

- الأمم تحمي مواردها بنظام اجتماعي قائم على السلام والتضامن والتعاون
- قيم الاعتدال والتسامح تنشئ الإبداع والتنوع والثقة والاستقرار
- تجتذب الكفاءات والأعمال والتجارة والسياحة والاستثمار
- تشجع الأسواق والمصالح ورأس المال المغامر، إذ يتجه أصحاب المال من الادخار او الاستثمار الكسول والآمن مثل العقارات إلى مجالات حيوية تزيد التشغيل والمشاركة الاقتصادية والاجتماعية مثل الصناعات الإبداعية، وتطوير الحياة والمهارات، والمشاركة في الاقتصاد العالمي،..
- تزيد الثقة والتعاون بين الناس
- تنمو المعرفة والأعمال وتتطور
- تنخفض الأعباء الأمنية والإدارية

كيف تؤدي قيم الكراهية والتعصب إلى الإضرار بحياة الأمم ومصالحها؟

- الكراهية والعنف والتعصب تؤدي إلى الحاق الضرر بالذات والحضارة الإنسانية
- يقتل الناس بعضهم بعضا
- تختفي دول وحضارات
- تدمر المدن والقرى والمكتبات والمدارس
- يضطر الناس إلى ترك بلادهم والهجرة إلى غيرها
- هجرة الكفاءات وعزوف المستثمرين والسياح
- تزيد الكلفة على الأسواق والمنتجات والسلع
- تقلل الفرص.
- تفكك المجتمعات والصراعات الداخلية والحروب والنزاعات

محركات التقدم

- تحرك الإنسان غريزتان أساسيتان، البقاء والبحث التأملي
- تتقدم الحياة تتقدم وتتحسن بقدر ما يحقق الإنسان المعنى الذي يسعى إليه
- المعنى يظل قيمة عليا تشغل الأمم والأفراد والمجتمعات والمؤسسات
- جميع المؤسسات تبرر وجودها في صياغة مختصرة لرؤيتها ورسالتها
- الرؤية ما نحب أن نكون
- والرسالة ما يجب عمله لنكون ما نحب.

2- البحث والتأمل

- في البحث والتأمل تشكلت المعارف والأفكار؛ بما هي تصورات الإنسان عن ذاته وعن الحياة والكون والموت والمصير بعد الموت.
- تاريخ الأفكار:

1- الفلسفة؛ بما هي السؤال لأجل إدراك حقائق الأشياء

2- الدين بما هو إجابات مقترحة لما عجزت الفلسفة عن إجابته

3- الاجتماع:استيعاب تطبيقي وحياتي للسؤال والجواب؛ أو ما أنتجته الفلسفة والأديان

4- اللغة بما هي وعاء الأفكار والمعرفة وترميزها وتنظيمها،

5- العلم بما هو إدراك الأشياء كما تفهمها الحواس

6- الفنون والآداب بما هي التعبير المحسوس عن الأفكار والمشاعر والبحث عن الجمال

7- التاريخ بما هو تسجيل التجارب الانسانية على النحو الذي ينظم الأفكار فيما يحب الإنسان و/أو يريد و/أو يجب أن يكون عليه

3- المعنى والفعالية

- منحت الأفكار والمعارف بما هي محاولة الارتقاء بالذات الإنسان فعاليته الاجتماعية والروحية، ويفترض تبعا لذلك أن يصيبه الخواء عندما يحدث الانفصال بين الواقع وتصوراته عن الواقع، أو هو يرقى بذاته وموارده بقدر ما تقترب تصوراته التي أنشأها من الواقع.

4- الثقافة ووعي الذات

• تشكل الثقافة بما هي وعي الذات محصلة تفاعل الإنسان وتجاربه مع العمل والتأمل

• تتحول إلى دليل عملي لسلوك الإنسان من غير حاجة إلى البحث والتفكير في كل مرة يواجه فيها الإنسان موقف أو سؤال متواصل كيف يعيش حياته وكيف يتصرف

• نشأت العادات والتقاليد والقيم والأعراف وأساليب الحياة في الطعام واللباس والعمارة والموسيقى والفنون

• الثقافة والفنون مزيج من تحسين الحياة والسمو بها ومن الأهواء والأزمات.

التقدم الإنساني والشرور على مدى التطور الحضاري

ما قبل الزراعة

• النار

• اللغة

• الكهوف

• الرسوم والإشارات والنقوش على جدران الكهوف

• الأدوات الحجرية

• الساحات العامة التي اتخذت لدفن الموتى، واللقاء السنوي الذي يكون غالبا في فصل الربيع، وكانت تجري في أثناء ذلك احتفالات مبهجة وطقوس ومبادلات في السلع وتخزينها، وعمليات تنظيم العمل بما هو أساسا الصيد وجمع الثمار.

• ساعدت النار الإنسان في الطهو والتدفئة والدفاع عن النفس

• كانت تستخدم أيضا في التواصل بين الناس، وكانوا يوقدون النار في الأماكن المرتفعة المطلة ليراها العابرون والمحتاجون للمبيت والطعام

• اللغة تواصل وتقدم

• كانت اللغة بالإضافة إلى أنها أداة للتواصل والتفاهم بين الناس وعاء معرفيا لتبادل المعرفة والخبرات والأخبار والذاكرة الشفوية للأمم والأفراد والأسر، واستخدم الإنسان لغة الجسد كالابتسام والرقص والغناء والإيماء والإشارات الكثيرة لأجل السلام والتفاهم والتواصل.

الثورة الزراعية

التقدم الإنساني في عصر الزراعة

• تربية المواشي والحيوانات والطيور

• المساكن والأثاث والأدوات المنزلية

• التجارة والطرق

• الكتابة

• البريد

• النسيج

• الدواء

• القرى والمدن والدول

• الصناعات الغذائية، الخبز والنبيذ والملح والتجفيف

• السفن الشراعية والملاحة

• التعدين

• العجلة

• السلاح

• القلاع والمعابد والمكتبات

• زراعة الحبوب، والمحراث، والعجلة، وصناعة الفخار، والسفينة الشراعية، والنسيج اليدوي، وتعدين النحاس، والرياضيات البحتة، والمشاهدات الفلكية الدقيقة، وتقويم السنة، والكتابة.

• النقود

القيم الإنسانية في عصر الزراعة

- العدل والسلام
- التنظيم الاجتماعي والقانوني
- الجيوش والشرطة والقضاء
- التعاون والمشاركة
- الضيافة
- الأخلاق - الصدق
- الملكية الخاصة والعامة
- الخدمة العامة للمحتاجين والمصالح العامة
- المهن والأعمال والوظائف
- المدارس
- الكتب والشعر والفنون والآداب والترجمة والمكتبات والمعابد والمسارح

الشرور الإنسانية في عصر الزراعة

- الحروب والصراعات المنظمة والمدمرة
- الرق والعبودية والسبي
- الطبقية الاجتماعية والتمييز الطبقي والاجتماعي بين الناس

الصناعة

- كانت الثورة الصناعية في ثمانينيات القرن الثامن عشر والتي بلغت ذروتها عام 1830 إطلاقا للقوة الإنتاجية للمجتمعات البشرية، وربما كان هذا الحدث هو الأهم في التاريخ العالمي بعد الزراعة ونشوء المدن.

التقدم الصناعي

- تطوير السفن والملاحة البحرية والكشوف الجغرافية
- البنوك والشركات
- البارود
- المطبعة
- آلات النسيج
- المحرك البخاري - السفن والقطارات والسيارات والطائرات
- الأجهزة والآلات الكهربائية

الشرور الإنسانية في عصر الصناعة

- صارت الحروب أكثر خطورة وفتكا
- انتشار واتساع حالات التسول والتشرد والاكتئاب والادمان والانتحار
- اتساع حالات الطلاق والتفكك الأسرى
- استمر الرق وزاد في القارة الأمريكية حتى القرن التاسع عشر
- اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية

القيم الإنسانية في عصر الصناعة

- تحسن حياة الناس وصحتهم وارتفاع مستوى النظافة والتغذية الجيدة ومعدلات العمر
- انتشار التعليم وتضاعف المعرفة العلمية
- تطور الفنون والآداب وظهور السينما والتلفزيون والإذاعة
- المواطنة كأساس للعلاقة بين الدول
- الحكم المدني القائم على ولاية الناس على مواردهم ومصائرهم ونهاية الحقوق الدينية والطبقية في حكم الناس

عصر المعلوماتية أو ما بعد الصناعة

- التقدم الإنساني في عصر المعلوماتية أو ما بعد الصناعة
- الحوسبة
- التشبيك
- التصغير
- الهندسة الحيوية
- انترنت الأشياء
- الحوسبة السحابية
- الروبتة

• البرمجة الإدراكية
• الطابعات ثلاثية الأبعاد

القيم الإنسانية في عصر المعلوماتية
• المساواة
• الثقة
• الإتقان
• الفردانية
• العولمة (المشاركة)

الشرور الإنسانية في عصر المعلوماتية
• الفردية الأنانية
• ضعف تأثير المجتمعات والمؤسسات الإرشادية والتعليمية
• العولمة (الهيمنة والعنف)

قيم العيش معاً

الإنسان في أصله ينزع إلى الخير، ويتطلع على الدوام إلى الارتقاء بذاته وحياته والمعرفة والعلم.

العيش معا: الوحدة والقوة في التنوع

مراحل العيش معاً
• النزاع: يكون الشعار هو مقولة «العداء هو الخيار الوحيد»، و تسود مشاعر الازدراء والحقد والغضب والزهو والريبة.
• التعايش: يكون ثمة استعداد للعمل العدائي عند الحاجة لذلك، ويسود الحقد والغضب والريبة،
• بداية التعاون: تستمر العداوة والريبة ولكن ثمة استعدادا لتحييدها، ويكون العمل فيه كثير من الاضطراب والازدواجية
• التعاون: يتكون الوعي والإدراك لمخاطر العداوة وأضرارها، وتتشكل مشاعر حذرة للتراحم
• الاعتماد المتبادل: يسود الاعتقاد بحاجة الأطراف جميعها إلى بعضها البعض، ويتقبل الماضي بثقة حذرة
• الاندماج: يتكون شعور في المجتمع بأنه يتكون من شعب واحد، وتسود مفاهيم التضامن والثقة والمودة.

الاعتدال والتسامح والتعاون
• التعاون موجود في جيناتنا، لكنّه يلزمه تطويرٌ وتعميقٌ.
• يمكن للتعاون أن يترافق مع التنافس، ويمكن ملاحظة ذلك في الألعاب، وفي الأسواق، والانتخابات، والمفاوضات الدبلوماسية
• ليس شرطاً لأجل أن نتعاون أن نكون متضامنين في كلّ شيء
• المدن تقوم على القانون والتسامح، وفي غيابهما، تصبح الحياة مستحيلة
• التسامح رأسمال كبيرٍ، يطور السياحة والأسواق والعلاقات التجارية والاقتصادية، إضافةً إلى المكاسب الاجتماعية والعامة بالطبع
• بغير التسامح، فإنّ الأعمال والمشروعات والمؤسسات تتعرض لنزفٍ وخسائر كبيرةٍ
• التعاون والتسامح ليسا فقط مجموعة من القيم والأخلاق؛ بل هما أيضا جزء من مهارات وتقاليد العيش المشترك، مثل الاستماع والحوار والفهم المتبادل

التواصل الاجتماعي قيمة أخلاقية وضرورة اقتصادية

يشكل التواصل الاجتماعي أساس الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية للأمم

• سبل التواصل الاجتماعي، العائلة والقرابة، والجمعيات الطوعية خارج صلات القرابة مثل المدارس والأندية والنقابات، والدولة.

• التنظيمات الاقتصادية المتصلة بالتواصل: المؤسسات التجارية العائلية، والشركات المحترفة، ومشروعات الدولة.

• الثقة العائلية تساعد على إقامة شركات عائلية لكنها تظل محدودة ومهددة

• لا تقوم الشركات الكبرى إلا في مجتمعات تتمتع بثقة عالية تتجاوز القرابة

• لم تظهر الشركات المساهمة إلا في منتصف القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة أولا ثم في ألمانيا بعد ذلك بقليل، ولم يكن ممكنا تطوير الاقتصاد إلا بتجاوز النظام العائلي في الأعمال والشركات.

الاستماع والحوار

• يتكون التفاهم الإنساني بالقدرة على استماع الناس لبعضهم بعضا، وفي ذلك ينشأ الحوار والتضامن والتعاون والفهم المتبادل

• الأفكار الصحيحة تتشكل بالاستماع العميق

• ينشأ سوء الفهم والخوف المتبادل في حالة عدم معرفة الناس لبعضهم بعضا، وبطبيعة الحال عدم استماعهم لبعضهم بعضا

• يمكن أن يفقد الإنسان كثيرا من مهاراته ومعارفة إذا لم يكن قادرا على الإصغاء العميق لكل ما يجري حوله.

• الارتقاء بالذات يقوم على معرفة الذات أو الوعي، وتغيير السلوك، وتنمية الاهتمام بالعالم، والقراءة، وتعلم التفكير النقدي، والتركيز والتأمل.

• إذا لم يكن الإنسان قادرا على التفكير النقدي فإنه عرضة لتقبل الأخطاء والأكاذيب المنتشرة

• القراءة من أهم مهارات وقيم الاستماع ، فالإنسان يعلم نفسه بالقراءة معارف كثيرة، ويدربها على الاستماع الطويل والتركيز

• نحتاج أن نجعل الفترات الطويلة التي نمضيها مع أنفسنا مصدرا للسعادة والمشاركة، والحوار الذاتي، .. وأن نفهم أنفسنا

• لنواجه أنفسنا بالسؤال عن آلامنا وما يسعدنا وأخطائنا وعيوبنا وحسناتنا، وما يغضبنا وما يفرحنا، وأحقادنا وتسامحنا وعفونا وظلمنا، وتقصيرنا وإنجازنا، وما أديناه من حقوق وواجبات وما لم نؤده، وإن كنا محقين في ذلك أم مخطئين.

• إحدى عقبات الوجود هي التفاهة. ويقابل التفاهةَ المعنى واليقظةُ والوعي والقدرة على رؤية العالم بالمعنى الفيزيائي؛ بألوانه وكثافته وأبعاده وامتداداته، كما رؤية الأفكار والمفاهيم.

الصداقة

• تمثل الصداقة مؤشرا اجتماعيا وأخلاقيا جمعيا وفرديا يستدل به على حالة التقدم الاجتماعي والمشاركة والانتماء والتعاون

• تراجع قيم الصداقة يؤشر إلى

الهشاشة والقابلية للكراهية

• الصداقة تتناقض مع الكراهية، فهي مستمدة من قيم قبول الآخرين والسعي لاكتساب ثقتهم وتعاونهم، وهي بطبيعة الحال تعني محبة الناس ومساعدتهم وتمني الخير لهم والتخلص من الكراهية والعداء.

• الصداقة مستمدة من تطلعات الإنسان للارتقاء بنفسه روحيا، أو البحث عن المعنى والجدوى في الحياة، أو تلبية الاحتياجات الجمالية في الحياة والتمدن

• حتى تكون الصداقة حقيقية وفاعلة تحتاج إلى قيم مثل الوفاء والديمومة، والعفوية بلا تكلف، والكرم العملي، والتسامح، والصدق، والاستماع والتفاعل، والإمتاع والمؤانسة، والمشاركة مع الاحتفاظ بالفردية والخصوصية.

• لا تأتي الصداقة بطرق غامضة، أو بالمصادفة ولكنها مهارات وتجارب يستطيع الإنسان صقلها وتنميتها

المحبة

• الشعور بالصواب والاعتقاد بالدفاع عنه يدفع صاحبه إلى القسوة وتكوين المبررات الفكرية والأخلاقية للكراهية

الحب الأخوي

• الحب الأخوي هو الحب الأساسي؛ الشعور بالمسؤولية والرعاية والاحترام والمعرفة إزاء إنسان آخر، والرغبة في تطوير حياته. وتعبر عن ذلك دعوة الدين إلى أن تحب للآخرين ما تحب لنفسك. ويقوم الحب الأخوي على تجربة أننا جميعا واحد، ويجري إهمال الفروق في الذكاء والمعرفة بالمقارنة مع هوية الجوهر الإنساني المشترك لدى الناس جميعا.

الثقة

تردي مستويات الثقة وتدهور قيم التواصل الاجتماعي يظهران بوضوح حالات ومؤشرات الجرائم والعنف، والتفكك الأسري، والشعور العام بغياب القيم المشتركة والصلات الاجتماعية وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى نفقات إضافية زائدة على الأمن والعمل المؤسسي.

• تتميز مجتمعات الثقة العالية بوجود درجة عالية من الثقة الاجتماعية المعممة، ومن ثم بنزعة قوية عفوية نحو التواصل الاجتماعي.

• البشر أنانيون في الجوهر يسعون بأسلوب عقلاني وراء مصالحهم الذاتية، لكنهم يمتلكون أيضا جانبا معنويا وأخلاقيا يشعرهم بالتزاماتهم تجاه الآخرين.

التطوع

• العمل التطوعي يمثل مدخلاً أساسيًّا لا يمكن الاستغناء عنه في جميع الأحوال في التشكلات الاجتماعية والسياسية

• مكون أساسي في العمل العام والمشاركة والإنتاج.

• ينشئ متوالية من العمل والإنجاز والإبداع تضاعف قيمته.

• يساعد الدول والمجتمعات في إقامة حراك اقتصادي اجتماعي إبداعي يحقق التماسك والتطور، وينشئ إجابات واقتراحات حول الهواجس والأسئلة الإصلاحية والتنموية

• يجعل التنمية والحياة الكريمة ملهمة للناس وتجمعاتهم

• يساعد المنظمات الثقافية والاجتماعية ويساعد في إنجاح قضايا مهمة مثل حماية المستهلك وحماية

البيئة، ودعم الفئات الاجتماعية الخاصة من الأطفال وكبار السن والمرضى

- يفعل وينجح أعمال وأنشطة ثقافية في المسرح والسينما والموسيقى والإبداع الفني والثقافي..
- يمكن تطوير المبادرات التطوعية إلى أسواق وفرص عمل حقيقية ومنتجة ودائمة

الجمال

الآداب والفنون تهذب النفس وتقوي العيش معاً

- تمثل القيم الجمالية وما يعكسها من فنون وآداب أهم رابط في العيش معاً
- تجمع بين الأمم من جميع اللغات والأديان وتخاطبهم جميعا بلغة وقيم وأفكار يفهمونها جميعا
- يقدم الدين والفن في بحثهما عن المعنى كلا منهما إلى الآخر معان ووظائف وآفاقا يستدل بها على الصواب والجمال بما هو ارتقاء في الروح، وإدراك للقبيح والحسن والتمييز بينهما
- غياب الفنون التشكيلية والموسيقى والنحت والشعر والقصّ عن عالم الدين سيجعل فهمه قاصرا، فالفن بما هو يلطف النفس البشرية ويرقى بها، يرقى أيضا بفهم الدين ويرتقي به، ويدفع بالمتدينين ليمنحوا الفن أيضا مجالات وآفاقا جديدة، تقلل من عجزه عن إدراك الفكرة والمعنى والحقيقة..
- يستعين الإنسان بالدين والفن لأجل الوصول إلى الصواب، وبإدراكه أن ذلك مثال يكاد يستحيل الوصول إليه، يظلّ محكوما بهاجس أنه يتخذ الأدوات الصحيحة ليصل إلى الصواب

القسوة والكراهية
شرور الإنسان ضد أخيه الإنسان

القسوة

- القسوة سلوك ذاتي متعمد غير مبرر يسبب الأذى والمعاناة والألم لشخص بريء أو لا يستحق ذلك، وغالبا ما يكون لا يثير الاستنكار أو الرفض تجاه مرتكبي الفعل في أوساط وجماعات ودول معينة، وقد تتضمن القسوة عدوانا جسديا أو إهانة وإيلاما تجعل المستهدفين يعانون حسيا أو نفسيا أو معنويا. والقسوة مفهوم أخلاقي، فمن يقدم على إيذاء الغير لا بد أن يبرر أفعاله.
- القسوة من شرور الإنسان، وينشأ عنها منظومة من الاعتقادات والأفكار والمشاعر مثل الكراهية والتعصب والتطرف التي تلحق ضررا كبيرا بالعيش معاً وقيم التقدم والتضامن الإنساني، وتدفع بأصحابها إلى العنف والإرهاب والجريمة
- تشمل القسوة كل المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بشرور الإنسان من غير مبرر، مثل الكراهية والتعصب والتطرف والإرهاب والحرمان والتمييز العنصري بسبب الدين أو اللغة أو اللون أو الجنس او الهوية، والحقد والحسد والظلم

القسوة والعدوان والعنف

- كلمة عنيف تصف سلوكا وتذكرنا بتأثيرات الفعل السريع، القوة، القدرة البدنية والقدرة على التدمير
- أما كلمة عدوان فتعبر عن النية والقصد بالاعتداء

• القسوة غالبا ما تتضمن العنف المتناهي.

• القسوة تنشأ في مواقف معينة ولكنها لا تكون أبدا عشوائية أو دون تمييز إلا ربما في حالات الاضطرابات العقلية الشديدة

القسوة والتناقض

• قد يملك الإنسان كل ما يمكن أن يعطيه له المجتمع من تربية أخلاقية، ويبدي تفهما واضحا للمبادئ الأخلاقية الحاكمة لثقافته، وربما يتصرف بحنان وطيبة مع من حوله، ومع ذلك يصبح ممن يعذب الغير او يكون قاتلا، وقد يتعلم بالفعل كيف يقتل دون التخلي عن أخلاقياته

• إقصاء الآخر ولو بشيء من الاعتدال يجهز الناس ويؤهلهم للعدوان، سواء شجعهم هذا السلوك بوضوح أم لم يشجعهم على أن يسلكوا سلوكا عدوانيا

• عند التفكير في فعل قاس فإن ذلك يعني اتخاذ خطوة في سبيل إقصاء الآخر؛ ما يؤدي إلى السلوك القاسي

• التنشيط المتكرر لفكرة إقصاء الآخر حتى إن تم باعتدال يطلق السلوك المتهور بشدة مفرطة

• تقبل المجتمع للعنف ولفكرة إقصاء الآخر يسهل التعديات المهلكة للقتلة.

صناعة القسوة

• تترسخ المعتقدات في منظومة من المصالح والعلاقات والمشاعر والأفكار

• ما من عنف مادي إلا ويسبقه ويمهد له عنف رمزي

• يساعد التعليم والتدريب العلمي على تعديل ومرونة بعض العقول، ولكنها محاولة ليست كافية

• الأدلة والبراهين العقلانية تعطينا الكثير، ولكنها لا تعطينا بنفسها أسبابا لأن نهتم كثيرا بالمعتقدات التي تؤيدها وتدعمها

من أين تأتي المعتقدات؟

• هناك مصدران للمعتقدات: العلم والعواطف

• العلم هو المجهود العقلي استنادا إلى الملاحظات الحسية القابلة للاختبار

• ينشئ الإنسان معتقداته العلمية التي تبني علاقته بالأفكار والمعاني

• العواطف والمشاعر تنشئ معتقدات مستمدة من عناصر ومكونات غير تجريبية أو عقلية،

• المعتقدات التي تستند إلى ملاحظات حسية تكون أضعف لأن العالم الذي تنشأ عنه يمكن أن يتغير

• المعتقدات التي تعتمد على المنطق معرضة لمخاطر أخطاء التفكير أو الاستنتاج من الوقائع،

• المعتقدات التي ترتبط بعواطف قوية لا تحتاج أن تتبع حقيقة متغيرة، ولا أن تزعجها أخطاء التفكير، قوتها تستمد طاقتها من العواطف والمشاعر، وهي لا تتغير إلا عندما تتغير المشاعر فقط، وقد لا يحدث هذا على الإطلاق

• المعتقدات المستمدة من العواطف قوية وصلبة والمعتقدات العلمية قابلة للتغير بسهولة.

لا تكن سببا في أي أذى

- لا تكن سببا في أي أذى.» حكمة تنسب إلى جالينوس بدأت وصية الى الأطباء لكنها تصلح قاعدة للحياة والبشرية في الحكم والقضاء والحرب والصراع والسلم والعمل والتربية وكل شأن من شؤون الناس.... الارتقاء بالذات لدجة عدم الأذى؛ أي أذى.

التطرف والتعصب

الأكثر أهمية من تعليم الاعتدال هو تعلم مظنة تعدد الصواب واحتمال الخطأ

التشابه يؤدي حتما إلى التطرف، والاختلاف يؤدي إلى الاعتدال

يشمل التطرف:

- فرض اعتقادات وممارسات دينية على الناس أو محاسبتهم عليها وإكراههم على الترك أو الاعتقاد بمسائل دينية.
- التمييز بين المواطنين على أساس الدين في الحقوق والمكاسب والتشريعات.
- بناء مشاعر وأفكار ومعتقدات تمييزية سواء في التفضيل والانحياز او الكراهية والاشمئزاز والرفض على أسس دينية.
- محاسبة الناس خارج القانون والمؤسسات القضائية وإيقاع الأذى والرعب واستخدام العنف ضد أفراد أو مؤسسات أو جماعات .. وفي هذه الحالة يكون التطرف إرهابا.

المتطرف

- يعتبر أية قضية يعتنقها قضية مقدسة
- لا يمكن إبعاده عن قضيته بالمنطق والنقاش

الكراهية

- الكراهية كل قول أو فعل من شأنه إثارة الفتنة أو النعرات أو التمييز بين الأفراد والجماعات
- الكراهية من أهم العوامل التي تشجع التطرف والتعصب والعنف

نماذج التعصب والمتعصبين

- المُلهَم المشبع بحضور الإله، ويذهب به الأمر إلى الموت الرمزي والجزئي
- المعظّم أو المتعصب الامتلاكي، ويجد في القادة والرموز تجسيدا لإيمانه لدرجة عدم التمييز
- المطّلع (الفيثاغوري) الشغوف بالعقل،
- الساخط؛ مثل الجماعات العسكرية والميليشيات.

الثمرة العفنة للعولمة

- كما كانت العولمة مجالا للعيش معاً فإن لها أيضا ثمارا عفنة، فقد استخدمت لأجل العنف والكراهية والتمييز ضد الأقليات
- شهدت العولمة مجموعة كبيرة من جرائم العنف المرتبطة بدوافع ثقافية
- تشكلت ظاهرة إفلات الحرب من مجال تدخل الدولة
- مع التكنولوجيا اتسعت آليات العولمة، ولكنها أيضا تنطوي على اتساع الآليات المنظمة لآليات عمل المنظمات الإرهابية

العنف والإيذاء

- تطور العنف مع تطور الحياة الإنسانية، من القتل والاعتداء ثم الحروب بين الأمم
- الحرب كانت نتاج الحضارة الإنسانية

وتقدمها المادي، فقد طور الإنسان أدوات السلاح والقتل والدمار، وحظيت الحروب والمجالات والتقنيات العسكرية باهتمام كبير، وخصصت لها أولويات في الميزانيات والموارد، وفرغ لها أفضل العقول الإنسانية في العلم والتنقية والإدارة والتخطيط.

- صعدت الجماعات والعمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين، واجتذبت عددا كبيرا من المؤيدين في عالم المسلمين
- تعرضت دول ومجتمعات كثيرة للحروب الأهلية والانقسامات الاجتماعية العميقة، كما استهدفت مؤسسات ومنشآت وفئات من المواطنين بالقتل والخطف والاستعباد.
- شهد العالم مجموعة من عمليات الإبادة والتهجير على أساس عرقي أو ديني
- يوجد اليوم أكثر من 60 مليون مهجر من بلادهم، معظمهم من المسلمين.

جماعات العنف الديني

- نشأت الجماعات الدينية المتطرفة كالجهاد والتكفير والهجرة والقاعدة وسط جماعات الإسلام السياسي مثل الإخوان المسلمين، واستمدت أيديولوجيتها من مقولات المفاصلة والتميز واستعلاء الإيمان التي أسس لها سيد قطب
- يمثل الإسلام السياسي أزمة الدولة والمجتمعات في سعيها إلى الشرعية والحداثة والانسجام مع الشريعة الإسلامية، لكن حزب التحرير وجماعات الجهاد والعنف تعكس أزمة الإسلام السياسي في تصدعه وتكيفه مع أهدافه المستحيلة ومتطلبات المشاركة والبقاء والمكاسب السياسية والاجتماعية.

مخاطر الجماعات الدينية السياسية

- **توظيف الحوافز الدينية باتجاه العنف**
- **تزييف المعنى**
- **مصادمة الاجتماع الإنساني**
- **التلاعب بالمفاهيم**

الظلم

- الظلم المناقض للعيش معاً هو الممارسات والأفكار والمعتقدات والمشاعر غير العادلة التي تتقبلها ثقافات وأعراف سائدة وتتواطأ عليها بعض المجتمعات، مثل العبودية، والاتجار بالبشر، وإساءة المعاملة، والتمييز، والعنصرية، والاستبعاد الاجتماعي، والتهميش والحرمان، والتعذيب، ...

الرق

- كان الرّق أسوأ مظالم البشرية وأخطائها، وكان من أسوأ ما فعلته الجماعات الإرهابية مثل داعش وبوكو حرام هو خطف النساء واستعبادهن واستخدامهن رقيقا للترفيه والخدمة أو بيعهن في الأسواق، وذلك في استعادة سيئة وظالمة لمرحلة مظلمة من تاريخ البشرية.
- الأمم والمواثيق الدولية تجمع اليوم وتشدد على منع الرّق والعبودية والاتجار بالبشر، والاعتداء على حقوقهم الأساسية، ومنعهم من ممارسة حياتهم وأعمالهم وحقوقهم التي تكفلها الشرائع والأعراف والدساتير والأنظمة الوطنية والدولية.

الاعتداء والإساءة

• من أنواع الظلم ما يقع على المستضعفين الذين لا يستطيعون ردّ الظلم، مثل الغرباء والأطفال والأيتام وعابري السبيل واللاجئين والمهاجرين وكبار السن والمعوقين والمستخدمين وفئة من أصحاب المهن والأعمال.

التميز واللامساواة

• من أنواع الظلم الاستبعاد والحرمان من المشاركة. والحرمان من الحقوق الاجتماعية والمدنية، كالتعليم والصحة والعمل،

• من أخطر أنواع الظلم السائدة الفروق بين الذكور والإناث أو بين الفئات الاجتماعية في الفرص والمعاملة والميراث والتعليم والصحة

• اللامساواة لست خطأ فقط، لكنها مصدر خطر، يمكن أن يغذي الكراهية والتطرف.

التعذيب

• حظرت الأمم المتحدة التعذيب، ووقعت معظم دول العالم على المعاهدة الدولية لمناهضة التعذيب

• لكن تتعرض أعداد كبيرة من الناس للتعذيب في السجون والمعتقلات وأماكن العمل والإقامة على يد موظفين حكوميين أو خارج سلطات وعلم الحكومات أو بالتواطؤ معها

التكفير

• يؤسس تكفير الناس أفرادا أو جماعات أو أمما أو دولا وأنظمة سياسية للكراهية والعنف وتبرير كل المشاعر والتجاوزات والممارسات المناهضة للضمير الإنساني والشرائع والقوانين، ولذلك يمكن اعتباره أحد أشكال القسوة والكراهية الخطيرة، ذلك أنه في الواقع العملي شكل دافعا قويا لجماعات كثيرة وأعداد واسعة لممارسة الإرهاب والقتل والخروج على القانون، بل وارتكبت باسمه جرائم بشعة.

دور الدولة في تعزيز العيش معاً

• الدور الأساسي؛ العدل والأمان، والتعليم والصحة والرعاية الاجتماعية، والازدهار.

• تعزيز وحماية القيم والفضائل الاجتماعية والفردية العامة، مثل الثقة والإتقان والصداقة والتطوع والاعتدال والتسامح، والتصدي لاتجاهات وممارسات الكراهية والتطرف والتعصب والعنف

• الالتزام بالمواثيق والقوانين والمعاهدات الدولية والأعراف الدبلوماسية وحماية البيئة، والملكية، والحقوق العامة والخاصة، وتطبيق وتطوير القوانين والتشريعات الناظمة للقيم والحقوق وتعزيز التسامح

• المشاركة العالمية في التضامن والتعاون الدولي ومساعدة الدول والمجتمعات المحتاجة، ومواجهة التطرف والكراهية. والاعتداءات على الدول والمجتمعات والقيم والأرواح والممتلكات.

• مؤسسات وتشريعات تكفل الالتزام بها وحمايتها والتصدي لما يناهضها، والتنسيق مع المؤسسات الوطنية والدولية.

• القدوة الحسنة والملهمة

قيم العيش معا في المعاهدات والمو اثيق..

وضعت الأمم على مدى التاريخ قيم العيش معاً المنظمة للحياة والعلاقات في مواثيق ومعاهدات

- حلف الفضول عقد في مكة بين مجموعة من بطون وعشائر قريش عام 590م، وتعاهد مؤسسو الحلف على «ألا يظلم أحد في مكة إلا ردت ظلامته»
- حلف الأحابيش العام 500 م عقد بين قبائل مكة وما حولها لأجل حماية قيم السلام والحج والتجارة في مكة، وكان لهذا الحلف قوة عسكرية وأمنية لفرض القوانين والمبادئ المتفق عليها
- وثيقة المدينة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر لأهل المدينة وحددت حقوق وواجبات أهل المدينة على قدم المساواة سواء المسلمين أو اليهود أو غيرهم، أو المهاجرين والأنصار
- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948
- وثيقة مهمة بوصفه «المعيار المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم. ويحدد، و للمرة الأولى حقوق الإنسان الأساسية التي يتعين حمايتها عالميا. وترجمت تلك الحقوق إلى 500 لغة من لغات العالم.»
- ينص الإعلان في مادته الأولى «يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء.
- يؤكد حقوق الإنسان الأساسية في الحياة بحرية وكرامة وأمان وخصوصية ودون تمييز، والجنسية والعمل والضمان الاجتماعي والإجازة والسفر والتقاضي والتعليم والرعاية الصحية والاعتقاد والمشاركة السياسية والعامة والملكية، والتأكيد على حظر الرق والتعذيب والمعاملة القاسية والسخرة والإكراه.

الذات الفاعلة الاستيعاب العملي للعيش معاً

أهمية الفرد في نجاح وتكريس قيم العيش معاً

- تتوجه قيم العيش معاً إلى الفرد على نحو رئيسي، فنجاحها وفاعليتها يعتمدان على إيمان الأفراد بها وتمثلهم لها متطوعين ومستقلين عن التنظيم الاجتماعي والأخلاقي والقانوني والمؤسسي للقيم والاتجاهات
- القيم طبيعتها فردية يتمثلها الأفراد، ثم تتحول إلى قيم اجتماعية ومؤسسية
- الفرد هو مصدر القيم بما هو كائن حرّ، وينزع إلى الخير بفطرته وغرائزه الأساسية
- صعود الفرد في مرحلة ما بعد الصناعة؛ باعتبارها فضيلة وأساسا للتنظيم الاجتماعي
- لم تعد الدول والمجتمعات والمؤسسات الإرشادية مركزية ومؤثرة حصريا
- صعود الثقافة بما هي وعي الذات كإطار عام وشامل يتفاعل معه الأفراد مستقلين من غير وسائط تنظيمية واجتماعية.

الذات الفاعلة

- تعتمد الأعمال والموارد ومن ثم بطبيعة الحال التقدم والازدهار على الفرد الفاعل المنتج والذي يتمتع بالكفاءة والفضائل اللازمة لاستقرار الأمم وقدرتها على مواجهة التحديات.
- الفرد قادر على العمل والتأثير والإنجاز من غير مؤسسات منظمة
- تصعد اليوم قوتان: الاحتكار والحرب والعنف في مقابل القيم الإنسانية والحداثة والعقلانية، وأداة الصراع بينهما هي الذات الفاعلة
- الثقة والإتقان هما القيمتان الأساسيتان الضامنتان للفضائل الاجتماعية والعولمة الاجتماعية

الجمال

- الثقافة والفنون هي منظومة الأفكار التي تعبر بها المجتمعات عن وعيها لذاتها من اللغة والإبداع والآداب والفنون والتراث والعمارة، والقيم والعادات والتقاليد، وأسلوب الحياة
- الكراهية والتطرف ثقافة. والمواجهة تكون بالثقافة
- في اقتصاد المعرفة يرتبط التقدم أو الفشل بالثقافة
- الثقافة والفنون تقود اليوم المدن والأسواق والأعمال
- الشبكة تزيد الذكاء الجماعي بسبب تضاعف المعرفة وتداولها وهذا يزيد بحث الإنسان عن المعنى والارتقاء بذاته
- الجمال يلهم الأفراد والأمم للاتجاه نحو السلام والازدهار وتجنب الكراهية والخواء والتطرف.

المنعة والتماسك الاجتماعي

- الفرد الذي يتمتع بالصحة والمعرفة والمهارات قادر على النجاح في عمله وأسرته وتعزيز القيم لجميلة
- الأسرة المتماسكة تقدم للأمة فرص الاستقرار والسلام وتجنب الكراهية والجريمة
- كثير من أعمال الكراهية والتطرف والجريمة مردها إلى ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة، مثل الفقر والتهميش والإهانة والحرمان وغياب العدالة والمساواة
- تؤكد الأمم المتحدة، وهو ما تؤيده الإحصاءات أن التكامل الاجتماعي والرضا يصاحب الارتقاء بالتعليم والرعاية الصحية والاجتماعية ومستوى الدخل، وأن الفقر مصاحب للصراعات والانقسام، وأن الكوارث والأمراض والأوبئة والجرائم أكثر وأعمق حضورا وتأثيرا في بيئة الفقر والاستبداد والفشل
- يغلب على المهمشين والمستضعفين عدم الإدراك للمخاطر والمصالح والأولويات

المواطنة

تمثل المواطنة التزاما متبادلا بين الدولة والمواطن وبين المواطن والمجتمع، وهي تعكس العقد الاجتماعي المعبر عن القيم والتشريعات والأنظمة كما الثقافة الاجتماعية والأخلاقية، هكذا فإن المواطن في تفاعله مع الدستور والقوانين والتشريعات في بلاده والمجال العام الناشئ حول منظومات السياسة والإعلام والإرشاد والتعليم والعلاقات الاجتماعية والأسرية ينشئ سلوكه وحياته اليومية، ومن المهم جدا أن يعكس المواطن هذه الأهداف والقيم

التي تدور حولها المواثيق والتشريعات، وحين يحدث فجوة بين المنظومة والأهداف التشريعية والمؤسسية في البلاد تتآكل المواطنة أو تعمل ضد نفسها، فالوحدة والتماسك الاجتماعي كما التضامن العام تحركه أساسا قيم المواطنة والشعور بها، نفترض بطبيعة الحال أن الأهداف والقيم التي تقوم عليها الدول مستمدة من السعي إلى الازدهار والاستقرار والسلام.

- لكن في تطور المؤسسات والحياة الاجتماعية وما وصلت إليه من تعقيد وتداخل لا تبدو العلاقة مباشرة بين المواطنة وأهداف الدولة والمؤسسات والتشريعات المنظمة للحياة والمصالح، وتتشكل حاجة ملحة لتحويلها إلى دليل إرشادي يلاحظ هذه العلاقة.

التدريب في العيش معاً – المعرفة والمهارات والقيم المتوقعة

يتوقع من المدربين:

1- لإيمان بقيم العيش معاً ورفض الكراهية والتطرف

2- الإحاطة بالمصادر الأخلاقية والمعرفية لقيم العيش معاً في الإسلام والأديان والثقافات المختلفة وفي الدستور والتشريعات الدولية

3- الإحاطة المعرفية الكافية بالمؤسسات والتشريعات المتعلقة بالتسامح ومواجهة الكراهية

4- بناء وجهات نظر متعددة ومتنوعة في قضايا العيش معاً والقدرة على ترجيح القيم والفضائل الاجتماعية والرد المعرفي والأخلاقي على اتجاهات الكراهية والتعصب والتطرف ومناقشتها بعلمية وإحاطة معرفية شاملة وواسعة، مثل المصادر الدينية والسياسية والتاريخية والفلسفية للاعتدال والتطرف. والإحاطة المعرفية الكافية بالشبهات والقضايا الملتبسة في مجال قيم العيش معاً ومواجهة الكراهية، مثل المساواة بين الذكور والإناث، شبهات التكفير التي يقدمها المتطرفون، وافضلية أمة على أخرى، والنفور والكراهية من الآخر والمختلف بناء على حجج دينية وتاريخية، والعلاقة بين أهل الأديان، وحقوق غير المسلمين وغير المقيمين من غير المواطنين.

5- القدرة على تحويل الأفكار والقيم إلى مهارات وأدوات تدريبية مثل الحوار والنقاش والاستماع والجدل والمناظرة وبناء وجهات النظر المتعددة في القضية الواحدة، وتحفيز الانتباه والتشويق،..

6- القدرة على تقييم المشاركين والأفكار والمصادر والمواد المعرفية والتدريبية وتحديد الاحتياجات الحقيقية والملائمة للمستفيدين والمتدربين.

تطبيقات ومهارات معرفية وتدريبية مقترحة في مجال العيش معاً

أ- الاستماع والحوار والنقاش

يطلب من المشاركين حسب الوقت والإمكانيات إعداد مجموعة من الأنشطة والأعمال والتكليفات، مثل: البحث الفردي من خلال النت والمكتبة أو مجموعات نقاش تلتقي وتقدم سيمنار ، أو نقاش مفتوح في أثناء التدريب

1- الكفاءة والفاعلية الأساسية المطلوبة من المواطن، في تعليمه وصحته وعمله ومهاراته، كيف يكون المواطن الصالح الملتزم بالقوانين والقوي في جسده وصحته وعلمه وعمله وكفاءاته يحقق القيم الأخلاق الإنسانية والدينية؟
2- كيف تكون الدولة المستقرة والمزدهرة تخدم القيم الإنسانية وتحارب الكراهية والتطرف.
3- كيف تنشأ البيئة الحاضنة للاعتدال والرافضة للكراهية والتطرف؟
4- كيف نضمن ألا يكون كراهية وتطرف؟
5- كيف تعمل الدول والمجتمعات والمؤسسات في ظل قيم الفردية؟
6- كيف تكون شبكات الانترنت والتواصل الاجتماعي في خدمة قيم العيش معاً وكيف تكون في خدمة الكراهية والتطرف؟
7- ما دور الفرد – المجتمع – الدولة في تعزيز قيم العيش معاً وكيف يكون التكامل بين هذه المكونات؟ ما القيم التي لا تنجح الا بالفرد، وما القيم التي لا تنجح الا بالمجتمع؟ وما القيم التي لا تنجح الا بالدولة؟
8- ما التحديات والتأثيرات التي أنشأتها الشبكة بالنسبة للمجتمعات والمدارس والمؤسسات الإعلامية والإرشادية وكيف يمكن التعامل معها؟
9- كيف يؤدي الفقر والتهميش والظلم إلى التطرف والكراهية؟
10- كيف يؤدي ضعف الدولة وهشاشتها الى الكراهية والإرهاب؟

ب- وعي الذات والآخر

يطلب من المشاركين أن يقدموا تجاربهم وأفكارهم ووجهات نظرهم الخاصة في مسائل وأفكار متعلقة بقيم العيش معاً

1- كيف تغيرت أفكاري واتجاهاتي السلبية وصرت إيجابيا؟
2- من يلهمني وكيف من القادة والأشخاص والمفكرين
3- ماذا يزعجني ويضايقني أو يجب أن يتغير في البيئة المحيطة؟ الأسرة. المدرسة. المسجد/ المعبد. النادي. المجتمع. الشارع. وسائل الإعلام. المؤسسات الرسمية والمجتمعية
4- ما ذا يعجبني واستفدت منه وأضاف إلى وماذا لم يعجبني من ثقافات واتجاهات الآخرين حولي وفي العالم أيضا؟ في الدين، والثقافة وأسلوب الحياة

ت- بناء وجهات النظر والاتجاهات

تشكل مجموعات نقاش وتقدم عدة وجهات نظر في مسائل مقترحة متعلقة بالعيش معاً، وتطرح جوانب الصواب والخطأ والقوة والضعف في كل وجهة نظر ثم ترجح إحداها، مثل:

1- السماح لغير المسلمين من الزوار والسياح بدخول المساجد
2- السماح لغير المسلمين ببناء معابدهم وممارسة شعائرهم الدينية
3- السماح لجميع الناس بممارسة حياتهم في اللباس والطعام وأسلوب الحياة
4- ماذا يجب أن تمنع الدولة وماذا تسمح به من ممارسات وأعمال فيها رأي ديني؟ مثل اللباس، الطعام، الصلاة، الصيام في رمضان، .. هل يجب أن تمنع الدولة أو تجبر أحدا على سلوك أو اعتقاد؟

مراجع

- إبراهيم غرايبة – التطرف: التكوين المعرفي في فهم ومواجهة التطرف، إبراهيم غرايبة، عمان: دار سيرين، 2018
- دانيال آر. هيدريك ترجمة - تاريخ التكنولوجيا في العالم، تأليف دانيال آر هيدريكن ترجمة أحمد حسن مغربي كلمة (هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث) . أبو ظبي، 2010
- فولتير، فرانسوا ماري أوريه دي فولتير – رسالة في التسامح، ترجمة هبة حمدان، عمان: دار الأهلية للنشر والتوزيع، 2017
- إيرين فرانك وديفيد براونستون - طريق الحرير. تأليف: إيرين فرانك وديفيد براونستون. ترجمة: أحمد محمود. المركز القومي للترجمة، القاهرة
- تاريخ تطور الفكر الصيني - تأليف بو جين جي وآخرون، ترجمة:عبد العزيز حمدى عبد العزيز (ترجمة)، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- إريك وولف - أوروبا ومن لا تاريخ لهم، تأليف: إريك وولف، ترجمة: فاضل جتكر. المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2004
- فيكتور سحاب - إيلاف قريش « رحلة الشتاء والصيف «.بيروت الدار البيضاء: لمركز الثقافي العربي، 1992
- باتريشيا ريسو - التجار والإيمان.. ثقافة المسلمين وتجارتهم في المحيط الهندي. تأليف: باتريشيا ريسو ترجمة: أحمد عبد العزيز العباسي أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة ، 2010
- فريد كزارا- التوابل التاريخ الكوني. تأليف: فريد كزارا . ترجمت ايزاميرالدا حميدان، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث(كلمة)
- هنري برونل - أجمل حكايات الزن والهايكو، ترجمة محمد الدنيا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
- مارك كيرلانسكي -تاريخ الملح في العالم. تأليف: مارك كيرلانسكي: ترجمة: أحمد حسن مغربي: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2005
- - آدم ج . سيلفرشتاين النظم البريدية في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث. تأليف: آدم ج . سيلفرشتاين. ترجمة: عزيز صبحي جابر، كلمة، أبو ظبي، 2010
- لويس ممفورد - المدينة عبر العصور، القاهرة: المركز القومي للترجمة
- مارفن هاريس – مقدسات ومحرمات وحروب. L›Homme, 1976
- أريك هوبز باوم: عصر الثورة، تأليف اريك هوبز باوم. ترجمة فايز الصياغ: بيروت: المنظمة العربية للترجمة \
- اريك هوبز باوم – عصر رأس المال، ، تأليف اريك هوبز باوم. ترجمة فايز الصياغ: بيروت: المنظمة العربية للترجمة
- اريك هوبز باوم – عصر الامبراطورية. ، تأليف اريك هوبز باوم. ترجمة فايز الصياغ: بيروت: المنظمة العربية للترجمة
- اريك هوبز باوم – عصر التطرفات. ، تأليف اريك هوبز باوم. ترجمة فايز الصياغ: بيروت:

المنظمة العربية للترجمة
- نيال فيرغسون: صعود المال: التاريخ المالي للعالم
- Nail Ferguson
- The Ascent of Money: A financial History of the World
- Washington Rules: America's Path To Permanent War
- ترجمة: محمود عثمان حداد. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة. أبو ظبي
- نقولا زيادة: المسيحية والعرب، بيروت: دار قدمس، 1987
- الفن توفلر - الموجة الثالثة، 1988
- ألفن توفلر - تحولات السلطة والموارد، تأليف: الفن وهايدي توفلر، ترجمة لبنى الريدي. المركز القومي للترجمة، 1995
- جيمس كانتون- المستقبل الأقصى. تأليف جيمس كانتون. ترجمة لبنى الريدي. القاهرة: مكتبة الأسرة، 2013
- جاك أتالي – قصة موجزة عن المستقبل، تأليف: جاك أتالي، ترجمة: نجوى حسن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013
- ستيفن فيال- الكينونة والشاشة، كيف يغير الرقمي الإدراك، تأليف: سيتفين فيال. ترجمة بدر الدين عرودكي، البحرين، هيئة الثقافة والآثار، 2018
- مانويل كاستلز – سلطة الاتصال. تأليف: مانويل كاستلز، ترجمة: محمد حرفوش، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016
- مايكل ديرتوزوس- ثورة لم تنته.. حواسيب محورها الإنسان وما يمكن أن تؤديه لنا. تأليف: مايكل ديرتوزوس. - ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006
- جيرمي ريفيكن - عصر الوصول، تأليف: جيرمي ريفكن، ترجمة صباح الدملوجي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009
- يوفاني بوكاشيو/ ديكاميرون. ترجمة صالح علماني
- سوزانا اروونداتي روي – إله الأشياء الصغيرة. دمشق: دار الجندي، 1999
- تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية، 2019
- تقرير البنك الدولي عن التنمية، 2019
- ريتشارد سينيت - في مواجهة التعصب، التعاون من أجل البقاء. ترجمة حسن بحري. بيروت: دار الساقي، 2016
- أحمد أمين - فجر الإسلام
- فرنسيس فوكوياما – الثقة، الفضائل الاجتماعية ودورها في الرخاء الاقتصادي
- أوليفيا لاينغ – المدينة الوحيدة مغامرات في فن البقاء وحيدا، ترجمة محمد الضبع. الكويت: دار كلمات، 2017
- سوزان كين – الهدوء: قوة الانطوائيين في عالم لا يتوقف عن الكلام، ترجمة عماد إبراهيم عبده. عمان: دار الأهلية للنشر والتوزيع، 2017
- اريك فروم – فن الإصغاء، تأليف: اريك فروم. ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق: دار الحوار، 2013

- اريك فروم – فن الحب. تأليف: اريك فروم. ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد. القاهرة: دار العودة، 1956
- اريك فروم – فن الوجود، تأليف: اريك فروم. ترجمة محمود منقذ الهاشمي، ترجمة ايناس سليمان. دمشق: دار الحوار، 2012
- كاس. ر. سينشتاين - الطريق إلى التطرف. تأليف: كاس. ر. سينشتاين. ترجمة: سميحة نصر دويدار. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2017
- أسامة أبو سريع – الصداقة من منظور علم النفس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
- كاثلين تايلور: القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري، تأليف: كاثلين تايلور، ترجمة فردوس عبد الحميد البهنساوي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014
- فلاديمير هلباتش -حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- فيليس داسيتو – اللقاء المعقد بين الغرب المتعدد والإسلام المتنوع. تأليف: فيليس داسيتوس، ترجمة جان ماجد جبور، أبو ظبي: كلمة.
- هيغل – المدخل إلى علم الجمال. ترجمة جورج طرابيشي
- اريك هوفر – المؤمن الصادق، أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيريةز تأليف: اريك هوفر. ترجمة: غازي القصيبي، أبو ظبي، كلمة، 2010
- برنار شوفييه المتعصبون: جنون الإيمان، تاليف: برنار شوفييه. ترجمة: قاسم المقداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 2017
- أراجون أبادوراي – الخشية من الأعداد الصغيرة. ترجمة مفيدة مناكري لبيض، 2011
- سعود الشرفات – العولمةوالإرهاب. عمان: دار الأهلية للنشر والتوزيع، 2017
- ابن كمونة- تنقيح الابحاث للملل الثلاث
- حسن الهضيبي - دعاة لا قضاة
- كليفورد غيرتز – تاويل الثقافات. ترجمة: محمد بدوي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009
- اليكسي ليوسيف – فلسفة الأسطورة. ترجمة منذر حلوم. دمشق: دار الحوار، 2017
- قثامى الكسداني – الفلاحة النبطية
- كيونغ سوك شين – أرجوك اعتن بأمي (رواية)
- أمارتيا سن – فكرة العدالة، ترجمة سحر توفيق، الدار العربية للعلوم، ومؤسسة محمد بن راشد المكتوم، ترجم (دبي) 2010
- هاروكي موراكامي – كافكا على الشاطئ (رواية)
- ميلان كونديرا – الخلود (رواية)
- جومبا لاهيري – الارض المنخفضة (رواية)
- https://www.mohre.gov.ae
- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان
- https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html